قال عنها النقاد "إنها مائة عام من العزلة الصينية"

الربع الأخير من القمر

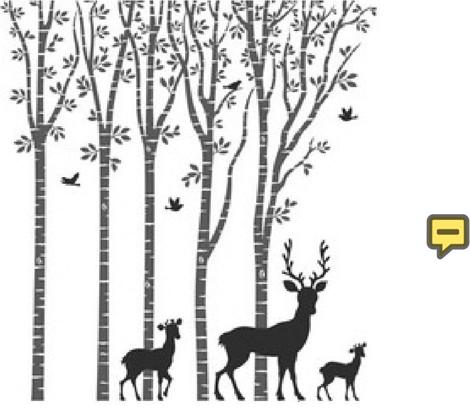
تشيه زيه جيان

ترجمة: د. أحمد ظريف



روايات مترجمة

تليجرام
هنا سور الازبكية
غواص في بحر الكتب
باحثون
محمد خطاب



الربع الأخير من القمر

الربع الأخير من القمر

تأليف: تشيه زيه جيان

ترجمة: د. أحمد ظريف القاضي

تحرير: سيد محمود

مراجعة لغوية: إسلام منتصر

الطبعة الأولى: 2018

رقم الإيداع: 2018/1683

الترقيم الدولي: 9789773193904

الغلاف: خالد شريف



© جميع الحقوق محفوظة للناشر

60 شارع القصر العيني - 11451 - القاهرة

ت 27921943 - 27954529 فاكس 27947566

www.alarabipublishing.com.eg



تشيه زيه جيان

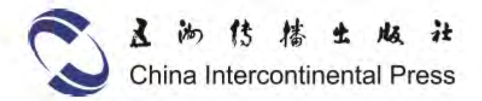
الربع الأخير من القمر

رواية من الصين

ترجمة: د. أحمد ظريف القاضي



This Arabic edition published in 2018
by Wisdom House



The right bank of the Eergu'Na River（阿文）

Copyright © China Intercontinental Press,
Beijing, China, 1/2018
All rights reserved.

Sponsored by B&R Book Program

بطاقة فهرسة

جيان، تشيه زيه

الربع الأخير من القمر / تأليف تشيه زيه جيان، ترجمة دكتور أحمد ظريف القاضي.

- القاهرة: العربي للنشر والتوزيع، 2018، ص؛ سم.

تدمك 9789773193904

1- القصص الصينية

أ- القاضي، أحمد (مترجم)

الفجر



أنا خبيرة بالمطر والثلوج. بلغت من العمر تسعين عامًا، لقد راقبتني الثلوج والأمطار حتى هرمت، وأنا أيضًا راقبتها حتى بلغت من العمر عتيًّا، والآن أصبحت أمطار الصيف أقل مع مرور الوقت، كما أصبحت ثلوج الشتاء أقل أيضًا. إنهما أشبه بتلك الوسادة الراقدة تحتي والمصنوعة من فراء وعل تساقط الشعر منه. تطايرت تلك الشعيرات الناعمة الكثيفة مع الرياح، ولم تتبقَ منها سوى آثار الزمن، فالجلوس على مثل تلك الحشية يجعلني أشبه الصياد الحارس للحقول القلوية، إلا أن ما أنتظره ليس الغزلان ذات القرون الجميلة المنتصبة وإنما الرياح العاتية المحملة بالرمال والأتربة.

ما إن رحل "شيبان" وصديقه، أتت الأمطار. وقبل ذلك كانت الشمس تشرق كل صباح محمرة الوجه وتغرب كل مساء مصفرة الوجه لمدة أكثر من نصف شهر متواصل. أمَّا السماء فلم تكن تضع على ثوبها ولو قطعة واحدة من السحب. لقد التهمت الشمس الحارة مياه النهر حتى تركتها نحيلة، والتوت النباتات على المنحدرات الجبلية المواجهة للشمس بفعل الضوء والحرارة. أنا لا أهاب الجفاف، ولكني أخشى صوت بكاء "مكسيم". إن "ليوشا" تبكي في الأيام التي يكتمل فيها القمر بدرًا، أما

"مكسيم" فما إن يرى الأرض جفت لدرجة ظهور تشققات منحنية بها حتى يغطي وجهه منفجرًا في البكاء كما لو كانت تلك التشققات ثعابين سامة تسعى خلف حياته. أما أنا فلا أخشى تلك التشققات، لأني أراها كأنها صواعق الأرض.

"أنتساور" يكنس أرض المعسكر تحت الأمطار

سألت "أنتساور": هل "بوسو" مكان ينقصه المطر؟ هل يحتاج "شيبان" أن يحمل معه المطر حين يهبط الجبل؟

وقبل أن يرد، فرد "أنتساور" ظهره ومد لسانه ليلعق قطرات المطر، ثم ضحك لي. ما إن ضحك حتى ضحكت معه التجاعيد المحفورة على طرفي عينيه وعلى وجنتيه، ضحك حتى ظهرت تجاعيد زهور الأقحوان على طرفي عينيه، وتجاعيد زهور عباد الشمس على وجنتيه، وتساقطت قطرات المطر فبدت تجاعيده الشبيهة بالزهور كأنها تبللت بقطرات الندى.

في قبيلتنا لم يتبقَ سواي أنا و"أنتساور"، أمَّا الآخرون فقد هبطوا من الجبل في الصباح بسيارات النقل حاملين معهم أمتعتهم وغزلانهم المروضة. كنا في الماضي ننزل من الجبل كثيرًا، فقد كنا نذهب في الماضي البعيد إلى قرية "وتشيلوافو"، أما في الماضي القريب فكنا نذهب إلى "جيليوشيانج"، وذلك من أجل مقايضة قرون الغزلان والجلود بالخمر والملح والصابون والسكر والشاي وغيرها من الأشياء، بعدها نصعد إلى الجبل مرة أخرى. لكن في تلك المرة كان نزولهم من الجبل نهائيًّا بلا عودة، كان اسم المكان الذي يقصدونه هو "بوسو"، ولقد أخبرني "باريجيه" أن "بوسو" مدينة كبيرة قريبة من الجبل. أسفل الجبل بُنيت منازل كثيرة ذات جدران بيضاء وأسقف حمراء، ذلك هو المكان الذي سوف يستقرون فيه. كما يوجد في سفح الجبل صف من حظائر الغزلان مسورة بشبكة من السلك الحديدي، لذا فإن الغزلان المروضة ستتم تربيتها داخل تلك الحظائر من الآن فصاعدًا.

لا أرغب في النوم في مكان لا أرى فيه النجوم، لقد قضيت ليالي عمري كلها في صحبة النجوم، فلو صحوت من نومي في عتمة الليل واصطدم بصري بالسقف الأسود المظلم فسأصاب بالعمى، كما أن غزلاني لم ترتكب أي جريمة لذا لا أرغب في رؤيتها جالسة في "السجن"، ولو لم أسمع صوت أجراس الغزلان الذي يشبه خرير الماء فستصاب أذناي بالصمم، كما أن قدمَي اعتادتا طرق الجبال الوعرة غير الممهدة، فلو سرت كل يوم في طرق المدينة المستوية بالتأكيد ستضعف قدرتيهما ولن تقدرا على حملي بعد الآن لأصير بعدها عاجزة، لقد اعتدت أيضًا على تنفس هواء الجبل النقي، فإذا ذهبت للعيش في "بوسو" لأستنشق "الريح" التي تخرجها السيارات من مؤخراتها هناك فبالتأكيد سأصاب بالربو، لقد وهبتني الآلهة هذا الجسد، وأريد أن أعيده لها في هذا الجبل.

منذ عامين مضيا جمعت "داجيانا" كل مَنْ بالقبيلة للتصويت على قرار النزول من الجبل، وأعطت لكل واحد قطعة مربعة من لحاء شجرة البتولا، وعلى الموافقين أن يضعوها فوق طبلة الآلهة التي تركتها "نيخاو"، وسريعًا ما غطت قطع لحاء الشجر طبلة الآلهة كما لو أن السماء قد أمطرت عليها ثلجًا غزيرًا من ريش الأوز. كنت آخر من قام من المجلس، لكني لم أتوجه ناحية الطبلة كما فعل الآخرون، وإنما سرت نحو موقد النار ورميت قطعة لحاء الشجر التي تخصني به لتتحول سريعًا إلى رماد في قلب النيران الذهبية. وعندما سرت خارجةً من الخيمة سمعت صوت بكاء "داجيانا".

اعتقدت أن "شيبا" سيأكل قطعة لحاء الشجر تلك، فهو من صغره يحب مضغها ولا يفارق الغابات، إلا أنه مثله مثل الآخرين، في النهاية وضعها على طبلة الآلهة، لكني أعتقد أن ما وضعه "شيبا" على طبلة الآلهة هو الحبوب الخاصة به. لقد رحل حاملًا معه القليل من الحبوب، لذا فمسألة موته جوعًا هي مسألة وقت لا أكثر. ومن رأيي أن "شيبا" وافق على النزول من الجبل فقط من أجل المسكين "لاجيمي".

قام "أنتساور" أيضًا بوضع اللحاء الذي يخصه على طبلة الآلهة، إلا أن تصرفه هذا لا يوضح أي شيء، فالكل يعرف أنه لا يدرك ما الذي يطلب الجميع منه فعله، هو فقط يريد التخلص من قطعة اللحاء تلك بأسرع وقت ممكن لكي يخرج ويفعل أشياء أخرى فهو محب للعمل. في ذلك اليوم قرص دبور عين إحدى الغزلان المروضة فتورمت، وكان مشغولًا بوضع علاج صيني على عين الغزال حين نادته "داجيانا" للتصويت، وحين دخل للقرية رأى كلًا من "مكسيم" و"سواتشانجلين" يضعان لحاء الشجر على طبلة الآلهة ففعل مثلهما. وقتها لم تكن في ذهنه سوى عين الغزالة، حتى إنه لم يفعل مثل الآخرين ووضع اللحاء باحترام وتوقير، وإنما رماها في طريقه للخروج من القرية لتبدو مثل طائر حط على أرض مغطاة بالريش.

وعلى الرغم من أن المعسكر لم يتبقَ فيه سواي أنا و"أنتساور" إلا أنني لم أشعر بالوحدة، فيكفيني فقط العيش في الجبل كي لا أشعر بالوحدة حتى لو كنت الشخص الأخير.

عدت إلى خيمتي وجلست على الفرو لأحتسي الشاي وأحرس حفرة النار.

اعتدنا عند الترحال من مكان لآخر أن نحمل معنا جذوات النار، إلا أن "داجيانا" وأصدقاءها نسوا جذوات النار في تلك المرة التي رحلوا فيها عن الجبل. إن الأيام التي بلا نار هي أيام باردة مظلمة، أنا حقًّا حزينة وقلقة لأجلهم، إلا أنهم أخبروني أن هناك نارًا في كل منزل من منازل "بوسو"، فلن يحتاجوا إلى جذوات النار من الآن فصاعدًا، إلا أنني أرى أن نار "بوسو" لم تُقدح عن طريق الاحتكاك بين الصخر وأداة إشعال النار، ولا تحمل في طياتها ضوء الشمس والقمر، كيف يمكن لتلك النار لها أن تضيء القلوب والأعين؟

إن تلك النار التي أحرسها أصبحت عجوزًا مثلي، ومهما هبت رياح هوجاء أو هطلت أمطار غزيرة أو ثلوج كثيفة فأنا هنا أحرسها وأرعاها ولم أتركها تخمد من قبل ولو مرة واحدة، إنها قلبي النابض.

إنني امرأة لا تجيد سرد الحكايات، إلا أنني في تلك اللحظة التـي أسـمع فيهـا صوت قطرات المطر وأرى فيها النيران المتراقصة، تنتابني رغبة عارمـة في الحـديث إلى أحدهم. لقد رحلت "داجيانا" ورحل "شـيبان" ورحـل "مكـسيم" أيـضًا، فلمـن أحكي حكاياتي؟ إن "أنتساور" لا يحب التحدث كثيرًا ولا يحب سماع الحـديث، إذًا فلتسمعني الأمطار والنيران فهما مثل البشر لديهما آذان تصغي.

إنني سيدة من قومية "إيوينكية".

إنني آخر زعيمة قبيلة في تلك القومية.

لقد وُلدت في الشتاء، كانت أمي تـدعى "دامـالا" وأبي يُـدعى "لينكيـه". عنـدما ولدتني أمي اصطاد أبي دبًّا أسود. وقتها بحث أبي عن المكان الذي يختبئ فيه الـدب وقام باستثارته بعصا خشبية حتى غضب الدب الراقد في بياته الشتوي، حينهـا رفـع أبي بندقيته وقتله، كل هذا من أجل الحصول على مرارة الدب. حين تغـضب الدببـة تزداد بشكل كبير عصارة مرارتها فتمتلئ المرارة تمامًا، في ذلك اليوم كان حـظ والـدي جيدًا، فلقد حصل في يوم واحد على غنيمتين، مرارة دب ممتلئة وأنا.

كان الصوت الأول الذي سمعته حين جئت لهذه الدنيا هو صوت الغربان، إلا أن هـذا الـصوت لم يكـن صـوتًا حقيقيًّـا، فنتيجـة لاصـطياد الـدب في هـذا اليـوم اجتمعت القبيلة بالكامل لتناول لحمه سويًّا. نحن نعبد الدب، لذلك فحـين نأكـل لحمه نصدر صوتًا مثل صوت الغراب؛ حتى تعرف روحه أن البشر لم يأكلوا لحمه وإنما الغربان هي من قامت بذلك.

إن كثيرًا من الأطفال الذين يولدون في الشتاء يمرضون ويموتـون بـسبب الـبرد الشديد، كانت لدي أخت أكبر مني تُوفيت بهذا الشكل، كان الثلج يغطي المكـان حين وُلدت وذهب أبي وقتها للبحث عـن غـزلان مروضـة كانـت قـد تاهـت منـا. وكانت الرياح قوية فاقتلعت جزءًا من الكوخ الـذي بنتـه أمـي خصيـصًا للـولادة، وهكذا تعرضت أختي للبرد وماتت بعد يومين فقط من ولادتها.

إذا ماتت غزالة صغيرة فإنها على الأقل تترك آثار أقدامها الجميلة على أرض الغابة، لكن أختي رحلت مثل تلك الريح التي سلبتها الحياة، بكت لوقتٍ قصير ثم اختفت دون صوت. تم لف أختي في كيس قماشي أبيض ثم تُركت في الناحية المشمسة من المنحدر الجبلي. أحزن هذا أمي للغاية، لذا حين ولدتني قامت بلف جلد الحيوانات جيدًا حول كوخ الولادة خوفًا من أن تمد الرياح يدها لتأخذ صغيرها مرة ثانية.

بالطبع كل هذا أخبرتني به أمي حين كبرت. قالت إنه في ليل ذلك اليوم الذي وُلدت فيه، جلس كل أفراد القبيلة على الأرض الثلجية مشعلين النار ليأكلوا لحم الدب وليرقصوا سويًّا، ولقد سقط الكاهن "نيدو" خلال رقصه داخل النار، وطالت ألسنة اللهب حذاءه المصنوع من جلد الغزال ومعطفه المصنوع من الجلد، إلا أنه لم يُصبْ بأي أذى.

إن الكاهن "نيدو" هو الأخ الأكبر لأبي، وهو زعيم قبيلتنا، وأنا أناديه "إيجادواما" أي العم الأكبر. إن ذكرياتي تبدأ من عنده.

وبالإضافة إلى أختي التي رحلت، لديَّ أخت أخرى أكبر مني تدعى "لينا". في خريف ذلك العام مرضت "لينا"، ورقدت داخل الخيمة على الفراش المصنوع من الفراء. أصيبت بالحمى وامتنعت عن الطعام والشراب ودخلت في غيبوبة وظلت تهذي، فقام والدي بنصب خيمة ذات أربعة أعمدة في الزاوية الجنوبية الشرقية لخيمتها وذبح غزالة بيضاء ودعا الكاهن "نيدو" ليرقص من أجلها رقصة الآلهة.

كان "إيجادواما" رجلًا عاديًّا، لكنه كان أيضًا كاهنًا، لذا كان يلبس في العادة ملابس تشبه ملابس النساء، وعندما كان يرقص رقصة الآلهة كان يضع حمالة صدر ليرفع صدره عاليًا، كما كان بدينًا، لذا كان عندما يضع على جسده ملابس وقبعة الآلهة الثقيلة كنت أفكر أنه ربما لن يستطيع أن يدور بجسده.

لكنه على غير توقعاتي كان يتحرك بخفةٍ شديدةٍ حين يقرع طبلة الآلهة. كان يرقص ويغني في الوقت نفسه ليبحث عن "وومـاي" الخاص بـ"لينا"،

والـ"وومای" هو روح الأطفال. لقد بدأ الرقص منذ مغيب الـشمس وظـل يـرقص حتى ظهرت النجوم، بعدها انهار على الأرض فجأة، وفي اللحظة التي هـوى فيهـا، اعتدلت "لينا" من رقادها وجلست، وطلبت من أمي أن تسقيها ماءً، وقالت أيضًا إنها جائعة. أمَّا الكاهن "نيدو"، فبعد أن أفاق، أخبر أمي أن غـزالًا صـغيرًا رمـادي اللون ذهب بدلًا من "لينا" إلى عالم الظلام.

كنا دائمًا ما نربط صغار الغزلان في المعسكر في فترة الخريف، وذلك من أجـل كبح جماح الغزلان المتعطشة لتنـاول عـيش الغـراب وتـرفض العـودة للمعـسكر، فبهذا الشكل ستتذكر الغزلان العودة مرة أخرى. وأثناء خروجي مـن الخيمـة مـع أمي وهي ممسكة بيـدي، شـاهدت الغـزال الـصغير - الـذي كـان يتقـافز ممتلئًـا بالحيوية - راقدًا على الأرض بلا حراك، فعصرت يد أمي وانتابتني قشعريرة بـاردة شديدة، إن أول شيء أستطيع تذكره هو تلك القشعريرة الباردة، وقتها كان عمري أربع أو خمس سنوات.

إن المنازل التي رأيتها منذ صغري هي تلك الخيـام التـي تأخـذ شـكل المظلـة والتي نسميها "أعمدة الملائكة". إنها سهلة البناء، حيث تُقطع عـشرون أو ثلاثـون شجرة صنوبر متساقطة الأوراق وتُنشر بطول القامة ثم يُـزال عنهـا اللحـاء، ويـتم عمل رأس مدبب في أحـد طرفيهـا ثـم توضـع سـويًّا هـي والـرأس المـدبب تجـاه السماء، أمَّا الطرف الآخر فيلاصق الأرض، وتـوزع بـشكل منـتظم لتـشبه عـددًا لا حصر له من الأقدام الراقصة مكونة دائرة كبيرة، ثم تُلَف خارجها الطبقـة العازلـة من الرياح والبرد، وهكذا يتم بناء الخيمة. كنا في البداية نـستخدم لحـاء الأشـجار وجلـود الحيوانـات في صـنع الطبقـة الخارجيـة، بعـدها أصـبح كثـير مـن النـاس يستعمل القماش والموكيت.

أحب العيش في تلك الخيام، فهناك ثقـب صـغير في سـقفها المـدبب أصـبح بشكل طبيعي مدخنـة لتـصريف دخـان حفـرة النـار، ودائمًـا مـا كنـت أراقـب

النجوم خلال الليل من خلال ذلك الثقب. تلك النجوم، على الرغم من قلتها، كانت لامعة براقة بشكل استثنائي وتشبه قنديل زيت زحف على قمة الخيمة.

على الرغم من أن والدي لا يحب الذهاب إلى الكاهن "نيدو"، فإنني أحببت ذلك للغاية، لأن خيمته تلك لا يعيش فيها بشر فحسب، وإنما تعيش فيها الآلهة أيضًا. إن هناك اسمًا موحدًا لآلهتنا هو "مالو"، وقد تم جمعها كلها ووضعها في كيس جلدي دائري الشكل موضوع في الجهة المقابلة لمدخل الخيمة. وقبل خروج الكبار للصيد دائمًا ما يسجدون أمام الآلهة. ولقد أصابني هذا بالفضول الشديد، فكنت أرجو الكاهن نيدو أن يفك ذلك الكيس الجلدي لأرى هيئة الآلهة، وهل هناك لحم على أجسادها؟ وهل تستطيع الكلام؟ وهل تصدر شخيرًا في منتصف الليل مثل البشر؟ وفي كل مرة يسمعني فيها الكاهن "نيدو" أتحدث بهذا الشكل عن الإله "مالو" يمسك عصا قرع الطبول التي يرقص بها رقصة الآلهة، ويطردني من المكان.

الكاهن نيدو وأبي لا يشبهان الإخوة بأي حال من الأحوال، ونادرًا ما يتحدثان سويًّا، ولم يخرجا للصيد سويًّا قط. والدي نحيف جدًّا، أما الكاهن "نيدو" فسمين للغاية. والدي صياد بارع، أما الكاهن فدائمًا ما يعود خالي الوفاض من رحلات الصيد. يحب والدي الكلام، لكن الكاهن كلماته قليلة، حتى عندما يدعو أفراد القبيلة للاجتماع ومناقشة أمر ما. ويقال إنه فقط في ذلك اليوم الذي وُلدت فيه، عبَّر عن فرحة لا تضاهى وشرب كثيرًا من الخمر ورقص حتى سقط داخل حفرة النار، وذلك لأنه رأى حلمًا في الليلة السابقة عن قدوم ظبية صغيرة بيضاء اللون إلى معسكرنا.

يحب أبي المزاح مع أمي، ففي الصيف دائمًا ما يشير لها قائلًا: "دامالا، إن إيلان يعض تنورتك"، و"إيلان" هو اسم كلب الصيد الخاص بأسرتنا. "إيلان" في لغتنا تعني خيوط الضوء، لذلك حين يحل الظلام أحب أن أنادي على اسم "إيلان"، فقد كنت أعتقد أنه عندما يأتي راكضًا نحوي سيجلب الضوء معه، إلا أنه مثلي تمامًا، عبارة عن ظل في الظلام. تعشق أمي ارتداء التنورات، لذلك أظن بأنها كانت

تتطلع لقدوم فصل الصيف ليس لتطلعها لتفتح الزهور بالغابة وإنما لارتداء التنورات، لذا، كانت ما إن تسمع أبي يقول إن "إيلان" يعض تنورتها حتى تقفز في الهواء، حينها كان أبي يضحك بشدة. تحب أمي ارتداء التنورات الرمادية، وتخيط على خصر التنورة شريطًا أخضر عريضًا من الأمام ورفيعًا من الخلف.

إن أمي هي أمهر نساء قبيلتنا؛ فلديها ساعدان ممتلئان وساقان قويتان، ولديها جبهة عريضة تضحك لكل من تراه، وهي رقيقة دافئة. النساء الأخريات يضعن حجابًا أزرق على رؤوسهن طوال اليوم، أما هي فتكشف رأسها وتلف شعرها الأسود الغزير على شكل كعكة تغرز فيها عصا بيضاء كالقمر مصنوعة من عظم الغزال المصقول.

"دامالا، تعالي إلى هنا!" هكذا كان أبي دائمًا ينادي على أمي كما ينادي علينا. عندها تسير أمي متمهلة حتى تصير بجواره، فيشد كمها ضاحكًا ثم يضربها على مؤخرتها ويقول: "حسنًا يمكنكِ الذهاب، لا أريد شيئًا"، فلا ترد عليه أمي وتكتفي بمصمصة شفتيها والذهاب للانشغال بما تفعله.

منذ صغري أنا و"لينا" بدأنا نتعلم الأعمال المنزلية مع أمنا، مثل دبغ الجلود وتدخين اللحم المجفف وصناعة السلال والقوارب من لحاء شجر البتولا، وخياطة الأحذية والقفازات من جلد الغزال وصنع خبز "الجيليبا" وحلب لبن الغزلان وصناعة سروج الخيل، وغيرها. وعندما كان والدي يراني أنا و"لينا" مثل الفراشتين اللتين لا تستطيعان البعد عن الزهرة محلقتين حول والدتنا، كان يقول بصوت تملؤه الغيرة: "يا دامالا، يجب عليكِ أن تمنحيني ووتيه". "ووتيه" تعني ابنًا، أمَّا أنا و"لينا" فمثلنا مثل باقي بنات القبيلة، يُطلق علينا "ووناجي"، وكان أبي يدعو "لينا" بـ"ووناجي الكبرى" لذا أصبح من الطبيعي أن أكون أنا "ووناجي الصغرى".

في عمق الليل دائمًا ما ينساب صوت الرياح خارج الخيمة، ورياح الشتاء تكون دائمًا مختلطة بأصوات عواء وحوش البرية، أمَّا رياح الصيف فتحمل دائمًا أَصوات البوم والضفادع. وداخل الخيمة يوجد أيضًا صوت رياح لكنه محمل

بصوت أنفاس أبي وهمهمات أمي، إن صوت الريح المميـز هـذا مـن صـناعة أمـي "داماللا" وأبي "لينكيه". لم تكن أمـي في الغالـب تنـادي أبي باسـمه، ولكـن في تلـك اللحظات التي يبدآن فيها في إصـدار تلـك الأصـوات الـشبيهة بأصـوات الريـاح في عمق الليل دائمًا ما تنادي بصوت حميمـي مـرتعش "لينكيـه".. "لينكيـه". أمَّـا أبي فصوته يشبه صوت حيوان أسطوري ينازع الموت فيصدر أصـوات لهـاث عميقـة، مما جعلني أعتقد أنهما أصيبا بمرض خطير. ولكن في صباح اليـوم التـالي أجـدهما مشغولين بأعمالهما وهما متوردا الوجه. وهكذا وسط صوت الريح هذا بدأ بطـن أمي يكبر يومًا بعد يوم حتى وُلد أخي "لوني".

بعد أن حظي أبي بـ"ووتيه" أصبح وجهه ينطق بالسعادة والفرح بمجرد رؤيـة وجه "لوني" الضاحك، حتى لو عاد من الصيد خالي الوفاض. "داماللا" كانـت تحـب "لوني" أيضًا، فعندما تعمل كان يمكنها أن تضعه في العربة الهـزازة المـصنوعة مـن لحاء شجر البتولا، لكنها لم تكن تفعل ذلك، كانـت تحملـه عـلى كتفهـا. حينهـا لم يعد بإمكانها ارتداء مشبك الشعر لأن "لوني" كان يمد يده ويمسكه، وما إن يمـسك به حتى يضعه في فمه، ومشبك الشعر ذلـك حـاد للغايـة، لـذلك كانـت "دامـالا" تخاف أن يجرح فمه، لذا أصبحت لا تضعه. لكنني كنت أحب شـكل أمـي وهـي تضعه.

أما أنا و"لينا"، فكنا نحب "لوني" أيضًا، وكنا نتسابق عـلى حملـه، لقـد كـان بـدينًا يشبه دبًّا صغيرًا لطيفًـا، وحـين يـصيح يتطـاير لعابـه ويـدخل إلى رقابنـا، فكـان ذلـك الشعور يدغدغ بشدة أشبه بدخول حـشرة مـشعرة. وفي الـشتاء كنـا نحـب مداعبـة وجهه بذيل فأر رمادي، وكلما لامس الذيل وجهه ضحك بشدة، أمـا في الـصيف فكنـا نحمله على ظهورنا حتى النهر ثم نصطاد الـضفادع الموجـودة بالعـشب جـوار النهـر لنريه إياها. وذات مـرة كانـت أمنـا تطعـم الغـزلان بـالملح فقمـت أنـا ولينـا بإخفـاء "لوني" داخل الدلو الكبير المصنوع من لحاء أشجار البتولا والمخصص لتخزين الحبوب خارج الخيمة، وعندما عادت أمنا واكتشفت غيابه توترت وبـدأت في البحـث في كـل

مكان، لكنها لم تعثر له على أثر، وسألتنا أنا و"لينا" لكننا هززنا رأسينا نفيًا، فبدأت في البكاء، يبدو أن هناك رابطًا ما بين قلبيهما؛ فلقد كان "لوني" يقبع في الدلو هادئًا صامتًا، لكن ما إن بكت أمي حتى بدأ هو أيضًا في البكاء، كان صوت بكائه بالنسبة إليها كصوت الضحك، فاتبعت مصدر الصوت حتى عثرت عليه واحتضنته وعنفتني أنا و"لينا"، كانت تلك هي المرة الأولى التي توبخنا فيها.

كان ظهور "لوني" في حياتنا سببًا في تغيير طريقة ندائي أنا و"لينا" لأمنا؛ فقد كنا في السابق ملتزمتين تمامًا مثل باقي الأطفال، ننادي أمنا "إيني" وننادي أبانا "أما"، لكن نظرًا لحبهما الشديد لـ"لوني"، بدأنا نشعر بالغيرة، لذا بدأنا في الخفاء ننادي أمنا دامالا ونطلق على أبينا "لينكيه". لذلك لا أستطيع حتى الآن تغيير تلك العادة في نداداتهما. فلتسامحني الآلهة.

لكل الرجال البالغين في القبيلة نساؤهم، فـ"لينكيه" لديه "دامالا"، و"خاشيه" لديه "مارية"، و"كويندیه" لديه "إيفولينا"، و"إيوان" لديه "ناديجدا" ذات العيون الزرقاء والشعر الأصفر، أمَّا الكاهن "نيدو" فكان وحيدًا. لقد فكرت أن تلك الآلهة الموجودة في ذلك الكيس الجلدي بالتأكيد أنثى، وإلا فكيف نفسر عزوفه عن النساء؟ لم أكن أرى مانعًا في وجود الكاهن "نيدو" مع تلك الآلهة الأنثى، لكنهما عاجزان عن إنجاب الأطفال وهذا أمر يدعو للشفقة؛ فأي معسكر إذا افتقد إلى الأطفال فمثله مثل الغابات التي تفتقر إلى ماء المطر حيث تبدو بلا روح. فمثلًا "إيوان" و"ناديجدا" دائمًا ما يداعبان ابنهما وبنتهما "جيلانتيه" و"نالا"، ويصدر عنهم صوت ضحكات عالٍ، و"جينديه" ابن "كويندیه" و"إيفولينا" على الرغم من أنه ليس حيويًّا ولا يعج بالنشاط إلا أنه يشبه سحابة تتطاير في الصيف الحار لتجلب الظل لكلٍ من "كويندیه" و"إيفولينا" وتشعرهما بالسلام الروحي. وعلى العكس نجد "خاشيه" و"مارية" دائمًا ما تعلو وجهيهما سحابة قاتمة، وذلك لكونهما لم يُرزقا بأطفال، لذا عندما كان "لورنس" يأتي إلى معسكرنا،

كانت الأشياء التي يجلبها لخيمة "خاشيه" لا تشتمل فقط على الدخان والخمر والسكر والشاي وإنما تشمل أيضًا الدواء.

لكن "مارية" بعدما تناولت أدوية العقم تلك لم يحدث أي تغير في بطنها، فكان "خاشيه" من شدة قلقه أشبه بالغزال الذي أحاط به الصيادون، تعلو وجهه نظرات زائغة ولا يعرف أين المفر، وكانت "مارية" دائمًا ما تغطي وجهها بحجاب وتخفض رأسها وتذهب لخيمة الكاهن "نيدو". لم تكن تذهب لزيارة شخص وإنما لزيارة الآلهة، فقد كانت تأمل أن تهبها الآلهة طفلًا.

إن "إيفولينا" هي عمتي، وهي تحب حكاية القصص، لذا فكل الأساطير المتعلقة بقوميتنا وحكايات الحب واللوم بين أبي والكاهن "نيدو" كلها أخبرتني بها عمتي. بالطبع كانت الأساطير المتعلقة بقوميتنا قد سمعناها في طفولتنا، أمَّا الحكايات المتعلقة بالحب والكراهية والمشاعر بين الكبار فقد أخبرتني بها بعد وفاة أبي وبعد أن أصبح الكاهن "نيدو" وأمي عاجزين عن الكلام بسبب المرض، وقتها كنت قد أصبحت أمًّا لـ"ويكيت".

لقد رأيت الكثير والكثير من الأنهار خلال حياتي، منها الضيق الطويل ومنها الواسع ومنها المتعرج ومنها المستقيم ومنها سريع التيار ومنها الهادئ. أما أسماؤها فتقريبًا كلها قد سميناها بأنفسنا مثل نهر "أربوار"، ونهر "أولوجويا"، ونهر "بيستشويا"، ونهر "بايرتسيه"، ونهر "إيمين"، ونهر "تاليا" وغيرها. وهذه الأنهار كلها فروع من نهر "أرجون" أو فروع من الفروع.

إن أولى ذكرياتي مع نهر "أرجون" لها علاقة بالشتاء.

ففي ذلك العام غطت الثلوج الكثيفة كل معسكرات الشمال، ولم تجد الغزلان المروضة ما تأكله، فلم يعد أمامنا مفر سوى الهجرة جنوبًا. وفي الطريق بدأ "داشي" ذو القدم العرجاء والذي كان يمتطي ظهر غزال مروض في سب الشبان الأصحاء

بأنهم عديمو الجدوى؛ وذلك بسبب عجزهم عن الصيد لمدة يومين متتاليين، قـائلًا إنه سقط في عالم مظلم سيموت فيه جوعًـا، عنـدها اضـطررنا للاقـتراب مـن نهـر "أرجون" ونشر فتحة في سطح الجليد باستخدام المناشير لصيد السمك.

نهر "أرجون" واسع وعريض، لذا فسطحه المتجمد بدا أشـبه بـساحة جليديـة صنعها شخص ما.

قام "خاشيه" البارع في صيد الأسماك بنشر ثـلاث فتحـات في الجليـد وأمـسك شوكة الصيد وجلس جانبهـا. اعتقـدت الأسـماك الـضخمة - التـي ظلـت تتجنـب الطبقة الجليدية لفترة طويلة - أن الربيع قد عاد مرة أخرى، لذا تدافعت سـابحة نحو تلك الفتحات في الجليد التي يمـر مـن خلالهـا الـضوء، ومـا إن رأى "خاشـيه" دوامات ماء تتشكل في فتحات الجليد حتى ألقى بشوكة الصيد، وسريعًا ما التقط سمكة تلو الأخرى، منها أسماك الكلـب ذات النقـاط الـسوداء وأسـماك "سـتينغ" ذات الخطوط الرفيعة. وفي كل مرة يُخـرج فيهـا "خاشـيه" سـمكة كنـت أتـراقص فرحًا، أما "لينا" فكانت لا تجرؤ على النظر إلى فتحات الجليد، وكـذلك "جيلانتيـه" و"جينديه" لم يجرآ عـلى النظـر، فتلـك الفتحـات في الجليـد والتـي تتـصاعد منهـا الفقاعات كانت في أعينهم أشبه بالفخ، لذلك ابتعدوا عنها. كنت أحب "نالا"، على الرغم من أنها أصغر مني بعدة سنوات إلا أنها شـجاعة مـثلي، لـذا فقـد انحنـت بجسدها ومدت رأسها تجاه الفتحة الجليدية، فطلب منها "خاشيه" الابتعاد قليلًا قائلًا إنه لربما يختل توازنها وتسقط في الحفـرة، حينهـا ستـصبح طعامًـا للأسـماك. فقامت "نالا" بخلع قبعتها المصنوعة من جلـد الغـزال وطوحـت رأسـها وخبطـت بقدميها الأرض وهي تقول بلهجة حادة: "هيا ارمني فيها لأسـبح كـل يـوم هنـاك فإذا احتجتم أسماكًا فقط انقروا على سطح الجليد ونادوا "نـالا"، وقتهـا سـأخترق طبقة الجليد، وأقدم لكم الأسماك، فإذا لم أفعل ذلك فاتركوني للأسماك تأكلني".

كلامها هذا لم يفزع "خاشيه"، ولكنه أفزع أمهـا "ناديجـدا" فركـضت نحـو "نالا" وهي ترسم الصليب على صدرها بلا توقف. إن "ناديجدا" روسية، وهـي

لم تنجب مع "إيوان" أطفالًا صفر الشعر زرق العيون فحسب، وإنما جلبت معها أيضًا الديانة الكاثوليكية. لذا فـ"ناديجدا" تعبد معنا الإله "مالو"، وفي الوقت نفسه، تصلي للسيدة العذراء، وبسبب ذلك كانت العمة "إيفولينا" تحتقرها، أما أنا فلم أكن أبالي بكونها تعتنق عدة ديانات، ففي ذلك الوقت كانت الآلهة من وجهة نظري شيئًا غير مرئي، لكنني لم أكن أحب قيامها برسم الصليب على صدرها، كنت أرى تلك الحركة أشبه برسم خنجر حاد يقتلع قلبها.

عندما يحل الغسق نشعل نارًا على ضفة النهر ونأكل السمك المشوي. وكنا نطعم كلاب الصيد أسماكًا تدعى "سمك الكلب"، ونقطِّع أسماك "ستينج" الضخمة إلى قطع نرش عليها الملح ونلفها بلحاء شجر البتولا ثم نضعها في قلب النار مع التقليب، وسريعًا ما تتصاعد رائحة السمك المشوي الزكية، فيأكل الكبار السمك مع الخمر، أما أنا و"نالا" فنتسابق على ضفة النهر. كنا أشبه بأرنبين يتركان آثار أقدام متلاصقة على الأرض الثلجية، وما زلت أذكر حين ركضت مع "نالا" إلى الضفة المقابلة للنهر، نادت علينا "إيفولينا" لنعود وقالت لي إنه لا يمكن الذهاب للضفة الأخرى؛ فهي ليست أرضًا تابعة لنا، ثم أشارت لـ"نالا" قائلة إنها يمكنها الذهاب فهناك موطن رأسها وسيأتي يوم قريب أو بعيد ستأخذ فيه "ناديجدا" كلًّا من "جيلانتيه" و"نالا" ليعودوا إلى الضفة اليسرى من النهر.

من وجهة نظري، يجب أن يظل النهر نهرًا؛ فلا يُقسم إلى ضفة يمنى وضفة يسرى، فانظر مثلًا إلى النيران المشتعلة على جانب النهر، على الرغم من أنها تشتعل على الضفة اليمنى إلا أنها تنعكس على ثلوج الضفة اليسرى لتصبغها باللون الأحمر. لذا لم أهتم أنا أو "نالا" بكلام "إيفولينا" وظللنا نركض بين الضفتين، بل تعمدت "نالا" التبول على الضفة اليسرى ثم عادت للضفة اليمنى وصاحت في "إيفولينا" بصوتٍ عالٍ، لقد تركت بولي في موطن رأسي.

رمقتها "إيفولينا" بنظرة غريبة تشبه نظرتها إلى الغزلان المروضة إذا ما أنجبت صغيرًا مشوهًا.

في تلك الليلة أخبرتني العمة "إيفولينا" أن الضفة اليسرى للنهر كانت أرضًا تابعة لنا وهي موطن رأسنا. لقد كنا أصحاب تلك الأرض.

لكن، قبل ثلاثمائة عام احتل الجيش الروسي أرض أجدادنا وأشعل شرارة الحرب ونهب الغزلان والجلود الخاصة بالأجداد القدماء، وبقر بطون من قاومه من الرجال ودفن النساء اللاتي رفضن الاغتصاب وهن على قيد الحياة، حتى تحولت الجبال والغابات الهادئة إلى كتلة من النار والدخان، وقلَّت أعداد فرائس الصيد سنة تلو الأخرى، فاضطر أجدادنا إلى الهجرة من نهر "لينا" بمنطقة "ياكوتة" وعبور نهر "أرجون" وبدء حياة جديدة في غابات الضفة اليمنى للنهر، لذلك هناك من يطلق علينا اسم "الياكوتيين". لقد كنا نتشكل من اثنتي عشرة قبيلة في الزمن الذي عشنا فيه عند نهر "لينا"، ولكن في زمن الضفة اليمنى لنهر "أرجون" لم يتبقَ إلا ست قبائل فحسب، أمَّا القبائل الأخرى فقد تلاشت في بحر الزمن. ولذلك لا أحب أن أذكر ألقابنا الآن، حتى حكاياتي لا أذكر فيها إلا أسماء بسيطة.

إن نهر "لينا" هو نهر أزرق اللون، وقد قيل في الحكايات إنه متسع لدرجة أن طيور نقار الخشب لا يمكنها الطيران عبره، وفي أعالي ذلك النهر توجد بحيرة "لامو" وهي نفسها بحيرة "باجير"، وهناك ثمانية أنهار كبيرة تصب فيها حيث المياه الزرقاء، وينبت فيها كثير من النباتات المائية ذات اللون الأخضر الزاهي. الشمس قريبة جدًا من مياه البحيرة لذا يطفو على سطحها طوال العام ضوء الشمس واللوتس الأبيض والوردي، أمَّا حولها، فتنتصب جبال عالية عاش فيها أجدادنا.

سألتُ "إيفولينا" هل هناك شتاء في بحيرة "لامو"؟ فقالت إن موطن الأجداد ليس به شتاء، لكنني لم أصدق أن هناك عالمًا يتمتع بالربيع الدائم والدفء المستمر، فمنذُ وُلدت وأنا أمر كل عام بشتاء طويل وبرد قارس، لذلك بعد أن قصت عليَّ "إيفولينا" أساطير بحيرة "لامو"، ذهبت إلى الكاهن "نيدو" لسؤاله عن حقيقة الأمر، لكنه لم يؤكد لي تلك الحكايات وإنما أكد فقط أننا في الماضي كنا بالفعل

نستطيع الصيد في الضفة اليسرى لنهر "أرجون"، وقال أيـضًا إن قبائـل الــ"شـيلو" التي كانت تعيش في منطقة "نييوتشو" كانت تقدم جلود الغزلان جزيـة لقبيلتنـا، وإن جنود الجيش الروسي ذوي العيون الزرقاء والأنوف الكبـيرة هـم مـن أجبرونـا على القدوم إلى الضفة اليمنى لنهر "أرجون". لم أكن أعلم أين يقـع نهـر "لينـا" أو "نيبوتـشو"، لكننـي كنـت أعـرف أن تلـك الأراضي المفقـودة تقـع كلهـا في الـضفة اليسرى لنهر "أرجون" في مكان لا نستطيع العودة إليه مرة أخرى، ولقد كان هـذا هو السبب الذي ملأني بالعداء في طفولتي تجـاه "ناديجـدا" ذات العيـون الزرقـاء والأنف الضخم؛ فقد كنت أراها دائمًـا كـأنثى الـذئب المندسـة وسـط قطيـع مـن الغزلان.

"إيوان" هو ابن "إيجدويايه"، أي أنه ابن أخي جدي، وهو قصير القامة أسـود الوجه ولديه شامة حمراء على جبهته تشبه حبـة فاصـوليا حمـراء، والمعـروف أن الدببة تحب تناول الفاصوليا الحمـراء، لـذا عنـد الـذهاب للـصيد كـان أبي إذا مـا اكتشف آثار دب يطلب منه أن يأخذ حذره خشية أن يهاجمه هذا الدب. لم يكن كلام والدي خاليًا من المنطق؛ فالدببة تستثار لرؤية "إيـوان" أكـثر مـن أي شـخص آخر، بل إن "إيوان" أفلت بحياته من بين مخالب الـدب مـرتين مـن قبـل. يتمتـع "إيوان" بأسنان صلبة حادة، حتى إنه يحب أكل اللحم النيئ، لذا عندما نفشل في اصطياد بعض الفرائس يظل "إيوان" هو الأكثر حزنًـا وتـأثرًا؛ فهـو لا يحـب تنـاول اللحم المجفف، كما أنه لا يحب السمك ويرى أنه طعـام الأطفـال والعجـائز ذوي الأسنان الضعيفة.

كما يتمتع "إيوان" بيدين كبيرتين بشكل عجيـب، فـإذا وضـعهما عـلى ركبتيـه كانتا كأنهما تغطتا بجذعَي شجرة طويلين وسميكين، وليديه قـوة ضـخمة لدرجـة أنه يمكن سحق الحـصى بهـما، ويمكنـه كـسر خـشب الـصنوبر المـستخدم في بنـاء الخيام بضربة واحدة، موفرًا بذلك استخدام المنجل للقطع. ولقد قالت "إيفولينـا" إن "إيوان" قد نجح في اجتذاب "ناديجدا" لتصبح امرأته اعتمادًا عـلى تلـك القـوة غير الطبيعية في يديه.

قبل أكثر مـن مائـة عـام اكتُـشفت منـاجم للـذهب في أعـالي نهـر "أرجـون"، وعندما علم الروس بوجود الذهب في الضفة اليمنى للنهر اعتادوا عبـور الحـدود لسرقته، وقتها كـان الإمبراطـور الحـاكم هـو "جوانجـشو"، فكيـف لـه أن يكتفـي بمراقبة تسرب ذهب أسرة "تـشينج" الحاكمـة لأيـادي ذوي العيـون الزرقـاء؟ لـذا طلب من "لي خونج تـشانج" أن يفكـر في طريقـة لـكي لا يفقـدون الـذهب، لـذا خطرت لـ"لي خونج تشانج" فكرة فتح مناجم للذهب في "مواخيه".

يتساقط الجليد في مواخيه لأكثر من ستة شـهور خـلال العـام، وهـي منطقـة قاحلة ليس فيها بشر، لذا من المستحيل أن يأتي وزراء مهمون من الأسرة الحاكمـة لهـذا المكـان. وفي النهايـة اختـار "لي خـونج تـشانج" حـاكم مقاطعـة "جيليـنج" الاحتياطي "لي جين يونج" - الذي كان قد تم تخفيض رتبتـه بـسبب معارضـته لأم الإمبراطور - وذلك لكي يذهب إلى هناك ويفتتح منـاجم الـذهب. ومـا إن حـدث هذا، حتى ازدهرت المحال التجارية، ومثلما تأتي الثمار بعد تفـتح الأزهـار، بـدأت بيوت المتعة في الظهور سريعًا، فقد كان عمال المناجم - المحاصرون طوال العام لا يرون خلاله نساء - تلمع أعينهم لرؤية السيدات أكثر من لمعانها لرؤيـة الـذهب، ومن أجل تلك اللحظات مـن المتعـة والـدفء نقلـوا الـذهب لأجـساد الـسيدات، فازدهرت تجارة بيوت المتعة مثل أمطار الصيف. هؤلاء التجار الـذين كنـا نطلـق عليهم "أندا" وجدوا طريق الـثروة في تلـك البيـوت، ومـن ثَـمَّ قـام بعـض التجـار الروس بجلب النساء من الداخل الروسي وبيع الشابات منهن لبيوت المتعة.

قالت "إيفولينا" إنهم كانوا يصطادون في منطقة نهر "كيبوا" في ذلك العـام، وعندما اصطبغت الغابات بغطاء أحمر وغطاء أصـفر بـسبب قـدوم الخريـف، كان هناك "أندا" روسي يعبر نهر "أرجون" جالبًا معه ثلاث فتيات راكبين الخيول مخترقين الغابـات الكثيفـة في اتجـاه "مواخيـه"، ولقـد صـادفهم "إيـوان" أثنـاء الصيد، وكانوا قد اصطادوا دجاجة جبلية وأوقـدوا نـارًا وبـدؤوا يـأكلون اللحـم ويشربون الخمر. كان "إيوان" قد رأى من قبل ذلك الـ"أندا" الـروسي ذا الـذقن

الكبيرة، وكان يعرف أن كل ما يجلبه الـ"أندا" معه هو بالتأكيد سلع تجارية، بدا من الواضح أن مناجم الذهب لا تحتاج إلى الأدوات والطعام فحسب، بل تحتاج أيضًا إلى النساء. ونظرًا لكثرة التعاملات مع التجار الروس، كان منا كثيرون ممن يتحدثون اللغة الروسية بشكل بسيط، كما أن التجار الروس كانوا يجيدون لغة الـ"إيوينكية". ومن بين الفتيات الثلاث كانت اثنتان فاتنتان، ذواتا أعين كبيرة وأنفين عاليين وخصرين نحيلين، وعندما شربتا الخمر بدأتا في إصدار ضحكات رقيعة، كانتا تشبهان العاملات الخبيرات في مجال المتعة، أمَّا الفتاة الأخرى فكانت تختلف عنهما، كانت تشرب الخمر في هدوء وبصرها مثبت على تنورتها ذات الخطوط الرمادية. فكر "إيوان" أن تلك الفتاة بالتأكيد قد تم إجبارها على العمل كعاهرة، وإلا فلن تكون مهمومة بهذا الشكل. وبمجرد أن فكر أنها ستكون فريسة لكثير من الرجال شعر بغصة في قلبه اصطكت لها أسنانه، وكانت تلك هي المرة الأولى التي يشعر فيها بتلك الغصة من أجل فتاة ما.

وعندما عاد إلى القبيلة، قام بحزم رقعتي جلد كلب بحر، ورقعة جلد قط بري، وبضعة جلود سناجب وحملها معه وامتطى غزالة وانطلق في أثر الـ"أندا" والفتيات الثلاث، وما إن رأى الـ"أندا" حتى أنزل الجلود وأشار إلى تلك الفتاة ذات العيون الصغيرة قائلًا له إن تلك الفتاة تخصني أنا "إيوان". لكن الـ"أندا" رأى أن الجلود قليلة ولا يمكنه إبرام صفقة خاسرة، فسار "إيوان" حتى وقف أمامه ومد يده الضخمة وانتزع إبريق الخمر من صدره، كان إبريقًا حديديًّا وضعه في كفه ثم ضمه بقوة فانبعج، وضغط بقوة أكبر فانكسر، ومع تطاير رذاذ الخمر تحول الإبريق إلى كرة حديدية، فأصاب الـ"أندا" الرعب حتى لانت سيقانه وعلى الفور سمح لـ"إيوان" باصطحاب الفتاة ذات العيون الصغيرة.. "ناديجدا".

ولقد أخبرتني "إيفولينا" أن "إيجيدويايه" قد غضب كثيرًا من "إيوان"، لأنه كان قد جهز له عروسًا منذ وقت بعيد، وكان يخطط أن يزوجه إياها في شتاء ذلك العام، ولم يخطر ببال أحد أن "إيوان" سيأتي بامرأة أخرى بنفسه في الخريف.

كان حدس "إيوان" صحيحًا، فلقد كانت "ناديجدا" بالفعل قد تم بيعها من قِبل زوجة أبيها الشريرة لذلك الـ"أندا" لكي تعمل عاهرة، ولقد حاولت الهرب مرتين في الطريق، لكن بعد أن اكتشف الـ"أندا" محاولتها قام أولًا باغتصابها حتى يقتل في نفسها فكرة الهرب ويجعلها تتقبل فكرة العمل عاهرة، لذلك حين أخذها "إيوان" وعاد بها ظلت تشعر بالخجل تجاهه على الرغم من أنها سارت معه بإرادتها، فلم تخبره بأمر اغتصاب الـ"أندا" لها ولكنها أخبرت "إيفولينا"، وكان إخبار "إيفولينا" بأي أمر يشبه الحديث إلى طائر ثرثار، لذلك لم يتبقَ أحد في القبيلة إلا وعرف بالأمر. امتعض أخو جدي في البداية من نسل "ناديجدا"، وبعد أن عرف أنها ليست امرأة طاهرة أمر "إيوان" بأن ينفيها إلى الغابات بالجبال، لكن "إيوان" لم يفعل ذلك وإنما تزوجها، وفي ربيع العام التالي أنجب منها "جيلانتيه". شك الجميع أن نسب هذا الطفل، وبمجرد أن وُلد "جيلانتيه" ذو العيون الزرقاء حتى بدأ "إيجيدويايه" في السعال المصحوب بالدم بلا توقف حتى تُوفي بعد ثلاثة أيام. ويقال إن اليوم الذي تُوفي فيه، اصطبغ الأفق باللون الأحمر. يبدو أنه قد أخذ معه الدماء القانية التي كان يسعلها.

لم يكن لدى "ناديجدا" أي خبرة بحياة الغابات والجبال، ويقال إنها عندما جاءت لم تكن تستطيع النوم في القبيلة، لذا كانت تهيم في الغابات، كما لم تكن تجيد دبغ الجلود أو تجفيف اللحوم أو فرك أحبال المطاط، بل حتى السلال المصنوعة من اللحاء لم تكن تجيد صنعها. وعندما شعر "إيوان" أن أمي لا تكنُّ لها العداء مثل "إيفولينا"، طلب منها أن تعلمها تلك الأشياء، لذلك فإن "دامالا" هي الأقرب لـ"ناديجدا" من بين كل نساء القبيلة. تلك السيدة التي تهوى رسم الصليب على صدرها ذكية للغاية، فخلال سنوات قليلة تعلمت كل الأعمال التي نجيدها نحن نساء

القبيلة. وكانت تعامل "إيوان" بحفاوة بالغة، فعندما يخرج للصيد كانت تنتظره في المعسكر وما إن تراه قادمًا حتى تهرول لتحتضنه كأنها لم تره لشهور، وهي أطول منه بكثير لذا فعندما تحتضنه تشبه شجرة كبيرة تلتف حول شجرة صغيرة، أو دبة تحتضن ابنها الدب الصغير، فكان شكلهما مضحكًا للغاية، ولكن كانت "إيفولينا" تحتقر تصرفات "ناديجدا" تلك قائلة إن تلك تصرفات العاهرات.

"ناديجدا" هي أكثرنا كرهًا لرؤية نهر "أرجون"، ففي كل مرة نصل إلى هناك كانت "إيفولينا" تسخر منها بكلمات قاسية باردة، كارهة لعدم قدرتها على تحويل "ناديجدا" إلى رياح لتعود إلى الضفة اليسرى. أما هي فكانت تنظر للنهر كأنها تنظر إلى وطن بعيد المنال، فتعلو الكآبة وجهها مخافة أن يسلبها ما تملك مرة أخرى. لكننا لم يكن بوسعنا الافتراق عن هذا النهر؛ فقد كان هو محور حياتنا لأننا كنا نعيش على ضفاف روافده المتعددة، فإذا اعتبرناه مثل باطن اليد فإن فروعه مثل الأصابع الخمسة تمتد إلى اتجاهات مختلفة أشبه بخطوط البرق التي تضيء حياتنا.

لقد ذكرت من قبل أن ذكرياتي بدأت من تلك المرة التي كان الكاهن "نيدو" يرقص فيها رقصة الآلهة لجلب "الووماي" من أجل "لينا"، لقد ذهب غزال صغير بدلًا منها إلى عالم الظلام، لذلك فقد كانت بداية ذكرياتي مع الغزلان المروضة ذلك الغزال الصغير الذي مات، ولا أزال أذكر حين كنت أمسك بيد أمي ناظرةً إلى جسده الهامد بلا حراك تحت ضوء النجوم والخوف والحزن يملآن قلبي، وقامت أمي بحمله بعد أن انقطعت أنفاسه وألقته على الجانب المواجه للشمس من المنحدر الجبلي، فمن عادة قوميتنا أن يُلف الأطفال الذين يتوفون في كيس مصنوع من قماش أبيض ثم يُلقون على المنحدر الجبلي المواجه للشمس، فالعشب هناك ينبت مبكرًا في الربيع، كما أن الزهور البرية تتفتح هناك باكرًا. لقد اعتبرت أمي هذا الغزال الصغير بمثابة ابنها، كما أذكر أن قطعان الغزلان عندما عادت للمعسكر في اليوم التالي ولم تجد تلك الغزالة الأم الرمادية ابنها ظلت خافضة لرأسها ناظرة إلى جذع الشجرة الذي كان ابنها مربوطا إليه وقد امتلأت عيناها بالأسى، ومن وقتها جف ضرعها بعد

أن كانت الأغزر إنتاجًا للبن، وظلت هكذا حتى لحقت "لينا" بالغزال الصغير إلى عالم الظلام، حينها فقط عاد لبنها للتدفق بغزارة كمياه الينبوع.

يقال إنه في العصر الذي كنا نعيش فيه عند نهر "لينا" بدأ أجدادنا تربية الغزلان المروضة، وكانت الغابات هناك كثيفة تنتشر فيها الطحالب ومادة "اللوتمس" اللتان نطلق عليهما "إينكه" و"لاواكيتا"، مما قدم غذاءً غنيًّا للغزلان. وقتها كان يطلَق على الغزلان "سوكيتشاو"، أما الآن فنسميها "أورونج". تلك الغزلان لديها رؤوس تشبه رؤوس الخيل، وقرون كقرون الغزلان، وأجساد تشبه البغال، وحوافر كحوافر البقر، فكانت تبدو كالخيول ولكنها ليست خيولًا، وتشبه الغزلان ولكنها ليست بغزلان، وتشبه البغال ولكنها ليست بغالًا، وتشبه الأبقار لكنها ليست أبقارًا، لذا كان أبناء الهان يطلقون عليها "التي لا تشبه أيًّا من الأربعة". وأرى أنها تحمل هيبة رؤوس الخيل وجمال قرون الغزلان وصحة جسد البغال وقوة حوافر البقر. ولقد كان لون الغزلان الأساسي في الماضي رماديًّا وبنيًّا، أما الآن فقد أصبحت ذات ألوان متعددة، رمادي وبني، رمادي وأسود، وأبيض، وملون وغيرها من الألوان. أما أنا فأكثر لون أحبه هو اللون الأبيض، فالغزلان البيضاء في نظري هي سحب تتطاير على الأرض.

لم أرَ من قبل أي حيوان يشبه الغزلان المروضة في طاعتها وقوة تحملها، فعلى الرغم من ضخامة أجسادها إلا أنها رشيقة، لذا فاجتياز الغابات والمستنقعات وعلى ظهورها أحمال ثقيلة هو أمر سهل عليها، كما أن كل جزء من جسدها يعد ثروة، ففراؤها وجلودها تقي من البرد القارس، أمَّا قرونها وعضلاتها ودماؤها وأرحامها كلها من الأدوية الشهيرة غالية الثمن التي يمكن أن نبادلها بكافة الأشياء المستخدمة في حياتنا اليومية، أما لبن الغزال فهو الغذاء الأكثر حلاوة الذي يدخل إلى أجسادنا في الفجر، وخلال الصيد تُعد خير مساعد للصياد؛ حيث لا تحتاج إلا لوضع الطرائد التي اصطدتها على ظهورها حتى توصلها بأمان إلى المعسكر وحدها، أما أثناء الارتحال فهي لا تحمل طعامنا وأدواتنا فحسب، وإنما

يمكن للأطفال والنساء والعجائز أن يمتطوها، كما أنها لا تحتاج لرعاية كبيرة من البشر، فهي في العادة تبحث عن طعامها بنفسها، فالغابة تعد بمثابة مخزن الطعام الخاص بها؛ فتقتات على الطحالب ومادة "اللوتمس"، بالإضافة إلى ذلك تقتات في فصل الربيع على العشب الأخضر، وفي فصل الصيف تأكل أوراق أشجار الصفصاف وأشجار البتولا، أما بحلول الخريف فإن فطر عيش الغراب الذي ينمو بالغابات هو وجبتها المفضلة، وهي تحافظ على الطبيعة أثناء تناولها الطعام، فحين تسير على العشب تمضغ العشب برفق، لذلك فإن تلك الأراضي العشبية دائمًا تبدو بلا أي أضرار بها، وتظل خضراء حين ينبغي لها أن تكون كذلك، وأيضًا حين تأكل لحاء الأشجار وأوراقها فإنها تمضغ عدة قضمات منها ثم ترحل، لذا تجد تلك الأشجار يانعة مزهرة دائمًا. وفي الصيف تشرب مياه النهر، أمَّا في الشتاء فتأكل الثلج. ولا تحتاج إلا لتعليق جرس في رقابها، فلا نقلق عليها أينما سارت، فالذئاب تخاف من صوت الجرس، والرياح التي تحمل أصوات الأجراس تخبرنا بمكانها.

لا شك أن الغزلان المروضة هي هبة الآلهة لنا، فدونها ما كنا نحن، فعلى الرغم من أنها أخذت مني أحد أقربائي إلا أني ما زلت أحبها، وعدم رؤية عينيها يشبه عدم رؤية الشمس في النهار أو النجوم في الليل، ما يجعل المرء يطلق تنهيدة من أعمق أعماق القلب.

أكثر مشهد لا أرغب برؤيته هو مشهد نشر قرون الغزلان، ويستخدم لذلك منشار العظام. تنبت هذه القرون الغزلان كل عام في الفترة من شهر مايو وحتى شهر يوليو، لذا فتلك الأيام أصبحت مخصصة لنشرها. إن هذا العمل لا يشبه الصيد الذي لا يقوم به سوى الرجال، فالنساء أيضًا يقمن بالنشر.

لا يوجد فرق بين الغزال الذكر والأنثى، فكلاهما تنبت له قرون، وفي العادة تكون قرون الذكر غليظة قوية، أما قرون الإناث فرقيقة ضعيفة.

وعنـد نـشرها، تُـربَط أولًا إلى شـجرة، وتُثبَّـت مـن الجـانبين بعمـود خـشبي، والقرون تلك هي جزء من عظامها ولحمها لذا عند نشرها ترفس بأقدامها الأربـع ألمًا في كل اتجاه، وتتخضب مناشير العظام بالدم الطازج، وبعد نشر القرون يجـب كيُّ منبتها لمنع نزيف الدماء، لكن تلك طريقة قديمة من الماضي، أما الآن فيتم رش بودرة بيضاء مضادة للالتهابات.

ما إن يحل موسم نشر القرون حتى تبـدأ "ماريـة" في البكـاء، فهـي لا يمكنهـا النظر إلى المناشير المخضبة بالدماء كما لو أن تلك الدماء تتفجر من جسدها هـي، لذا في كل مرة يحدث ذلك، تقول لها أمي: "مارية لا تذهبي إلى هنـاك"، لكنهـا لا تستمع أبدًا للنصح، بل كانت تصر على الذهاب. كانت في العادة لا تذرف الـدمع بسهولة، لكنها ما إن ترى الدماء حتى تتطاير دموعها كالنحل، وكانت أمـي تقـول إن "مارية" تبكي عند رؤية الدم لأنها غير قادرة على الإنجاب، ففي كل شهر حـين ترى الدماء تسيل من أسفل جسدها تعرف أن جهودها مع "خاشيه" قـد ذهبـت أدراج الرياح، لذا تبدأ في البكاء بيأس.

أمَّا من كان يتطلع إلى الأطفـال أكـثر مـن "ماريـة" و"خاشـيه" نفـسيهما فهـو "داشي" والد "خاشيه". كان "خاشيه" قد فقد قدمـه في صراع مـع الـذئاب، لـذا في كل ليلة نسمع فيها عواء الذئاب كان يجز على أسـنانه حتـى يـصدر عنهـا صـوت عالٍ. كان نحيفًا وتعجز عيناه عن النظـر للـضوء أو النظـر للثلـوج وإلا فسيـسيل الدمع منهما، لذا فهو في العادة يجلس في الخيمة، وعند الارتحال كان يضع غطـاءً للعين أثناء امتطائه للغزال حتى لو كان الجـو غائمًـا، لـذا كنـت أفكـر أنـه ربمـا لا يخشى رؤية الضوء فحسب، وإنما يخشى أيضًا رؤية الأشجار وجداول الماء والأزهار والطيور. وكان وجهه هو الأكثر قتامة بين رجال القبيلة كلهـا، كـما كانـت ملابـسه الأكثر قذارة، ولقد قال "لينكيه" إن "داشي" بعد أن فقد قدمه لم يعد يحلق رأسـه أو ذقنه، فتشابكت شعيرات رأسه الخفيفة غير المـصففة والتـي تخللـــها البيـاض مع شعر ذقنه غير المصفف والذي يتخللـه البياض أيضًا، حتى أصبح وجهه كأنـه

محاط بطبقة ملابس رمادية بيضاء، لدرجة أن من يراه يشك أنه شجرة متعفنة. ولقد كان صموتًا، لكنه ما إن يبدأ في الكلام حتى يتحدث بما له علاقة ببطن "مارية"، فيقول: أين "أوموليه"؟ ومتى سيمكنه استعادة قدم "يابيه"؟ إن "أوموليه" في لغتنا معناها الحفيد، أما "يابيه" فتعني الجد، ولقد كان يؤمن أنه ما إن يُرزق بـ"أوموليه" فسيقوم ذلك الحفيد بقتل الذئب الذي أصاب قدمه وسيستعيد القدم الخاصة بـ"يابيه"، وقتها سيتمكن من الجري كالرياح. وعندما يقول هذا الكلام يركز بصره على "مارية"، حينها تغطي "مارية" بطنها وتخرج من الخيمة وتستند إلى شجرة وتبدأ بالبكاء، لذا كنا حينما نرى "مارية" مستندة إلى شجرة وتبكي كنا نعرف ما الذي قاله!

لكن مصير "داشي" تغير فيما بعد وذلك بسبب صقر. كان "داشي" يعيش وحيدًا في خيمته بلا رفيق، لكن مقدم هذا الصقر جعله يخرج عن صمته وكآبته ليصير مفعمًا بالحيوية، لقد قام بتدريب ذلك الصقر ليصبح صقر صيد شرسًا وأعطاه اسمًا، هو "أوموليه".

هذا الصقر الجبلي اصطاده "خاشيه"، فقد فرد شبكة صيد الصقور على صخور الجبل العالية، حيث تعتقد الصقور التي تعشق الطيران عاليًا أن تلك الشبكة بين الصخور هي مكان يمكن الاستراحة فيه، لذا تهبط عليها، حينها تصير مسجونة بداخلها. ولقد اصطحب "خاشيه" ذلك الصقر الرمادي البني إلى المنزل طالبًا من "داشي" أن يدربه، وفي الوقت نفسه كان يهدف إلى شغله بعمل ما.

كانت هالات أعين هذا الصقر صفراء ذهبية، أما عيناه فتشعان ضوءًا باردًا كالثلج، ومنقاره الحاد معقوف للأسفل كأنه يستعد لالتقاط شيء ما في أي وقت، وعلى صدره نقوش سوداء، أما أجنحته الناعمة فبها لمعة كالحرير. ولقد قام "خاشيه" بربطه ووضع على عينيه عصابة من جلد الغزال غطت عينيه وتركت منقاره بالخارج. وكان شرسًا، فكان يخمش الأرض بمخالبه الحادة مخلفًا فيها خدوشًا متعددة، وعندما ذهبنا نحن الأطفال لمشاهدته هرب كلٌّ من

"لينا" و"جيلانتيه" و"جينديه" خوفًا، ولم يبقَ سواي أنا و"نالا". وعندما شاهد "داشي" ذلك الصقر الجبلي سُر أيّما سرور، وأصدر بفمه صوتًا، ثم سار بقدم عرجاء وجاهد ليحني جسده، ثم التقط من حفرة النار صخرة قذفها لتصدم رأس النسر الذي استشاط غضبًا، وعلى الرغم من عجزه عن رؤية أي شيء فإنه خمن من اتجاه طيران الصخرة من الذي ضربه، ففرد جناحيه وطار كالإعصار متجهًا نحو "داشي"، لكنه لم يطر بعيدًا حتى ألجمه الحبل المربوط به فصاح غضبًا بصوتٍ عالٍ، أمّا "داشي" فقد انفجر ضاحكًا. كان صوت ضحكاته أسوأ من صيحات الذئاب في قلب الليل، لم يرهبني أنا أو "نالا" ذلك الصقر، بل أرهبنا صوت ضحكاته فجرينا مبتعدين. ومن وقتها أصبحت أنا و"نالا" نذهب كل يوم لرؤية "داشي" يدرب الصقر.

في الأيام الأولى قام "داشي" بتجويع الصقر الجبلي وحرمانه من الطعام، فبدأ الصقر يفقد وزنه يومًا بعد يوم. وعلى الرغم من نحوله الشديد إلا أن "داشي" قال إنه يجب أيضًا كحت الدهون الموجودة بأمعائه، فقام بقطع لحم أرنب طازج إلى قطع لفها جيدًا باستخدام عشب الحلف البري، ثم أطعمها بالكامل للصقر الذي بعد أن بلعها تقيأها مرة ثانية لأنه لم يستطع هضمها، حينها كان يمكن رؤية بعض قطع الدهون وقد كست لحم الأرنب الملفوف بالعشب، ولقد استخدم "داشي" تلك الطريقة لينظف أمعاء الصقر تمامًا، بعدها بدأ يطعمه القليل من الطعام. بعدها طلب مني أن أحضر له العربة الهزازة الخاصة بالأطفال، لم تكن لديهم واحدة في خيمتهم وذلك لأن "مارية" لا تنجب، وقتها كان بإمكان "لوني" الركض في كل مكان لذا لم يعد يحتاج لها، لذا قمت بحملها لـ"داشي". وحينما قام "خاشيه" بمساعدة "داشي" في تعليق العربة الهزازة بعمود الخيمة، التمعت عينا "مارية" بالدموع.

لم أرَ صقرًا من قبل يركب العربة الهزازة إلا عند "داشي"، فقد ربط "داشي" جناحي الصقر ورجليه حتى أصبح عاجزًا عن الحركة ثم وضعه في العربة الهزازة، واستند على العصا بيد، أما يده الأخرى فهز بها العربة الهزازة

بقوة وعنف، فكان جسده يبدو كأنه منحنٍ من شدة الاهتزاز. كنت على ثقة أنـه لو كان بالعربة الهزازة طفل لأصيب بالعته من قوة الاهتـزاز. وكـان يـصدر صـوتًا من فمه أثناء هزه للصقر كما لو أن الريح دخلت إلى فمـه، وعنـدما سـألته لمـاذا يصدر هذا الصوت قال إنـه يريـد أن يُنـسي الـصقر المـاضي تمامًـا، ويجعلـه يقبـل بالعيش مع البشر، فقلت له: "هل تريده أن ينسى الـسحب في الـسماء؟". فبـصق "داشي" وزعق قائلًا: "نعم أريد أن يصير ما في الـسماء إلى الأرض، أريـد أن تتحـول السحب إلى قوس يلتهم عدوي، ذلك الذئب اللعين".

بعد أن قام "داشي" بتنظيف معدة الـصقر وهـزه لمـدة ثلاثـة أيـام في العربـة الهزازة، صار الصقر كأنه وُلد من جديد، وعندما أزال العصابة عن عينيه اكتشفت أن نظرته لم يعد بها ذلك الضوء البارد، وإنما ضوء رقيق يحمل بعض الحيرة، حينها قال "داشي" للصقر بصوت يملؤه الرضا: "إنك حقًّا "أوموليه" مطيع"، بعـدها ربـط رباطًا جلديًّا بساق الصقر وأوقفه على ذراعه اليسرى وسار به خارجًا مـن الخيمـة سائرًا نحو الناس بالخارج، وقال إن هذا مـن أجـل أن يعتـاد الـصقر عـلى البـشر، فبعد أن يتعرف إلى البشر سيعتاد على الحياة وسطهم.

هكذا صار "داشي" يرتكز على عكازه بيده اليمني، أمَّـا يـده اليـسرى فيمـدها كغصن يقف عليه الصقر الجـبلي، فكـان يمـشي مـشية عرجـاء والـصقر يقلـده في عرجه، بينما يتصاعد صوت الجرس المعلـق في ذيـل الـصقر، كـان منظـرًا مـضحكًا للغاية. كان "داشي" يخشى الضوء من البداية، إلا أنه حـين يخـرج والـصقر كـان لا يخشى ضوء الشمس الذي يغمره، وذلـك رغـم الـدموع التـي كانـت تنفجـر مـن مقلتيـه. ومـن وقتهـا لم يعـد "داشي" يرتـدي عـصابة العـين، وأصـبح النـاس حـين يسمعون صوت الجرس يرن في المعسكر يعرفون أن "داشي" وصقره قد أتيا.

كان "داشي" يقول كلما رأى أمي: "دامالا انظري إلى حفيدي، أليس نشيطًا؟". عندها تـضع "دامـالا" مـا بيـدها عـلى الفـور وتتقـدم مرحبـة بـه وتنظـر إلى الصقر وهي تهز رأسها إيجابًـا، حينهـا يمتلـئ قلـب "داشي" بالرضـا ثـم يأخـذ

الصقر ذاهبًا إلى "إيفولينا". "إيفولينا" محبة للتدخين، لذا ما إن يراها "داشي" وهي تمسك السيجارة في يدها حتى يأمرها بإطفائها؛ فهو يرى أن الصقر لو تعرض للدخان فستتأثر حاسة الشم لديه. حينها تلقي إيفولينا السيجارة ثم تضيق عينيها ناظرةً إلى الصقر قائلةً لـ"داشي": هل يمكن لحفيدك أن يناديك "يابيه"؟، فيستشيط "داشي" غضبًا ويقول: "هو لا يمكنه أن يقول ذلك، لكنه يمكن أن يقول "إيفولينا"، إنه يقول: إيفولينا ذات أنف معوج".عندها تضحك "إيفولينا" بشدة، فقد كان أنفها معوجًا بالفعل.

لقد ذكر "لينكيه" أن "إيفولينا" كانت في صغرها شقية للغاية، وحين كانت في الرابعة من عمرها شاهدت في الغابة فأرًا رماديًّا فذهبت لمطاردته، فتسلق الفأر شجرة فاصطدمت "إيفولينا" بتلك الشجرة وكسرت عظمة أنفها، لذا أصبح أنفها معوجًا، إلا أنني أرى أن أنفها جميل جدًا، لأن لديها عينًا كبيرة وأخرى صغيرة، وأنفها معوج تجاه تلك العين الصغيرة، وهذا أعطى نوعًا من التناسق لخطوط وجهها.

بعد أن اصطحب "داشي" الصقر يوميًّا ليختلط بالبشر بدأ يطعمه لحمًا. كان يطعمه القليل كل يوم ليجعله دومًا في حالة نصف جوع ونصف شبع؛ فقد كان يرى أن صقر الصيد إذا ما شبع تمامًا لن يفكر في البحث عن فرائس. ولقد قام بوضع عمود للصقر خارج الخيمة، وهذا العمود يمكنه الميل مع الصقر عندما يحوم فوقه، كما قام بتجليد القائم الرأسي الذي يقف عليه الصقر بجلد غزال خشية أن يضر الخشب مخالبه، فقد كان يقول إن مخالب صقر الصيد مثلها مثل بندقية الصياد يجب الحفاظ عليها، وعلى الرغم من توطد العلاقة بين "داشي" والصقر، فإن "داشي" ربط في قدم الصقر حبلًا رفيعًا طويلًا متصلًا بحلقة دوارة اتقاءً لهروبه، وبهذا الشكل يمكن للصقر أن يلف جسده دون أن يلتف حوله الحبل، وفي الوقت نفسه لا يمكنه الطيران بعيدًا. وكان "داشي" كل يوم يتحسس صدر الصقر ورأسه، وأثناء ذلك كان يصدر ذلك الصوت بفمه،

ولقد بـدأت أشـك أن يـدَي "داشي" بهـما لـون أخـضر، وذلـك لأنـه بعـد أن صـار يتحسسه يوميًّا لم تبرز أجنحة الصقر فحسب بل تغير لونها أيضًا، فـصارت أخـضر داكنًا كما لو أن أحدهم فرد عشبًا أخضر على جسده.

بعدها أصبحنا في كل مرة نرتحل فيها نـرى الـصقر عـلى كتـف "داشي" الـذي يمتطي الغزلان. ولقد أصبح "داشي" بعد حصوله على الصقر كأنما عادت له قدمـه المفقودة، وارتفعت همته وروحه المعنوية، أما الصقر فقـد صـار بعـد ترويـضه لا يحتاج لحبل يُربط به، فلم تعد لديه الرغبة في الطيران عاليًا بعيـدًا حتـى لـو رأى السماء، يبدو أن مجهود "داشي" في هزه داخل العربة الهزازة لم يذهب هباءً؛ لقد نسي تمامًا تلك السماء التي اعتاد الطيران فيها سابقًا.

كان بإمكاننا رؤية مـشهد انقـضاض صـقر الـصيد عـلى فرائـسه فقـط خـلال الارتحـال، ففـي العـادة كـان "خاشـيه" حـين يطلـب مـن "داشي" أن يـسمح لـه باصطحاب الصقر للصيد كان يقابل طلبه بالرفض، لقد أصبح الصقر من ممتلكاته الخاصة.

أذكر ذات مرة أني رأيت مشهد انقـضاض الـصقر الـصياد عـلى أرنـب بـري. كان الـشتاء قـد بـدأ لتـوه، فلـم تكـن الغابـات والجبـال قـد تغطـت بالكامـل بالثلوج، كنا نسير تجاه الجنوب بمحاذاة نهر "أبا"، تلـك المنطقـة الجبليـة غنيـة بالطحالب وبهـا الكثـير مـن الحيوانـات البريـة، ففـي كـل مكـان يمكنـك رؤيـة الطيور التي تطير برفق بين الأشجار أو الأرانب البرية التي تتواثب عـلى الأرض. في البداية بدأ الصقر الذي كـان مـستقرًا عـلى كتـف "داشي" في الحركـة، فرفـع رأسه وحرك جناحيه قليلًا فأصبح في هيئة المستعد للطيران في أي لحظة، وحـين لمح "داشي" أرنبًا بريًّا يجري تحـت غابـات أشـجار الـصنوبر خـبط عـلى الـصقر الصياد وصاح: أوموليه "جويه، جويه، جويه" - وكلمة جويـه تعنـي "اصـطَد" - حينها رأينا الصقر وهو يفرد جناحيه وينطلق كـالبرق مـن عـلى كتـف "داشي"، وفي طرفة عين كان قد أمسك بالأرنب البري، في البداية أمـسك بمـؤخرة الأرنـب بمخلب واحد من مخالبه، وانتظر حتى استدار الأرنب بجسده محـاولًا الإفـلات

حتى أمسك برأسه بالمخلب الثاني، واستخدم مخلبيه معًا لخنق الأرنب سريعًا، بعدها استخدم "أوموليه" منقاره الحاد في تمزيق الأرنب الذي تناثرت أحشاؤه الحمراء على أرض الغابة وتصاعدت منها خيوط من الهواء الساخن. أما "داشي" فقد غلبه الحماس واستمر يصدر ذلك الصوت "وو لو لو" بفمه. وطوال الطريق لم نستخدم تقريبًا رصاصة واحدة؛ فذلك الصقر اصطاد لنا خمسة أو ستة أرانب برية، بالإضافة إلى ثلاث دجاجات جبلية، مما جعل رائحة اللحم الشهية تتصاعد مع كل عشاء لنا طوال الطريق، لكننا حين وصلنا للمعسكر ونصبنا الخيام منع "داشي" الصقر من مطاردة الفرائس مرة أخرى، وقام بفرد فرو ذئب رمادي على الأرض وظل يصيح "جويه، جويه، جويه"، دافعًا الصقر للانقضاض على تلك الفروة؛ ففي ذلك العام حين تقاتل "داشي" والذئب قتل "داشي" بيديه العاريتين الذئب الأم، أما ذلك الذئب الذي أكل قدمه فقد كان ذئبًا صغيرًا هرب بعدها، فقام بسلخ فرو الذئب الأم وصار يصحبها معه حيثما ذهب، وفي كل مرة يراها فيها تصطك أسنانه كأنه رأى عدوًّا، ولقد قالت "إيفولينا": "يبدو أن "داشي" ينوي بالفعل أن يجعل الصقر ينتقم له".

في البداية كان "أوموليه" غير راغب في مهاجمة فراء لا توجد بها أنفاس الحياة، فكان يضم رأسه للخلف ويتراجع حين يسمع نداء "جويه، جويه"، فكان "داشي" يستشيط غضبًا ويقبض على رأس الصقر ويجره جرًّا إلى أعلى الفراء، لكن الصقر ظل واقفًا حائرًا، فألقى "داشي" بعصاه وجلس على فرو الذئب وخبط على قدمه الوحيدة وهو يبكي. بكى هكذا لعدة مرات، بعدها يبدو أن الصقر فهم أن فرو الذئب هذا هو عدو لسيده، لذا سريعًا ما اعتبر تلك الفراء شيئًا حيًّا، فلم تزدد مرات مهاجمته للفرو فحسب، وإنما أصبح في كل مرة أكثر شراسة عن التي قبلها، ومن أجل جعل "أوموليه" يحافظ على حالة اليقظة والانتباه بشكل دائم، كان "داشي" كلما رآه محني الرأس في وضع الاستعداد للنوم يضرب على جناحيه بسرعة لجعله ينتبه، لذلك أصبح نوم "داشي" بعد امتلاكه للصقر غير كافٍ، حتى إن عينيه أصبحتا حمراوين دائمًا مثل عيني

الأرنب، وكلما مررنا أمام خيمته صاح وهو يشير إلى "أومولیـه": "انظـروا، انظـروا، هذا هو قوسي ونشابي، هذه هي بندقيتي".

وعندما يقول هذا الكلام لا يعارضه أحد، لكنه عندما يقوله لأبي كان يرد عليه قـائلًا: "يمكننـي أن أقتـل الـذئب ببنـدقيتي، فهـل يـستطيع "أومولیـه" أن يفعـل ذلك؟". إن حب أبي للبنادق يقع في المرتبة الثانية بعـد حبـه لــ"دامـالا"، فعنـدما يخرج للصيد يحمل البندقية على ظهره، وعندما يعود يداعبها ويضعها في مكانها. وما إن يسمع "داشي" لهجة أبي الساخرة في حديثه عن "أومولیه" حتى يجـز عـلى أسنانه غضبًا كما لو أنه سمع عواء الذئب، ثم يقول: "لينكيه، اصبر وسترى، سـترى إذا ما كان باستطاعة "أومولیه" أن ينتقم لي أم لا.

إن نوع البنادق الذي كنا نستخدمه في وقت مبكر هـو "ولوموكوديـه"، وهـو نوع بدائي يضرب طلقات صغيرة مـن الحـصى، هـذا النـوع مـن البنـادق يـضرب لمسافة قصيرة للغاية، لذا كنا نستعمل أحيانًا القوس والنشاب، بعدها حصلنا مـن الروس على بنادق تطلق حصى كبيرًا اسمها "تولكيه"، أعقبها حـصولنا عـلى بنـادق "بيليتانكيـه" الأقـوى مـن بنـادق "تولكيـه"، ومعهـا أيـضًا بنـادق إطـلاق الخـرز المتعاقب التي تتميز بقدرة أكبر على القتل والإصابة، فبإمكانها الإطلاق المتعاقـب للخرز. وبعد امتلاكنا للنوعين الأخيرين أصبحنا لا نستخدم بنـادق إطـلاق الحـصى الكبير إلا عند اصطياد السناجب، لذا كنت أرى أن الأقواس وبنادق الحصى الصغير مثل الأرانب والسناجب في الغابة، أما بنادق الحصى الكبير فهي كالخنازير البريـة، وبنادق "بيليتانكيه" مثل الذئاب، وبنادق إطلاق الخرز المتعاقب مثل النمور، كـل واحدة أكثر شراسة من سابقتها.

كانت لدى "لينكيه" بندقيتان مـن نـوع "بيليتانكيـه"، وبندقيـة إطـلاق خـرز متعاقب، ولقد بدأ تعليم "لوني" وضعية إمساك البندقية منذ أن كان عمره ثـلاث أو أربع سنوات، وتلك البنادق كلها استبدلها "لينكيه" من "رولينسكي".

"رولينسكي" هو "أندا" روسي، يأتي كل عام إلى قبيلتنا مرتين على الأقل وثلاث أو أربع مرات على الأكثر. وعند الارتحال دائمًا ما نترك علامات على الأشجار، أي أننا كلما سرنا مسافة ما نقوم بوضع علامة بالفأس على شجرة ضخمة كعلامة للسير، وبهذا الشكل يمكن للـ"أندا" أن يجدنا مهما سرنا بعيدًا.

إن "رولينسكي" بدين قصير القامة ذو عينين كبيرتين منتفختين ولحية حمراء، يحب شرب الخمر، ودائمًا ما يأتي إلى قبيلتنا على صهوة حصان وتأتي معه ثلاثة أو أربعة أحصنة، واحد يمتطيه هو، أما الأحصنة الأخرى فيحمل عليها البضائع، حيث يصعد الجبل جالبًا لنا الخمر والدقيق والملح والأقمشة القطنية وطلقات البنادق وغيرها من الأشياء، وعندما يهبط الجبل يحمل معه الجلود وقرون الغزلان. ويعد يوم مجيئه يوم عيد للقبيلة؛ فالكل يجتمعون سويًّا لسماع حكايات القبائل الأخرى التي يقصها، أي قبيلة تعرضت غزلانها لهجوم الذئاب، وأي قبيلة اصطادت فئران رمادية أكثر، وأي قبيلة زاد عدد أفرادها أو انتقل أحد عجائزها للسماء، فلا شيء يغيب عنه وهو الذي على اتصال بست أو سبع قبائل. كان يحب "لينا" بشكل استثنائي، ففي كل مرة يصعد فيها للجبل كان دائمًا ما يجلب لها شيئًا خاصًا بها، مثل إسورة نحاسية منقوش عليها ورود، أو مشط خشبي رشيق. كان يحب أن يمسك يدها الرقيقة ثم يتنهد سائلًا: "متي تكبر "لينا" لتصبح "ووناجي" كبيرة؟"، فأرد عليه قائلة إن "لينا" أصبحت "ووناجي" كبيرة بالفعل، أما "ووناجي" الصغيرة فهي أنا، فيرد عليَّ "رولينسكي" بصافرة من فمه كأنه يداعب طائرًا صغيرًا.

يسكن "رولينسكي" في "جوارجاندوين"، وهي مركز تجمع التجار الروس. ذهب إلى أماكن كثيرة من قبل من أجل التجارة، مثل "بوكويه" و"تشالاندوين" و"هايلار" وغيرها، وعند الحديث عن متاجر الذهب والفضة بـ"بوكويه"، ومعبد "جانجور" الموجود بـ"هايلار"، تلمع عيناه كما لو أن أجمل مناظر الدنيا موجودة بالمتاجر والمعابد. وكان حين يكثر من شرب الخمر يحب أن يشمر عن

ساعديه، عندها نتمكن من رؤية الوشوم المرسومة عليها، أفعى ملتفة على نفسها ترفع رأسها ذات لون أخضر، وكان أبي يقول إن "رولينسكي" هو بالتأكيد قاطع طريق هارب من روسيا، وإلا فلماذا يوجد وشم على ذراعه؟ كنت أحب أنا و"لينا" مشاهدة تلك الأفعى الخضراء. وكان "رولينسكي" يقول إنه ليست لديه نساء يعشن معه، تلك الأفعى هي امرأته، في الشتاء حين يعم البرد ينبعث منها الدفء، أما في الصيف حين تشتد الحرارة فإنها تُخرج هواءً باردًا، وفي كل مرة يقول فيها هذا ينفجر الرجال الذين لديهم نساء في الضحك، إلا الكاهن "نيدو" الذي لا يضحك، بل يعقد حاجبيه ويهب واقفًا مغادرًا ذلك الاجتماع الصاخب.

وفي كل مرة يأتي فيها "رولينسكي" يشعل المعسكر نارًا بغض النظر عن الفصل الذي أتى فيه، ثم تتشابك أيدي الجميع في رقصة "واريتشي" (تعني رقصة البجعة)، في البداية تتشابك أيدي النساء في الدائرة الداخلية حول النار، ثم تتشابك أيدي الرجال في الدائرة الخارجية، وحين تدور النساء ناحية اليمين يدور الرجال ناحية اليسار، هذا الدوران نحو اليمين ونحو اليسار يجعل النيران كأنها تتراقص وتلف مع الجموع، وحين تصيح النساء "جاي" يصيح الرجال فورًا "جو"، وتشبه صيحة "جاي جو جاي جو" صوت طيران البجع فوق سطح البحيرة، وتقول أمي إنه في قديم الزمان، أُرسل أجدادنا لحماية الحدود، وذات يوم حاصر جيش العدو جنود "الإيوينكيه" قليلي العدد الذين نفدت مؤنتهم، وفجأة تصاعد في السماء صوت عالٍ "جاي جو جاي جو"، والذي كان في الحقيقة سربًا من البجع مارًّا فوقهم، وحين سمع العدو ذلك الصوت ظن أن مدد "الإيوينكيه" قد وصل، لذا انسحب بسرعة، لذا قام الأجداد باختراع رقصة "واريتشي" عرفانًا بجميل البجع. ونظرًا لأن الكاهن نيدو نادرًا ما يرقص، كما أن "داشي" الأعرج لا يمكنه المشاركة أيضًا، لذا يضطر الرجال عند الرقصة في الحلقة الخارجية إلى فرد أيديهم على آخرها وإلا فلن يتمكنوا من حماية النساء في الدائرة الداخلية، لذا فمع استمرار الرقص تتحرك النساء نحو الدائرة الخارجية ليشكل الجميع في النهاية دائرة كبيرة، ويمسك الجميع بأيدي بعضهم

ويرقصون حتى تخفت النيران، وتخفت أيضًا أضواء النجوم، حينها فقط يعود الجميع إلى الخيام للنوم. إن إمي تحب الرقص جدًا، ومتى رقصت يجافيها النوم، ففي الليالي التي ترقص فيها كنت دائمًا أسمع صوتها الخافت وهي تحدث أبي قائلة: "لينكيه، يا لينكيه، لا يمكنني النوم، إن رأسي كأن أحدهم صب به ماءً باردًا"، حينها لا يتفوه "لينكيه" بأي كلمة، بل يهدي لـ"دامالا" صوت الريح ذاك الذي اعتدت سماعه، وبعد أن ينتهي صوت الريح تخلد "دامالا" للنوم.

في كل مرة حين يغادر "رولينسكي" المعسكر، كان دائمًا ما يقبِّل "لينا"، وهذا جعلني أنا و"نالا" نشعر بالحسد، لذلك كنت في العادة ألعب مع "لينا"، ولكن حين يأتي "رولينسكي" كنت أصاحب "نالا"، لكنه ما إن يرحل حتى أتخلى عنها، وذلك لأن "لينا" كانت عادةً تهديني الأشياء التي جلبها لها "رولينسكي". لقد ارتديت من قبل أساورها، وكسرت مشطها من قبل، إلا أن "لينا" لم تلُمني قط.

إن مسألة تقرير البضائع التي يتم تبادلها وعددها هو أمر راجع أولًا وأخيرًا للكاهن "نيدو"، فهو الذي يعاين البضائع التي جلبها الـ"أندا" ثم يقرر بعدها، فإذا كان ما جلبه قليلًا، كان من الطبيعي أن تقل كمية الفراء التي يأخذها. لم يكن "رولينسكي" مثل الـ"أندا" الآخرين، لا بد أن يعاين لون شعر الفراء واحدًا واحدًا، وينتقي هذا وذاك، أمَّا "رولينسكي" فكان يأخذه ويطويه مع بعضه ثم يضعه على ظهر حصانه، لذا كان الكاهن "نيدو"، على الرغم من عدم اعتياده على الجو المرح الصاخب الذي يجلبه "رولينسكي" معه في كل مرة، إلا أنه كان دائمًا ما يُثني عليه بصفته "أندا"، ويقول إن "رولينسكي" بالتأكيد قد تعرَّض لبؤس وشقاء من قبل لذا فقلبه طيب. إلا أننا لم نكن نعرف شيئًا عن ماضيه، لقد أخبرنا فقط أنه كان يرعى الخيول في صغره، لذا لم يعانِ من الجوع فحسب، بل تعرض أيضًا للضرب بالسياط، أما هوية من عرَّضه للجوع ومن استخدم السياط على جسده فلا أحد يعلمها سواه.

إن الموسم الأفضل لصيد السناجب يقع بين شـهري أكتـوبر ونـوفمبر مـن كـل عام، وإذا ما قلَّت أعدادها بسبب الصيد في مكان ما، فإننا ننتقل إلى مكـان آخـر، لذا كنا نغير أماكننا في تلك الفترة كل ثلاثـة أو أربعـة أيـام. إن الـسناجب لطيفـة للغاية، فهي تلف ذيولها الطويلة، ويوجد على جانبي آذانها الصغيرة شـعر أسـود طويل، كما أنها رشيقة للغاية وتحب التقافز جيئـةً وذهابًـا عـلى فـروع الأشـجار، وفراؤها السوداء والرمادية في غاية النعومة والرقة، لذا تُستخدم في صناعة ياقـات وأكمام الملابس، فهي تتحمل الاحتكاك. ويحب الـ"أندا" جمع فرائها، وعنـد صـيد السناجب تشارك النساء أيضًا في الصيد، حيـث يقمـن بنـصب الـشراك في الأمـاكن التي تظهر فيها، وما إن تمر السناجب فوقها حتى تُطبق عليهـا. كنـت أنـا و"لينـا" نحب نصب تلك الشراك مع أمنـا. ومـن عـادة الـسناجب تخـزين الطعـام خـلال الخريف استعدادًا للشتاء، وهـي تحـب أكـل عـيش الغـراب، لـذا إن كـان عـيش الغراب كثيرًا في الخريف فإنها تجمع بعضًا منه وتعلقه على فروع الأشـجار، ذلـك الفطر الجاف يشبه في شكله الزهور التي ضربها الصقيع، ومن خلال موقع عـيش الغراب على فروع الأشجار يمكن التنبؤ إذا ما كانت الثلوج في الشتاء ستكون كثيرة أم لا، فإذا كانت الثلوج كثيرة فإن السناجب تعلِّق عيش الغراب في أمـاكن عاليـة، أما لو كانت الثلوج قليلة فإنها تعلقه في أمـاكن منخفـضة، لـذا كـان يمكننـا قبـل هطول الثلوج أن نعرف شكل الشتاء الذي سوف نواجهه، وذلك من خـلال عـيش الغراب المعلق على فروع الأشجار. وعند صـيد الـسناجب كنـا نبحـث عـن عـيش الغراب المعلق على أغصان الأشجار في حالة لم نجد آثـار الـسناجب فـوق الثلـوج، فإذا لم نجد عيش الغراب فإننا نتحرك نحو غابات الصنوبر، فالسناجب تحب أكل الصنوبر.

ولحم السناجب طري للغاية، فبعد نزع الفراء عنها لا تحتاج سوي لرش بعض الملح ثم شيَّها قليلًا فوق النار حتى يمكـن تناولهـا، فـلا توجـد بـين النـساء مـن لا تحب أكل هذا اللحم، كـما أننـا أيـضًا نحـب ابـتلاع عيـون الـسناجب، فالعجـائز يقولون إن هذا يجلب لنا الحظ السعيد.

في ذلك العام الذي فارقتنا فيه لينا كان ذلك خلال موسم صيد السناجب، وقتها كانت صحة أمي ونفسيتها في الحضيض؛ وذلك لأن الابنة التي أنجبتها لتوها لم تعش سوى ليوم واحد ثم ماتت، كما أن "داماﻻ" فقدت كثيرًا من الدماء، بالإضافة إلى حزنها الشديد، لذا لم تخرج من الخيمة لعدة أيام، وصار وجهها رماديًّا كالتراب. لذلك عندما قال الكاهن "نيدو" إن السناجب بتلك المنطقة قليلة ويجب الارتحال عنها، عارضه "لينكيه" قائلًا: "يجب الانتظار حتى تستعيد "داماﻻ" صحتها ثم نغادر، فهي لن تتحمل البرد". لكن الكاهن "نيدو" لم يكن راضيًا عن هذا الكلام وقال: "كيف لنساء الـ"إيوينكيه" أن يخشين البرد؟ من تخشى البرد يمكنها النزول من الجبل لتصبح امرأة لرجال الهان وتعيش كل يوم معهم في المقابر، فلا برد هناك - كان الكاهن "نيدو" يسمي مساكن الهان بالـ"مقابر". ولقد غضب "لينكيه" للغاية وقال إن "داماﻻ" فقدت لتوها طفلًا وصحتها ضعيفة، فإذا أصررتم على الرحيل فليرحل الجميع وسيبقى هو مع "داماﻻ"، عندها ضحك الكاهن "نيدو" ضحكة باردة وقال: "لو لم تمنحها الطفل من البداية لما فقدته". ولقد جعل كلامه "إيفولينا" تطلق ضحكة عجيبة، أما أنا فقد تردد في ذاكرتي صوت الريح الذي كانا يصنعانه في الخيمة أثناء الليل. عندها نهض الكاهن "نيدو" من فوق الوسادة الجلدية وسط ضحكات "إيفولينا" وصفق بيديه وقال: "استعدوا جميعًا سنغادر هذا المكان غدًا صباحًا"، ثم رفع رأسه وغادر الخيمة، حينها احمرت عينا "لينكيه" غضبًا وتبع الكاهن "نيدو" للخارج، وسريعًا ما سمعنا صوت صرخات الكاهن، لقد ضربه "لينكيه" وأوقعه على الأرض الثلجية وسط الغابة بل ووضع قدمه فوقه. كان الكاهن "نيدو" تحت قدم "لينكيه" أشبه بالفريسة التي أصيبت، وكان صوت صراخه الحاد يمزق القلوب، وعندما سمعت أمي الصوت قامت مترنحة نحو الخارج، وعندما عرفت من "إيفولينا" ما حدث سالت دموعها. ولقد قام "إيوان" بإبعاد "لينكيه" عن الكاهن "نيدو"، وعندما سار

أبي بأنفاس لاهثة نحو أمـي قالـت لـه: "لينكيـه، كيـف لـك أن تفعـل هـذا؟ إنـك بالفعل تُشعرني بالحزن، كيف لنا أن نكون بتلك الأنانية؟".

كانت تلك هي المرة الأولى التي أشـهد فيهـا صراعًـا مبـاشرًا بـين أبي والكـاهن "نيدو"، كما كانـت المـرة الأولى التـي أسـمع فيهـا أمـي تؤنـب أبي، وفكـرت في أن الكاهن "نيدو" قد استطاع خـلال رقـصة الآلهـة أن يميـت ذلـك الغـزال الرمـادي الصغير، فكنت قلقـة أن يـستخدم الطريقـة نفـسها لينتـزع أنفـاس أبي بـين ليلـة وضحاها. ولقد أخـبرت "لينـا" بمـا دار في ذهنـي، فقالـت: "لنـنَم تلـك الليلـة مـع "إيجادواما"، وبهذا يمكننا أن نراه ولا ندعه يرقص رقصة الآلهة". وهكذا دلفت أنا و"لينا" في المساء إلى خيمة الكاهن "نيدو"، كان جالسًا بجوار موقـد النـار يحتـسي الشاي، وعندما رأيـت لـون وجهـه القـاتم وسـوالفه التـي ابيـضت شـعرت فجـأة بالتعاطف تجاهه، وقلنا له إننا نريده أن يقص علينـا حكايـة، فأبقانـا في خيمتـه. كانت الرياح شديدة في تلك الليلـة والجـو بـاردًا للغايـة، وكانـت ألـسنة اللـهب ترتعد كأنها تتنهد، فقد كانت حكايات الكاهن "نيدو" لها دائمًا علاقة بالنار.

قال الكاهن "نيدو" إنه منذ زمن بعيد كان هناك صـياد، ركـض في الغابـات ليوم كامل رأى خلاله كثيرًا من الحيوانات، لكنه لم يصب أيًّا منها، بل استطاعت تلك الحيوانات التسلل من تحت أنفه، لذا امـتلأ قلبـه بالغـضب، وعنـدما عـاد لمنزله في المساء كان مـتجهم الوجـه، وأشـعل نـارًا واسـتمع إلى صـوت طقطقـة الحطب وهو يشتعل كما لو أن هناك من يسخر منه، لذا ركبه العنـاد وأمـسك بـسكين وظـل يطعـن في النـيران حتـى انطفـأت. وفي صـباح اليـوم التـالي حـين استيقظ في النهار حاول إشـعال النـار إلا أنهـا لم تـشتعل، فلـم يـستطع الـصياد شرب الماء الساخن ولم يتمكن من تحضير الإفطـار، فخـرج مـرة أخـرى للـصيد، وفي هذا اليوم أيـضًا عـاد خـالي الوفـاض، وعنـدما وصـل للبيـت حـاول مجـددًا إشعال النيران إلا أنها لم تـشتعل أيـضًا، فـشعر بالدهـشة، واضـطر لقـضاء ليلـة طويلـة أخـرى بـين الـبرد والجـوع، ولم يتنـاول الـصياد شـيئًا ليـومين متتـاليين

ولم يستطع فيهما إشعال النار، وفي اليوم الثالث ذهب مرة أخرى إلى الجبل للصيد، وفجأة سمع صوت بكاء يقطع القلوب، فظل يبحث عن مصدر الصوت حتى رأى امرأة عجوزًا تستند إلى شجرة عجفاء سوداء وتغطي وجهها وتبكي، فسألها الصياد ماذا يبكيها؟ فقالت إن شخصًا ما قام بطعنها، وقد زاد الألم عليها بشكل لا يحتمل، وعندما أنزلت يديها استطاع الصياد رؤية وجهها الدامي، حينها أدرك الصياد أنه أغضب آلهة النار فخر جاثيًا على ركبتيه طالبًا العفو منها، وأقسم أن يقدسها من الآن وللأبد. وعندما انتهى من السجود وقام واقفًا كانت تلك العجوز قد اختفت، أما الشجرة العجفاء التي كانت تستند إليها فكانت تقف فوقها دجاجة جبلية خضراء زاهية، فشد الصياد قوسه وأصابها على الفور ثم حملها عائدًا لبيته ليجد أن تلك النيران التي خمدت لثلاثة أيام قد اشتعلت من تلقاء نفسها، فركع بجوارها وانخرط في بكاء عميق.

إننا نقدس آلهة النار، فمنذ بداية ذكرياتي ونار المعسكر لم تنطفئ من قبل. وعند الارتحال يحمل ذلك الغزال الذكر الأبيض الذي يسير في المقدمة على ظهره الإله "مالو"، وهذا الغزال نطلق عليه اسم "الملك مالو"، وفي العادة لا يمكن امتطاؤه أو استخدامه، أمَّا الغزال الذي يسير خلفه فيحمل جذوة النار، ثم نضعها في دلو من لحاء الأشجار مدفونة فيه طبقة سميكة من الرماد، فلا يهم مدى مشقة الطرق التي نسير فيها، فالضوء والدفء دائمًا ما يسيران معنا، وأحيانًا كنا نرش بعض دهون الحيوانات فوق النار، حيث يقال إن آلهة أجدادنا تحب شم تلك الرائحة العطرة، ونظرًا لوجود آلهة داخل النار لذا لا يمكننا البصق فيها أو رش الماء داخلها أو إلقاء أشياء غير نظيفة بها. تلك القواعد كنت أفهمها أنا و"لينا" من صغرنا، لذا حين كان الكاهن "نيدو" يقص علينا حكايات آلهة النار كنا مستغرقتين فيها تمامًا.

بعد الانتهاء من سماع الحكاية قالت كل واحدة منا جملة. كان كلامي موجهًا للكاهن "نيدو": يا "إيجادواما"، هل تقفز آلهة النـار كـل ليلـة خارجـة مـن قلـب النيران لتتحدث معك؟ فنظر الكاهن لي، ثم نظر للنيران ثم هز رأسه نافيًا.

أما كلام "لينا" فقد كان موجهًا لي: "يجب عليكِ حماية جذوة النار في المـستقبل، لا تسمحي للأمطار أن تبلـلـها فتطفئها، لا تسمحي للريح أن تهـب عليهـا فتفنيهـا"، فهززت رأسي موافقة، هززتها بقوة كالشمس المنحدرة للمغيب في قلب الوادي.

وفي صباح اليوم التالي عادت الغـزلان بعـد بحثهـا عـن الطعـام طـوال اليـوم، واستيقظنا نحن أيضًا. كان الكاهن "نيدو" قد اسـتيقظ، وكـان يغـلي لـبن الغـزلان فلامست رائحته العطرة وجهينا، فتناولت أنا و"لينا" إفطارنا هنـاك. كانـت "لينـا" تتثاءب بلا توقف، ووجها مصفر، ثم أخبرتني همسًا أنها لم تنم طوال الليـل؛ فقـد كانت تخشى أن يقوم الكاهن "نيدو" برقـصة الآلهـة في قلـب الظـلام، لـذا ظلـت مفتوحة الأعين تنظر إليه. وقالت إنها حـين كانـت تـسمع صـوت شـخيري كانـت تحسدني مثل الجائع لعدة أيام الذي اشتم رائحة لحم السناجب المشوي. أشـعرني كلامها بالخجل الشديد، فلقد ظلت منتبهة لليلـة كاملـة مـن أجـل أبينـا، أمـا أنـا فنمت بعمق طوال الليل. وعندما غادرنا خيمة الكاهن "نيدو" قـام بـانتزاع الإلـه "مالو" وعلقها عـلى الحامـل الخـشبي ثـلاثي الأرجـل، ثـم أشـعل عـشب "كـاواوا" مستخدمًا دخانه لتطهير الإله "مالو"، وقد كان هـذا مـن الطقـوس الواجبـة التـي يقوم بها في كل مرة قبل الارتحال.

ونزولًا على رغبة الكاهن "نيدو" غادرنا المعسكر القـديم، وعنـد الرحيـل سـار الملك "مالو" الأبيض في المقدمة، وسـار خلفـه الغـزال الـذي يحمـل جـذوة النـار، تلـيهما الغـزلان التـي تحمـل أشـياءنا، وفي العـادة كـان الرجـال والنـساء الأقويـاء يسيرون مع خطوات قطيع الغزلان، فإذا شـعروا بالتعـب امتطـوا ظهورهـا. وكـان "خاشـيه" يـسير حـاملًا بلطـة مـستخدمًا إياهـا لوضـع "علامـات الأشـجار" عنـد السير لمسافة معينة. وفي ذلـك اليـوم ركبـت أمـي عـلى ظهـر غـزال، وقـد غطـت

وجهها بالكامل بقبعة من جلد الأرنب ووشاح، وسار "لينكيه" بجوار الغزال الـذي يحملها، أما أنا و"داشي" و"نالا" و"لينا" فقد امتطينا الغزلان أيضًا، أمـا "جيلانتيـه" و"لوني" فقد كانا مغرمين بالصقر الـصياد، فالـصقر الـرابض عـلى كتـف "داشي" لا يبرز مهاراته إلا أثناء الارتحال، لذلك فقد سارا على يمين ويسار الغزال الذي يحمل "داشي"، لكن "جيلانتيه" كان يفتقر إلى الجرأة، فقد كان يخشى أن يهاجمه الـصقر الصياد فجأة، لذا فقد كان يسير معه حينًا ثم يسرع ليـسير مـع "لـوني". لقـد كنـا ننظر إلى هذا الصقر كما لو كنا ننظر إلى بطل، كنا نحسده بشدة، أمَّا الصقر فقـد كان ينظر لـ"جيلانتيه" و"لوني" نظرات نمر لفريسته كما لو كانا مجرد أرنبين.

كانت "لينا" عادةً تحب امتطاء غزال بني مرقط باللون الأبيض، لكـن في ذلـك اليوم حين أرادت وضع السرج على ظهره ابتعد عنها رافـضًا تقـديم خدماتـه لهـا، عندها تقدمت تلك الغزالة الرمادية التـي جـف ضرعهـا مـن تلقـاء نفـسها تجـاه "لينا" ووقفت بجوارها ثم ركعت على الأرض، فلم تفكر "لينا" كثيرًا وإنما وضـعت السرج على ظهرها وامتطتها. في البداية كانت الغزالـة التـي تمتطيهـا "لينـا" تـسير أمامي، ولكن مع السير تأخرت حتى باتت في أقصى المؤخرة، وعندما كانـت "لينـا" أمامي كنت أرى رأسها يتمايل كما لو كان النعاس يغالبها.

إن ضوء الشمس في الشتاء مهما كان قويًّا فإنه دائمًا ما يعطـي المـرء إحـساسًا بـالبرودة، في هـذا الوقـت كـان الـثلج في الغابـة رقيقًـا، وكانـت الأعـشاب البريـة والأوراق المتساقطة على المنحـدر الجـبلي المواجـه للـشمس صـفراء يابـسة بـارزة للعيان، أما الطيور فكانت تطير فرادى وجماعات عبر الغابة تاركةً خلفها صيحاتها الرنانة. وكـان "إيـوان" يتـسامر مـع "ناديجـدا" أثنـاء الـسير، لقـد سـمع "إيـوان" "رولينسكي" يقول إن مناجم الذهب في "شيكوزيه" قد تـم اكتـشافها عـلى النحـو التالي: "ذات يوم اصطاد رجل من "داهانار" سمكًا، وأشعل نارًا على ضفة النهر ثم صنع قدرًا من السمك المسلوق، وبعد أن أكل السمك ذهب إلى النهر لكي يغـسل

القدر، فظل يفرك فيه فاكتشف وجود عدة حبيبات ذهبية لامعة من الرمال، فوضعها في يده وفركها فإذا هي ذهب!"، ثم استطرد "إيوان" قائلًا لـ"ناديجدا": "عندما تغسلين القدور باستخدام مياه النهر فيما بعد انتبهي إلى الرمال الموجودة داخل القدور، ولتنظري جيدًا فلربما تكون ذهبًا". فقامت "ناديجدا" برسم صليب أمام صدرها وقالت إن السيدة العذراء ستحميها ولن تجعلهم يكتشفون الذهب، فقد كان لها أخ فقد حياته بسبب مشاركته لآخرين في التنقيب عن الذهب، فالذهب منذ القدم ليس بالشيء الجيد، وإنما يتسبب فقط في جلب المصائب للبشر، فرد عليها "إيوان" قائلًا إن الإنسان إذا لم يطمع فلن تصيبه أي مصيبة. فقالت "ناديجدا" إن البشر حين يرون الذهب يصبحون كالصياد الذي رأى حيوانًا بريًّا، ليس هناك إنسان لا يطمع. وبعد أن قالتها مسحت على رأس "إيوان" بيدها، ولقد رأت "إيفولينا" حركتها تلك، فصرخت بغضب موبخة "ناديجدا" قائلة إن نساء قوميتنا لا يمكنهن المسح كما شئن على رؤوس الرجال؛ فرؤوس الرجال عليها أرواح الآلهة، والمسح عليها يغضبها وستصب غضبها علينا، ثم صاحت "إيفولينا" بصوتٍ عالٍ: "لقد مسحت "ناديجدا" على رأس "إيوان"، فليأخذ الجميع حذرهم".

في تلك المرة سرنا منذ أن اعتلت الشمس كبد السماء حتى مالت للمغيب، إلى أن وصلنا إلى مكان المعسكر الجديد في وسط غابات الصنوبر الكثيفة، كان بإمكاننا رؤية السناجب التي تتقافز هنا وهناك وسط الغابة، حينها طفت ابتسامة على وجه الكاهن "نيدو"، وفي الوقت الذي انشغل فيه الجميع بإنزال المؤن من على ظهور الغزلان، واستعد الرجال لدق أعمدة الخيام، وانشغلت النساء بكنس فروع الشجر الجافة من على الأرض وإشعال موقد النيران، عندها اكتشفت فجأة عدم وجود "لينا" في المعسكر، فصحت باسمها، لكن لم أتلقَ أي رد. وما إن سمع أبي باختفاء "لينا" حتى ذهب للبحث عن ذلك الغزال الرمادي الذي كانت تمتطيه. كان الغزال موجودًا إلا أنه كان متأخرًا في نهاية القطيع منكسًا رأسه وتبدو عليه علامات الحزن، عندها أدرك "لينكيه"

و"خاشيه" أن لينا قد أصابها مكروه، ركب كل منهما غزالًا وسارا بمحاذاة الطريق الذي جئنا منه بحثًا عنها. أما أمي فقط نظرت إلى الغزالة التي كانت "لينا" تمتطيها، وعلى الأرجح تذكرت أن صغيرها قد ناب عن "لينا" في الاختفاء عن عالمنا، والآن "لينا" اختفت عن ظهر تلك الغزالة، إن هذا بالتأكيد ليس فألًا حسنًا، حينها بدأ جسدها في الارتعاد رغمًا عنها.

كنا في المعسكر نتطلع لعودة "لينا"، إلا أننا انتظرنا حتى أظلمت السماء، وانتظرنا حتى ظهر النجوم والقمر، ولم يعد "لينكيه" ومن معه. ولم يكن لدى الجميع أي شهية لتناول الطعام باستثناء "داشي" الذي قام بشي الأرنب البري الذي اصطاده الصقر في طريق ارتحالنا، وظل يأكل وهو يتناول الخمر حتى لعبت الخمر برأسه فبدأ في الصياح "وو لو لو"، كنت أرغب بحق في قطع لسانه، وكانت تلك هي المرة الأولى التي أكره فيها شخصًا ما، فقد كان فمه الذي يحركه في نظري قذرًا كوعاء يحتوى على بصاق، ففكرت لو أن الذئب كان التهمه وقتها لكان ذلك أمرًا جيدًا.

انتصف الليل و"لينا" لم تعد بعد، بدأت أمي في البكاء، وأمسكت "إيفولينا" بيدها مواسية، إلا أن عيونها خلت من الدموع. وبكت "مارية" أيضًا، فهي لم تكن قلقة على "لينا" فحسب، وإنما كانت قلقة أيضًا على "خاشيه" فلقد نسي أن يحمل بندقيته معه، فما العمل لو صادف قطيعًا من الذئاب؟ أما "داشي" فقد زاد الطين بلة قائلًا: "هذا الأحمق "خاشيه"، ذهب بحثًا عن شخص مفقود فنسي بندقيته، هل يعتقد أن ذراعيه صُنعتا من حديد أو يمكن أن يستخدمهما كبندقية؟ أرى أن الذئاب الليلة لا ينبغي أن تقلق بشأن عشائها".

أما الكاهن "نيدو" فقد ظل جالسًا في صمت جوار حفرة النار، لكن كلام "داشي" استفزه فهب واقفًا وقال: "إذا تفوهت بكلمة أخرى الليلة فسيتصلب لسانك مثل الحجر غدًا".

كان "داشي" يعلم القوى السحرية التي يتمتع بها الكاهن "نيدو"، لذا لم يجرؤ على أن يتفوه بترهاته مرة أخرى.

بعدها تنهد الكاهن "نيـدو" وقـال للنـساء: "لا تبكـين، إن "لينكيـه" و"داشي" على وصول، أما "لينا" فإنها مع الطيور الصغيرة في السماء الآن.

وقع كلامـه وقـع الـصاعقة عـلى النـساء، ففقـدت أمـي وعيهـا، وامـتلأ وجـه "إيفولينا" بالدموع، وضربت "مارية" صدرها بيـديها ودقـت الأرض بقـدميها، أمـا "ناديجدا" فقد توقفت يدها التي ترسم الصليب أمام صدرها.

وما إن غادر الكاهن "نيدو" حتى عاد كلٌّ من أبي وخاشيه ممتطـين غـزاليهما، لكن "لينا" لم تعد، لم يعد باستطاعتها العودة للأبد. لقـد عـثر أبي و"خاشـيه" عـلى جثتها الباردة ودفناها في مكانها، فهرولت إلى مكان الكاهن "نيدو" وصحت فيـه: "إيجادواما، أنقذ "لينا"، ابحث عن "ووماي" خاصتها"، فقال لي إن "لينا" لن تعود، لا تنادي عليها، فركلت الإبريق بجوار حفرة النار لينقلب على الأرض مصدرًا صوتًا رنانًا، وأقسمت على إحراق ملابس الكاهن "نيدو" المقدسة وقبعته وطبول الآلهة، وقلت إذا لم تقم "لينا" على قدميها فسأرقد معها ولن أقوم أنا أيضًا.

لكني لم أرقد، و"لينا" لم تستطع النهوض.

قال أبي إنه حين عثر عـلى "لينـا" كانـت مغمـضة العينـين وعـلى طـرف فمهـا ابتسامة كما لو كانت تحلم حلمًا جميلًا. بالتأكيد نامت فسقطت مـن عـلى ظهـر الغزال، ولأنها متعبة فقـد اسـتمرت في النـوم بعـد أن سـقطت عـلى أرض ثلجيـة ناعمة، لذا تجمدت حتى الموت أثناء نومها.

رحلت "لينا" وأخذت معها صوت ضحكات أمي؛ فلقد فقدت "دامـالا" طفلين على التوالي، فظل وجهها مصفرًا طوال الـشتاء، وخـلال تلـك الليـالي

الطويلـة المتعاقبـة لم أسـمع ولـو مـرة واحـدة صـوت الـريح الـذي تـصنعه هـي و"لينكيه" داخل الخيمة.

كنت أحب كثيرًا سماع همساتها الحارة "لينكيه، لينكيه" التـي تنـساب وسـط صوت الريح.

كانـت الثلـوج في هـذا الـشتاء قليلـة، أمـا الـسناجب فقـد كانـت كثـيرة جـدًا، فكان الـصيد وفـيرًا، لكـن هـذا لم يـنجح في إسـعاد "لينكيـه" و"دامـالا". وفي الربيـع جاء "رولينسكي" ممتطيًا حـصانه إلى معـسكرنا، وعنـدما علـم أن "لينـا" قـد رحلـت علـت الكآبـة وجهـه عـلى الفـور ولم ينطـق بحـرف، وحـين أبـدى رغبتـه في رؤيـة تلـك الغزالـة التـي أودت بــ"لينـا" إلى وادي المـوت أخـذه أبي لرؤيتهـا. وقتهـا كـان اللبن قد عاد لـضرع تلـك الغزالـة الرماديـة، فكـان لبنهـا بالنـسبة لــ"دامـالا" أشـبه برسالة موت، كانت كل يوم تجلس القرفصاء أسفل الغزالـة لتحلـب ضرعهـا بعنـف كما لو كانت تتمنى أن تحلبها حتى الجفـاف، وكانـت الغزالـة تقـف مستـسلمة في صبر، أمَّا "رولينسكي" فقد كان يدرك تمامًا لماذا تبدو حركات حلـب "دامـالا" للغزالـة بهذا الجنون، ربت بعطف على ظهر الغزالة وقال لـ"دامالا" إن "لينـا" كانـت تحـب تلك الغزالة، ولو عرفت أنكِ تعاملينها بهذا الـشكل فستـشعر بـالحزن بكـل تأكيـد، عندها رفعت "دامالا" يدها التي كانت تقبض بقوة على ضرع الغزالة، وانهمـرت في البكاء. في تلك المـرة لم يـشرب "رولينـسكي" الخمـر، ولم يـرقص مـع الجميـع رقـصة "واريتشي"، وعندما أخذ معه لفائف فرو السناجب مغادرًا المعـسكر رأيتـه قـد قـام بتعليق شيء ما على شجرة صنوبر صـغيرة، فـانتظرت حتـى امتطـى حـصانه وغـادر لأكتشف أن تلـك الـشجرة تـصدر ضـوءًا لماعًـا، فركـضت نحوهـا لأرى مـا في الأمـر، فوجدت مرآة صغيرة مستديرة، بالتأكيد هي هدية "رولينسكي" التي جلبها لــ"لينـا". كانت المرآة تعكس ضوء الشمس الدافئ والسحب البيضاء النقية والجبال الخـضراء،

كانت تلك المرآة الصغيرة كأنها توشك أن تنكسر من كثرة ضوء الربيع الذي يملؤها، كانت ممتلئة، غنية، لامعة.

في تلك الليلة التي اختفت فيها "لينا" كانت نفسيتي محطمة، لكنني عجزت عن البكاء، لم أتوقع أن ضوء الربيع الذي تجمع في تلك المرآة الصغيرة سينتزع الدموع التي أخفيتها في أعمق أعماق قلبي، فانفجرت باكية بعنف حتى إني أفزعت الطيور التي على الشجرة.

نزعت المرآة الصغيرة وخبأتها وحتى اليوم لا تزال معي، لكنها لم تعد لامعة كالماضي، بل أصبحت ضبابية، ولقد أهديتها من قبل لابنتي "داجيانا" كهدية زواج، وبعد أن أنجبت "داجيانا" ابنتها "إليانا" ورأت أن ابنتها تحب هذه المرآة أيضًا أهدتها إياها كهدية زواج أيضًا. كانت "إليانا" المحبة للرسم تستخدم تلك المرآة دائمًا لتعكس رسوماتها، فقد كانت تقول إن تلك الرسوم حين تنعكس على سطح المرآة تصبح أشبه بمياه البحيرة التي يغلفها ضباب رقيق، جميلة وغامضة. لقد رحلت إليانا عن عالمنا منذ بضع سنوات، وعندما كانت "داجيانا" ترتب متعلقات الفقيدة أرادت أن تكسر تلك المرآة على الصخور، إلا أنني طلبت منها ألا تفعل ذلك؛ فتلك المرآة رأت من قبل جبالي وأشجاري، رأت سحبي وأنهاري، رأت وجوه الكثير من النساء، إنها عين على حياتنا، فكيف يمكنني أن أقف بلا حراك أشاهد "داجيانا" وهي تقتلعها؟!

لقد أبقيت على تلك العين، وذلك على الرغم من أني أعرف أن تلك العين صارت مثل عيني ضبابية لا ترى بوضوح، وذلك لأنها قد رأت الكثير.

لقد اكتشفت أن الوقت دواء وهو خير علاج للإنسان.

ظلت أمي مكتئبة طوال الشتاء الذي تلى رحيل "لينا"، لكن عند حلول الربيع بدأت ظلال الابتسامة تظهر مرة أخرى على وجهها، وفي هذا الربيع أيضًا اكتشفت نزول دماء من أسفل جسدي، فظننت أني سأموت، لكني عندما رأيت

وجه أمي متوردًا بالدماء، أصبحت واثقة أن الدم الذي يسيل مني يذهب لجسدها فقلت لها: "إنني أنزف دمًا، إنني سأموت، لكن دمي لم يسل هدرًا، لقد سال إلى وجهك"، عندها ضمتني "دامالا" مبتهجة إلى صدرها ونادت على أبي قائلة: "لينكيه، لقد كبرت "ووناجيه" الصغيرة، ثم أتت ببعض الخيوط الرقيقة المصنوعة من لحاء الصفصاف الجاف ووضعتها في ذلك المكان أسفل جسدي، عندها عرفت لماذا كانت تحرص كل ربيع على أن تجمع لحاء أشجار الصفصاف من على ضفة النهر، لقد كان ذلك من أجل أن تمتص مياه شبابنا".

عندما كانت الرياح تهب لتجعل أشجار الصفصاف الموجودة على ضفاف النهر رقيقة ناعمة، كانت أمي تنتزع طبقات من لحائها وتعود بها للمعسكر، ثم تحرقها برفق فوق النار لتجعلها أكثر رقة وليونة، بعدها تقطعها إلى خيوط رفيعة، ثم تفركها عدة مرات على فخذها حتى تصير خيوطًا، وبعد نشرها لتجف تخزنها داخل الخيمة، وقتها لم أكن أعرف فائدتها فكنت أسأل أمي التي كانت تبتسم وتقول: "ستعرفين حين تكبرين".

ولقد فكرت أن بدئي في استعمال خيوط لحاء الصفصاف مبكرًا هكذا بالتأكيد له علاقة بحبي لشرب عصير شجر البتولا، وتلك النقطة تأثرت فيها بأمي، فهي أيضًا تحبه أكثر منا جميعًا، لكن السائل الذي نشربه أبيض، أما السائل الذي يسيل منا فهو أحمر.

إن شجر البتولا يرتدي أزهى الملابس بين أشجار الغابة، حيث يلتحف جلبابًا أبيض كالحرير، وعلى هذا الرداء نقاط وزخارف سوداء، ولا تحتاج إلا لشق فتحة صغيرة في جذع الشجرة باستخدام سكين الصيد وتدس فيها أسطوانة عشبية وتضع تحتها دلوًا من لحاء البتولا، فيسيل العصير خلال الأسطوانة العشبية إلى داخل الدلو. هذا العصير نقي شفاف مسكر، إذا ما شربت منه رشفة واحدة فسيملأ فمك بطعم منعش عطر. كنت فيما مضى أذهب أنا و"لينا" لجمع ذلك العصير، وبعد رحيلها أصبحت أذهب مع "لوني"،

فكان يجلس أولًا عند جذع الشجرة ويضع الأسطوانة العشبية بفمه ويشرب حتى يشبع، بعدها يبدأ في ملء الدلو.

لم أرَ من قبل قط أي شخص يحب أشجار البتولا مثل "دامالا"، فقد كانت دائمًا ما تتحسس جذوعها المشعرة قائلة بحسد: "انظروا إلى ما ترتديه، يا لنظافته، أشبه بالثلوج، انظروا إلى أجسادها، كم هي نحيلة ومستقيمة".

أما إذا ما عدت أنا و"لوني" بعصير أشجار البتولا فإنها لا تشرب لبن الغزلان، كانت تصب لنفسها وعاءً منه وتشربه دفعة واحدة، وبعد شربه تصبح كشخص خرج إلى النور فجأة بعد معيشة طويلة في الظلام، فكانت تضيق عينيها كالسكران، كما كانت في كل مرة تنزع فيها لحاء أشجار البتولا تكحت العصير المتخثر الملتصق باللحاء لتأكله، كانت تنزع اللحاء بحرفية أكثر من الرجال، حيث تمسك بيدها سكين صيد حادًا، وتختار لحاء أشجار البتولا الأبيض صقيل السطح متجانس السمك، ثم تشق بالسكين خطًّا طويلًا في الجزء الأكثر سمكًا من لحاء الشجرة، ثم تقطع خطًّا عرضيًا بالسكين في الطرف الأعلى وتدور به حول الجذع، ثم تفعل المثل عند الطرف الأسفل، حينها تستطيع أن تنزع قطعة اللحاء بسلاسة، ونظرًا لأن اللحاء المنزوع يغطي جذع الشجرة، لذا فإن الأشجار البيضاء التي يتم نزع لحائها تظل عارية الجسد في ذلك العام، وفي العام الذي يليه تصير رمادية سوداء كأنها ارتدت سروالًا أسود، وبعد عام آخر أو عامين ينبت لحاء جديد طري في المكان الذي انتُزع منه، لتعود مرة أخرى إلى جلبابها الأبيض الناصع، لذلك كنت أرى دائمًا أن أشجار البتولا خياط ماهر يستطيع أن يصنع لنفسه ملابس جميلة.

وللحاء المنزوع استخدامات عديدة، فلو كان لصناعة الدلاء والصناديق، فلا يحتاج إلا للشي على النار لفترة وجيزة حتى يصبح طريًّا، بعدها يمكن استخدامه. تُستخدم الدلاء لتعبئة المياه، أما تلك الصناديق ذات الأشكال والألوان المختلفة فيمكن أن نضع بها الملح والشاي والسكر والتبغ. أما اللحاء المستخدم

لصنع القوارب فهو قطعة كبيرة من اللحاء توضع في قدر حديـدي ضـخم وتُـسلق ثم تُنتشل من الماء وتُعصر حتى تجف، حينها يمكن استخدامها لصناعة القـوارب، ونطلق على هذا النوع من القوارب "جياوو"، وتحتاج صناعة الـ"جياوو" إلى صـنع هيكل القارب باستخدام شجر الـصنوبر، بعـدها يُغطَـى باسـتخدام لحـاء أشـجار البتولا، ونستخدم جذور أشجار المنجروف كأحبال نصل بها بين قطـع اللحـاء، ثـم نستخدم الصمغ المصنع بمزج زيت شـجر الـصنوبر مـع زيـت شـجر البتـولا لـسد الفجوات، والـ"جياوو" ضيق جدًا لكنه طويل، فإلى أي حد يبلـغ طولـه؟ بمـا يبلـغ طول أربعة أو خمسة أشخاص، وطرفاه مدببان، وليست له مقدمة ومؤخرة، فـأي ناحية تقف فيها يمكن أن تعتبرهـا مقدمـة القـارب، ومـا إن ينـزل إلى المـاء حتـى يصبح في منتهى الرشاقة مثل سمكة بيضاء كبيرة، ويجب على كل قبيلة أن تمتلـك ثلاث أو أربع "جياوو"، في العـادة يـتم وضـعها في المعـسكر، وعنـد الحاجـة إليهـا يمكن لشخص واحد أن يحملها نظرًا لخفتها، أما في الصيف حين تسكن القبيلـة في معسكر لفترة طويلة، توضع الـ"جياوو" جانب النهر، وبهذا يصبح استخدامها أكثر سهولة.

إن ذكرياتي مع قوارب لحاء أشجار البتـولا تـرتبط مـع "كانـداخان"، والـذي نطلق عليه أيضًا "تشاخيه". و"كانداخان" هو أضخم حيوانات الغابـة، يماثـل في حجمـه حجـم البقـرة، ويبلـغ وزن الــ"كانـداخان" البـالغ حـوالي أربعمائـة أو خمسمائة جين (الجـين وحـدة قيـاس وزن صـينية تـساوي نـصف كيلـو جـرام ورأسه ضخم وطويل ورقبته قصيرة، أمـا شـعره فلونـه رمـادي وبنـي، وأطرافـه الأربعة رفيعة وطويلة، وذيله صغير. والذكر تنبت على رأسه قرون يأخذ الجـزء العلوي منها شكل الشوكة، لذا يبدو الــ"تـشاخيه" كأنـه يعلـق منـشفتين عـلى جانبي رأسه. وأكثر الأطعمة التي يحبها الـ"كانـداخانهي" الأعـشاب التـي تنمـو في مـستنقعات المنحنـى النهـري، لـذا كـان الـصيادون دائمًـا مـا يختبئـون إلى جوار النهر إذا ما أرادوا صيده. وعادةً يختبئ الـ"كانداخان" في الأماكن الظليلـة

وسط الغابات أثناء النهار لينام، ويخرج في الليل ليبحث عن الطعام، لذلك يفضل رجال القبيلة الخروج لصيده بعد ظهور النجوم.

كان أبي يرغب وبشدة في أن يجعل من "لوني" صيادًا ماهرًا، لذلك اعتاد اصطحابه معه للصيد إذا ما كان موقع الصيد قريبًا من المعسكر، وذلك منذ أن كان عمره ثماني أو تسع سنوات.

ما زلت أذكر تلك الليلة الصيفية المنعشة، كان البدر فيها مكتملًا، كنت أجلس أنا وأمي إلى جوار الموقد نغزل الخيوط حين دخل "لوني" مسرعًا وأخبرني والحماسة تملؤه أن أبي سيأخذه معه بعد قليل، سيركبان الـ"جياوو" حتى المنحنى النهري لصيد الـ"تشاخيه"، لم أكن مهتمة في الواقع بأمر الـ"كانداخان"، لكني كنت أرغب بشدة في ركوب الـ"جياوو"، لذا توسلت لأمي أن تتوسط لدى أبي لكي يأخذني أنا أيضًا، فقد كنت أعلم أنهم ينفرون من اصطحاب الفتيات للصيد.

لكني كنت على ثقة من أن أي أمر ستطلب أمي من أبي أن يفعله ستكون إجابته هي "حسنًا". لذا عندما خرجت أمي من الخيمة بحثًا عن أبي، قفزت على الفور من جوار الموقد فقد عرفت أنني سأذهب معهم بالتأكيد إلى المنحنى النهري.

حمل "لينكيه" بندقيته على ظهره، وأخذنا معه مخترقين غابات الصنوبر حتى ضفة النهر. وفي الطريق أمرني أنا و"لوني" ألا نصدر أي صوت عالٍ أو نبصق في الماء بعد أن نركب الـ"جياوو".

وقتها كانت الغابات على الضفة اليمنى لنهر أرجون ليست كثيفة وتحجب السماء والشمس فحسب، بل كان النهر نفسه متشعبًا، لذا كانت له فروع كثيرة بلا اسم. واليوم أصبحت تلك الأنهار الصغيرة أشبه بالشهب التي اخترقت عباب السماء، معظمها قد اختفى، لذلك دعوني حين أتذكر ذلك النهر الصغير

الـذي لا اسـم لـه أن أدعـوه نهـر الــ"جانـداهان"، لأن المـرة الأولى التـي رأيـت الـ"جانداهان" فيها كانت فوق هذا النهر.

كان هذا النهر ضيقًا للغاية ومياهه ليست عميقة، ولقد أخرج "لينكيه" قارب اللحاء المختفي بين الأعشاب على جانب النهر كأنه يُخرج طفلًا متكاسلًا، ثم دفعه حتى مياه النهر، وانتظر حتى اطمأن أني و"لوني" قد ركبنا القارب بعدها قفز هـو إلى داخله، كان القـارب خفيفًـا للغايـة لا يغـوص في المـاء، كأنـه حـشرة يعـسوب يتقافز على سطح الماء، تقريبًا لا تسمع له صوت، وإنما كـان يهتـز قلـيلًا فحـسب، وعندما سار القارب بخفة ورشاقة شعرت بنسمات باردة بجوار أذني، كان إحساسًا مريحًا للغاية، وعند النظر للأشجار عند ضفتي النهر أثناء السير بالقارب بدت كل شجرة منها كأنما نمت لها سيقان وبدأت تـسير للخلـف وكـأن النهـر بطـل شـجاع والأشجار جنود متقهقـرة. لم تكـن حـول القمـر أي سـحب، فكـان لامعًـا ومـضيئًا للغاية، مما يجعل المرء يقلق من أن يسقط من السماء لعـدم وجـود مـا يحجبـه. وكان النهر في البداية مستقيمًا، بعدها بدأت تظهر فيه انحناءات خفيفـة، بعـدها ازدادت الانحناءات حجـمًا، وزادت سرعـة التيـار، كـما أصـبح النهـر أكـثر اتـساعًا. وأخيرًا وصلنا إلى مكان بـه منحنـى كبـير، فأصـبح نهـر "جانـداهان" كـالمرآة التـي ولدت لتوها، حيث ظهرت إلى جانبه بحيرة صغيرة بيـضاوية الـشكل، إلا أن تيـاره ظل متجهًا نحو الأمام.

دخل "لينكيه" بالقارب في البحيرة، وجدفنا تجاه جبل قليـل التعرجـات قبالـة البحيرة ونزل "لينكيه" إلى الشاطئ، وطلب مني أنا و"لوني" ألا نهبط. وما إن غادر أبي حتى أفزعني "لوني" قائلًا: "انظري بـسرعة هنـاك ذئـب في الأمـام، لقـد رأيـت الضوء الذي ينبعث من عينيه". وما إن هممـت بالـصراخ حتـى التفـت أبي الـذي سمع ما قاله "لوني" وقال موجهًا كلامه له: "ماذا قلت لـك؟ ألم أخـبرك أن الـصياد الماهر لا يتفوه بالترهات ولا يكثر من الكلام أثناء الصيد؟"، حينهـا سـكت "لـوني"، وطرق بدن القارب بإصبعه عدة مرات كأنه يطرق على رأسه معبرًا عن ندمه عـما فعل.

عاد "لينكيه" سريعًا إلى القارب وقال لنا بـصوت خفـيض إنـه اكتـشف وسـط الأعشاب الكثيفة على الشاطئ براز الـ"كانـداهان" وآثـار حـوافره، والـبراز لا يـزال طازجًا، مما يدل على أنه قد جاء إلى هنا من قبل منـذ بـضع سـاعات، ومـن آثـار أقدامه يمكن أن نعرف أنه "كانداهان" بالغ ضخم الحجـم. ثـم قـال "لينكيـه" إن علينـا المرابـضة وسـط أشـجار الصفـصاف في الجهـة المقابلـة، فقمنـا بالتجـديف بالقارب حتى وصلنا إلى أشـجار الصفـصاف عـلى ضـفة البحـيرة ودسـسنا القـارب وسطها فأصبح كأنه جزء من اليابسة، واختبأنـا في القـارب، وطلـب "لينكيـه" مـن "لوني" مساعدته في وضع الطلقات بالبندقية، ثم أشار بإصبعه على شفتيه محـذرًا إيانا من أن نصدر أي صوت.

ظللنا منتظرين هناك كاتمين أنفاسنا. في البداية كنت متحمـسة للغايـة، فقـد اعتقدت أن الـ"كانداهان" سيأتي سريعًـا، لكـن القمـر تحـرك لمـسافة عـلى سـطح البحيرة ولم أسمع أي صوت، حينها شعرت بالنعاس ولم أتمالك نفسي من التثـاؤب، فمد "لوني" يده وشد شعري محاولًا إيقاظي، لكنه آلمني كثيرًا فضربته عـلى كتفـه بغضب، حينها دار برأسه وابتسم لي، وما زلت إلى الآن أتذكر وجه "لوني" المبتـسم تحت ضوء القمر، صفي أسنان منتظمين يلمعان كالفضة كـما لـو أن فمـه يخفـي كنزًا دفينًا.

ولتجنــب النعــاس ظللــت أحــرك رأسي، فرفعــت رأسي أولًا لأرى القمــر في السماء، ثم خفضتها لأرى القمر في وسط المياه، وبعد أن نظرت للقمر في الميـاه رفعت رأسي ثانيةً لأراه في السماء، فكنت تارة أشـعر أن القمـر في الـسماء أكـثر بريقًا، وتارة أرى القمر في الماء أكثر وضـوحًا، وتـارة أشـعر أن القمـر في الـسماء أكبر، وتارة أخرى أشعر أن القمر في الماء أكبر. بعدها هبت ريـاح، فظـل القمـر في السماء على حالته، لكن القمر الذي في الماء امتلأ وجهه بالتجاعيد كما لو أنه هرم فجأة. وبالتحديد في تلك اللحظة فهمت أن الأشياء التي لا تهرم مهما طـال بها العمر هي الأشياء الموجودة بالسماء، أمَّا الانعكاسات في المياه فمهما كانـت

جميلة فعمرها قصير، حينها تذكرت قول الكاهن "نيدو" إن "لينا" مع الطيور التي في السماء، فشعرت أنها ذهبت لمكان جيد، ولم أعد أخشى ذكراها.

عندما فكرت في "لينا" ابتلع أبي ريقه، وسمعت صوتًا يشبه "تسا تسا" كأن شخصًا يقطع شجرة باستخدام بلطة، لكنها ليست بلطة حادة وإنما بلطة صدئة، لذلك فإن صوت "تسا تسا" غير واضح. لكنه "ما تحول إلى "بو بو"، وعندما تتبعت ببصري مصدره اكتشفت ظلًّا أسود يمشي قبالة البحيرة، يبدو أن صوت "بو بو" هو صوت حوافر الحيوانات وقد غرست في مستنقعات ضفة البحيرة. عندها لم يستطع أبي أن يكتم آهة حماسة صدرت منه، كنت أعلم أن هذا الظل بالتأكيد هو الـ"كانداهان"، فغمرتني الحماسة وتسارعت ضربات قلبي، وذهبت عني تمامًا الرغبة في النوم.

كان الـ"كاندهان" يسير بثقة وسط الظلام، وكان جسده الضخم يبدو ككثيب رمل متحرك. سار تجاه مياه البحيرة وأحنى رأسه، وشرب في البداية فسمعت صوت عب الماء، وعندما رفع رأسه، صوَّب أبي بندقيته نحوه لكنه لم يطلق النار، وفجأة نزل الـ"كاندهان" بعنف إلى الماء، فاعتقدت في البداية أنه أبله، لكن من كان يتوقع أنه بهذه الرشاقة في الماء؟ يبدو أنه غاص ليأكل الأعشاب، فبدأ رأسه يظهر تارة على سطح الماء ويختفي تارة أخرى، كان على الأرجح قد اعتبر نفسه سيد تلك المياه، فلم يكن يستقر في مكان واحد فيها، بل كان يسبح تارة إلى الناحية الجنوبية من البحيرة، ثم يسبح تارة أخرى إلى الناحية الشرقية، ليتنقل بحرية داخل مملكته، كان بإمكاننا تتبع آثاره من الفقاعات التي تظهر على سطح الماء، ولقد اقترب تدريجيًّا من قلب البحيرة واقترب تدريجيًّا منا، وعندما تقدم تدريجيًّا أكثر حطَّم القمر الموجود وسط المياه، وتراقصت على سطح المياه شظايا القمر الذهبية، فكان شيئًا يدعو للرثاء على القمر. وعندما اقترب منا الـ"كانداهان" كنت في غاية القلق، لأنني رأيت شكله فتأكدت أن شهيته واسعة، فلو أخطأ أبي في إصابته وقام بهجوم مضاد

علينا فإن قاربنا بالتأكيد سيتحطم تحت حوافره، ولن يبقى أمامنا من سبيل سوى الهرب جريًا، فلو جرينا ببطء ولحق بنا فستكون تلك نهايتنا لا محالة.

لكن "لينكيه" كان بالفعل صيادًا ماهرًا، فعندما غاص الـ"كانداهان" في المياه حتى عاد القمر الموجود على سطح البحيرة إلى اكتماله، ظل هو على هدوئه وانتظر في صبر حتى وقف الـ"كانداهان" مرة أخرى في وسط البحيرة وهز رأسه بقلب يملؤه الرضا وانتوى العودة إلى الشاطئ، حينها أطلق "لينكيه" بندقيته، وعندما سمعت صوت الطلقة شعرت بقلبي يرتجف معها، ورأيت الـ"كانداهان" وقد تلوى بجسده كأنه على وشك السقوط في المياه، إلا أنه استعاد ثباته سريعًا وجرى تجاه مصدر الطلقة، عندها لم ألتفت لتحذيرات "لينكيه" وأطلقت صرخة عالية، وكادت روحي أن تخرج من فرط الرعب. وضربه "لينكيه" طلقتين أخريين في جسده حينها فقط توقف عن الهجوم، لكنه لم يسقط على الفور، وإنما ترنح طويلًا كالسكران، وفي النهاية أطلق صيحة أخيرة وسقط مسببًا موجة كبيرة، عندها هلل "لوني" فرحًا، وأطلق "لينكيه" تنهيدة طويلة ثم وضع البندقية جانبًا، وانتظرنا لدقيقتين أو ثلاث لنتأكد من مفارقته للحياة، عندها فقط تمسكنا بالقارب وخرجنا من بين أشجار الصفصاف متجهين نحو قلب البحيرة، كان رأس الـ"كانداهان" غائصًا في الماء ولا يظهر من جسده سوى قرونيه، أما القمر الذي بجانبه فقد عاد مستديرًا كاملًا مرة أخرى، لكنه لم يعد أبيض فضيًا، وإنما صار قمرًا أسود، لقد خضبت دماء الـ"كانداهان" مياه البحيرة وصبغتها بلون الليل الأسود. وحين فكرت في أنه كان منذ قليل يلهو ويغوص في الماء ليأكل العشب والآن لا روح فيه، اصطكت أسناني وارتجفت أقدامي، أما "لوني" فقد كان في قمة السعادة والحماس، عندها عرفت أنني لا أصلح أبدًا أن أكون صيادة ماهرة.

لكننا لم ننقل الـ"كانداهان" معنا للمعسكر، فقد كان ثقيلًا ويستحيل أن ننقله اعتمادًا على قوتنا نحن الثلاثة فقط، فقام "لينكيه" بالتجديف بالقارب

مطلقًا صافرة من فمـه، وأخـذنا في طريـق العـودة للمعـسكر، لكننـا حـين مررنـا بالأشجار العالية التي تكاد تخرق الـسماء لم يجـرؤ "لينكيـه" عـلى إطـلاق صـافرة بفمه؛ فقد خشي أن يزعج إله الجبال "بايناتشا".

تقول الأسطورة إنه منذ زمن بعيد كان هناك زعيم قبيلة قاد كل أفراد قبيلته ذات يوم للصيد، فسمعوا أصوات حيوانات بريـة صـادرة مـن قلـب جبـل ضـخم فقاموا بحصاره. وقتها كان الوقت قـد تـأخر، لـذا طلـب الـزعيم مـن الجميـع أن يبيتوا في أماكنهم، وفي اليوم التالي قام أفراد القبيلة بتضييق حلقة الحـصار وذلـك تحت قيادة الزعيم، لكن اليوم مضى سريعًا، وعند المغيب وفي وقت الراحـة سـأل الزعيم أفراد القبيلة أن يقدروا كم نوعا مـن الحيوانـات البريـة موجـودا في دائـرة الصيد؟ وكم عـددها؟ لكـن لم يجـرؤ أحـد عـلى إجابـة الـسؤال؛ لأن تقـدير عـدد الحيوانات البرية الموجود في الجبل يشبه تقدير عدد الأسماك السابحة في نهر مـا، كيف يعقل أن يتم تقديرها بـشكل دقيـق؟ وفي وسـط الـصمت الـذي حـل عـلى الجميع فتح رجل عجوز ذو لحية بيضاء فمه متحدثًا، لم يقل فحسب العـدد، بـل قام بتقسيمها لأنواع، كم غزالة، وكم وعلًا وكم أرنبًا، وغيرها. وفي اليوم التالي حـين انتهت عمليـة الـصيد، قـام زعـيم القبيلـة بنفـسه بقيـادة فريـق لإحـصاء أعـداد الحيوانات التي تم صيدها، فكانـت أعـدادها متطابقـة تمامًـا مـع مـا قالـه ذلـك العجوز، فشعر زعيم القبيلة بأن ذلك الرجل غـير عـادي، فقـرر الـذهاب ليـسأله وذهب للبحث عنه. كان قد شاهده بوضوح منذ قليل يجلس تحت تلك الشجرة، لكنه الآن اختفى بلا أثر، فشعر الزعيم بالدهشة الشديدة، وأرسل من يبحث عنه في كافة الأرجاء، إلا أنهم لم يعثروا عليه، حينها ثبت في رأي الزعيم أن هذا الرجـل بالتأكيد هو إله الجبل الذي يحكم كل الحيوانات البرية، ومن ثم قام بحفر صورة هذا العجوز على الـشجرة التـي كـان يجلـس تحتهـا، وهـذا هـو "بايناتـشا"، لـذا فالصيادون إذا ما رأوا تلك الشجرة المحفور عليها اسمه أثناء الـصيد فـلا يكتفـون بتقديم التبغ والخمور قرابين له، بل يخلعـون بنـادقهم وينزعـون منهـا الطلقـات ويركعون ويسجدون طـالبين العنايـة منـه. وإذا مـا اصـطادوا حيوانًـا بريًّـا قـاموا

يمسح شيء من دمه ودهنه على تمثال الإله هـذا، في هـذا الوقـت كانـت الأشـجار المحفور عليها إله الجبل في غابات الضفة اليمنى لنهر أرجون كثيرة للغاية، وحـين يمر الصيادون بجوار "ايناتشا" فلا يجرؤون على إصدار صخب.

كنت شاردة طوال الطريق، فـسألني "لينكيـه" إذا مـا كنـت أشـعر بالنعـاس؟ لكني لم أرد، كنت أشبه الفريسة في يد أبي، على الرغم مـن أن طلقاتـه لم تـصبني، وبعد أن وصلنا إلى المعسكر أخبر أبي الآخرين في القبيلة بالمكان الذي اصطاد فيـه الـ"كانداهان"، فانطلق كلٌّ من "إيوان" و"خاشيه" و"شينديه" في قلب الليل لنقله. أما "لينكيه" فكان كالحاكم المنتصر، بقي للراحة، كان بالتأكيد في غاية السعادة في هذا المساء، فقد صنع هـو و"دامـالا" صـوت ريـح قويـة عاصـفة داخـل الخيمـة، وسمعت أمي تنادي اسمه مرة تلو الأخرى. وفي وسط صوت الريح هذا تمثل أمام عيني ذلك القمر الأسود، فمـزق أحلامـي وجعلنـي لا أنـام بعمـق إلا مـع الـضوء الأبيض الذي ظهر في الشرق.

عندما استيقظت كانت الشمس قـد صـعدت عاليًـا في الـسماء، وكانـت أمـي منهمكة في تقطيع لحم الـ"كانداهان"، فعلمت أنها تنوى تجفيف شرائـح اللحـم. تلك الشرائح الحمراء الداكنة تشبه الورود الحمراء والبيضاء التي أسقطتها الرياح.

ونظرًا لاصطياد "كانداهان"، عم جو من الفـرح، فرأيـت "ماريـة" و"إيفولينـا" مثلهما مثل "دامالا" منهمكتين في نشر شرائح اللحم في فرح وابتهاج، وعلـت وجـه "مارية" ابتسامة، أما "إيفولينا" فقد كانت تدندن بأغـاني. ولقـد رأتنـي "إيفولينـا" من بعيد فنادتني بصوتٍ عالٍ لكي أذهب إليها، وقالـت إنهـا جمعـت بعـضًا مـن "شيليماوي"، ودعتني لتناول البعض منها، والـ"شيليماوي" هـو نـوع مـن البرقـوق الأسود ينمو في أودية الأنهار، وقبل منتصف الخريف لا يكـون مـسكرًا، لـذا قلـت لها بصوتٍ عالٍ: "لا أحب أكل الثمار النيئة"، ثم مررت من أمام خيمتهـا، فـسارت خلفـي قائلـة: "في المـرة الأولى التـي خرجـتِ فيهـا للـصيد مـع "لينكيـه" اصـطاد

"كانداهان"، أرى أننا يجب أن نلبسكِ زي صبي وندعكِ تذهبين معه للصيد فيما بعد". لم أجادلها كثيرًا، بل عوجت فمي في إشارة لها ومضيت.

كنت ذاهبة إلى الكاهن "نيدو"؛ فقد كنت أعرف أنه يقدم القرابين للآلهة "مالو" إذا ما اصطدنا دبًّا أو "كانداهان".

في العادة كنا دبًّا بعد الصيد نقيم صوبة مثلثة أمام خيمة الكاهن "نيدو" ثم نقطع رأس الحيوان ونعلقه فوقها، ويجب أن يكون الرأس متجهًا نحو الناحية التي سنرتحل إليها، بعدها نُنزل الرأس ونضعه مع الكبد والرئة والقصبة الهوائية أمام الإله "مالو" داخل الخيمة، ونضع فرع شجرة ونبدأ من ناحية اليمين ونضعها بالترتيب، ثم نغطيها بقطعة جلد حتى لا يراها أحد لنجعل الإله "مالو" تستمتع بها خفية، وفي اليوم التالي، يقطع الكاهن "نيدو" قلب الفريسة، ويُخرج الآلهة الموجودة داخل الكيس الجلدي، ثم يدهن فمها بالدماء ويعيدها مرة أخرى للكيس، بعدها يقطع عدة شرائح من لحم الحيوان السمين ويرميها في النار، وعندما تبدأ في الطقطقة وإصدار الدخان يغطيها على الفور بعشب الـ"كاواوا"، حينها تملأ الرائحة العطرة المكان، فيقوم برجِّ الكيس الجلدي المحتوي على الآلهة وسط الدخان، بالضبط كما نرج الملابس المتسخة في الماء لغسلها، بعدها يعلقها في مكانها، وهكذا تنتهي مراسم القرابين، عندها يمكن توزيع الكبد والرئة وأكلها. كانت عينا "داشي" ضعيفتين، لذا كنا في كل مرة تقريبًا نعطيه الكبد ليأكلها، فكان يقطعها بالسكين ثم يأكلها والدماء تملؤها. ولقد رأيت ذات مرة منظره وهو يأكل الكبد النيئة وقد غطى الدم جانب فمه، وتناثرت نقاط من الدم على ذقنه، فكان منظرًا مقززًا. أما قلب الفريسة فكان يوزع بالتساوي، وعلى حسب عدد الخيام يقسم إلى العدد نفسه من القطع، تلك القطع من القلب ما إن تصل لأيدي أبناء القبيلة حتى تؤكل كلها تقريبًا نيئة، كنت آكل اللحم النيء أنا أيضًا، إلا أنني لم أكن أحب أكل أحشاء الحيوانات، لأني أعتقد أنها أوعية للدم.

لقد فكرت من قبل لمرات عديدة أن أذهب خلال طقوس تقديم القرابين لأرى الآلهة الموجودة بالكيس، إلا أن الفرصة كانت تفوتني في كل مرة، فقد كنت لا أعرف إذا ما كانت الآلهة التي تدهن أفواهها بالدماء تتحرك شفتاها مثل شفاه البشر؟

لكني رأيت من خلال حركة النسوة في تجفيف اللحم أن عملية نقل الـ"كانداهان" قد تمت خلال الليل، وانتهت أيضًا مراسم تقديم القرابين، إلا أنني تمسكت بالأمل أن يحالفني الحظ، وذهبت إلى خيمة الكاهن "نيدو"، وهناك خارج الخيمة رأيت غزالًا غريبًا لونه أبيض ورمادي، وعلى ظهره سرج وهودج، مما يدل على أن هناك من يمتطيه، يبدو أن هناك غريبًا جاء إلى المعسكر.

كان كل من يأتون بحثًا عن الكاهن "نيدو" من القبائل المجاورة التي لا تنتمي لعرقنا نفسه، وكانوا يأتون بحثًا عنه لغرض واحد ألا وهو رقصة الآلهة، فليست كل القبائل لديها كاهن، فإذا أصيب أحدهم بمرض شديد، فإنهم يرسلون من يتتبع علامات الأشجار حتى يعثر على قبيلة لديها كاهن ليطلب منه أن ينزع المرض من جسد المريض، وبالطبع يحضرون معهم بعض الهدايا مثل البط البري أو الدجاج الجبلي وذلك لتقديمها للإله "مالو". ونادرًا ما يرفض أي كاهن طلب القادمين، وعندما ينتهي من رقصة الآلهة لدى قبيلة أخرى عادةً ما يرجع ومعه غزالة، وتلك هي الهدية التي يقدمونها له تعبيرًا عن شكرهم.

وحسبما أذكر تمت دعوة الكاهن "نيدو" مرتين من قبل ليرقص رقصة الآلهة، المرة الأولى كانت من أجل رجل في منتصف العمر فقد بصره فجأة، والمرة الثانية كانت من أجل طفل أصيب بالجرب، ولقد ذهب لمدة ثلاثة أيام لرؤية ما حل بعيني هذا الرجل، أما الطفل المصاب بالجرب فقد ذهب لرؤيته وعاد في اليوم نفسه، ويقال إن الكاهن "نيدو" قد استطاع إعادة الإبصار لذلك الرجل الذي قضى في الظلام بضعة عشر يومًا وجعله يرى الضوء مرة أخرى، أما ذلك الطفل المصاب بالجرب فقد توقف الجرب عن الانتشار والتقيح وسط أصوات رقصات الكاهن.

عندما دخلت للخيمة، كان الكـاهن "نيـدو" منهمكًـا في ترتيـب الأشـياء التـي يحتاجها لرقصة الآلهة، وبجانبه كان يقف منتظرًا رجل كبير الفم منحنـي الوسـط يغطي وجهه التراب. فسألته قائلـة: "إيجادوامـا، هـل سـتذهب لتعـود مريـضًا؟" فرفع رأسه ونظـر لي، ولم يقـل إنـه ذاهـب لـرقص رقـصة الآلهـة، وإنمـا قـال: "إن الكانداهان الذي تم اصطياده بالأمس ضخم، ولحمه جيد، وجلده جيد أيضًا، لقد طلبت من عمتك "إيفولينا" أن تصنع لك من الجلد حذاءً برقبة بعد أن تنضجه".

كانت "إيفولينا" هي الأكثر براعـة في فـن صـناعة الأحذيـة ذات الرقبـة، فقـد كانت الأحذية التي تصنعها خفيفة ومتينة، كما كانـت تطـرز عـلى وسـط الحـذاء مختلف أنواع الزهور مما يجعل شكله في غاية الجمال. يبـدو أن الكـاهن "نيـدو" قد عرف بأمر ذهـابي للـصيد مـع "لينكيـه"، وكـان يـشعر بالتأكيـد أننـي صـاحبة الفضل في ذلك لذا طلب من "إيفولينا" أن تصنع لي ذلك الحذاء.

لكني في الواقـع لم أكـن مهتمـة بـأمر الحـذاء، كنـت أرغـب في الـذهاب مـع الكاهن "نيدو" إلى القبيلة الأخرى لأراه وهو يرقص رقصة الآلهة.

لقد رأيته وقد حزم ملابس الآلهة والقبعة والـسروال والتنـورة والوشـاح كلهـا مع بعضها، ولفها في قماش لونه أزرق، ثـم قـام بوضـع طبلـة الآلهـة وعـصا قـرع الطبول المصنوعة من قدم وعل في كيس جلدي، وعندما سـار نحـو الخـارج قلـت له: "إيجادواما، أنا أرغب في الذهاب معك".

هز الكاهن "نيدو" رأسه رافضًا وقال لي إنـه سيـسير في طريـق طويـل بعيـد، وليس من الأمان أن يصحبني معه، كما أنه لـيس بـالأمر الـسهل أيـضًا. وقـال إنـه سيصحبني فيما بعد إلى "تشورجان"، فهناك الكثير من الأماكن الجميلة هناك مثل الحوانيت والعربات التي تجرها الخيول ونُزُل المسافرين.

لكننـي أخبرتـه أننـي أرغـب فقـط في رؤيتـه وهـو يـرقص رقـصة الآلهـة، ولا أرغب في الذهاب إلى "تشورجان". فقال الكاهن "نيدو" إنـه غـير ذاهـب في تلـك

المرة لرقص رقصة الآلهة من أجل شخص، وإنما ليرقصها من أجـل غـزلان مريـضة، ولا شيء يستحق المشاهدة في ذلك، وطلب مني البقاء في المعسكر لمـساعدة أمـي في نشر اللحم المجفف. قلـت لـه بغـضب:"لقـد نـشرت "دامـالا" اللحـم المجفـف بالفعل!".

فنظر لي الكـاهن "نيـدو" بدهـشة، فهـو لم يكـن يتوقـع أننـي لا أنـادي أمـي "إيني"، بل أناديها "دامالا" مثلما يفعل "لينكيه". وقال: "هل أضاع الـ"كانـداهان" الذي تم اصطياده أمس عقلك؟ هل تعجزين حتى عن نطق كلمة "إيني"؟".

لكـن لهجتـه الـساخرة زادت مـن مـشاعري الغاضـبة، فقلـت بعنـاد: "إذا لم تأخذني معك فلن يتحسن شيء مهما رقصت أي، بالتأكيد لن يتحسن، لن يتحسن أي شيء".

لقد جعل كلامي يد الكاهن "نيدو" ترتعش.

فإذا سألتموني هل قلتِ أي كلام خاطئ في حياتك؟ فسأقول إنه منذ أكثر مـن سبعين عامًا في ذلك الـصيف لم يكـن ينبغـي أن أصـب لعنـاتي عـلى تلـك الغـزلان المريضة، فلو كان الكاهن "نيدو" قد تمكن من شفائها، فلربما كان مـصير كـلٍ مـن "لينكيه" و"دامالا" والكاهن "نيدو" سيتخذ شكلًا آخر، ولن يجعلني أشـعر بغـصة في قلبي حين أتذكر هذا الأمر.

عندما عاد الكاهن "نيدو" كان قد مرت ثلاثة أيام، واعتقدنا جميعًـا أن الغـزلان المريضة بتلك القبيلة قد تم إنقاذهـا؛ لأن الـشخص الـذي رافـق الكـاهن "نيـدو" في العودة جلب معه غزالين هدية شكر له، واحد مـنهما بنـي ذو بقـع بيـضاء، والآخـر رمادي أسود. ولقد أخبرنا الشخص القادم أن السماء أمطرت ثلوجًا غبراء خلال فصل الربيـع في المنـاطق المحيطـة بقبيلـتهم، ويقـال إن تنـاول هـذا النـوع مـن الثلـوج يصيب الغزلان بالطاعون، ولقد سـقطت الثلـوج خـلال الليـل وكـانوا وقتهـا في نـوم عميق، لذلك التهمت الغزلان التي ذهبت للبحث عـن طعـام تلـك الثلـوج دون أن يشعروا بذلك، ولقد خافوا أن تصاب الغـزلان بـالمرض لـذا كـانوا يتعـدون كـل يـوم

للإله "ألونج" الإله الحامي للغزلان، لكنها أصيبت بالمرض، لكن بعد أن ذهب الكاهن "نيدو" أن تنهض من جديد. وعندما كان ذلك الشخص المرافق يحكي تلك الأشياء لم تبدُ علامات السعادة على وجه الكاهن "نيدو".

وقتها لم يكن شعر الشتاء قد تساقط بالكامل عن الغزلان، لذلك كان الغزالان الجديدان يحملان على ظهريهما ندبتين صغيرتين، لم يثر ذلك حذر الجميع، وذلك لأن بعض الغزلان يتساقط عنه شعر الشتاء بقوة فيترك لديها بعض الندوب.

إن الغزلان بطبعها تختلط بالقطيع بسرعة، لذا وبعد يومين بدأ الغزالان الجديدان يخرجان للبحث عن الطعام مع غزلاننا المروضة. كانت تخرج مع مغيب الشمس لتعود في الصباح، وعندما تصل للمعسكر كانت أجسادها تحمل رائحة منعشة لندى الصباح، فكنا نصنع دخانًا لنطرد الناموس والحشرات عنها، فكان منها ما يجلس على الأرض للراحة، ومنها ما يلعق الملح. وكانت "دامالا" أول من انتبه إلى أن الغزالين الجديدين بهما مرض ما، وذلك حين كانت تطعمهما الملح، فلم يكونا يشبهان باقي الغزلان في تعطشها للملح كالنبات الذي لاقى الماء بعد جفاف طويل فتعب منه عبًّا، لكنهما على العكس لا يحملان أي شهية تجاهه، فاعتقدت "دامالا" أنهما مثل البشر يشعران بالخجل لأنهما جديدان، فوضعت الملح في راحة يدها وقربته منهما، فبدا من الواضح أنهما لا يرغبان في إحراج "دامالا"، لذا أخرجا لسانيهما ولعقا القليل منه، لكن كان من الواضح أنهما يلعقان رغمًا عنهما، وبدءا في السعال بعد لعق الملح، فشعرت "دامالا" أنهما ليسا على ما يرام فأخبرت "لينكيه" أن الغزالين الجديدين لا يتمتعان بالحيوية، وربما يجب علينا إبقاؤهما في المعسكر ولا نخرجهما مع باقي الغزلان، فقال "لينكيه" ممازحًا: "دامالا، هذان الغزالان تم إخصاؤهما، وعندما جاءا إلى هنا اكتشفا وجود كثير من إناث الغزلان الجميلة، لكنهما عاجزان عن فعل أي شيء، ونحن على مشارف موسم التزاوج، لذلك فهما يشعران بالحزن والإحباط ولهذا لا يتمتعان بالحيوية". عندها احمر وجه "دامالا" وقالت له: "هل تعتقد

أنهـما مثلـك لا يفكـران طـوال اليـوم إلا في هـذا الأمـر؟"، فـضحك أبي وضـحكت "دامالا"، وخففت ضحكاتهما من القلق تجاه الغزلان.

وبعد فترة قصيرة اكتشفنا أن معظم الغزلان بـدأ شـعرها في التـساقط بـشدة، وظهرت على أجسادها نـدوب كبـيرة مثـل الحفـر التـي تظهـر عـلى الطـرق بعـد الأمطار العاصفة. بالإضافة إلى ذلـك لم تعـد تحـب أكـل الملـح، كـما تـأخر موعـد عودتها للمعسكر إلى الظهر، وعندما تعود تـسقط جميعًـا عـلى الأرض، أمـا ذلـك الغزال الجديد المرقط بالأبيض فقد عاد ذات يوم للمعسكر ورقـد عـلى الأرض ولم تقم له قائمة مرة أخرى، وتبعه رفيقه، ذلك الغزال الرمادي الأسود مات أيضًا، لقد تسبب رحيلهما في تنبهنا أخيرًا إلى أنهما قد جلبا لنا مرض الطـاعون المرعـب، لقـد تعرضت غزلاننا أيضًا لتلك الكارثة، الكاهن "نيدو" لم يفشل في عـلاج غـزلان تلـك القبيلة فحسب، وإنما تسبب في دفع غزلاننا المليئـة بالحيويـة والنـشاط إلى حافـة الموت.

لقد تساقطت وجنتا الكاهن "نيدو" بين يوم وليلـة، فارتـدى بـلا روح ملابـس الآلهة وقبعتها وتنورتها وسروالها، وبدأ في رقص رقصة الآلهة لإنقـاذ الغـزلان. ومـا زلت أذكر بقوة تلك المرة التي رقص فيها، فلقد بدأ الرقص مع بداية الظلام، وظل يرقص حتى ارتفع القمر وملأت النجوم السماء، ولم تتوقـف قـدماه عـن الحركـة. كان يقرع طبلة الآلهة، ويرفع رأسـه أحيانًـا وهـو يـصرخ، ويخفـض رأسـه أحيانًـا أخرى وهو يهمهم، ظل يرقص حتى غاص القمر في الغرب، وارتفعـت الـشمس في الشرق، حينها فقط سقط على الأرض، لقـد رقـص لـسبع أو ثمـاني سـاعات كاملـة، حتى إن قدميه صنعتا حفرة كبيرة داخل الخيمة، أما هو فقـد هـوى داخـل تلـك الحفرة، وبعد أن هوى فيها لم تعد تبدو له أي معالم للحياة، لكن بعد فترة قصيرة صدح صوت بكائه، لقـد جعلنـا صـوت بكائـه نـدرك أن الغـزلان لـن تهـرب مـن مصيرها المحتوم.

استمر الطاعون لحوالي شهرين، شاهدنا بأعيننا الغزلان التي نحبها وجلدها يتساقط يومًا بعـد يـوم، ثـم تتهـاوى عـلى الأرض ثـم تمـوت. وبـدأ الجـو يـبرد

تدريجيًّا، واصفرت الأوراق بالغابة، وجفت الأعشاب، وظهر عيش الغراب، لم يتبقَ من الغزلان التي يمكنها أكل عيش الغراب سوى ثلاثين رأسًا تقريبًا، تلك الغزلان الثلاثون اختارها "لينكيه" بعناية فائقة من بين المرضى، وساقها إلى مكان تحيطه الجبال من ثلاث جهات والماء من الجهة الرابعة، وذلك ليقصر مجال تحركها على هذا المكان لعزلها عن باقي الغزلان، مما جعل تلك الغزلان تنجو فيما يشبه المعجزة. أمَّا الغزلان التي بقيت في المعسكر فقد ماتت كلها بلا استثناء، في تلك الفترة كنا ندفن غزلانًا كل يوم تقريبًا، ومن أجل الوقاية من انتشار الطاعون إلى القبائل الأخرى كنا ندفنها على عمق بعيد. ولقد نشطت الغربان أيضًا، فكانت تحلق يوميًّا فوق معسكرنا وتنعق بصوتٍ عالٍ، ولقد أطلق "داشي" صقره الصياد ليطرد أولئك الزوار غير المرغوب فيهم، لكن الغربان كانت كثيرة، فإذا طردت مجموعة تأتي مجموعة أخرى، كانت تشبه السحب السوداء تجعل المرء يشعر بالانقباض. وكان "داشي" ما إن يرانا ندفن غزلانًا حتى يصيح "وو لو لو"، يصيح والدمع يتطاير من عينيه، لكن أحدًا لم يكن يهتم بدموعه، لأن قلوب الجميع كانت تفيض بالدمع.

وخلال تلك الفترة لم نرتحل، وأوقفنا كل أنشطة الصيد، وكان السبب وراء عدم الارتحال هو عدم الرغبة في نشر الطاعون وإصابة غزلان القبائل الأخرى.

وعندما عاد "لينكيه" إلينا ومعه بضعة وثلاثين غزالًا لم يتمالك الكثيرون أنفسهم من البكاء. كانت تلك الغزلان بالنسبة لنا بمثابة "جذوة النار"، وكان شعر الشتاء قد بدأ ينمو على أجسادها، وعلى الرغم من ضعفها وهزالها نتيجة لهربها من بين براثن الطاعون، إلا أنها أصبحت تحب تناول الملح مرة أخرى، كما أصبح بإمكانها الذهاب بنفسها للبحث عن الطحالب. لقد اعتبر الجميع "لينكيه" بطلًا، وعلى الرغم من أن الهزال كان يبدو عليه أكثر، لكن عيونه كانت لامعة للغاية كما لو كان الضوء الموجود بعيون كل الغزلان التي ماتت قد تجمع في عينيه.

وخلال فترة الطاعون هرم الكاهن "نيدو" للغاية، وزاد صمته وهو الذي لم يكن محبًا للكلام من البداية، وفي كل مرة يتم دفن غزال فيها كان يخلع الجرس المعلق في رقابها، تلك الأجراس ملأت دلوين كاملين، ولقد قام بوضعها في خيمته وكان دائمًا ما يسرح في النظر إليها، وكانت عيناه خاويتين بلا روح، أما تلك الأجراس فكانت تشبه أيضًا عيونًا خاوية، وكانت تنتابني قشعريرة باردة في كل مرة أرى فيها هذا المشهد، لم يوجه أي أحد اللوم له باستثناء "داشي"، وكنا نوبخ "داشي" في كل مرة يوجه فيها اللوم له. وذات مرة قال "داشي" للكاهن "نيدو": "هل تعرف لماذا أصبحت القوى السحرية في جسدك بلا فائدة؟ هذا بسبب عدم وجود نساء إلى جوارك، بغياب النساء كيف ستأتيك القوة؟"، عندها ارتجفت شفتا الكاهن "نيدو"، لكنه لم يدافع عن نفسه، لكن "إيوان" الذي كان في الجوار اشتعل غضبًا حين رأى "داشي" يتجاوز حدوده، فقال له: "لا توجد نساء إلى جوارك أيضًا، هل يعني هذا أنك أيضًا تفتقر إلى القوة؟"، فصاح "داشي" بقوة: بالطبع أنا أملك القوة، لدي أوموليه!" وما إن قال إن الصقر الصياد هو ما يعطيه القوة حتى بدأ "إيوان" في تعداد مثالب هذا الصقر قائلًا إنه عديم النفع، فهو يعتمد على الأشياء التي يصطادها الآخرون ليعيش، ولا يعرف سوى فتح فاه لتناول اللحم، إنه مجرد عالة، عندها غضب "داشي" حتى جحظت عيناه وقال إن الصقر "أوموليه" خاصته هو صقر إله، والصقر الإله يُستخدَم للانتقام، ويحتاج إلى تجميع قوته واختزانها، فلا يمكن مطالبته بأن يكون مثل باقي الصقور الصيادة.

وبدايةً من ذلك اليوم أضرب "داشي" عن الطعام، وفي كل مرة في ميعاد تناول الطعام كان يضع الصقر على كتفه ويذهب إلى "إيوان" ويصيح بصوت متحشرج: "انظر، لم أتناول أي شيء، لقد أعطيت ما تبقى إلى أوموليه".

لم يعره "إيوان" اهتمامًا، ولكـن "ناديجـدا" خرجـت لـه، ومـا إن رأت "داشي" وقد احمرت عيناه وثارت لحيته، وصارت هيئته كالشبح، حتى ابيض وجهها فزعًا، ولم تتمالك نفسها في رسم الصليب عدة مرات أمام صدرها.

أضرب "داشي" عن الطعام لثلاثة أيام، وفي اليـوم الثالـث طـار الـصقر الـصياد مبتعدًا فجأة، فقال "خاشيه" لـ"داشي": "هل ذهب كل ما فعلته مـن أجلـه أدراج الرياح؟ هل هو مجرد حيوان متوحش يرحل متى شاء؟".

لكن "داشي" بدا عليه الهدوء وقال لـ"خاشيه": "انتظر، إن "أوموليه" سيعود".

وفي المساء عاد الصقر الصياد، لكنه لم يأتِ خالي الوفاض، كان يحمـل دجاجـة جبلية. كان ديكًا جبليًّا، ريشه أخضر داكن، وذيلـه طويـل، كـان في غايـة الجـمال، وقام الصقر بوضع الديك أمام "داشي"، عندها انهمرت دموع "داشي"، لقـد عـرف أن "أوموليه" عندما رآه لا يأكل ذهب بحثًا عن الطعام من أجله. فلو قلنا إن كـل من في القبيلة كانوا يشعرون أن قيام "داشي" بوضع كل آماله في الانتقام على هذا الصقر هو مجرد أضغاث أحلام، فإن رحيـل الـصقر وعودتـه المفـاجئين قـد جعـل الجميع يثقون أنه بالفعـل صـقر إلـه، وبعـدها كفـوا جميعًـا عـن الـسخرية مـن صاحبه

في ذلك المساء كان "داشي" بالتأكيد هو أكثر أهل الأرض سعادةً. لقد جلـس بجوار موقد النار ونزع ريش الديك الجـبلي، ثـم قطـع رأسـه وأجنحتـه وذيلـه بالسكين، وقام بلفها مع الأحشاء في فروع أشجار "لينـه"، ثـم سـار وهـو يعـرج حتى علقها فوق شجرة صنوبر خارج الخيمة، وقام بعمل مراسم جنازة للـديك الجبلي. كان "داشي" في الماضي لا يهتم بتلـك الأشـياء، فقـد كـان الآخـرون حـين يأكلون الـدجاج الجـبلي لا ينزعـون الـريش عـن رأسـه وأجنحتـه وذيلـه، وإنمـا يقطعون تلك الأجزاء بالسكين بريـشها ويعلقونهـا عـلى الـشجر، فكـان "داشي" يحتقر من يفعل ذلك قائلًا إن الدببة والـ"كانداهان" فقـط هـي التـي تـستحق مثل تلك المراسم الجنائزية، فكان حين يأكل الدجاج الجبلي أحيانًا لا ينزع حتى

الريش، وإنما يـستخرج الأحـشاء ويـضع الدجاجـة كلهـا في موقـد النـار ليـشويها ويأكلها، لذلك كان دائمًا ما يأكل الدجاج الجبلي وحده؛ فالآخرون لا يلمسون مثل هذا اللحم، فاللحم الذي لم تُقَم له شعائر جنائزية هو لحم غير نظيف.

بعد أن أتم "داشي" المراسم الجنائزية للديك الجبلي قـام بـشي اللحـم، وقطـع أولًا عدة شرائح منه أطعم بها الصقر، ثم أكل هوببطء، ربما بـسبب إضرابـه عـن الطعام لثلاثة أيام لذلك أصبح غير نهم. لقد استمر في الأكل منذ أن صـعد القمـر في الشرق حتى هبط في الغرب، وبعد أن انتهى من الطعام اتكأ على عصاه ووضع "أوموليه" على كتفه وسار جيئةً وذهابًـا في المعـسكر، وأخـيرًا توقـف أمـام خيمـة "إيوان" وصاح "وو لو لو" حتى خرج لهبعد أن خرج رأى "داشي" يقـف في وجهـه مباشرةً ويبتسم، بعدها قال "إيوان" للجميع إن تلك هـي الابتـسامة الأكـثر إثـارة للرعب في العالم.

كان هذا هو أكثر شتاء ارتحلنا خلاله. وباستثناء السناجب، كانـت الحيوانـات البرية قليلة للغاية، ولقد شاهدنا في الوديان الجبليـة كثـيرًا مـن الوعـول النافقـة، فقال "لينكيه" إن الطاعون بالتأكيد قد انتقل إلى أجساد الوعول.

وعلى الـرغم مـن تنـاقص أعـداد الفـرائس، فـإن أعـداد الـذئاب لم تـنقص، ولكنها غالبًا لم تعد قادرة على إيجاد ما يؤكل، لذا كانـت دائمًـا تـسير خلفنـا في مجموعات من ثلاثة أو خمسة ذئاب، لقـد كنـا نحـن والبـضعة وثلاثـون غـزالًا الناجية بمثابة طعام أحلامهـا، ومـا إن يحـل الليـل حتـى نـسمع أصـوات عـواء الذئاب بشكل أكثر حـدة حـول المعـسكر، لـذا كنـا مـضطرين إلى الإبقـاء عـلى مواقد النيران خارج الخيام مشتعلة، فعيون الذئاب شديدة الحساسية وتخـشى النيران. أما "داشي" فكان ما إن يسمع عواء الـذئاب حتـى يكـور قبـضته ويجـز على أسنانه حتى تصدر صريرًا. لقـد زاد مـن مـرات تدريبـه للـصقر باسـتخدام فراء الذئب ذلك، أما الصقر فقد بدا أنه أصبح ذكـاءً وحـساسية عـن ذي قبـل، فأصبح مملوءًا بالرغبة في القتال، وأصبح مستعدًا في أي وقت للانتقام من أجـل

"داشي"، وخلال الفترة الأكثر برودة من ذلك العام، غادرنا "داشي" إلى الأبـد حـاملًا معه "أومولية" محبوب قلبه.

كان "داشي" يتعامل مع أي عواء للذئب بغضب، لكن الـصقر الـصياد لم يكـن كذلك، فعلى الرغم من أنه كان يرفع رأسه أيضًا إلا أنه كان يحـافظ عـلى هدوئـه الشديد. ولقد قال "خاشي" إنه في ذلك المساء الذي وقع فيه ما وقع لـ"داشي" كان عواء الذئاب شديدًا لدرجة أنه أزعج الصقر وجعله يخرج عن هدوئه، فظل يطـير ويهبط داخل الخيمة كأنه قد تأثر بما في نفس صاحبه وعندما رأى "داشي" الصقر في تلك الحالة ظل يضحك بشكل غـير طبيعـي ويـردد: "حانـت سـاعة الانتقـام!". كانت "مارية" و"خاشيه" معتادين على السلوك غير الطبيعي من "داشي" لـذلك لم يهتما به وأخلدا إلى النوم.

في هذا المساء خرج "داشي" مصطحبًا الصقر، ومن وقتهـا لم يعـد مـرة أخـرى. وفي الصباح حين استيقظ "خاشيه" لم يجدهما، فاعتقد أنه ذهب لـ"إيوان"، فمنـذ تلك المرة التي اشتبك فيها "إيوان" معه من أجل الكـاهن "نيـدو"، أصـبح "داشي" يحب كثيرًا الذهاب لـ"إيـوان" واسـتعراض قوتـه، إلا أنـه لم يكـن عنـده، فـذهب "خاشيه" إلى الخيام الأخرى للبحث عنه لكنه لم يجـد لـه أثـرًا، ففكـر أنـه بقدمـه العرجاء لن يذهب بعيدًا، في الغالب هو في الغابة القريبة يبحث مـع صـقره عـن فرائس، لذا لم يقلق "خاشيه".

كان الملك "مالو" المسؤول عن نقل تمثال الآلهة، والغـزال المـسؤول عـن نقـل جذوة النار قد نجيا من الطاعون، وكانت رؤيتهما بالنسبة إلينا أشبه برؤيـة ضـوء النيران في وسط الظلام، فبعد أن رحل الطاعون كانا دائمًا عنـد العـودة مـن رحلـة البحث عن الطعام يسيران خلف بعضهما في وسط القطيـع، فيـسير الملـك "مـالو" الأبيض في المقدمة، وخلفه تمامًا الغزال الرمادي الحامل لجـذوة النـار، كانـا أشـبه بربَي أسرة كبيرة، يحميان بصدق وإخلاص القليل الذي تبقى من الغزلان.

في ذلك الصباح عند العودة إلى المعسكر كان الملك "مالو" كالمعتاد يسير في المقدمة، إلا أنه في تلك المرة قد زاده شيء، كان يحمل في فمه جناحًا، وعندما اكتشف "لينكيه" الذي كان في استقبال الغزلان ذلك الجناح شعر بالغرابة، لذا التقطه في يده ودقق فيه، وما إن شاهده حتى اختلج قلبه بقوة؛ فهذا الجناح بني اللون المنقط بنقاط بيضاء والمخطط بخطوط خضراء داكنة، أليس هو جناح "أوموليه" الخاص بـ"داشي"؟

هرول "لينكيه" حاملًا الجناح للبحث عن "خاشيه"، وما إن شاهد "خاشيه" الجناح حتى عرف أن هناك مكروهًا حدث، فذهب إلى الكاهن "نيدو" ليخبره بالأمر، لكنهلم يكن موجودًا بالمعسكر، فخرج "خاشيه" و"لينكيه" للبحث، لم يبتعدا كثيرًا حتى شاهدا الكاهن "نيدو" ينصب أعمدة خشبية وسط أربع أشجار صنوبر مستقيمة، فخرَّ "خاشيه" على الأرض؛ لقد علم أنه بالتأكيد يصنع قبرًا لـ"داشي".

كانت العادة في الجنازة وقتها هي "الدفن بالرياح"، حيث يتم اختيار أربع شجرات مستقيمة كبيرة، وتوضع أعمدة خشبية بشكل أفقي على أفرعها لتشكيل مساحة مربعة، بعدها يتم وضع الجثة ورأسها تجاه الشمال وأقدامها تجاه الجنوب فوق تلك المساحة، ثم تتم تغطيتها بفروع الأشجار. كان الكاهن "نيدو" قد رأى في نجوم الليل رحيل "داشي" عنا، وفي عمق الليل شاهد شهابًا يخترق السماء فوق معسكرنا، ومن خلال صوت الذئاب عرف أن الشخص الراحل هو "داشي" بالتأكيد، لذلك قام في الصباح الباكر واختار مكان الدفن الخاص به.

تتبع الجميع خطوات الغزلان حتى عثروا على "داشي" بالقرب من المعسكر وسط أشجار البتولا، أو لتوخي الدقة، عثروا على ساحة حرب، فلقد تكسر كثير من أشجار البتولا الصغيرة البيضاء، وعلى فروع الشجر وجدوا كثيرًا من بقع الدم، كما انسحق عشب الشيح الموجود وسط الثلوج. يمكن تخيل كم كان الصراع هنا دمويًا عنيفًا، وفي ساحة الحرب تلك انتشرت أشلاء أربع جثث، ذئبين، ورجل، وصقر

صياد. ولقد قال "لينكيه" إن من بـين هـذين الـذئبين هنـاك واحـد بالتأكيـد هـو الذئب الصغير الذي أفلت من بين يدي "داشي" في تلك السنة، وبعد أن كبر أنجب ذئابًا صغيرة، والآن سار خلف رائحة "داشي" جالبًا أبناءه معـه لينـتقم لأمـه التـي قُتلت.

رأيت أنا و"إيفولينا" في مكان الدفن بالرياح جثة "داشي"، أو بـالأحرى وجـدنا كومة من العظام، كانت أكبرها هي عظمة غطاء الجمجمة، يليهـا بعـض العظـام مختلفة الطول والـسمك لا تـزال تحمـل بعـض اللحـم الـوردي تـشبه كومـة مـن الحطب الجاف. ولقد استنتج "لينكيه" و"إيوان" طبقًا لما رأيـاه في موقـع الحـادث أن الصقر الصياد قد انتقم بالفعل لـ"داشي"، لكـنهما أصـيبا إصـابات بالغـة أثنـاء القتال ولم يعد بمقدروهما الحركة. لقد مات الذئب، لكنهما لم يعودا قادرين عـلى العـودة، واجتـذبت رائحـة الـدماء عـدة ذئـاب جائعـة أخـرى فالتهمـت "داشي" والصقر، لكنها لم تلتهم قرينيها، إلا أن هذين الـذئبين الميتـين لم ينجـوا مـن مـصير الالتهام، ففي الصباح الباكر أصبحا إفطارًا شهيًّا لأسراب الغربـان والـصقور. ولقـد رأت الغزلان في طريق عودتها للمعسكر أكوامًا من العظام البيضاء، وعلمـت مـن جناح الصقر المكسور أن "داشي" قد مات، لذا التقط الملك "مالو" جناح "أوموليه" في فمه وذلك لإبلاغ الخبر لسيده.

كلما فكرت في أن "داشي" والصقر ربما قد أكلا من الذئاب وهما ما يزالان على قيد الحياة انتابتني قشعريرة رغمًا عني، ففي حياتنا تعد الذئاب تيارًا باردًا يهجم علينا، لكننا لا نستطيع القضاء عليها مثلما لا نستطيع أن ننهي الشتاء.

جمع الكاهن "نيدو" عظام الصقر ودفنها مع "داشي". إنه في الواقع محظـوظ للغاية، ففي النهاية رأى عدوه وقد تم القضاء عليه، كما أنه دُفـن مـع "أومـوليـه" الذي يحبه.

ولقد أخبرتني "إيفولينا" أمام كومة عظام "داشي" أنه قـد صـار أعـرج مـن أجـل حماية غزلان المعسكر، ففي الصيف تحب الذئاب مهاجمة صغار الغـزلان المتخلفـة

خلف القطيع، وذات مرة ضاعت منا ثلاثة غزلان صغيرة، وذهب للبحث عنها، فرآها وقد حاصرها ذئبان أحدها صغير والآخر كبير عند حافة الهاوية وهي ترتعش.

لم يكن داشي يحمل بندقية. لم يكن معه سوى سكين الصيد فقط، فرفع حجرًا ورماه ناحية الذئب الأم، فأصاب الحجر رأسها، لذا استشاطت غضبًا وهاجمت "داشي" والدماء تخضب وجهها، فقاتلها "داشي" بيديه، وأثناء القتال عض الذئب الصغير قدم "داشي" بقوة ولم يتركها. لكنه في النهاية تمكن من قتل الذئب الكبير، إلا أن الذئب الصغير تسلل هاربًا بعد أن عض قدم "داشي" حتى قطعها، وتم إنقاذ تلك الغزلان الثلاثة وعادت إلى المعسكر معه مشيًا، أما "داشي" فزحف، وكان ممسكًا في يده بفراء ذئب مبلل بالدماء.

لقد رحل الصقر و"داشي"، ولأن عائلة الصقر في السماء، فقد رحل "داشي" ولن يقلق حول مكان العيش.

وبعد أن رحل "داشي" مرضت "مارية" فجأة، فأصبحت تقيء أي شيء تأكله، وصارت ضعيفة لدرجة العجز عن النهوض حتى اعتقد الجميع أنها لن تعيش طويلًا، إلا "إيفولينا" التي قالت إن مارية لن تذرف الدمع مرة أخرى عند نشر قرون الغزلان. بالطبع أدرك الجميع أن "إيفولينا" تقصد أن "مارية" حبلى، لكن "دامالا" و"ناديجدا" قدرتا من خلال ردود فعل "مارية" أنها ليست حبلى، وإنما مريضة بمرض شديد، كيف يمكن لحبلى أن تتقيأ بمجرد حتى شرب الماء؟ ولقد شاهدها الجميع وهي تنحف يومًا بعد يوم، حتى هي نفسها كانت تعتقد أن أيامها معدودة، فنصحت "خاشيه" أن يتزوج مرة أخرى بعد موتها، ليبحث عن امرأة قوية الجسد قادرة على الإنجاب، فبكى "خاشيه" وقال لها إنها لو رحلت فسيتحول إلى طائر عقعق يطاردها حتى السماء.

لم يتحول "خاشيه" لطائر عقعق، فذات يوم جلست "مارية" فجأة، وأصبح بإمكانها الأكل والشرب، ومع قرب حلول الربيع كبر بطنها وتورد وجهها واستدار، يبدو أن تقدير "إيفولينا" كان في محله، ومن بعدها أصبحت

الابتسامة لا تفارق وجهها ووجه "خاشيه". ولقد قالت "إيفولينا" إن عدم حمل "مارية" لسنوات طويلة له علاقة بفراء الذئب الأم الذي انتزعه "داشي"، فهذا الفراء جالب للنحس، أما الآن فـ"داشي" غير موجود، وفراء الذئب غير موجودة أيضًا، لذا لم تعد هناك طاقة سلبية داخل الخيمة لذلك حملت "مارية". لكن "مارية" و"خاشيه" لم يعتقدا بذلك، بل كانا يريان أن روح "داشي" باركتهما لينجبا طفلًا، لأن "داشي" كان دائمًا يرغب في "أوموليه"، حتى إنهما اختارا بالفعل اسم الطفل الذي لم يولد بعد، لقد اختارا له اسم "داشي"، فمصمصت "إيفولينا" شفتيها وقالت إن كل من يدعون بهذا الاسم مصيرهم سيئ، "ألا يكفيكم ظهور "داشي" أعرج في القبيلة؟".

وفي الربيع أنجبت الغزلان صغارها، لكن معظمهم مات، ولقد قال "لينكيه" إن الطاعون تسبب في خفض قوة الغزلان، لذا فالصغار الناتجة عن تزاوجها تفتقر إلى القوة الطبيعية لذلك تموت بكثرة، وقال إنه يجب أن نجلب ذكور غزلان صحيحة قوية من قبائل أخرى قبل تزاوج الغزلان في نهاية فصل الخريف، وإلا فإننا في ربيع العام القادم سنواجه أيضًا غزلانًا صغيرة لن تجلب لنا السعادة. لذا فقد قرر الذهاب إلى عيد "سيتيروايتشا" على ضفاف نهر "أبا" وذلك لمبادلة بعض الغزلان.

إن عيد "سيتيروايتشا" هو عيد تقليدي نحتفل فيه بالحصاد الوفير، وعندما يهل، يهل معه موسم الأمطار. وقبل أن أولد كان الناس في كل مرة يحل فيها هذا العيد يعبرون نهر أرجون لقضائه في "بوكيلوفوكيه"، ويجتمعون سويًّا للغناء والرقص ومقايضة ما تم اصطياده، ويتم أيضًا زواج بين بعض القبائل، فمثلًا "خاشيه" و"مارية" تقابلا هناك وعقدا العزم على الزواج. لكن بعدها تغير مكان الاحتفال بالعيد إلى ضفاف نهر "أبا" في منطقة "تشورجاندوين"، ويحب كثير من الـ"أندا" المجيء إلى ضفاف نهر "أبا"، حاملين معهم على ظهور الخيل البنادق والطلقات وكل أنواع المستلزمات الحياتية لمقايضتها مع

الصيادين، وفي بعض الأحيان تتم المقايضة ما بين القبائل وبعضها البعض، فمثلًا تقوم القبائل التي لديها أعداد قليلة من الغزلان بمبادلة ما اصطادته من فرائس بغزلان القبائل الأخرى التي لديها أعداد كبيرة من الغزلان.

ونظرًا لأن "رولينسكيهو" الـ"أندا" الذي نثق به، لذا فكل ما نصطاده نبادله عن طريقه، فكان نادرًا ما يعوزنا شيء ما، لذلك وعلى الرغم من أن هناك من يذهب من قوميتنا إلى هذا العيد كل عام، إلا أن قبيلتنا نادرًا ما تشارك فيه، وعلى ما أذكر أنه لم يذهب هناك سوى الكاهن "نيدو" و"كويندبه" مرة واحدة، لقد ذهب الكاهن لرقص رقصة الآلهة من أجل كاهن آخر صعد إلى السماء، قبل هذا العيد مباشرةً، أما "كويندبه" فقد ذهب لمقايضة دلاء لحاء البتولا ببضعة خيول، فحمل معه على ظهور الغزلان عشرات الدلاء، إلا أنه عاد في النهاية وقد بادلها بحصان واحد هزيل.

وعندما سخرت منه "إيفولينا" اهتزت وجنتاه كتنورة وسط الرياح وقال: "لو لم يكن هؤلاء الـ"أندا" موجودين على ضفة نهر "أبا" لكان الوضع أفضل، ولكان في استطاعته مبادلة الخيول مباشرةً مع المنغوليين، كان يمكنه مبادلة ثلاثة خيول على الأقل، وقال إن هؤلاء الأندا كلهم ذئاب، أما ذلك الحصان فقد مات بعد أقل من عام.

كان اليوم - الذي أخذ "لينكيه" فيه الفرائس التي اصطدناها والمتبقي من الطلقات وانطلق متوجهًا إلى ضفة نهر "أبا" ليبادلها بغزلان - يومًا غائمًا. وكما لو كانت أمي لديها حدس ما، لذا عند رحيله وجهت تعليماتها مرارًا وتكرارًا لكلب الصيد المصاحب له: "إيلان، عليك أن تحمي "لينكيه" جيدًا، دعه يعود بالغزلان بالسلامة". كان "إيلان" قد اعتاد على صحبة أبي، فكان يفهم البشر، لذا ما إن انتهت "دامالا" من كلامها معه حتى وضع قائمتيه الأماميتين على ساقيها وهز رأسه، فشع وجه "دامالا" بالسرور بعد أن حصلت على هذا الوعد، لذا مدت يدها وداعبت رأس "إيلان" الذي انتشى من دفقة الحنان تلك لذا ظل يصيح "وو وو" مما أدخل الفرحة على قلبي أنا

و"لوني". ولقد قال أبي لأمي: "اطمئني، فبوجودك، سيرفض قلبي طاعة جسدي إذا لم يرغب في العودة"، فصاحت "داماﻻ": "لينكيه، أنا لا أرغب في قلبك فحسب، أنا أرغب أيضًا في جسدك". فقال أبي: "سيعود كلٌّ من جسدي وقلبي".

ما إن يحل موسم الأمطار حتى تكثر الصواعق وهزيم الرعد في الغابات، ولقد قال الكاهن "نيدو" إن هناك إلهين للرعد، أحدهما ذكر والأخرى أنثى يتحكمان في الصحو والغيم، وعلى ملابس الآلهة التي يرتديها يوجد إله الشمس الممثل في حلقة حديدية مستديرة، وإله القمر الممثل في شكل هلال، وهناك أيضًا إله الرعد الذي يشبه أفرع الشجر، وعندما يرقص رقصة الآلهة تتصادم تلك الشرائح الحديدية ذات الأشكال المختلفة مصدرةً صوتًا معدنيًّا رنانًا، ولقد فكرت أن هذا بالتأكيد صوت حديث إله الرعد، لأن الشمس والقمر لا يصدران صوتًا. وعندما يبدأ هزيم الرعد كنت أفكر أن السماء تسعل، وعندما تسعل برفق تهطل أمطار خفيفة، وعندما تسعل بقوة تهطل أمطار غزيرة، وتخرج إلهة الرعد الأنثى، أما عندما تهطل الأمطار الغزيرة فإن إله الرعد الذكر هو من يخرج بالتأكيد؛ فقوته وهيبته كبيرة، فهو أحيانًا ما يطلق كرات من النار تضرب وتقطع الأشجار الضخمة في الغابة، يضربها ليصير جسدها كله أسود. لذلك عندما يبدأ الرعد عادةً ما نظل داخل الخيام، أما لو كنا في الخارج فكان يجب اختيار مكان منبسط قريب من الأنهار والابتعاد عن الأشجار الضخمة.

وبعد أن غادر أبي المعسكر بفترة قصيرة ازدادت السماء اكفهرارًا وتجمعت الغيوم السوداء وأصبح الجو ثقيلًا، وطارت الطيور في الغابة على ارتفاع منخفض، وتحولت النسمات إلى رياح عاصفة جعلت الأشجار تصدر أصوات "هوا هوا".

رفعت أمي رأسها ونظرت للسماء ثم سألتني: "هل برأيك سيهطل المطر؟". كنت أعرف أنها قلقة على أبي وتأمل ألا يهطل المطر، لذا لم أخالف رغبتها وقلت: "أرى أن الرياح ستأخذ السحب بعيدًا، فلن يسقط المطر". وقد كان هذا بمثابة مواساة لها، فذهبت والفرحة على وجهها لجمع الشيح المجفف خارج

الخيمة. كنا في العادة نجمع كثيرًا من الشيح في موسم نموه، ونجفف بعضه لنستخدمه في سلق اللحم أثناء الشتاء، وفي اللحظة التي أدخلت فيها أمي الشيح إلى داخل الخيمة، دوى بالخارج صوت رعد شديد اهتزت له الأشجار بالغابة، وبزغ ضوء مفاجئ وبدأت الأمطار في الهطول، وكانت بداية هطولها في الناحية الجنوبية الشرقية، وفي العادة تكون الأمطار القادمة من هذا الاتجاه أمطارًا غزيرة، وفي لحظات غابت الغابات وسط موجات المطر فصارت غير واضحة المعالم، ويبدو أن إله الرعد شعر أن الأمطار ليست غزيرة بالشكل الكافي، لذا سعل بصوتٍ عالٍ مرة أخرى، فنتج عن سعاله برق شق عباب السماء كثعبان ذهبي، وعندما اختفى ارتد من الغابات صوت أشبه بـ"وا وا وا" وزاد هطول المطر حتى أصبحت مياهها كتائه الروح الذي يطير في الاتجاهات الأربعة، فلم يعد ما يظهر في السماء هو ستائر الأمطار الرفيعة المتقطعة وإنما أنهار جارية. وعندما سمعت أمي صوت الرياح العاصفة فزعت حتى فتحت فاها على مصراعيه، ولقد فكرت أنها لو كانت تؤمن بالسيدة العذراء مثل "ناديجدا" لكانت رسمت الصليب أمام صدرها، وعندما أضاء البرق الوجوه لم أتمكن من رؤية وجهها الشاحب فحسب، بل إن رعبها الكامن في عينيها قد أضيء أيضًا، كان هذا رعبًا قد بلغ مداه، لن أنسى مدى الحياة تلك النظرة.

لم ينغلق فم أمي المفغور إلا بعد توقف المطر، وبدا عليها التعب الشديد كما لو أنها تحولت أثناء الأمطار الغزيرة إلى إلهة الرعد الأنثى وذهبت مع الرياح لتصنع المطر، ثم سألتني بضعف: "هل برأيك سيحدث شيء لأبيكِ؟"، فقلت: "ولماذا سيحدث له شيء؟ إنها مجرد أمطار رأى مثلها كثيرًا". عندها استراحت أمي كثيرًا وضحكت مواسية نفسها قائلة: "بالطبع، هل هناك شيء لم يعشه "لينكيه" من قبل؟".

بعد المطر ظهر في السماء قوس قزح، كان قوسًا واحدًا في البداية غير واضح، بعدها ظهر قوس ثانٍ واضح للغاية وألوانه زاهية، وبعد أن ظهر القوس الثاني بدأ شكل ولون القوس الأول يزدادان وضوحًا وقوة. كانا

منحنيين وفي غاية البهاء مثل الريش الملون على أجنحة الدجاج الجبلي، فهناك اللون الأحمر والأصفر والأخضر والقرمزي. خرج كل أبناء القبيلة لمشاهدة قوسَي قزح وانبهر الجميع بجماليهما، وأثناء مشاهدتنا لهما فجأة خفت لون أحدهما واختفى سريعًا، أما الآخر فعلى الرغم من أن شكله ظل كاملًا إلا أنه بدا قديمًا في تلك اللحظة واختفت منه الألوان الزاهية، كما لو أن غبارًا قد اخترقه فصار ضبابيًّا، ولقد كان تغير ألوان قوس قزح سببًا في تغير وجوه الجميع، فالكل كان يعرف أن ذلك كان نذير شؤم، فعادت أمي أولًا إلى الخيمة، ولم تخرج إلا بعد أن اختفى تمامًا هذا القوس الذي صار أسود اللون تقريبًا، وكان وجهها مغطى بالدموع، كانت تبكي أبي مقدمًا.

وفي المساء عاد "إيلان". وعندما شاهد أمي وضع قائمتيه على ركبتها وعيونه تفيض دمعًا. هذه النظرات الحزينة أنبأت أمي أن أبي قد رحل، فضربت جبهة "إيلان" بقسوة وهي تردد: "إيلان، ماذا قلت لك؟ كيف لم تجلب "لينكيه" عائدًا معك! إيلااااااااااااااان".

لقد أصاب البرق أبي حين كان يعبر منطقة غابات صنوبر كثيفة، وأصابت الصاعقة أيضًا شجرتين ضخمتين حتى انقطعت أوصالهما، وكانت هناك علامات احتراق في المكان المقطوع. وعندما قاد "إيلان" الجميع إلى مكان الحديث كان الوقت ليلًا، وكان أبي منحني الجسد راقدًا فوق جذع شجرة مقطوع مدلدل الرأس واليدين كأنه قد تعب من السير فاستراح في ذك المكان. وكان الجو بعد المطر الغزير صافيًا نقيًّا فأضاء القمر كل شجرة بالمكان، وأضاء أيضًا جسد أبي. بكيت وبكت أمي. وعندما كنت أبكي ظللت أنادي: "أما أما، أما أمي"، فكانت تنادي: "لينكيه.. لينكيه".

انشغل الكاهن "نيدو" طوال الليل في اختيار أربع شجرات ضخمة تشكل أربع زوايا قائمة داخل غابة الصنوبر، وقطع بعض الأغصان الجافة ووضعها على الشجر ليصنع لأبي سريره الأخير. كان سريرًا عاليًا، قال الكاهن إن إله

الرعد هو من أخذ "لينكيه"، والرعد يأتي من السماء، ويجب إعادة الرعد للسماء، لذلك وجب أن يكون قبره أقرب للسماء.

وفي الصباح الباكر لففنا أبي بقطعة قماش أبيض وحملناه إلى سريره الأخير، ولقد قام الكاهن "نيدو" بصنع شكلين من لحاء أشجار البتولا، الأول للشمس والثاني للقمر، ووضعهما فوق رأس أبي، ولقد فكرت أنه يرغب بالتأكيد في أن يحصل أبي على الضوء في العالم الآخر، وعلى الرغم من أن أعداد غزلاننا كانت قليلة في ذلك الوقت إلا أن الكاهن أمر "خاشيه" بأن يحضر غزالًا، وذبحه، ففكرت في أنه يرغب أن يحصل والدي في العالم الآخر على غزال يمكن أن يمتطيه. ولقد وضعنا مع جثمان أبي أيضًا سكينه وعلبة تبغه وملابسه وقدرًا معلقًا وإبريقًا، لكن تلك الأشياء قبل وضعها معه قام "لوني" بأوامر من الكاهن "نيدو" بتخريبها، فضرب الحجر بقوة باستخدام سكين الصيد حتى أحدث عيبًا بالسكين، وقام بثقب علبة التبغ باستخدام سكين الجلد، واستخدم المقص لقص ياقات وأكمام الملابس، واستخدم الحجر لتخريب زاوية القدر المعلق والإبريق؛ فقد قيل إنه لو لم نفعل ذلك فستصيب الأحياء الكوارث، لكن تلك الأشياء المحطمة جعلتني حزينة للغاية؛ فملابس والدي لم تعد لها ياقات وأكمام، هل ستبرد رقبته وذراعه؟ سكينه التوَت وأصبح بها عيب، فكيف سيسلخ جلد الحيوانات التي يصطادها؟ وهذا القدر وذاك الإبريق سيسربان الماء، فما العمل إذا ما أطفأ الحساء النار عند سلق اللحم؟ وما إن أفكر في أن الأشياء التي أخذها أبي معه ليس فيها غرض واحد سليم حتى تنتابني رغبة شديدة في البكاء، لكنني احتملت، فقد كنت أخشى إذا ما انخرطت في البكاء أن تبكي أمي معي ولن نستطيع إسكاتها.

إن "إيلان" هو كلب الصيد المفضل لدى أبي، كان يبدو عليه أنه راغب وبشدة في الرحيل معه، فكان يستخدم مخالبه لنبش أرض الغابة كما لو كان يحفر قبرًا لنفسه، فقام الكاهن بالضغط عليه بيده، وما إن هم بإعمال السكين في جسده حتى أوقفته أمي وقالت: "أعطني إيلان". عندها وضع الكاهن نيدو

السكين جانبًا، وأخـذت أمـي "إيـلان" وكانـت أول المغـادرين لأبي، وقتهـا لم تكـن مراسم الدفن بالرياح قد بدأت بعد. خشي الكاهن أن تكون أمي ذاهبة للانتحـار فطلب من "إيفولينا" أن تصحبها. بعدها أخبرت "إيفولينا" الجميع أن "دامـالا" في طريق عودتها للمعسكر كانت تمشي قليلًا وتلهو قليلًا مثل الطفل الصغير، فإذا ما رأت فراشة اصطادتها، وإذا ما قابلـت طـائرًا أخـذت تـصيح مثلـه، وإذا مـا مـرت بزهـور بريـة قطفـت منهـا واحـدة وغرسـتها في شـعرها، لـذا عنـدما وصـلت إلى المعسكر كان شعرها قد امتلأ بالزهور كأنها تحمل على رأسها سـلة زهـور. لكنهـا عنـدما وصـلت إلى المعـسكر رفـضت دخـول الخيمـة، وإنمـا جلـست عـلى الأرض وبدأت في البكاء، كانت تصيح باسم "لينكيه" وتقول: "لقد رحلت وأنا لا أرغب في الدخول، فالداخل بارد دونك".

لقد رحل أبي، أخذه البرق، ومن وقتها وأنا أحب سماع هزيم الرعـد في الأيـام الممطرة؛ فقد كنت أشعر أنه أبي يتحـدث معنـا. إن روحـه تختفـي داخـل الـبرق والرعد بكل تأكيد ليسطع منها ضوء ينير السماء والأرض. لم يستطع أبي أن يبـادل الغزلان التي حلم بها. أخذ معه أيضًا ابتسامة أمي وتنورتها، لقـد كانـت "دامـالا" في الماضي محبة للـضحك، ومحبـة لارتـداء التنـورات، ولكـن بعـد رحيلـه اختفـت الابتسامة والتنورة مـن عـلى جـسدها، لقـد ظلـت كـما كانـت تحـب حلـب لـبن الغزلان، لكن يدها كانت تتوقف فجأة أثناء الحلب وتـسرح كأنهـا تفكـر في شيء ما. وعندما كانت تصنع الخبز، كانت قطرات دموعهـا دائمًـا مـا تنـزل عـلى حجـر صنع الخبز الساخن لتصدر صـوت "تـشالا تـشالا"، ولم تعـد تحـب وضـع مـشبك الشعر المصنوع من عظام الغزلان، بل أصبحت تـترك شـعرها ثـائرًا، وعنـدما جـاء الشتاء مرة أخرى، بدا على شعرها ملامح برد الشتاء، لن أحكي عـن جفافـه، لكنـه أيضًا ابيض كثيرًا.

لقد شاخت، وكبرت أنا و"لوني"، وحمل "لوني" على ظهره بندقيـة الخـرز وبندقية "بيليتانكيه" اللتين تركهما أبي وذهب للصيد مع "إيوان" و"خاشيه". لقـد كـان حقًّـا ابـن أبيـه؛ فقـد كانـت طلقاتـه كالقـدر لا مفـر منهـا، فلـم

يهدرها قط. لقد حظيت قبيلتنا في شتاء هذا العام بإنجازين كبيرين، الأول هو حصاد الصيد الوفير، لقد تمكنا من استبدال العدد الكبير من الفراء ليس بالدقيق والملح والطلقات فحسب، وإنما قايضناها أيضًا بعشرين غزالًا من قبائل أخرى، مما جعل قطيع غزلاننا يقوى يومًا بعد يوم، وتم توزيع الأجراس التي خلفتها الغزلان التي ماتت في الطاعون مرة أخرى، وأصبح بإمكانها أن تصدح بالغناء مرة أخرى. ولقد أنجبت "مارية" في هذا الشتاء أيضًا صبيًّا، كان ممتلئًا بالحيوية، ولقد سماه "خاشيه" و"مارية" بالفعل "داشي"، ولقد جلب لنا "داشي" الصغير المحب للضحك الكثير من السعادة.

بعد رحيل أبي بدا أن الكاهن "نيدو" قد تحول لشخص آخر تمامًا؛ كان في الماضي يطلق لحيته بلا تهذيب، أما الآن فقد حلق وجهه تمامًا، كان في الماضي يهندم نفسه ليكون أشبه بالنساء، أما الآن فقد عاد لهيئة الرجال، وكانت "إيفولينا" تقول لي أنا و"لوني" بلهجة باردة: "إن "إيجادواما" خاصتكم لم يعد يرغب في أن يصبح كاهنًا بعد الآن".

وبالإضافة إلى التغيرات التي طرأت على هيئته، أصبح الكاهن "نيدو" غير المحب للكلام يحب أن يدعو الجميع للجلوس في خيمته، وأصبح يدعو الجميع للنقاش حول أصغر المواضيع، وكان هذا يختلف كثيرًا عن أسلوبه المنفرد في اتخاذ القرار في الماضي. لم تكن أمي تحب الذهاب له، فإذا ما كان هناك أمر ما كنت أذهب أنا، حينها كان يسألني: "لماذا لم تأتِ "دامالا"؟"، فكنت أرد سؤاله بسؤال: "ولماذا يجب أن تأتي؟". منذ رحيل "لينكيه" أصبح لديَّ نفور تجاه الكاهن "نيدو"؛ فلو لم يجلب لنا الطاعون لما احتاج "لينكيه" للذهاب لمقايضة الغزلان، وما كان تعرض للصاعقة، وبالتفكير في أن الكاهن قد استطاع سلب الروح من الغزال الصغير من قبل، شككت حتى في أنه هو من جلب تلك الصواعق. لقد كان دومًا يحقد على أبي، لذا استخدم قواه السحرية ليجعل البرق يقوم بدور السكاكين والسهام للتخلص منه.

وعند الارتحال كان الكاهن نيدو يحب السير خلف أمي، ففكرت أنه ربما يحب اختلاس النظر لها من الخلف، فربما كان خيالها من الخلف هو الشمس والقمر بالنسبة إليه، وإلا فلماذا يسير خلفها دائمًا؟ إن الغزلان لا تسير دائمًا على نسق واحد، لذا كان الغزال الذي يمتطيه كثيرًا ما يسير مع الغزال الذي تمتطيه "داملا" على خط واحد، وعندما كان يحدث ذلك كان الكاهن "نيدو" يسعل، كان بإمكانه السعال حتى يحمر وجهه، حتى إن "إيفولينا" قالت ذات مرة: "أيها الكاهن نيدو، فلتركب بالمقلوب، فبهذا الشكل ستقل الرياح ولن تدخل في فمك لتسبب السعال، لكنك إن فعلت ذلك ستراني أنا "إيفولينا" ولن ترى "داملا". عندها بدا الاضطراب على وجه كلٍ من الكاهن "نيدو" و"داملا"، فوكزت "داملا" جسد الغزال بقدمها لدفعه للسير بسرعة، أما الكاهن "نيدو" فقد توقف، وعبأ غليونه بالتبغ. عندها انتابني شعور خفي بأن الكاهن "نيدو" و"داملا" قد يحدث بينهما أمر، وما إن فكرت في صوت الريح الذي صنعه أبي وأمي مرارًا وتكرارًا في الخيمة حتى زاد حذري من الكاهن، لم أكن أرغب حقًّا في أن يصنع مع أمي صوت الريح هذا.

ازداد ترحالنا كثيرًا في هاتين السنتين، ولقد شككت أن لهذا علاقة برغبة الكاهن "نيدو" في اختلاس النظر لأمي من الخلف. وتدريجيًّا بدأت أدرك أهمية "داملا" بالنسبة إليه، فذات مرة كنا على وشك الارتحال، وقمنا بتفكيك الخيام بالفعل، لكن أمي تحسرت قليلًا على المناظر المحيطة بمعسكرنا وقالت: "إن الزهور هنا جميلة حقًّا، يعز عليَّ كثيرًا المغادرة"، فقرر الكاهن "نيدو" البقاء في المكان حتى تذبل تلك الزهور ذات الألوان المتعددة. وفي مرة أخرى كنت أحلب الغزلان مع أمي، فقالت لي إنها حلمت بمشبك شعر فضي، هذا المشبك منقوش عليه زهور كثيرة، كان جميلًا للغاية. فسألتها هل هو في جمال ذلك المشبك المصنوع من عظام الغزلان؟ فقالت إنها لا تعرف كم ضعفًا هو أجمل منه. ولقد سمع الكاهن "نيدو" الذي كان ينزع الكمامات عن أفواه الغزلان حديثنا، فقال لـ"داملا": "هل يوجد في الأحلام شيء ليس جميلًا؟"، وعلى

الرغم من قوله هذا، إلا أن "رولينسكي" حين جاء معسكرنا، طلب منه الكاهن "نيدو" أن يبدل له مشبك شعر فضيًّا، وكنت أعرف أنه فعل هذا من أجل "دامالا". لكن من بعد رحيل "لينا"، لم يعد "رولينسكي" يجلب لنا أي متعلقات تخص النساء، كما أصبح يأتي متعجلًا الرحيل في كل مرة، ولقد قال للكاهن "نيدو" بلطف إنه لو أراد مقايضة مشبك شعر فضي فليبحث عن "أندا" آخر، فهو لا يقايض متعلقات النساء الآن. ولقد أثار كلامه غضب الكاهن "نيدو"، فقال له بغضب: "إذًا لا تأتِ بعد الآن إلى قبيلتنا"، لكن لم يبدُ الغضب أو الحزن على وجه "رولينسكي"، بل تنهد تنهيدة طويلة وقال: "جيد جدًا، ممتاز، فأنا آتي إلى قبيلتكم الآن والحزن يملؤني، وقلبي في الحقيقة يرفض المجيء، لكنني كلما فكرت في حاجتكم لمبادلة البضائع، وأننا نعرف بعضنا منذ زمن بعيد حتى تأخذني قدمي إليكم، إذًا فلن أحتاج للمجيء هنا بعد الآن، ولن يشعر قلبي بذلك الألم مجددًا". كان الكل يعرف أن "لينا" هي السبب في وجع قلبه. وهكذا تسبب مشبك شعر فضي خفي في خسارتنا لأكثر "أندا" نثق به، ومن وقتها دخل "تولوكيف" إلى حياتنا، وهو "أندا" روسي أيضًا، وكنا ندعوه من خلف ظهره "داخيه"، والتي تعني "سمك السلور"، وذلك لأن فمه لم يكن يشبه سمك السلور فحسب، بل كان طبعه يشبهه أيضًا، فهو ماكر للغاية كما لو أن جسده بالكامل مغطى بالمخاط.

لم تكن هناك أي استجابة من "دامالا" تجاه حرارة الكاهن "نيدو" خلال السنتين الأوليين، لكن ظهور تنورة من الريش غيَّر من موقفها تجاهه. لقد اكتشفت أن النساء يصعب عليهن كبح جماح رغبة التملك أمام الأشياء التي يحببنها، وكان قبولها لتلك التنورة يعادل قبولها لمشاعر الكاهن "نيدو"، ولكن هذا النوع من المشاعر لا تسمح به القبيلة، لذا كُتب عليهما الألم حتى الجنون.

لم يلحظ أحدنا أن الكاهن خلال هاتين السنتين كان يختار بعناية ريش الدجاج الجبلي الذي يأكله، ثم يجمعه ليصنع في السر تنورة من أجل "دامالا".

لقد كانت صنعته متقنة للغايـة، فقـد اسـتخدم عـدة قطـع مـن القـماش الأزرق لصنع التنورة الداخلية على شكل زهرة الليلي، وسطها ضيق وأسفلها واسع، وكـان الريش مختلف اللون والحجم، لكن جذره كله يتجه للأعلى وطرفه المـدبب يتجـه للأسفل، أما الخيط المـستخدم في الخياطـة فكـان أضـلاع الــ"كانـداهان" الرفيعـة للغاية، ولقد قام في البداية بلف الجزء الذي يشبه الأسطوانة العـشبية في الريـشة عدة مرات، بعدها خاطها في القماش، لذلك لم يتعرض الريش لأي تلف، بـل كـان سليمًا تمامًا ويبدو ناعمًا متسقًا، ولقد كان الكاهن نيدو بارعًـا في ترتيـب الأمـاكن للريش، فلقد وضع الريش الصغير كثيف الشعر والذي يظهر به اللون الرمادي في منطقة الوسط، ومع الاتجاه للأسفل منه وضع الـريش متوسـط الحجـم ولونـه في الأساس أخضر مطعم بقليل من اللـون البنـي، وأخـيرًا في أسـفل التنـورة ومنطقـة الأطراف استخدم الريش ذا اللون الأزرق اللماع الـذي يتخللــه قليـل مـن اللـون الأصفر، والذي بدا أشبه بموجات الضوء التي تتأرجح على سـطح البحـيرة، وكانـت تلك التنورة تبدو من أعلى إلى أسفل كأنها مكونة من ثلاثـة أجـزاء، الجـزء الأعـلى الرمادي هو الأنهار، والجزء الأوسط الأخضر هو الغابات، أمـا الجـزء الأسـفل الأزرق فهو السماء، وعندما أهدى الكاهن "نيدو" تنورة الـريش تلـك لأمـي في ربيـع العـام الثالث لرحيل أبي، يمكنكم جميعًا تخيل مدى دهشتها وحبها وتأثرهـا عنـدما رأتهـا، لقد أمسكت بها بين يديها وقالت إن تلك هي أجمل تنورة رأتها في حياتها، فقامـت أولًا بفردها على فراء الوعل داخل الخيمة، وفركتها برفق بيـدها، وظلـت تنظـر لهـا مرارًا وتكرارًا، ثم احتضنتها للخارج وعلقتها على شجرة بتولا بيضاء، وظلت تنظر لها عن قرب تارة، ومن بعيد تارة أخرى. ولقـد جعلـت شـمس الربيـع الدافئـة التنـورة تبدو أكثر بهاءً وسطوعًا، هذا الجمال كان قادرًا على تحريك نفس ومشاعر أي أنثى، ولقد احمر وجه "دامالا" وظلت تردد لي: "إن "إيجادوامـا" لديـه بالتأكيـد يـدا إلـه، كيف تمكن من صنع تنـورة بهـذا الجـمال؟". في هـذا الوقـت شـعرت أن أمـي هـي مجرد سنجاب يتقافز ذيله ثانيًـا، أمَّـا الكـاهن نيـدو فقـد كـان هـو الـصياد المـاهر،

ولقد كانت تلك التنورة الريشية هي الشرك الذي وضعه لها. لـذا عنـدما ارتـدتها "دامالا" وسألتني هل هي جميلة؟ وعلى الرغم من أن قلبي كان يثنـي عـلى تلـك التنـورة أنهـا تبـدو وكأنهـا خلقـت خصيـصًا لهـا، فبعـد أن ارتـدتها رفـع الـشباب والحيوية اللذان غادراها منذ فترة طويلة رأسـيهما بـشمم، وجعلاهـا تبـدو نبيلـة كريمة، إلا أنني قلت ببرود: "تشبهين حين ترتدينها دجاجة جبلية كبيرة".

حينها شحب وجهها وقالت لي بغضب وضـعف: "هـل أصـبحت حقًّـا منفـرة لتلك الدرجة؟"، فضغطت على أسناني وهززت رأسي لها أن نعم، فبكـت "دامـالا"، وظلت تبكي من بعد الظهر وحتى مغيـب الـشمس، بعـدها وأخـيرًا لملمـت تلـك التنـورة وقالـت لي: "لنحـتفظ بهـا لترتـديها عنـد زواجـك، فبعـد سـنتين ربمـا ستستعملينها".

وعلى الرغم من أن "دامالا" لم ترتدِها بشكل رسـمي، إلا أنهـا كانـت تخرجهـا كل فترة وتضمها وتنظر لها بوله لفترة، حينها كانت نظراتها تـصير رقيقـة للغايـة، وكانت دائمًا ما تتسكع بوعي أو بغـير وعـي خـارج خيمـة الكـاهن "نيـدو"، ولـو حدث أن رأته خارجًا فجأة كانت تجفل وتـصدر منهـا آهـة ثـم تـستدير جاريـة، فالنساء اللاتي أُخضعت قلوبهن فقط هن من يجفلن عند رؤية خيال ذلك الرجـل الذي أخضعهن.

ولقد صنعت "دامالا" بحرص وعناية شيئين للكاهن "نيدو"، الأول هو "بـوالي" مصنوع من جلد وعل، والثاني هو "هاداوكو".

إن "بوالي" هو قفازات، وكانت التي نرتديها في ذلك الوقت عـادةً هـي ذلـك النوع الـذي ينقـسم لجـزأين، كـان سـهلًا جـدًا في صـناعته، أمـا القفـازات التـي صنعتها "دامالا" للكاهن "نيدو" فهي قفازات ذات خمسة أصابع مـصنوعة مـن شعر الوعل القصير، وهذا النـوع يـستهلك وقتًـا كبـيرًا لـصنعه، لـذلك اسـتغرقت نصف شهر بالكامل لحياكته، وقامت بتطريز ثلاث دوائر من النقوش عند فتحـة اليد الخاصة بالقفاز، دائرة منها مطرزات نيران، والثانيـة مطـرزات مـاء، والثالثـة

مطرزات سحب، وما زلت أذكر أن الدائرة الوسطى كانت مطرزات نيران، وأعلاها وأسفلها مطرزات الماء والسحب. وبعد أن انتهت من تطريزها سألتني: "كيف هي تلك المطرزات؟". كنت أعرف أنها صنعتها للكاهن "نيدو"، فقلت ساخرة منها إن السحب والماء يجتمعان سويًّا، أنى للنار أن تجتمع مع الماء؟ ولقد تسببت عبارتي تلك في شحوب وجهها وقالت: "آه"، كما لو كانت إبرة شكتها. لذلك عندما صنعت الـ"هاداوكو" بعد ذلك - وهو كيس تبغ - لم تطرز عليه أي شيء. لقد صنعت هذا الكيس من قطعتي جلد وعل على شكل ثمرة قرع، وغطت فتحته وجوانبه، ووضعت رباطًا له، وفي الرباط ربطت حجر إشعال النيران. في البداية ربطت "دامالا" حجر إشعال النيران الخاص بأبي في رباط الكيس، لكني عندما اكتشفت أنا و"لوني" ذلك قمنا بسرقة الحجر، لذلك عندما أهدت "دامالا" الكيس في النهاية للكاهن "نيدو" لم يكن به حجر إشعال نيران. ومما يدعو للعجب أن الكاهن "نيدو" بعد أن ارتدى ذلك القفاز ذا الخمسة أصابع المصنوع من جلد الوعل، صارت يده رشيقة للغاية، حتى إنه اصطاد ثعلبًا ووشقًا وهما أصعب الحيوانات في الصيد، وفراؤهما هو أغلى أنواع الفراء، ولقد جعله هذا سعيدًا وقانعًا للغاية. أما كيس التبغ ذاك فقد أصبح بمثابة تميمة الحماية خاصته، فكان يعلقه دائمًا في الناحية اليمنى بخصره.

أما أنا فقد ذهبت لـ"إيفولينا" أكثر من مرة، وكنت أقول لها إني لا أرغب في رؤية "دامالا" والكاهن يسكنان في خيمة واحدة، فكانت تقول لي دائمًا إن هذا مستحيل؛ لأنهما لا يمكنهما أن يكونا معًا. وقالت إن الكاهن "نيدو" هو الأخ الأكبر لـ"لينكيه"، وحسب عادات وتقاليد قوميتنا لا يمكن للأخ الأكبر أن يتزوج زوجة أخيه الأصغر في حالة وفاته، لكن إذا ما مات الأخ الأكبر، يمكن للأخ الأصغر أن يتزوج زوجته. ولقد ضربت لي "إيفولينا" مثالًا قائلةً إنه في حالة وفاة الكاهن وكان "لينكيه" على قيد الحياة، ولم تكن "دامالا" موجودة معه، فإنه يمكنه أن يتزوج المرأة التي تركها "إيجادواما". فقلت لها: "لا توجد نساء بجوار "إيجادواما"، فلو أراد "أما" أن يتزوج امرأته فلن يجد إلا تلك الآلهة الموجودة في

الكيس الجلدي، فكيف يمكن لأما أن ينجب من الآلهة؟". لقد كانت "إيفولينا" مثلي قلقة بشأن "دامالا" والكاهن، لكن كلامي جعلها تضحك وتفرك أنفها المعوج وتنادي اسمي مرة تلو الأخرى كما لو كانت تستحضر روحي، ثم قالت: "إنكِ على وشك بلوغ سن الزواج وما زلتِ تتحدثين مثل الأطفال".

كانت "إيفولينا" سابقًا لا تحب الحديث عن الراحل "لينكيه"، لكن بعد أن زاد اهتمام كلٍ من "دامالا" والكاهن "نيدو" بالآخر بشكل غير عادي، أصبحت تتعمد ذكر أبي عندما يجلس الجميع معًا لمناقشة بعض الأمور، مثل أن "لينكيه" تعلم الرمي بالسهام في سن الخامسة، أو أنه لحق بأرنب في سن العاشرة. وفي كل مرة بعد أن تنتهي من حديثها تلف رأسها تجاه أمي وتقول: "دامالا، لو كنتِ رأيتِ "لينكيه" في صغره لكنتِ رغبتِ حينها في أن تكبري بسرعة لتتزوجيه مبكرًا". عندها كانت "دامالا" تنظر للكاهن بحزن، أمَّا هو فكان ينكس رأسه كمن ارتكب جرمًا. وتدريجيًّا أصبح كلٌّ منهما لا يحب الجلوس مع الآخر، فلقد شعرا بعداوة الجميع لمشاعرهما. ومن بعدها أصبحت "دامالا" كلما فردت تنورة الريش تلك تصدر عنها موجات متتالية من الضحكات، ذلك الصوت جعلني أتذكر التعبير الغريب الذي كان يطوف على وجه "داشي" حين كان يفرد فراء الذئب ويجعل الصقر يهاجمه. لقد كان صوت ضحكاتها يتسبب في انتصاب شعيرات جسدي، فكانت ما إن تضحك بهذا الشكل حتى تطردنا ضحكاتها أنا و"لوني" إلى خارج الخيمة، فكنا ننظر للسماء راجين أن تهب الرياح لتأخذ معها صوت الضحكات هذا.

لقد أصبحت فتاة كبيرة، وكبر "لوني" أيضًا وبدأت لحيته في الإنبات. وكنا نرى "دامالا" وهي تذبل يومًا بعد يوم وينحني ظهرها، وذات يوم جاء إلى خيمتنا "داشي" الصغير الذي كان بدأ يتعلم الكلام لتوه، وما إن رأى "دامالا" حتى قال فجأة: "إن الثلج يغطي رأسك، ألا تشعرين بالبرد؟". كانت "دامالا" تعرف أنه يقصد شعرها

الذي يغزوه اللون الأبيض، فقالت ببرود: "أشعر بالبرد، لكن ما العمل؟ ربما يـشعر البرق بالشفقة من أجلي فيأخذني بضوئه حتى لا أعاني أكثر من ذلك".

ومن بعدها أصبحت أمي تجري للغابات كلـما هبـت أمطـار رعديـة، وكنـت أعرف ما تذهب بحثًا عنه، لكن البرق لم يكـن يرغـب في لعـب دور الحبـل الـذي يخنق رقبتها، إنما رغب فقط في ضربها بقطرات أمطاره، لذلك كانت تعود كل مرة بسلام للمعسكر وشعرها مرسل على كتفيها وجسدها مبتل تمامًا وترتعش، عندها كان الكاهن "نيدو" يبدأ في الغناء، وما إن يفعل ذلك حتى يندس "داشي" الـصغير في حضن "مارية" ويبدأ في البكاء، فقد كان صوت الغناء ذاك يقطع القلوب.

جاء اليابـانيون، وفي سـنة مجيـئهم حـدث بقبيلتنـا أمـران جلـلان، الأول هـو هروب "ناديجدا" حاملةً معها "جيلانتيه" و"نالا" إلى الضفة اليـسرى لنهـر أرجـون تاركةً "إيوان" الوحيد في أسوأ حالاته، أما الأمر الآخر فهو زواجي، وكان الجوع هو من قاد هودجي إلى العريس.



الظهيرة



ما إن تخفت النيران في الموقد حتى لا يصير وجه الفحم أحمر، وإنما يتحول للون الرمادي.

ولقد رأيت قطعتين من الفحم منتصبتين كأنهما تحملان في جعبتيهما كثيرًا من القصص في انتظار أن أخمنها.

طبقًا لعاداتنا فإننا إذا رأينا هذا الشكل من الفحم في الصباح فهذا يعني أن هناك شخصًا سيأتي اليوم، ويجب أن نسارع بالانحناء له وإلقاء السلام عليه وإلا يعد ذلك قلة احترام للضيف، أما إذا رأينا قطع الفحم المنتصبة في المساء فيجب أن نضربها لتقع، فهذا تحذير لنا بأن العفاريت على وشك القدوم. ولكن الوقت الآن لم يكن صباحًا ولا مساءً، فمن الآتي؟ إنسان أم عفريت؟

في الظهر كانت الأمطار لا تزال تهطل، ودخل علينا "أنتساور".

إن "أنتساور" ليس بعفريت، لكنه لا يشبه البشر، لكن كنت أشعر دائمًا أن من سيبقى معي في النهاية أرواح الآلهة. وعندما دخل "أنتساور" إلى الخيمة سقطت قطعتا الفحم، يبدو أنهما حقًّا قد انتصبتا من أجله، وماتتا من أجله أيضًا.

وضع "أنتساور" أمامي كيسًا من لحاء أشجار البتولا بداخله عدة أشياء التقطها وهو يكنس المعسكر، جورب من جلد الوعل، إبريق خمر صغير مصنوع من الحديد والجلد، منديل مطرز، عقد من عظام الغزلان وعدة أجراس غزلان بيضاء. دون كلام كثير يمكن معرفة أن تلك الأشياء سقطت من "داجيانا" والآخرين عند الارتحال في الصباح، كان من عادتنا عند الارتحال تسوية الحفر التي صنعناها من أجل موقد النيران والخيام، بعدها نقوم بكنس المخلفات ودفنها عميقًا، حتى لا نترك في المكان ندوبًا أو نجعله تفوح منه رائحة القمامة بسبب سكننا فيه. لكن عند رحيلهم في تلك المرة وعلى الرغم من البدء في إحصاء وترتيب الأشياء قبلها بعدة أيام، إلا أنهم عند الانطلاق في الصباح كانوا مضطربين قليلًا، ومن خلال الأشياء التي فقدوها يمكن أن نرى أنه لم يكن البشر فحسب مضطربين، بل كانت الغزلان مضطربة أيضًا، لذا أسقطت أجراسها في أرض المعسكر أثناء تدافعها واحتكاكها. لكن كان هناك منطق في الأشياء التي أوقعوها، فلقد قال لي "باريجيه" إن الغزلان سيتم حبسها في حظائرها المحاطة بسياج حديدي، ولن تستطيع أن تتجول مرة أخرى في الجبل الذي اعتادت عليه، فما حاجتها للأجراس إذًا؟ إن تلك الغزلان التي ستذهب هناك ومعها الأجراس ستكون كمن يعلق شيئًا لا صوت له في رقبته، أما ذلك الجورب الجلدي فمجرد رؤيته يمكننا التعرف أنه خاص بـ"مكسيم"، فهو كبير للغاية ولا توجد غير قدم "مكسيم" العملاقة تناسبه. أما إبريق الخمر الصغير المصنوع من الحديد والجلد فهو خاص بـ"لاجيمي"، لقد رأيته في الصباح يشرب الخمر منه، كان يشرب ويصدر في الوقت نفسه صوت "وو لو لو"، كان يبدو أنه في غاية السعادة، وفي الوقت نفسه يبدو في غاية الحزن، ولقد ذكرني هذا بصياح العجوز "داشي". لقد أضاع "لاجيمي" إناء الخمر الذي يخصه، ألن يكون في غاية القلق حين يصل إلى "بوسو"؟ وما إن يقلق "لاجيمي" حتى يصب ذلك على رأس "شيبان"، حيث سيصب جام غضبه عليه، إما سيسبه بغير سبب أو سيقذفه بالحصى قائلًا إنه سيقتله رجمًا. لكن

"بوسو" مدينة، وليس من السهل التقاط الحصى فيها، وبهذا لن يستطيع "لاجيمي" أن يضرب "شيبان"، سيتمكن فقط من سبه والسب لا يسبب جروحًا للجسد، فلن يعاني "شيبان" كثيرًا.

أما ذلك المنديل فهو لـ"بارجيه"، فأكثر ما يحبه هو جمع الأشياء التي تستخدمها الفتيات، لقد رأيته من قبل وقد لف هذا المنديل على رأسه وظل يرقص بانتشاء وهو يصيح "هاي هاي" مثل صوت نقار الخشب وهو ينقر في الأشجار. لقد كان "بارجيه" يحب الرقص من صغره، وكان رقصه جميلًا في البداية، فلم يكن وسطه ورأسه يهتزان بعنف، لكنه بعد أن هام في المدينة لمدة عام ثم عاد إلى الجبل أصبح رقصه لا يُشاهَد، فوسطه يهتز بعشوائية، ورقبته تلتف لليمين واليسار والأمام والخلف بلا نظام، مما جعلني أشعر أن رقبته لم يتبقَ فيها سوى وتر واحد، أما أكثر ما لا أطيقه فهو صيحاته المتحشرجة "هاي هاي" أثناء الرقص، لقد كان يتمتع بحنجرة واضحة جلية، لكنه كان يتعمد حشرجتها. أما ذلك العقد المصنوع من عظام الغزلان فهو خاص بـ"ليوشا"، لقد ارتدته لعدة سنوات، لقد صقله ابني "واكيتيه" بيديه وألبسها اياه، ولقد كانت ترتديه كل يوم في حياته، لكنه بعد أن مات أصبحت لا ترتديه إلا في الأيام التي يكتمل فيها القمر، كانت ترتديه وتذهب للبكاء تحت القمر، ولقد رأيتها في الصباح عند الرحيل تمسك هذا العقد بيدها، بالتأكيد خشيت ألا يكون آمنًا في أي مكان آخر لذا أمسكته في يدها، وأعتقد أنه عند الرحيل رفض بعض الغزلان ركوب سيارات النقل، لذا انشغل الجميع في الإمساك بهم من كافة الاتجاهات، وقامت "ليوشا" بتقديم المساعدة فسقط منها العقد، يبدو أن أكثر الأشياء التي نخشى فقدانها هي أسهل الأشياء في الانفراط من أيدينا.

رمى "أنتساور" بضع قطع من الفحم في حفرة النار، وهي عبارة عن الحطب الذي اقتطعناه من الأشجار التي اقتلعتها الرياح، فقد كنا لا نقطع أبدًا أشجارًا حية لنستخدمها كحطب، فهناك كثير من الأشياء التي يمكن

استخدامها كمحروقات في الغابة، مثل فروع الأشجار الجافة التي تتساقط طبيعيًا، أو الأشجار التي ضربتها الصواعق وفقدت القدرة على الحياة، أو الأشجار التي أسقطتها الرياح العاتية، فنحن لا نشبه أبناء قومية "الهان" الذين دخلوا للغابات وعاشوا فيها فيما بعد، فهم يحبون قطع الأشجار الحية بشكل جائر، ومن ثم تقطيعها لقطع حطب صغيرة وتخزينها ملأ المنزل وما خلفه وما أمامه في منظر يقطع القلوب. وما زلت أذكر المرة الأولى التي مر فيها "والواجيا" في قرية للهان منذ سنوات عديدة، ورأى كل المنازل مكومًا أمامها حطب كثير، فعاد وأخبرني بحزن أنهم لم يكتفوا بقطع الأشجار ونقلها للخارج، بل إنهم يحرقون كل يوم الأشجار الحية، ستزول الغابة بسببهم إن عاجلًا أو آجلًا، عندها كيف سنعيش نحن والغزلان؟ إن "والواجيا" هو رجلي الثاني، وهو آخر زعيم قبيلة في قوميتنا، ولديه رؤية مستقبلية للأشياء. وفي ذلك اليوم الذي جمع فيه "داجيانا" كل القبيلة لاتخاذ القرار بشأن النزول من الجبل، تذكرت كلمات "والواجيا"، وعندما وضعت لحاء شجرة البتولا في موقد النار بدلًا من وضعها أمام طبلة الآلهة رأيت ابتسامة على وجهه، كانت ابتسامته تظهر لي وسط النيران.

صب أنتساور الماء الساخن في إبريق الشاي خاصتي ثم قال لي: "أبا، سنأكل اللحم في الظهيرة". فهززت رأسي موافقة. منذ ذلك الوقت الذي طلب فيه "باريجيه" من "أنتساور" أن يناديني "جدتي" مثلما يفعل الهان بدلًا من "أبا"، أصبح "أنتساور" حين يراني لا يناديني بأي لقب. أما الآن فهو على الأرجح فكر بأن هؤلاء الذين ينادونني "إيني" أو "العمة" أو "بوارجين" كلهم قد رحلوا، ولم يعد هناك من يطالبه بأن يناديني "جدتي"، لذا كان باستطاعته مناداتي بـ"أبا".

إذا قلنا إنني شجرة عجوز مرت برياح وأمطار كثيرة ولم تسقط، فإن الأبناء والأحفاد تحت ركبتي هم بمثابة الفروع لتلك الشجرة، مهما طعنت في السن، تظل تلك الفروع مزدهرة. أما "أنتساور" فهو الفرع الأحب لقلبي.

كان "أنتساور" دائمًا بسيط الكلام، فبعد أن أخبرني أننا سنأكل اللحم في الظهيرة، ذهب لإحضاره. كان عبارة عن نصف دجاجة جبلية متبقية من الأمس، فعندما علم الأشخاص الذين هبطوا من الجبل أنهم مغادرون هذا المكان نهائيًا فكروا في الاحتفال جيدًا معنا. وخلال تلك الأيام كان "مكسيم" و"سواتشانجلين" و"شيبان" يخرجون يوميًا للصيد، إلا أنهم كانوا دائمًا ما يرجعون بخفي حنين؛ فلقد أصبحت الحيوانات في الغابة مثلها مثل الأشجار، أقل يومًا بعد يوم، من حسن الحظ أن تمكن "شيبان" من اصطياد دجاجتين بالأمس، كما استطاع "سواتشانجلين" اصطياد عدة أسماك من النهر، وهكذا تصاعدت الرائحة العطرة من موقد النار بالمعسكر. ولقد قال لي "مكسيم" إنهم ذهبوا للصيد ذات يوم فرأوا طائرَي "كركي" يطيران على ارتفاع منخفض بين الأشجار، وعندما استعد لإطلاق النار صوبهما منعه "شيبان" قائلًا إنهم على وشك مغادرة الجبل، لذا عليهم ترك تلك الطيور لي أنا و"أنتساور"، وإلا فلن تتمكن أعيننا من رؤية الطيور الجميلة وسوف يصيبها هذا بالتعب. فقط "شيبان" هو من يمكنه التفوه بمثل هذا الكلام الذي يفكر فيه في الآخرين.

قطعت شريحة من لحم الدجاج الجبلي ووضعتها على النار تبجيلًا لآلهة النار، بعدها وضعت بعض الملح، ثم غرست فيها غصن شجرة بتولا ووضعتها للشي على النار. وعندما كنت آكل الدجاج الجبلي بصحبة "أنتساور" سألني فجأة: "أبا، لقد هطل المطر، هل سيمتلئ أخدود "رولينسكي" بالماء؟"، وأخدود "رولينسكي" كان في الماضي أخدودًا ممتلئًا بالمياه بين الجبال، وكان الأطفال يحبون شرب مائه، لكنه جف منذ ست أو سبع سنوات. هززت رأسي نافية، فقد

كنت أعرف أن موجة واحدة من الأمطار عاجزة عن إنقاذ هـذا الأخـدود. ويبـدو أن "أنتساور" قد أصيب بالإحباط فوضع الطعام الذي بيده وقام مغادرًا.

وأنا أيضًا وضعت ما بيدي واستمررت في شرب الشاي، وعندما نظرت إلى النار المتأججة رغبت في الاستمرار في سرد حكايتنا، فلو كانت الأمطار والنيران قد ملـت من ثرثرتي خلال الصباح، فلأدعو "أنتساور" ليجلب لي الأشياء المعبأة في دلـو لحـاء أشجار البتولا إلى داخل الخيمة لتستمع لي، فبقاء تلك الأشياء معنـا يعنـي أن لهـا دورًا ما ستلعبه، إذن فلندع الجورب المصنوع من جلد الوعل، والمنـديل، وإبريـق الخمر الصغير، والعقد المصنوع من عظام الغـزلان، وأجـراس الغـزلان تـستمع إلى تلك القصة.

لو أتيت إلى غابات الضفة اليمنى لنهر أرجون منذ سبعين عامًـا مـضت، لكنـت بالتأكيد ستقابل شيئين معلقين وسط الأشجار، توابيت الدفن بالريـاح، و"كاولاوبـاو" الخاص بتخزين الأغراض.

كانـت أول مـرة التقيـت فيهـا مـع "لاجيـدا" تحـت "كاولاوبـاو". قبلهـا كـان "كاولاوباو" بالنسبة إليَّ هو مجرد مخزن وسط الغابات نضع فيـه أغراضـنا، ولكـن من بعد أن عقدنا تحته العزم على الزواج أنا و"لاجيـدا" أصـبح في نظـري كـالقمر مربع الشكل، لأنه أضاء وأدفأ قلبي المعتم البارد وقتها.

وفي العام الحادي والعشرين من عمر جمهورية الصين الديمقراطية حمـل لنـا "تولوكيف" نبأ وصول اليابانيين. لقد جاء على صهوة حـصانه ومعـه فقـط القليـل من الطلقات والدقيق والملح والخمر، وقـال إن تلـك الأرض ملـك لهـم الآن ولقـد أسسوا دولة "منشوريا"، ووفقًا لتحليلات الجميع فإنهم على وشك شن هجوم على الاتحاد السوفيتي، لذا فإن كثـيرًا مـن الــ"أنـدا" الـروس في "تـشورجان" خـشوا أن يتعرضوا للاضطهاد من اليابانيين فعـادوا كلهـم إلى الـضفة اليـسرى لنهـر أرجـون، وأصبح هناك نقص حاد في السلع وأصبحت المقايضة صعبة للغاية.

تمت مقايضة قرون غزلاننا ذات الجودة العالية وأكثر من مائـة فـرو سـنجاب بقدر قليل للغاية من البضائع، لذا غضب "خاشيه" وقال لـ"تولوكيـف": "لا تتخـذ من اليابانيين حجة لتنتقص من قيمة أشيائنا، إن "رولينسكي" لم يعاملنا بمثل هـذا القلب الأسود من قبل".

عندها انقلب وجه "تولوكيف" وقال: "إننـي أخـاطر بـرأسي لـكي أوصـل تلـك البضائع لكم، انظـروا بأنفـسكم، كـم "أنـدا" ذو عيـون زرقـاء يجـرؤ عـلى القيـام بالتجارة تحت أنف اليابانيين؟ لو كنتم تشعرون أن في هذا خسارة لكـم، فـسآخذ أشيائي، وابحثوا عن شخص آخر تقايضون معه".

في ذلك الوقت كانت الطلقات بحوزتنا مثل النجوم قبل الفجر، لم يتبـقَ منهـا الكثير، والجوال الذي نخزن فيه الدقيق أصبح فارغًا، أما الملح الذي تحب الغـزلان أكله أصبح أشبه بالثلج الذي تعرض لرياح الربيـع، يتنـاقص يومًـا بعـد يـوم، لـذا كانت الأشياء التـي أحـضرها "تولوكيـف" بمثابـة طـوق النجـاة، لـذا وجـب علينـا التمسك بها مهما كان الثمن الذي سندفعه، لذا، وعلى الرغم مـن أننـا كنـا نلعنـه في قلوبنا: "داخيه الماكر، لكن فلنتبادل الأشياء معه".

كـان الرضـا باديًـا عـلى "تولوكيـف"، ولقـد قـال لــ"جيلانتيـه" عنـد مغادرتـه للمعسكر إن الجمع يتحدث بأن اليابانيين سيفتشون الجبل بحثًا عن ذوي العيون الزرقاء لقتلهم، "اهرب، لا تنتظر الموت هنا". كان "جيلانتيـه" جبانًـا بطبعـه، لـذا أفزعته كلمات "تولوكيف" حتى ابيض وجهه واصطكت أسنانه، وقال باكيًـا: "لقـد عشت منذ الصغر في تلك الغابـات، بـأي حـق سـيقتلني اليابـانيون؟"، فـرد عليـه "تولوكيف": "بأي حق؟ بحق عيونك الزرق، لـو كانـت سـوداء بلـون التربـة لكـان أفضل لك، لكنت استطعت أن تمد جذورك هنا، لكن لونها لون السماء، هذا لـون خطير، انتظر وسترى". ثم التفـت إلى "نـالا" وقـال لهـا: "إذا لم تهـربي فـستواجهين مصيرًا أسوأ منه، لأنكِ فتـاة، واليابـانيون يحبـون معـاشرة الفتيـات ذوات العيـون الزرق".

كان شعر "ناديجدا" قد ابيض نصفه، إلا أنها كانت لا تزال بصحتها، فظلت ترسم الصليب أمام صدرها وهي تقول لـ"إيوان": "هذا أمر سيئ، كيف يمكن أن تتحول أعيننا للون الأسود؟ لتطلب المساعدة من الكاهن "نيدو" ليحول لون عيوننا وشعرنا إلى اللون الأسود". كانت تطلب العون من آلهتنا، ربما كان هذا لأن الكاهن "نيدو" هو الأقرب لها، أما السيدة العذراء فقد كانت بعيدة جدًا.

رد "إيوان" عليها قائلًا: "ما خطب العيون الزرقاء؟ إن عيون امرأتي وأبنائي زرقاء، لو جرؤ اليابانيون على قتلكم فسأنزع أولًا ما يضمونه ما بين أرجلهم".

تسبب كلامه في موجة من الضحك، لكن "ناديجدا" عجزت عن الضحك، لقد فغرت فاهها وظلت ترمق "جيلانتيه" و"نالا" في قلق مثل شخص جائع داس على قطعتين جميلتين من عيش الغراب وشكَّ أن فيهما سُمًّا، فما استطاع إلا التحديق بهما، ولقد كان "جيلانتيه" أشبه بالعشب الذي ارتوى بالندى، طريًّا عاجزًا عن صلب قوامه، أما "نالا" فكانت تنظر إلى يديها ببلاهة، فلم تكن أظافرها باللون الوردي، بل تلونت بعدة ألوان، منها القرمزي والأزرق والأصفر والأخضر، كانت تقريبًا تفكر في أنها بإمكانها التلوين، فلماذا لا تلون عينيها باللون الأسود؟

لم يكن "جيلانتيه" يشبه والده في قوته، كان ضعيفًا لا يهتم بالصيد، وإنما كان يحب القيام بأعمال النساء، مثل إنضاج الجلود، وصنع الدلاء من لحاء أشجار البتولا، وخياطة القفازات الجلدية وجمع الخضراوات البرية الجبلية وغيرها، لذا كانت كل نساء القبيلة يحببنه، أما "إيوان" فكان يعيب عليه افتقاره إلى هيئة الرجال، فكان يقول كيف يمكن للرجل الذي لا يجيد الصيد أن يتزوج امرأة؟ أما "نالا" فكان أكثر ما تحب فعله هو صبغ القماش الأبيض، وكانت تستخدم في ذلك الثمار أو عصير الزهور، فكانت تستخدم ثمار البرسيمون لصبغ القماش باللون الأزرق، وتستخدم الفاصوليا الحمراء لصبغه باللون الأحمر، وكانت لديها قطعة قماش مصبوغة باستخدام زهرة الليلي. لقد جمعت زهور الليلي ذات اللون الوردي لمدة صيف كامل، وضربت كأس الزهور

حتى أصبح عجينًا، وضغطت عليه لتستخرج منه عصير العجين، وأضافت لـه الماء والملح ثم غلته في القدر لفـترة مـا بعـد الظهـيرة، وعنـد المـساء غـسلت القماشـة المصبوغة في النهر وعلقتها على شجرة حور خضراء. وكانت "دامالا" هـي أول مـن رأى قطعة القماش تلك فاعتقدت أن أضواء الغروب قد سـقطت عـلى معـسكرنا، فنادت على الجميع أن يأتوا ويشاهدوا، كانت بالفعل تشبه أضـواء الغـروب، بـل هي أضواء الغروب التي تأتي بعد المطر، حيوية وطازجة، لقد اعتقـدنا جميعًـا أن أرواح الآلهة قد تجسدت، ولو لم يصل إلى أسماعنا صوت "ناديجدا" وهـي تؤنـب "نالا" لما اعتقد أي منا أن تلك هي قطعة قـماش. كانـت "ناديجـدا" تؤنـب "نـالا" لأنها لم تغسل القدر الذي صـبغت فيـه القـماش، فكيـف لهـا أن تـصنع العـشاء؟ عندها أدرك هؤلاء القوم الذين ينظـرون للقماشـة مـن بعيـد أنهـا مجـرد قطعـة قماش، فتنهدوا جميعًا مغادرين، لكني لم أغادر، لقد ظللت أعتبرها أضواء غروب، لقد كانت بالفعل، وكان ذلك اللون الوردي مشبعًا وغـير متجـانس، كـأن بداخلـه خيوطًا من المطر الخفيف والسحب. لقد وضعت قطعة القـماش تلـك بالـذات في الجانب المطرز من ملابس زفافي.

كانت "نالا" تحب أن تحمل القماش فور صبغه إلى خيمتنا لتريـه لــ"لـوني"، لكن "لوني" كان مثله مثل "لينكيه" يحب البنادق، فكان يقـول لهـا إن الإنـسان لو افتقر إلى الفرائس فسيموت جوعًا، كما أن الإنسان يكفيه في حياتـه طقـمان من الملابس الجلدية أحدهما خفيف والآخر ثقيل، أما القـماش فـلا أهميـة لـه، وما إن تسمع "لينا" هذا الكلام من "لوني" حتى تلتف إلى "دامـالا" الجالـسة في الركن سارحة وتقول لها بغضب: "كيـف أنجبـتِ "لـوني" أحمـق هكـذا؟". لكـن "دامالا" كانت تتلقى اللـوم بـلا غـضب، كانـت تنظـر إلى "نـالا"، ثـم تنظـر إلى القماش في يدها، ثم تتنهد قائلة لها: "مهما صبغتي ألوانًا، فلن تكـون في جـمال تنورتي المصنوعة من الريش، من الذي صبغ هذا الريش؟ إنها السماء، هل يمكن المقارنة مع ألوانها؟".

فكانت "نالا" تمضي غاضبة وتقسم ألا ترينا الأقمـشة التـي تـصبغها ثانيـةً، إلا أنها في المرة التالية التي كانت تصبغ فيها القماش كانت تتهادى حاملةً إياه لنا.

بعد أن رحل "تولوكيف" أصبحت "ناديجدا" تفعل كـل شيء بـلا تركيـز، فكـم من مرة جرحت فيها إصبعها وهي تقطع اللحم، كما كنت دائمًا أراها تتحدث مع "نالا" في أمر ما، حتى يسيل الدمع من عيون "نالا" بغزارة.

وذات يوم، كنت أعلق الأجراس للغزلان الصغيرة مع "إيفولينا"، فجاءت "نالا" فجأة مسرعة لتسألها: "من أين يأتي اليابانيون؟ هـل هـم في الـضفة اليمنـى لنهـر أرجون أو في الضفة اليسرى؟"، فقالـت "إيفولينـا" بغـضب: "مـا العلاقـة بـين نهـر أرجون واليابانيين؟ سواء الضفة اليمنى أم اليسرى كلها ليست أرضـهم، إن المكـان الذي يسكنون فيه يحتاج لعبور البحـر، لقـد ذهـب الـبعض مـن قبـل إلى هنـاك باستخدام ألواح من الخشب، لكن كل من ذهبوا هناك لم يعودوا ثانيـة"، فقالـت "نالا": "إذا لم تكن هناك علاقة تربطهم بنهر أرجون، فلماذا أتوا إلى هنا؟"، فقالت "إيفولينا": "لو لم يكن هناك صياد بارع، فستأتي الذئاب إلى أي مكان به لحم".

رأيي أن فكرة الهرب ترعرعت في عقل "ناديجدا" بسبب كلمات تولوكيف، أما ما جعلها تنفذ ذلك فهو لقاء صدفة كان بطله "خاشـيه"، الـذي ذهـب ذات يـوم للبحث عن غزالين مفقودين فصادف رجلًا من قومية هان يحمل على ظهره سـلة من لحاء شجر البتولا، كان قد جاء لجمع القتاد، فـسأله "خاشـيه": "هـل تجمعـه لصنع كريم مشيمة الغزال؟ لأننا كنا حين نصنع هذا الكريم في القـدور الحديديـة كنا نضيف له القتاد وغيره من النباتات الطبية". لكن ذلك العجوز قال: "ومن أين لي ذلك؟ أنـا أجمعـه لبيعـه في محـلات الأدويـة واسـتبداله بالطعـام". وتـابع: إن اليابـانيين قـد أتـوا فأصـبحت المعيـشة صـعبة. فـسأله "خاشـيه": "هـل سـيقوم اليابانيون فعلًا بقتـل كـل ذوي العيـون الزرقـاء؟"، فقـال العجـوز: "وكيـف لي أن أعرف؟ كل ما أعرفـه أن ذوي العيـون الزرقـاء قـد هربـوا جميعًـا بمجـرد وصـول اليابانيين".

وعندما عاد خاشيه للمعسكر أخبر الجميع أثناء تناول العشاء بأمر العجوز الذي صادفه، فامتلأت عينا "ناديجدا" بالرعب، وظلت تلتهم اللحم قضمة كبيرة تتلوها قضمة أكبر حتى تجشأت، لكنها لم تتوقف عن حشو فمها باللحم، أما "جيلانتيه" فلم يكمل طعامه، بل غادر وقلبه مليء بالهموم، أما "إيوان" فقد تنهد وهو ينظر إلى ظهر "جيلانتيه" الذي غادر وقال إنه حقًّا لا يشبه ابن "إيوان"، فليست لديه عظام صلبة، فأصدرت "إيفولينا" التي كانت دائمة الشك في نسب "جيلانتيه" آهة وقالت: "إن عيني "جيلانتيه" شديدتا الزرقة، بالتأكيد لا يشبه ابن إيوان"، لكن "نالا" شعرت بالنفور الشديد من كلامها فنهضت وقالت لها: "توقفي عن إطلاق آهاتك، لقد اعوج أنفك حتى أصبح بهذا الشكل، فلو استمررت في إصدار الآهات حول الآخرين فسيعوج أكثر ليصل إلى الضفة اليسرى من نهر أرجون". أضحك كلامها كل الموجودين، وهبت "إيفولينا" غضبًا وقالت: "مهما اعوج أنفي فلن يصل إلى الضفة اليسرى للنهر، لأن هناك رائحة بولكم وعفنكم، الأفضل أن يعوج ناحية اليمين ليصل إلى بحر اليابان".

وقتها كان إذا ذكر أحدهم كلمة اليابان بدت "ناديجدا" كأنها سمعت صوت الرعد. أمَّا كلام "إيفولينا" فقد أغضب "نالا" فمشيت، بينما ظلت "ناديجدا" جالسة في مكانها تبلع اللحم بقضمات كبيرة ولا تتحرك، ولقد أفزع منظرها هذا في تناول الطعام "إيوان" فقال: "ناديجدا، لديكِ معدة واحدة فقط"، لكنها لم ترد عليه واستمرت في تناول اللحم، أما "إيفولينا" فيبدو أنها شعرت أن حديثها كان ثقيلًا فتنهدت وقامت مغادرة. وفي مساء هذا اليوم تداخل صوتان في قلب المعسكر، الأول هو صوت "ناديجدا" وهي تتقيأ، والثاني هو صوت "نالا" وهي تصيح "يا يا يا". كانت تقلد نعيق الغربان، وكانت تلك هي الأصوات الأخيرة التي تركتاها في المعسكر.

ففي اليوم التالي ذهب إيوان للصيد كعادته مع خاشيه ولوني بعد تناول الإفطار، وعندما عاد للمعسكر في نفس اليوم في المساء اكتشف أن الخيمة خالية،

وكانـت الحـشية المـصنوعة مـن جلـد الوعـل واللحـاف اللـذان كانـا - في العـادة يوضعان بشكل عشوائي في أي مكان - مطبقين ومرتبين بنظام، أما علبة تبغه فقـد امتلأت بخيوط التبغ ووُضعت بجوال الموقد، أما الوعـاء الـذي يـستخدمه لـشرب الشاي فقد كان لامعًا يبرق في مكانه فوق مكان النوم وقـد أزيلـت عنـه ترسـبات الشاي الثقيلة. هذا الترتيب والنظافـة غـير الطبيعيـين أقلقـا إيـوان بـشدة، فلقـد أحس أن الأمور ليست على ما يرام، فذهب لإلقاء نظرة عـلى كـيس جلـد الغـزال الذي توضع بداخله الملابس فاكتشف أن نصفها غـير موجـود، أمـا القـماش الـذي صبغته "نالا" فلم تبق منه سوى قطعـة واحـدة ورديـة، ونقـص كثـير مـن اللحـم المجفف الموجود بالدلو. يبدو أنهم أخذوا الملابس والطعام وهربوا.

كنت قد شاهدت "نالا" في الـصباح عنـدما كنـت أغـسل وجهـي عـلى جانـب النهر. كانت تستخدم العشب الأخضر والطين الدقيق الموجود في قاع النهر لـدعك وعاء تناول الشاي، فسألتها لماذا تفركينه هكذا؟ فقالت إن ترسبات الـشاي كثـيرة، لذا يبدو الشاي ليس رائقًا. وعندما غادرت النهر بعد أن غسلت وجهـي قالـت لي "نالا" فجأة: "إن القماش الذي أصبغه جميل، لماذا لم تعجـب ولـو قطعـة واحـدة منه "لـوني"؟"، فقلـت لهـا: "ألم تقـولي إنـه أحمـق؟ الحمقـى بـالطبع لا يفهمـون الجمال". فعوجت "لينا" فمها وقالت: "كيف لكِ أن تقولي إن "لـوني" أحمـق؟ إنـه أذكى شخص في القبيلة". ثم سألتني ما أكثر قطعة قماش أحبها مما قامت بصبغه؟ فقلت تلك القطعة الوردية، فعندما ظهرت تلك القطعـة اعتقـدنا كلنـا أن أضـواء الغروب قد سقطت على المعسكر.

لذا عندما تركت "نالا" تلك القطعة من القماش كنت واثقة من أنها تركتها لي. وبعد أن غادرت النهر تذكرت أني نسيت أن أسألها لماذا كانت تقلد نعيق الغربان رغم أننا لم نتناول لحم الدب ليلة أمس؟

وعنـدما تجمعنـا بجـوار حفـرة النـار لتنـاول العـشاء، أتي "إيـوان" وحـده مطرق الرأس بخطوات ثقيلة، فسألته "ماريـة": "أيـن "ناديجـدا" والأطفـال؟"،

فجلس "إيوان" ببطء، وفرك وجهه بيديه الضخمتين وبعدها أسقط يديه ورفع رأسه قليلًا وقال ببرود: "لقد هربوا، لا تذهبوا للبحث عنهم، فمن يرغب في الرحيل لن يقنعه أحد بالبقاء".

عندما سمع الجميع ذلك الخبر خيم عليهم الصمت، إلا "إيفولينا" التي صاحت بصوتٍ عالٍ "ياااااه"، ثم قالت: "لقد قلت من زمن إن "ناديجدا" ستأخذ الأولاد وتعود لوطنها ذات يوم إن عاجلًا أو آجلًا، إنها ذات قلب أسود، لقد أخذت الاثنين، كان واجبًا عليها أن تترك واحدًا لـ"إيوان"، فإذا أخذت "جيلانتيه" فهذا واجب عليها، فهو ليس من صلب "إيوان"، لكن ماذا عن "نالا"؟ إنها ابنة "إيوان"، كيف طاوعها قلبها أن تأخذها أيضًا؟ فقط من عملت من قبل كعاهرة يمكنها أن تكون بهذه القسوة".

عندها زعق "إيوان" بقوة في وجه "إيفولينا" وقال: "من سيجرؤ على القول إن "ناديجداط عاهرة فسأمزق فمه".

كفت "إيفولينا" لسانها وأطبقت فمها، وكان هذا التصرف هو عين العقل.

عدت إلى الخيمة مسرعة وأخبرت أمي بنبأ هروب "ناديجدا"، لم أكن أتوقع أنها ستضحك وتقول: "الهرب أفضل، الهرب أفضل، ما أجمل لو هرب كل من في هذه القبيلة"، فقلت بعناد: "إذًا فلتهربي أنتِ أيضًا". فقالت: "لو هربت فسأهرب إلى بحيرة لامو، حيث لا شتاء هناك، ووسط البحيرة تتفتح زهور اللوتس طوال العام، يا لها من حرية". وبعد أن انتهت من كلامها نزعت خصلة من شعرها الأبيض وألقتها في النار، لقد أحزنني للغاية شكلها الأقرب للجنون هذا، فذهبت مرة أخرى للكاهن "نيدو" وقلت له: "لقد هربت "ناديجدا" وأخذت معها "جيلانتيه" و"نالا"، وأنت زعيم القبيلة، ألن تذهب خلفهما؟"، فقال لي: "إن مطاردتك لشيء هارب أشبه بمحاولة إمساك القمر بيدك، ستعتقدين أن بإمكانك الإمساك به بمجرد مد يدك، لكن ما إن تنظري بتأمل ستكتشفين أن يدكِ خاوية".

كنت أحتقر أن يفقد زعيم قبيلة تعاطفه بسبب الكبت العاطفي الذي تعرض له، فقلت له: إذا ما ذهبنا لمطارتهم فبالتأكيد سنتمكن أخيرًا من إعادتهم.

لن تتمكني من إعادتهم. هكذا قال الكاهن "نيدو".

لم يخرج "إيوان" للبحث عن "ناديجدا"، بل خرجتُ أنا و"خاشيه" و"لوني" و"كويندية" للبحث عنها. قمنا بقرع الأشجار الضخمة بعصي خشبية، فعرفت الغزلان التي ترعى بالقرب منا أن هناك من يبحث عنها، وبعد قليل عادت ست أو سبع غزالات إلى المعسكر، فاخترنا منه أربعًا أشداء وامتطيناها.

كنا نعلم أن "ناديجدا" قد هربت في اتجاه نهر أرجون، لذا كنا متأكدين من اتجاه مطاردتها.

وتحت سماء الخريف الصافية كانت الجبال تبعث ضوءًا أزرق هادئًا، بينما اكتست الأنهار بلون اللبن. ونتيجة لتحمسي في البحث، ما إن انطلقنا حتى شرعت أنادى ذات اليمين وذات اليسار "نالا" "نالا" فأفزعت صرخاتي البوم فطارت من أمامنا لترسم أمام أعيننا خطين من الضوء يشبهان الشهب، كان هذا الضوء ذو الفأل السيئ مثل دبابيس آلمت قلبي، فقال لي "كوينديه": "لا يجوز الصياح بصوتٍ عالٍ عند السير ليلًا، فهذا يزعج آلهة الجبال، بالإضافة إلى أن "ناديجدا" ترغب في الهرب، لذا فسماعها لصوتك سيجعلها تبتعد عنا"، فقال "خاشيه" إنهم لا يملكون غزلانًا، لذا سيحتاجون إلى يومين على الأقل للوصول إلى نهر أرجون، وحتى لو وصلوا إلى هناك فليس من المؤكد أنهم سيعثرون على مركب لعبور النهر، لن يستطيعوا إلا الانتظار على ضفته.

كنا في البداية نسير في مجموعة من أربعة أفراد، وبعد أن عبرنا جبلًا قال "خاشيه" إن هناك طريقًا مختصرًا يؤدي إلى نهر أرجون، وعلى الرغم من وعورته إلا أنه لا توجد مشكلة مع وجود الغزلان. وبعد أن تباحثنا قليلًا قررنا الافتراق لطريقين، "خاشيه" سيأخذ "لوني" وسأسير أنا مع "كوينديه"،

واتفقنا على أن أعود أنا و"كوينديه" إلى المعسكر في الصباح إذا لم نعثر عليهم هذا المساء، أما "خاشيه" و"لوني" فسيسيران حتى يبلغا النهر.

بعد أن رحل "خاشيه" و"لوني"، قمنا بالالتفاف حول جبل، وقال "كوينديه" إن "ناديجدا" وطفليها قد ساروا لمدة يوم كامل، ومن الصعب علينا اللحاق بهم، من الأفضل أن نعود، فعلى أي حال سيستمر "خاشيه" و"لوني" في البحث عنهم. فقلت له: "ربما لم يبتعدوا، ربما شعرت "ناديجدا" بالندم بعد أن هربت، ربما هي مختبئة الآن في مكان ما. فقال "كوينديه": "لم أحضر معي الكثير من الطلقات، فلنرجع إلى المعسكر، ماذا لو حدث لكِ مكروه، كيف أواجه العمة "إيفولينا""؟ فقلت له: "لقد خرجنا كلنا معًا، ويجب علينا على الأقل أن نبحث قليلًا قبل أن نعود". عندها صمت "كوينديه"، لكنه لم يكن متحمسًا، فجعل الغزلان تسير ببطء وتكاسل.

في الحقيقة كان البحث عن شخص في الغابة مثل البحث عن إبرة في كومة من القش، هو أمر صعب شاق. وعندما وصلنا للنصف الثاني من الليل شعرنا بالنعاس، فتوقف "كوينديه" وقال إنه يحتاج لتدخين بعض التبغ ليرفع من يقظته، أما أنا فكنت أحتاج للذهاب لقضاء حاجتي، فقلت له: "سأذهب لمكان آخر فلديَّ أمر ما، سأعود على الفور"، ففهم "كوينديه" ما أنا بصدد فعله وأمرني ألا أذهب بعيدًا وسينتظرني هو والغزلان في مكانهم. قفزت نازلةً من فوق ظهر الغزال شاعرةً بخدر في قدمي، وسمعت "كوينديه" يحدث نفسه من خلفي: "التبغ رطب للغاية، بالتأكيد سيهطل المطر غدًا، إن "ناديجدا" تلك متعِبة حقًّا".

في سكون الليل يبدو أي صوت مهما كان ضعيفًا أضخم بكثير منه في النهار، ولقد خشيت أن يسمع "كوينديه" صوت قضائي لحاجتي، لذا استمررت في السير نحو قلب الغابة الكثيفة. كانت تلك منطقة أشجار صنوبر ضخمة عالية، وكانت النسمات تصنع صوت "هوا هوا" عند مرورها بين فروع الشجر، كما لو كانت الريح أيضًا تقضي حاجتها. سرت بعيدًا جدًا حتى تأكدت

أن "كويندية" لن يسمع أي صوت، عندها فقط جلست، ولقد بدأ توهاني في الجبال منذ ذلك الجلوس والوقوف الذي تلاه، فنتيجة لقلة النوم شعرت عند وقوفي بأن الأرض والسماء تلفان، وغامت الدنيا أمام عيني فسقطت على الأرض، وعندما نهضت مرة أخرى كانت قدماي قد انحرفتا عن طريق العودة، فسرت لبرهة وأنا أتحسس الطريق لكني لم أرَ أثرًا للغزلان، عندها شعرت أن الأمور لا تسير على ما يرام، ورفعت رأسي ناظرةً إلى القمر، وشعرت أنه من الأصوب أن أسير في الاتجاه الذي يسير فيه، وذلك لأن المعسكر كان خلفنا عندما جئنا، أي أنه في الناحية الغربية، ولكن النتيجة أن هذا كان حكمًا خاطئًا؛ فقد كنت في البداية قد انحرفت قليلًا عن المكان الصحيح، أما الآن فأنا أسير في اتجاه معاكس تمامًا للاتجاه الأصلي. سرت طويلًا لكنني لم أرَ "كويندية"، فبدأت أنادي عليه بصوتٍ عالٍ، بعدها عرفت أن "كويندية" بعد أن غادرته وانتهى من تدخين التبغ، استلقى فوق ظهر الغزال ونام، وإلا لكان ذهب للبحث عني إذا اكتشف غيابي، لكنه لو كان ذهب حقًّا للبحث عني لما كنت التقيت بـ"لاجيدا".

ولولا الرياح الباردة التي هبت فأيقظت "كويندية" لظل نائمًا لفترة طويلة، كان الضوء قد بدأ يغزو السماء حين استيقظ، وعندما اكتشف غيابي عرف أنه قد أصابني أمر ما، لذا بدأ في إطلاق النار والنداء، لكني كنت وقتها قد ابتعدت عنه كثيرًا، فلم أسمع شيئًا.

بعد أن قضيت ليلة باردة استقبلت صباحًا بلا شمس، فلقد ملأت السحب الرمادية الكثيفة عباب السماء، وبغياب الشمس أصبح تقدير اتجاه السير أكثر صعوبة بالنسبة لي، لذا بدأت في البحث عن الطرق الصغيرة، تلك الطرق الصغيرة كثيرة الانحناءات التي تخترق الغابات تشكلت من وطء أقدامنا نحن وغزلاننا، فإذا سرت بمحاذاتها فستصل بالتأكيد لمكان به بشر. لم يكن معي ما يؤكل لذا جمعت بعضًا من عيش الغراب لسد الجوع، وكان أكثر ما يخيفني في أن أضل الطريق هو أن ألتقي بوحش بري، فلم تكن لدي أي خبرة في مواجهتها

باستثناء تلك المرة التي أخذني فيها "لينكيه" أنا و"لوني" لاصطياد الـ"كانداهان". وبعد أن سرت لفترة قصيرة هطل المطر، فهرعت إلى أسفل صخرة للاحتماء بها، كانت صخرة لونها بني مصفر نمت عليها طحالب خضراء ذات أشكال في غاية الجمال، فمنها ما يشبه السحب، ومنها ما يشبه الأشجار، ومنها أيضًا ما يشبه الأنهار والأزهار، كانت تشبه لوحة فنية.

لم تبدُ أي بادرة على توقف المطر، فشعرت أن استمراري في الاختباء تحت تلك الصخرة لن يعني إلا زيادة موقفي سوءًا، ومن ثم بدأت البحث مرة أخرى عن تلك الطرق الصغيرة، وأخيرًا عثرت على طريق صغير متعرج وسط مجموعة من الأشجار، كانت رؤيتي له بمثابة رؤيتي لشروق الشمس، أصابتني بفرحة وصلت لحد الجنون، لكن كانت فرحتي زائدة عن الحد، فأمام أحد الجبال اختفى هذا الطريق، عندها أصابني اليأس. جلست تحت سفح الجبل ولديَّ رغبة في البكاء، لكني عجزت عن ذلك، لذا ضربت على قدمي ولعنت "ناديجدا" أمام الجبال والغابات، ولعنت "كوينديه"، ولعنت "دامالا" والكاهن "نيدو"؛ فقد كانوا هم من وضعوني في هذا الموقف، والغريب أنني بعد أن انتهيت من لعنهم خف الرعب الكامن في قلبي كثيرًا، نهضت عازمة على البحث عن نهر، فإذا وجدت نهرًا وسرت بمحاذاته فسأستطيع أن أفلت من ذلك المأزق. عثرت أولًا على جدول صغير، وبعد أن شربت بعض الماء منه سرت مع اتجاه التيار معتقدة أنني سأصل إلى النهر لأن الجداول تصب في النهاية هناك، فسرت والثقة تملؤني حتى بدأ الظلام يحل، فاكتشفت فجأة أن هذا الجدول لا يصب في نهر، وإنما في بحيرة، وكان سطح البحيرة الذي تضربه قطرات المطر أشبه بقدر ماء يغلي ويفور. لقد فكرت جديًّا وقتها في القفز في البحيرة.

منذ سنوات بعيدة أشار "والواجيا" المحب لقراءة الكتب إلى علامة على صفحة الكتاب وأخبرني أن تلك هي النقطة، إذا ما أنهى الشخص الموجود في الكتاب حديثه فإنه يرسم مثل تلك العلامة. فقلت له: "لقد رأيت مثل تلك العلامة حين

ضللت طريقي في الجبال، لقدرٍ رُسمت في وسط الغابات، إنها تلك البحيرة التي رأيتها. لكن تلك البحيرة التي تشبه النقطة لم ترسم في حياتي نقطة نهاية".

كنت أخشى أن أصادف ذئبًا أو دبًّا أثناء الليل، لذلك جلست لليلة كاملة على شاطئ البحيرة، حيث فكرت أن تلك الوحوش لو ظهرت لقفزت في البحيرة، كنت أفضل أن تبتلعني المياه على أن تتذوق قطرة واحدة من دمي. توقفت الأمطار وظهرت النجوم، وكنت مبتلة تمامًا وأشعر بالبرد والجوع، في تلك الليلة صادفت غزالين جاءا للبحيرة لشرب الماء، واحد صغير والآخر كبير ظهرا في الجهة المقابلة من البحيرة، كان الغزال الصغير يتقافز في المقدمة، أما أمه فكانت تمشي على مهل في المؤخرة. كان الصغير يشرب الماء ويلهو ثم يذهب ليلعق ساق أمه بفمه، فكانت الأم تجثو لتلعق وجه الغزال الصغير، في تلك اللحظة صعد فجأة إلى قلبي تيار دافئ، فقد كنت متعطشة لشخص يلعق وجهي بمثل هذا الدفء. وعندما غادر الغزالان البحيرة واحدًا تلو الآخر كان قلبي ممتلئًا بالسعادة الغامرة، وقلت لنفسي: "إنني لم أتذوق بعد طعم أن يلعق من أحبه وجهي، لا يمكن أن أغادر العالم الآن، لا بد أن أعيش".

أضاءت السماء وأشرقت الشمس، فجمعت بعضًا من عيش الغراب والفاصوليا الحمراء للإفطار، وصعدت إلى جبلٍ عالٍ، فقد كنت أرغب في النظر إذا ما كانت هناك أنهار في الأسفل، لكن النتيجة كانت مخيبة للآمال، فما تمثل أمام عيني كان جبلًا يتلوه جبل فكانت أشبه بشواهد القبور التي بعثت القشعريرة في قلبي، كم كنت أتوق لرؤية الأنهار ذات الأجساد البيضاء اللامعة! وعندما كنت أهبط الجبل كانت قدماي تفقدان القوة كلما سرت، فلا توجد طرق صغيرة ولا توجد أنهار، ففي أي اتجاه يجب أن أذهب؟ نظرت للشمس طالبة المساعدة، فكنت أشعر تارة أنه يجب السير في اتجاه شروق الشمس، وتارة أخرى أشعر أنه يجب السير في اتجاه مغيبها. كان عقلي يطن مثل نحلة اصطدمت بشباك عنكبوت، وفجأة سمعت صوت قرع قادمًا من الأمام كما لو أن هناك من يقطع الأشجار، في البداية اعتقدت

أنه وهم فتوقفت عن السير وأرهفت السمع، إنه بالفعل صوت قرع، فكاد أن يغمى عليَّ من فرط السعادة وهرعت تجاه مصدر الصوت.

بالفعل كانت هناك أرض خالية في الأمام، وبها كومة من الأشجار غليظة الساق، فانطلقت تجاه تلك الساحة الخالية، ولم أرَ سوى ظل أسود منهمك في قطع شجرة، أصابني جسده المشعر ذلك بالرعب فأطلقت صرخة، أنى لهذا أن يكون رجلًا؟! إنه دب أسود، وما إن سمع صرختي حتى استدار بجسده ورفع قوائمه الأمامية وسار نحوي منتصبًا مثل البشر. لقد جعلتني هيئته أثناء السير أثق في كلام أبي، فقد قال لي من قبل إن الدببة كانت بشرًا في الحياة السابقة، لكنها ارتكبت خطيئة فجعلتها الآلهة تعود في شكل وحوش برية تسير على أربع، لكنها في بعض الأحيان تتمكن من اتخاذ هيئة الإنسان في السير منتصبة القامة. نظرت إلى خطواته التي تقترب مني فكان أشبه بشخص يتمشى ويشاهد المناظر الطبيعية، وكان يهز رأسه في عدم رضا، فتذكرت فجأة كلام "إيفولينا"، فقد قالت لي إن الدببة لا تؤذي النساء اللاتي يكشفن صدورهن أمامها، فخلعت على عجل ملابسي العلوية، فشعرت كأني شجرة، أما ثدياي اللذان كشفت عنهما فهما مثل فطر عيش الغراب المسمى "رأس القرد" وقد بللتهما الأمطار، فإذا ما أراد الدب تناول مثل هذا النوع من عيش الغراب، فليس أمامي سوى أن أقدمهما له. لذلك فإن أول من رأى صدري في العالم لم يكن "لاجيدا"، وإنما الدب الأسود.

توقف الدب في اللحظة التي كشفت فيها عن صدري، وسرح قليلًا كأنه يسترجع أمرًا ما، وسريعًا ما وضع قائمتيه الأماميتين، وسار بضع خطوات على الأرض قبل أن يستدير ويستمر في قطع الشجرة.

علمت وقتها أن الدب قد أطلق سراحي، أو بالأحرى أطلق سراح صدري، ففكرت في الهرب سريعًا، لكني عجزت عن التحرك ولو لخطوة واحدة، لقد ظللت أشاهده ذاهلة وهو يقتلع الأشجار واحدة تلو الأخرى، وعندما اقتلع الشجرة

الثالثة عندها فقط شعرت أن القوة عادت لأقدامي فغادرت تلك الأرض الخاليـة، في البداية كنت أسير ببطء شديد، بعدها داهمني الـشعور بالرعـب مـرة أخـرى، فخشيت أن يهاجمني مرة ثانية فبدأت في الجري، جريت قليلًا ثم تـذكرت أن أبي قال من قبل إنه عند الهرب من الدب إياك أن تجري عكس اتجاه الريح؛ وإلا فإن الريح سترفع الشعر الموجود أعلى جفون الدب وستجعله يرى بوضـوح. فتوقفـت لأحدد اتجـاه الـريح، بعـدها بـدأت في الجـري ثانيـةً مـع اتجـاه الـريح، وعنـدما أصبحت عاجزة عن الجري كانت الشمس قد وصلت لمنتصف الـسماء، فـسقطت وسط غابة من الشجيرات، عندها فقط اكتشفت أنني لا أزال عارية الـصدر، لقـد نسيت أن آخذ الملابس التي خلعتها، ولكن حتى لو كانت لديَّ ملابس لما جـرؤت على ارتدائها، فكيف لي أن أعرف إذا ما كنت سأقابل دبًّا آخر أم لا؟

فيما بعد أخبرني "لاجيدا" أن الدببة لديها عادة "تنظيف الساحة"، فهي تحب أن تنظف مكانًا كبيرًا للعب. أما أنا فكنت أرى أنها تحب "تنظيف الساحات" لأن لديها قوة هائلة بأجسادها ولا مجال لاستخدامها.

كانت كل قبيلة بالجبل تقريبًا لديها "كاو لاو باو" اثنان أو ثلاثـة عـلى الأقـل، وأربعة أو خمسة عـلى الأكثر. وبنـاء "الكـاو لاو بـاو" يحتـاج للبحـث عـن أربـع شجرات متساوية في السمك وسط الغابة وبينها مسافات متساوية، وبعـدها يـتم قطع الفروع الموجودة على جسد الشجرة، ثم قطع تاج الـشجرة واسـتخدام تلـك الأشجار المنتصبة طبيعيًّا كأعمدة، بعدها يوضع على تلـك الأشـجار الأربعـة إطـار مستطيل وأرضية من ألواح خشب الصنوبر، ويغطَى الإطار بلحاء أشـجار البتـولا، ثـم تُـترك فتحـة في القاعـدة تُـستخدم كفتحـة لإدخـال وإخـراج البـضائع، وعنـد الارتحـال نـضع فيـه الأشـياء الزائـدة التـي لا نـستخدمها مثـل الملابـس والجلـود والأطعمة وغيرها لتخزينها لحـين الحاجـة، و"الكـاو لاو بـاو" يوضـع عاليًـا لـذا لا تستطيع الحيوانات البرية له سـبيلًا، وهـو بـالطبع يحتـاج إلى سـلم، لأن ارتفاعـه بارتفاع قامتين فلا يمكن الصعود إليه إلا بـسلم، وفي العـادة يوضـع الـسلم وسـط

الأشجار أسفله بشكل أفقي ويُنصب حين الحاجة. وفي الماضي كان "الكاو لاو بـاو" دائمًا ما يتعرض لهجوم من القطط البرية والثعالـب التـي كانـت تـصعد متـسلقة أعمدته الأربعة لتسرق الطعام، ومن أجل الوقاية منها أصبحنا بعدها حـين نبنـي "الكاو لاو باو" ننزع اللحاء عن الأعمدة الأربعـة فتـصبح ملـساء زلقـة، فيـصعب عليها تسلقها، بعدها أصبحنا نغلف الأعمدة بطبقـة رقيقـة مـن صـفائح الحديـد ذات الأسنان مثل المنشار، وهكذا أصبحت الحيوانـات لا تجـرؤ عـلى دفـع الـثمن الباهظ لتدمير مخالبها من أجل تسلق "الكاو لاو باو"، إلا الدببة التي لديها القوة لنقل السلم وتسلقه، أما الحيوانات الأخرى فلا تملـك سـوى التطلـع لهـذا المخـزن العالي الممتلئ ولعق أفواهها الخاوية.

عثرت على الـسلم أسـفل شـجرة بتـولا قريبـة مـن "الكـاو لاو بـاو"، فنـصبته وصعدت للأعلى، ومنذ أن وعيت للأمر كان الكبار يحبون تذكيرنا بمقـولتين، الأولى: "إنك لا تحمـل منزلـك معـك عنـد الخـروج، الغربـاء لا يحملـون قـدور طعـامهم معهم"، أما المقولة الثانية فكانت: "النـاس لا يـدخلون إلا للمنـازل التـي بهـا نـار ودخان، والطيور لا تهبط إلا على الشجرة ذات الفروع"، لذلك كنا لا نـضع أقفـالًا على "الكاو لاو باو"، لذا كان يمكنك أن تأخذ أي شيء تحتاجه بشدة حتى لو كـان "الكاو لاو باو" الذي مررت به لا يخص قبيلتك، وبعد أن تأخذه يمكنك أن تعيـده في المستقبل، وحتى لو لم تُعِده فلن يـشتكي أحـد أن المـارة قـد أخـذوا شـيئًا مـن الداخل.

لم تكن هناك أشياء كثيرة داخل هذا "الكاو لاو باو"، كـان هنـاك فقـط بعـض الأسرة وأدوات الطبخ، لم تكن هناك جلود غالية، لكن كانت هناك سلة مـن لحـم الوعل المجفف كنت في حاجة ماسـة إليهـا، وكـان هنـاك وعـاءان مـن دهـن دب أبيض كالثلج، ولقد فكرت في أن الـدب قـد أطلـق سراحـي للتـو، لـذا ومـن بـاب الاحترام لم أتناول شيئًا من دهن الدب. مضغت اللحم المجفـف في فمـي، لكنـه لم يكن مقرمشًا ربما بفعل المطر، فكنـت أجـد صـعوبة في مـضغه، في البدايـة كنـت

آكل ببطء، ومع الأكل زاد إحساس الجوع فبدأت أبلع الطعام بلعًا. لقد علمت أنني قد نجوت، فلم أحصل على الطعام فحسب، وإنما أصبح لدي مكان مؤقت يمكن أن أرتاح فيه وأتقي الأمطار. كنت منحنية في الداخل أمضغ لحم الوعل المجفف وقد شعرت أنني أكثر نساء الأرض سعادة، فنويت أن أنام قليلًا بعد تناول الطعام، بعدها أذهب للبحث عن طريق العودة للمعسكر، وطبقًا لتقديري كان لا بد من وجود بشر بالقرب من "الكاو لاو باو".

كانت الشمس قد غاب نصفها، ولكن كان لا يزال بإمكاني الشعور بما تبقى من دفئها من خلال فرجات خشب الصنوبر داخل "الكاو لاو باو". وبعد أن امتلأت معدتي بالطعام زاد إحساسي بالنعاس، وما إن ملت بجسدي واتكأت وضممت رجليَّ عازمة على النوم حتى سمعت فجأة صوت خطوات أقدام قادمًا من الأسفل، وسريعًا ما وصل صوت الأقدام إلى أسفل جسدي، ثم سمعت صوت "طاخ"، لقد سقط السلم على الأرض، من الذي أزال السلم؟ اعتقدت أنه ذلك الدب الذكي قد تتبعني رغبةً منه في أن يحبسني للأبد داخل "الكاو لاو باو".

مددت رأسي للخارج لأرى، أين هو هذا الدب؟ إنه رجل ممتلئ بالحياة يصوب نحوي بندقيته.

إنه "لاجيدا". كان ذلك "الكاو لاو باو" خاصًا بقبيلته، ولقد مر به فرأى السلم منتصبًا وسمع صوتًا يأتي من الداخل فاعتقد أنه دب أسود يعبث بالأشياء داخل "الكاو لاو باو"، وما إن استعد لإزالة السلم حتى يقطع عليه طريق العودة وصوَّب البندقية ليقتله حتى مددت رأسي للخارج، بالإضافة إلى أن صدري خرج أيضًا مع رأسي، لقد قال "لاجيدا" إنه قد أصابه الفزع حين نظر لي لأول مرة؛ فلقد كان شعري ثائرًا، ووجهي ونصف جسدي العلوي ليس مجروحًا بفعل أغصان الأشجار فحسب، بل ممتلئًا أيضًا بالحبوب بفعل قرصات الناموس، إلا أن عيوني حركت مشاعره، ولقد قال إن تلك العيون صافية ورطبة ومشبعة، ما إن رآها حتى اختلج قلبه.

لقد خمن "لاجيـدا" أن هيئتـي تلـك كانـت بـسبب ضـلالي للطريـق في قلـب الجبل، لذا لم يسأل عن أي شيء، وإنما نصب السلم مرة أخرى لأنزل عليه، ومـا إن وصلت للأرض حتى تهاويت في أحـضانه، وقتهـا نـسيت تمامًـا أني عاريـة الجـسد، ولقد قال "لاجيدا" إنه عندما انغرس هذان النهـدان الطريـان الـدافئان في حـضنه أحس بحرارة شديدة في جـسده، لقـد فكـر في أن نهـد تلـك المـرأة قـد دخـل إلى صدري فلا أرغب في أن يدخل إلى أحضان رجل آخر، لذا بزغت في عقله فكـرة أن يتزوجني، تلك اللحظة كانت لحظة مغيب الشمس، أي أنها أجمل لحظة في اليوم كله.

أما "لوني" و"خاشيه" فقد ظلا يسيران حتى بلغا نهر أرجون، لكـنهما لم يلحقـا بـ"ناديجدا" و"جيلانتيه" و"نالا"، لقد اختفوا بلا أثر، فلم نعرف إذا ما كـانوا عـثروا على قارب لحاء أشجار البتولا وتمكنوا مـن عبـور النهـر إلى الـضفة اليـسرى، أم أن مياه النهر قد ابتلعتهم أثناء سباحتهم؟ لقد أصبح الصمت يخيم عـلى الجميـع في كل مرة نصل فيها إلى نهر أرجـون بعـد أن غادرونـا كـأن الجميـع يقفـون حـدادًا عليهم في قلوبهم.

وفي طريق عودتهما التقى "لوني" و"خاشيه" بكلٍ مـن "كوينديـه" و"إيفولينـا" اللذين كانا يبحثان عني. لقد اعتقدوا أني قد مت بما أني قد اختفيت لثلاثـة أيـام. لم يتوقع أحد أنني في اليوم الرابع لم أعد سالمة فحسب، بـل أحـضرت معـي رجـلًا أيضًا.

كانت قبيلة "لاجيدا" هي الأكبر من بين قبائل عشيرتهم، وبها أكثر مـن ثلاثـين فردًا، فأسرته وحدها بها ستة عشر فردًا؛ لديه أب وثلاثة إخوة أكـبر منـه، وأختـان وأخ أصغر منه. هؤلاء الإخوة الأكبر منه قد تزوجوا وأنجبوا أطفالًا فأضافوا أفـرادًا جددًا للعائلة، وفي السنة التي تزوجنا فيها كان أخـوه الأصـغر "لاجيمـي" يبلـغ مـن العمر ثلاث سـنوات فقـط، ولقـد أخـبرني "لاجيـدا" أن أمـه محبـة للإنجـاب، لكنهـا توفيت خلال ولادة متعثرة لأخيه "لاجيمي" وهي في سن الستين. لقد رحلـت وهـي

مبتسمة بعد أن ألقت نظرة على الرضيع الباكي. وعندما التقيت "لاجيدا" كان قد أتم ثلاث سنوات وفاءً لأمه، وإلا لكان زواجنا سيؤجل فترة من الزمن.

قلت لـ"لاجيدا" إنني لا أستطيع مغادرة قبيلتي؛ فأمي قد أصابها مس من الجنون وتحتاج لمن يرعاها، فقال إذًا سآتي أنا لقبيلتكم، فعلى أي حال لديَّ كثير من الإخوة يمكنهم البقاء بجوار أبي.

كان أبو "لاجيدا" عجوزًا طيبًا، فهو لم يوافق على أن يأتي ابنه لينضم لقبيلتنا فحسب، وإنما جاء في يوم عرسنا مصطحبًا معه بعض الرجال ليوصل "لاجيدا" إلينا، وفي الوقت نفسه جلب معه أيضًا عشرين غزالًا هدية زواج.

كانت ملابس زفافي قد صنعتها "إيفولينا" على عجل، وأهداني "إيوان" قطعة القماش الوردية التي صبغتها "نالا"، فطلبت من "إيفولينا" أن تخيطها في جوانب ملابس الزفاف، لذا اكتست ياقة وأكمام ووسط ذلك الجلباب الأزرق بقطعة القماش الوردية تلك، ولقد ارتديتها كعروس مرتين، وحتى الآن لا تزال قطعة الملابس تلك معي، لكني لم أعد قادرة على ارتدائها؛ لقد هرمت، وذبلت، لقد أصبحت تلك الملابس واسعة عليَّ للغاية، كما أن لونها قد بهت، خصوصًا اللون الوردي، لقد كان أكثر تأثرًا بالزمن من اللون الأزرق، فأصبح باهتًا لا يمكن أن ترى عليه علامات البهاء والجمال التي كان عليها في الماضي.

كان زفافي بسيطًا، حيث اجتمع أبناء القبيلتين والتفوا حول النار لتناول الطعام، ولقد غاب عن ذلك الاجتماع جو الفرح والسعادة، وشرب "إيوان" حتى سكر فتقيأ الخمر واللحم داخل حفرة النار فعقدت "إيفولينا" حاجبيها، كنت أعلم أنها تشعر بأن هذا ليس بالفأل الحسن، وكانت ملامح "داملا" والكاهن "نيدو" باردة، حتى إنهما لم يوجها لي أي عبارة تهنئة، لكنني كنت أشعر بسعادة لا تضاهى، وعندما أويت في تلك الليلة مع "لاجيدا" إلى خيمتنا الجديدة لتتشابك أجسادنا سويًّا ولنصنع معًا صوت الريح القوي الخاص بنا، حينها شعرت بأنني أسعد امرأة تحت السماء. ما زلت أذكر أنها كانت ليلة اكتمل فيها القمر، فكان

يمكننا رؤية قمر فضي أبيض من سقف الخيمة المدبب، فدفنت رأسي في صدر "لاجيدا" وقلت له إنني لم أشعر بالدفء من قبل قط مثل الآن، فقال لي إنه سيجعل هذا الدفء يلازمني للأبد، ثم قبّل نهدَيّ وقال إن أحدهما كالشمس والآخر كالقمر، وسوف يضيئان حياته إلى الأبد. في تلك الليلة قال "لاجيدا" كثيرًا من "إلى الأبد"، كانت كلها أشبه بالوعود، والوعود نادرًا ما نجد من بينها ما يستمر إلى الأبد.

كان "لاجيدا" يهوى الصيد، أما أنا فقد كنت دائمًا ما أذهب معه حتى أستطيع أن أرافقه لوقت أطول، في العادة كان الصيادون يتشاءمون من اصطحاب النساء للصيد، خصوصًا في الأوقات التي تأتيهن فيها الدورة الشهرية، فقد كانوا يعتقدون بأنها تجلب الطالع السيئ، لكن "لاجيدا" لم يكن يتشاءم، ففي أي مرة يصطاد بالقرب من المعسكر كان ينفصل عن الجماعة ويصطحبني، لقد رابضت معه في الحقول القلوية واصطدنا الغزلان البرية، واصطدنا معًا كلاب البحر من الكهوف وسط غابات الشجيرات، وأصبنا سويًّا القطط البرية في غابات الصنوبر، لكن إذا ما صادفنا دبًّا أسود يرقد في بياته الشتوي، كنت أنصح "لاجيدا" بأن يدعه وشأنه.

يقول كثير من الناس إن أكثر الحيوانات مكرًا في الغابة هو الثعلب، لكني أرى أن أكثرها مكرًا هي القطط البرية، أو التي تسمى أيضًا الوشق، وهي تشبه القطط في الشكل الخارجي، لكنها أكبر من القطط بكثير، وجسده كله لونه بني مائل للأصفر ومنقط بنقاط رمادية، له جسد قصير وذيل قصير أيضًا وأطراف رفيعة طويلة، وفي طرفي أذنيه شعر طويل مدبب، ويعد هو الأبرع على الإطلاق في تسلق الأشجار، ففي لمح البصر كان يستطيع التسلق إلى فروع الشجر، وهو يحب اصطياد الأرانب البرية والسناجب والدجاج الجبلي والوعول، وعندما يشن هجومه على تلك الحيوانات يتخذ دائمًا في البداية من الأشجار معقلًا، حيث يرابض فوقها وعندما يراها مرت من تحته يندفع نحو الأسفل ليقضم ويكسر قصبتها الهوائية، ويلعق الدماء أولًا بعدها يستخدم مخالبه لنزع الجلد

ويستمتع ببطء وتلذذ بتناول اللحم. كنت أرى أن قيامه بلعق الدماء هـو سـلوك قاسٍ، لذا كنت أكرهه، إنه ليس قاسيًا فحسب ولكنه ماكر أيضًا، فحينما يـرى دبًّـا أسود أو خنزيرًا بريًّا يهدده يتسلق إلى قمة الأشجار بأقصى سرعة، وعندما يطارده الدب أو الخنزير البري إلى أسفل الشجر يتبول فجأة وبقوة، حينها يبتـل الحيـوان وتغلفه رائحة البول النتنة فيفقد الحماسة لمطاردته ويجر أذيـال الخيبـة مغـادرًا. لذا كانت تلك القطط البرية تملك طلقات مثل الصياد، وطلقاتها هي بولها، وهـي تحب أن تخزن في الشتاء الطعام الذي يتبقى منهـا حتـى تتقـوت عليـه في الأيـام التي لا صيد فيها، لذا فهي كائنات ذكية تصنع حساب المستقبل.

كان "لاجيدا" نادرًا ما يستخدم البنادق والطلقات لاصطياد القطط البرية، بـل كان دائمًا يستخدم الأقواس والـسهام البدائيـة، واعتـاد أن يختبـئ وسـط الأشـجار ويتحين اللحظة التي تتسلق فيها القطط الأشجار لكي يطلق سهامه، فكانت غالبًـا ما تنغرز في حناجرها لتسقط كقطعة حجر. ولقد اكتـشفنا ذات مـرة قطـة بريـة تطارد دجاجة جبلية، فشد "لاجيدا" قوسه بسرعة الـبرق، وكـان حقًّـا كمـن ضرب عصفورين بحجر؛ فبسهم واحد أصاب كلًا من القطة والدجاجة.

أعتقد أن قدرتي على الحمل وإنجاب طفلي الأول "ويكيتيه" لها علاقة بكـلاب البحر، لذا من بعدها لم أعد أصطاد كلاب البحر.

تحب كلاب البحر التهام الأسماك، لذا فإن كهوفها تتصل بمصادر المياه، فـما عليك سوى البحث عن كهوف قريبة من الأنهـار وتتنـاثر حولهـا عظـام الأسـماك، حتى تعرف بما يرتقي لدرجة اليقين أن هناك كلاب بحـر بـداخلها. وكـلاب البحـر كائنات تحب الراحة والـلـهو، ففي النهار تحب السباحة في النهر وتناول الأسـماك الصغيرة، وفي المساء تعود لكهوفها لتستريح، وفي العادة كنت بعد أن أجـد الكهـوف التي تعيش فيها يتولى لاجيـدا اصـطيادها وقتلهـا. تلـك المـرة كانـت في ربيـع العـام الثالث لي مع "لاجيدا"، فاكتشفنا أربعة من صغارها لم تفتح أعينها بعـد، فعرفنـا أن الأم في الجوار، لـذا لم نحـرك الـصغار، وقـرب المـساء سـبحت الأم عائـدة مـن النهـر

إلى الكهف، وعندما برز رأسـها الأصـلع وهـمَّ "لاجيـدا" أن يـضربها أوقفتـه؛ فقـد فكرت أن تلك الصغار الأربعة لم تـرَ أمهـا بعـد، فلـو فتحـت عيونهـا ورأت فقـط الجبال والأنهار والصيادين الذين يسعون خلفها فسينفطر قلبها.

وهكذا تركناها تعيش، وبعدها بفترة قصيرة بدأت تظهر على بطنـي علامـات حياة جديدة وأنا التي لم أحبل لمدة ثـلاث سـنوات، ولقـد غـيَّر هـذا مـن نظـرات "إيفولينا" لي ولـ"لاجيدا"، ففي السنتين الأوليـين كانـت كلـما رأت بطنـي الخـاوي تلقي بكلماتها الباردة التي تـؤجج حزننـا، كـأن تقـول إن "لاجيـدا" مظهـره قـوي كالنمر ولكن عظامه طرية كالفأر، وإلا فلماذا لا تحمل امرأته؟ ثـم تـؤنبني قائلـة إنه لا يجب عليَّ مرافقة "لاجيدا" للصيد، كيف يمكن للمرأة التي تصطاد أن يكون لها أطفال؟ وذات ليلة أصابها الأرق فخرجت لتتمشى في المعسكر، وفجأة سمعت آهاتي وأنفاس "لاجيدا" القويـة خارجـة مـن خيمتنـا، وفي اليـوم التـالي مصمـصت شفتيها وهي تقول لي: "إنكم تفعلون هذا الأمر بكل تلك القوة فكيـف يعقـل ألا تصنعون أطفالًا؟"، فخجلـت مـن قولهـا حتـى أصـبحت وجنتـاي مثـل الفحـم في الموقد، ملتهبة للغاية.

وبعد أن حملت توقفت عن الخروج للصيد مع "لاجيدا".

كان "لاجيدا" في ملامحه وطباعه يشبه أبي؛ وعلى الرغم من نحوله الـشديد فإنه كان عريض المنكبين طويل الذراعين ذا عظام قوية، وكانت رموشه كثيفة لا تـشبه رمـوش الرجـال الخفيفـة، وهـذا جعـل عينيـه كـأنهما أحيطتـا بغابـات متشابكة لتبدوا هادئتين إلى أبعد الحدود. وكـان محبًّـا للمـزاح مثـل "لينكيـه"، ففي الشتاء كان يمسك خنفـساء الزهـور ويـضعها في بنطـالي، وفي الـشتاء حـين يسقط الثلج كان يضع قبضة منه في يده ثم يدلفها في ملابسي، لأقفز مـن الـبرد وأنا أصيح "أي يوه"،عندها كان يطلـق ضـحكاته بقـوة. كنـت أسـتطيع تحمـل خنفساء الزهور، لكن الثلج يختلف، لذا كنت عندما أراه داخـلًا للخيمـة ضـامًّا قبضته في أوقات تساقط الثلوج، كنت أتجنبه ضاحكة، فكان يقـول: "أسـمعيني

كلامًا حلوًا وأنا سأتركك". كنت أخشى البرد، لذا كنت أقول كثيرًا من الكلام الدافئ طمعًا في أن يتركني، ولكي تذيب كلماتي المتكلفة الثلوج في يده.

كانت هدية أمي لي في زواجي عبارة عن كتلة لهب، إنها كتلة اللهب التي أمامي الآن. كانت أم أبي "ناجيليا" والتي تعني جدتي، قد أهدتها إياها عند زواجها من أبي، ولم تجعلها تنطفئ من قبل، حتى بعد أن أصابها الجنون، وعند الارتحال، كانت لا تنسى حمل جذوة النار، وعندما رأتني أرتدي ملابس الزفاف التي صنعتها لي "إيفولينا"، وأدركت أنني على وشك أن أصبح عروسًا، ربتت على وجهي بيدها وتنهدت قائلة: "سيكون لكِ رجلك، ستهديكِ "إينا" كتلة لهب".

ثم قامت أمي بنزع قطعة لهب من النار التي أهدتها إياها "ناجيليا" وأعطتها لي، في تلك اللحظة احتضنتها وبكيت. لقد شعرت فجأة أنها مثيرة للشفقة ووحيدة، لقد كبتنا مشاعرها مع الكاهن نيدو، وربما كانت تلك جريمة، فعلى الرغم من أننا كنا نحمي تعاليم قبيلتنا، إلا أننا في الواقع كنا نطفئ جذوة النار في قلبها، لقد جعلنا قلبها يصير باردًا للأبد، لذا عاشت أيامًا باردة على الرغم من جلوسها الدائم بجوار النار.

وعند النظر إلى تلك النار الأكبر عمرًا مني، أشعر كأني رأيت فيها خيال أمي.

كانت أمي تحب كثيرًا النظر إلى "لاجيدا"، ربما لأنه كان يشبه أبي كثيرًا، كانت تنظر له وهو يأكل، وهو يشرب الشاي، وهو ينظف البندقية، وهو يمزح معي. كانت تنظر له دائمًا بهيام وعلامات الرضا بادية عليها، لكن بعد أن كبر بطني لم تعد تحب النظر إليه، وأصبحت تعامله بشيء من الاحتقار والنفور. ولقد قالت "إيفولينا" إن "دامالا" اعتبرت "لاجيدا" خيالًا لـ"لينكيه"، وعندما اكتشفت أنه جعلني حبلى شعرت أن "لينكيه" غير مخلص لها، لذا أصبحت تكره "لاجيدا".

كنت أعرف الحب والكره اللذين كانا بين أبي والكاهن "نيدو"، وقرب الولادة ساعدني "لاجيدا" في إقامة غرفة الولادة التي ندعوها "ياتاتشو"، إن

الرجال محظور عليهم تمامًا دخولها، أما النساء فهن يتشاءمن أيضًا مـن مـساعدة الأخريات في الولادة، لأنه يقال إن هذا يجعـل أزواجهـن يموتـون مبكـرًا. وعنـدما بدأت الآلام الشديدة تجعلني أصرخ مثل الحيوانات البرية جاءت "إيفولينـا"، ثـم حكت لي أسطورتين للتخفيف عني، لقد كانت تعتقد أن تلك القـصتين الجميلتـين ستخففان من ألمي، لكن من كـان يتوقـع أنهـما سـتأتيان بتـأثير عكـسي؟ فظللـت أصرخ أن تلك قـصص عفاريـت يخـدعون بهـا النـاس، لقـد أذهـب الألم بفطنتـي وتعقلي، وعندما رأت "إيفولينا" ذلك قالت بجفاء: "إذًا سأحكي لك قصة حقيقيـة، لا تخدع الناس، بعد أن تسمعيها لا تصرخي ثانيةً".

زما إن بدأت في السرد حتى توقفـت عـن الـصراخ، لأنهـا كانـت قـصة رجلـين وامرأة، وكان أبطالها "لينكيه" و"دامالا" والكاهن "نيدو"، لذا انجـذبت تمامًـا لهـا. لقد كانت قصة مؤلمـة جعلتنـي أنـسى ألمـي، وعنـدما انتهيـت مـن سـماعها وُلـد "ويكيتيه" بسلام، ولقد رسم بكاؤه نقطة النهاية لتلك القصة.

عندما كان جدي على قيد الحياة، قاد قبيلتـه للارتحـال ذات صـيف، وعنـدما كانوا يسيرون على ضفة نهر "جوسجين"، قابلوا قبيلة أخرى كانت ترتحل أيضًا، لذا توقف أبناء القبيلتين المختلفتين، وبدؤوا في احتفالات صاخبة استمرت لثلاثة أيـام وثلاث ليالٍ. اصطاد الجميع الحيوانات البرية والتفوا حـول النـار يـشربون الخمـر ويأكلون اللحم، يغنـون ويرقـصون، ولقـد التقـى "لينكيـه" والكـاهن "نيـدو" مـع "دامالا" في ذلك المكان. كانت "دامالا" هي أكثر فتيات تلـك القبيلـة حبًّـا للـرقص، كانت ترتدي تنورة قماشية رمادية طويلة، وكان باسـتطاعتها الـرقص مـن مغيـب الشمس وحتى منتصف الليل، ثم الرقص من منتصف الليل وحتى الفجر، فكانت هيئتها الراقصة مثار إعجاب الجميع وجعلت الكثير يحبونها، ولقد أحبها كلٌّ مـن "لينكيه" والكاهن "نيدو"، ولقد أخبرا الجد في الوقت نفـسه تقريبًـا أنهـما يحبـان تلك الفتاة التي تدعى "دامالا" ويرغبان في الزواج منها. عندها شعر الجد بالحيرة، فهو لم يكن في حسبانه أن يحب ابناه نفس الفتـاة، لـذا أخـبر جـدي الأمـر لوالـد

"دامالا" سرًّا، فقد رغب في أن يسأل الأب ابنته أي واحد تفضل؟ فإذا لم تكن قد أعجبت بأي منهما، إذًا فالأمر سهل. من كان يعلم أن تلك الفتاة المحبة للرقص ستخبر أباها أن كلا الشابين لا بأس بهما؟ فالبدين يبدو رقيقًا مخلصًا، والنحيف يبدو ذكيًّا منفتحًا، لذا لا بأس بالزواج بأي منهما. ولقد زاد هذا من حيرة أبيها ومن حيرة جدي، أما هي فلم تشعر بالحيرة، فبعد أن ربطت كلًّا من روحي "لينكيه" والكاهن "نيدو" ظلت هي هادئة متزنة واستمرت في الرقص، ووزعت ابتساماتها الحلوة بعد كل رقصة على الآخرين.

وفي النهاية تفتق ذهن جدي عن فكرة، فجمع كلًّا من "لينكيه" والكاهن "نيدو"، وقال لهما أولًا إن كلًّا منهما ابن محبب له، وبما أن كليكما قد أحب نفس الفتاة، وتلك الفتاة قالت إن أيًّا منكما يمكن أن يكون عريسًا لها، لذا وجب على أحدكما أن يتنازل. ثم سأل "نيدو" أولًا هل توافق على أن تدع "لينكيه" يتزوج "دامالا"؟ فهز الكاهن "نيدو" رأسه رافضًا وقال: "إلا في حالة أن يصير البرق حبالًا تربط "دامالا" أمام لينكيه، وإلا فإنني لن أوافق". فسأل الجد "لينكيه": "هل توافق على أن تتزوج "دامالا" أخاك الأكبر؟"، فرد "لينكيه": "إلا في حالة أن يغمر العالم الفيضان فتأخذني تياراته بعيدًا، وتدفع "دامالا" وأخي إلى الجزيرة نفسها، وإلا فلن أوافق". فقال الجد: "حسنًا لقد استخرت السماء، وهي التي ستقرر عن طريق سهامكم".

وقتها كانوا في موسم المطر، وكان هناك نوع من عيش الغراب الأبيض ينمو على الأشجار في الغابة، فكان يظهر في هذا الوقت. كنا نطلق عليه "رأس القرد"، كان في حجم قبضة اليد ويكسوه الشعر، وإذا قمت بطهو هذا الفطر مع الدجاج الجبلي، فإن أكثر الناس صعوبةً في الإرضاء لن يملك إلا أن يثني على هذا الطعم الجميل. هذا الفطر ينمو على أشجار البلوط، وهو فطر ذو خاصية مثيرة، فهو في العادة ينمو كتوأم، فإذا اكتشفت أحده على جذع شجرة، ففي مكان قريب من تلك الشجرة ستجد بالتأكيد واحدًا آخر مقابلًا له.

وهكذا بحث جدي حتى عثر على فطرين متقابلين مـن رأس القـرد في غابـات ضفة نهر "جوسجين"، وطلب من "لينكيه" والكـاهن "نيـدو" أن يتبـارزا في مهـارة استخدام القوس والسهم. بمعنى آخر، من سـيتمكن مـن إصـابة فطـر رأس القـرد فإنه سيتزوج "داما‌لا"، أما لو نجح الاثنان في إصـابة الهـدف، فـسنبحث عـن زوج آخر من الفطر، حتى نحدد الفائز والمهزوم. وقالت "إيفولينا" إن هاتين الـشجرتين اللتين نما عليهما فطر رأس القرد كانتا على خط واحد بيـنهما مـسافة تماثـل طـول خيمة، فكانتا تشبهان أخـين، وعنـدما حمـل كـلٌ مـن "لينكيـه" والكـاهن "نيـدو" قوسيهما وجاءا أمام الشجرتين التف كل أبناء القبيلتين لمشاهدتهما، لكن "دامـالا" لم تأتِ، لقد ارتدت تنورتها وظلت ترقص وحيدة على ضفة النهـر. لقـد كـان كـلُّ منهما في شبابه راميًا بارعًا، وأضاءت الشمس بنورها قطعتَي الفطر لتـتلألآ بـضوء أبيض كريستالي، كما لو أنهما أذنـان نبتتـا عـلى الـشجر. وعنـدما أطلـق كـلُّ مـن "لينكيه" و"نيدو" سهامهما بعد سماع أمر الإطلاق من جدي، قالت "إيفولينا" إنها غمت عينيها، وسمعت فقط صوت "شوا شوا" كصوت تيـارين مـن الريـاح يمـران بالقرب، كان هذا صوت سهمين يغادران وتريهما، إلا أن هـذين الـصوتين حـدثت بهما تغيرات في لمح البصر، فـصوت "شـوا شـوا" انفـصل ليـصير صـوتين مختلفـين، وبعـد أن اختفيـا سـاد الـصمت المكـان، وقالـت "إيفولينـا" إنهـا فتحـت عينيهـا، لتكتشف أن قطعة الفطر المقابلة لـ"لينكيه" قد اخترقها سهم، أما الكاهن "نيـدو" فقد طاش سهمه وانغرس في جسد الـشجرة، ولم يـصب الفطـر عليهـا بـأي سـوء. وهكذا وتحت أعين الناس فاز "لينكيـه" بــ"دامـالا"، ومـن وقتهـا أصـبح الكـاهن "نيدو" قليلًا ما يصيب الهدف بدقة سـواء كـان يـضرب بـالقوس أم بالبندقيـة، في الحقيقة كان راميًا بارعًا قبل تلك الواقعة.

ولقد قالت "إيفولينا" إنها كانت دائمة الـشك في أن الكـاهن "نيـدو" قـد تعمـد الخسارة أمام "لينكيه"، لأن نظراته لذلك السهم الطائش وقتها كانت هادئة للغايـة. لكني لم أكن أفكر بهـذا الـشكل، فـبما أنـه قـد أعـرب لجـدي أنـه لـن يـتخلى عـن

"داမالا"، ووافق على المنافسة بالسهام مع "لينكيه" لتحديد الفـائز، فإنـه بالتأكيـد سيبذل قصارى جهده، ولو كان غيَّر رأيه فإن هذا قد حدث بالتأكيد في اللحظـات الأخيرة. ربما لم يطاوعه قلبه على رؤية نظرات الإحباط في عينَي "لينكيه".

عندما نقل الشهود أخبار فوز "لينكيه" إلى "دامالا"، كانت تجلس على جانـب النهر، وتلعب براحة يدها بنملتين سوداوين، فكانت تـشاهدهما وهـما تتقـاتلان، وعندما علمت أنها ستكون عـروس "لينكيـه" نهـضت وألقـت النملتـين، ونفـضت تنورتها وضحكت، ولقد أكدت ابتسامتها للجميع أنها في قرارة نفسها كانت ترغب في الزواج منه.

وفي العام التالي ومع حلول موسـم نـشر قـرون الغـزلان تـزوج "لينكيـه" مـن "دامالا" وأحضرها إلى قبيلتنا، ولقد جلبـت معهـا كـرة نـار وخمـسة عـشر غـزالًا، وعندما تزوجا جرح الكاهن "نيدو" إصبعه بالـسكين، ورأى النـاس قطـرات الـدم الطازجة تتساقط قطرة قطرة، وعندما همت "إيفولينا" بأن تُحضر لـه بعـضًا مـن أعشاب طعام الغزلان لكتم الجرح أوقفها، وشاهده الجميع وقد رفع إصبعه الذي يقطر دمًا، ثم وضعه أمام فمه ونفخ فيه، فتوقف الـدم فـورًا عـن الـسيلان فـيما يشبه المعجزة.

في الماضي البعيد كان هناك صياد صادف غزالًا في قلب الغابـة، فـأطلق نحـوه سهمن لكنه لم يصبه في مقتل. هـذا الغـزال كـان ينـزف دمًـا وهـو يهـرب، فتتبـع الصياد أثر الدم مفكرًا أن الغزال قد أصـيب إصـابة بليغـة، وبعـد أن ينـزف الـدم حتى النهاية فمـن الطبيعـي أن يعجـز عـن الحركـة، فاسـتمر في المطـاردة، لكنـه اكتشف أن الدم اختفى ونجح الغزال في الهرب، واتضح أنه كان غزالًا من الآلهـة، فكانت تهرب وهي تستخدم الأعشاب أسفلها لعـلاج نفـسها، ولقـد وطـأ الـصياد ذلك العشب القادر على وقف النزيف، وهذا هو "عشب طعـام الغـزلان". ولقـد قالت "إيفولينا" إن الجمع حين شاهد الكاهن "نيدو" لم يـستخدم "عـشب طعـام الغزلان" وإنما استخدم أنفاسه لإيقاف النزيف، أصابه رعب أكبر من رعبـه لرؤيـة الدماء.

وقالت "إيفولينا" إنه منذ ذلك الوقت صار سلوك الكاهن "نيدو" يزداد غرابة، فقد كان لا يأكل ولا يشرب لعدة أيام لكنه رغم ذلك كان لديه النشاط والحيوية ليسير يومًا كاملًا، ولقد سار ذات مرة عاري القدمين فوق غابة أشواك ولم تُخدَش قدماه ولو خدشًا بسيطًا، ولم تنغرس فيهما شوكة واحدة. وذات يوم عثرت قدمه في صخرة على جانب النهر فركلها غاضبًا، فطارت كطائر واندفعت تجاه مياه النهر ثم اصطدمت بها لتغوص عميقًا حتى القاع، كل تلك القوى الخارقة جعلت الجميع يعرفون أنه سيصير كاهنًا.

وُلد "ويكيتيه" وُولدت معه صورة جديدة للكاهن "نيدو" في مخيلتي. لقد بدأت أتعاطف معه هو و"دامالا". لقد أعاد إليه القدر ذلك السهم الطائش، ولديه كامل الحق في جعله سهمًا للسعادة. لم أعد أشعر بالنفور من قيام "دامالا" بفرد تلك التنورة الريشية، ولم أعد أنفر من سير الكاهن "نيدو" خلف "دامالا" أثناء الارتحال، لكن كل ما سيحصل عليه للأبد هو خيالها من الخلف فحسب، فإذا قلنا إن البرق تحول لسهم حاد خطف "لينكيه"، فإن السهم الذي حصل عليه الكاهن "نيدو" كان سهمًا صدئًا بسبب ما يحمله من عادات قوميتنا القديمة، لذا كان من الطبيعي أن يذبل الكاهن "نيدو" و"دامالا" ويجنَّا في مواجهة هذا السهم.

عندما بلغ و"يكيتيه" عامه الثالث تزوج "لوني" من "نيخاو"، كان هذا العام هو العام الخامس من حكم "كانجديه" على ما أعتقد، وأثناء الاحتفال بجوار موقد النار ومع مطلع الفجر رحلت "دامالا" إلى الأبد، لقد رحلت وهي ترقص مرتدية تنورة الريش التي حاكها لها الكاهن "نيدو".

كانت معرفة "لوني" و"نيخاو" لها علاقة بـ"إيوان".

لقد جعل رحيل "ناديجدا" من "إيوان" شخصًا صموتًا، وبعد عدة سنوات أصابه الصلع، فظلت "إيفولينا" تبحث له عن امرأة أخرى، وذات مرة كلفت خاطبة بهذا الأمر، وعندما علم "إيوان" صب غضبه عليها قائلًا إن حياته بها

امرأة واحدة وهي "ناديجدا"، وحياته بها ابن وابنة فقط هما "جيلانتيه" و"نـالا"، ولن يغير هذا الأمر أحد. كانت "إيفولينا" دائمًا ما تُغضب الآخرين إلى حد البكـاء، لكن في تلك المرة بكت بسبب "إيوان".

كان "إيوان" هو حداد قبيلتنا، وفي الربيـع كـان دائمًـا مـا يـصنع نـارًا ضـخمة بالمعسكر ليصنع للجميع أدواتهم. وكان طرق الحديد يـستغرق في العـادة أربعـة إلى خمسة أيام، وقتها كانت نار طرق الحديـد لا يمكـن أن تنطفـئ. وعنـدما كـان يطرق الحديد كان "جيلانتيه" و"نالا" و"إيوان" وأنا نحـب أن نـذهب لمـشاهدته، وذات مرة قام "لوني" الشقي بالتبول في الكير الجلدي المصنوع مـن جلـد الوعـل، فتشاءم "إيوان" من ذلك قائلًا إن الأدوات الحديدية التـي سـتُطرَق بهـذا الـشكل ستصيبها لعنة ولن تكـون جيـدة. وبالفعـل كانـت هنـاك عيـوب بـالأدوات التـي خرجت من الفرن في تلك المرة، فلقد انكسر مقـبض سـكين قطـع الأشـجار تحـت ضربات المطرقة، وكان طرف شوكة صيد الأسماك غير حاد، أما سونكي البنادق فقد صار معوجًا كرأس سمك الكراكي الأبيض، ومن بعدها أصبح "إيـوان" حـين يطـرق الحديد ويرانا قادمين يطلب منـا الوقـوف بعيـدًا ويحظـر علينـا الاقـتراب، كـما لا يسمح لنا بلمس المطرقة أو الكير أو الكماشة أو الفرن وكل أدوات طرق الحديـد، ولم نكن نحن فقط الممنوعين من الاقتراب منـه حـين يطـرق الحديـد، بـل كانـت النساء أيضًا ممنوعات كما لو كن ماءً لو اقترب فسيطفئ نيران الفرن.

ولقد علمت بقية القبائل أن "إيوان" حداد بارع، لذا كانوا في الربيع يتتبعـون علامات الأشجار حتى يصلوا لمعسكرنا طالبين منه أن يطرق الحديـد لهـم، وكـانوا يجلبون له الخمر واللحم كمكافأة له، وهو لم يكن يخيب آمالهم؛ يبـدو أن يديـه القادرتين على سحق الصخور قد خُلقتا لطرق الحديد، لذلك كـان القـادمون دائمًـا ما يغادرون معسكرنا حاملين أدواتهم والرضا يملأ قلوبهم.

وبعـد رحيـل "ناديجـدا" غـيَّر "إيـوان" موعـد طـرق الحديـد ليـصبح خـلال الخريف، فكانت الأوراق الصفراء الذابلة المتطايرة في الغابـة والتـي تـشبه أسراب

الفراشات الصفراء تتساقط على المنفاخ، وتتساقط على جسده. لقد ظل يطرق الحديد بالقوة نفسها، وظلت الأدوات التي تخرج من تحت مطرقته بالدقة نفسها، لذا ظل عدد الوافدين من أجل طرق الحديد كبيرًا. وفي خريف ذلك العام، جاء إلى معسكرنا صياد يدعى "ألايكيه" ممتطيًا غزالًا ومعه ابنته، طالبًا من "إيوان" أن يصنع له سكينين لقطع الأشجار. كانت ابنة "ألايكيه" في الثالثة أو الرابعة عشرة من عمرها تقريبًا، وعلى الرغم من أنها ورثت الوجه المسطح الذي تتميز به نساء قوميتنا، إلا أن ذقنها كانت مدببة قليلًا، مما جعلها تبدو جميلة للغاية. كانت لديها قصتا شعر تداريان جبهتها، أما عيناها المسحوبتان فكانتا سوداوين لامعتين، وكانت تمشط شعرها في شكل ضفيرة غرست فيها بضع زهور الأقحوان البري القرمزية، وكانت ضحكتها حلوة. كانت تلك هي "نيخاو". ولقد رأتها "إيفولينا" لمرة واحدة فأحبت تلك الفتاة وقالت إننا سنزوجها لأحد من قبيلتنا ذات يوم لتكون زوجة لابنها "جينديه". وقتها كان "لوني" قد بلغ سن الزواج وتكوين أسرة، ولقد أحب "نيخاو" من أول نظرة مثله مثل "إيفولينا"، ولقد فكر في البداية أن يطلب من "إيفولينا" أن تقوم بدور الخاطبة من أجله، ولكنه عندما سمع أن "إيفولينا" ترغب في تزويجها من "جينديه" أخذ زمام المبادرة، وطلب منها الزواج أمام كل أبناء القبيلة وذلك حين كانت تهم بالمغادرة مع أبيها، لقد قال لها: "إني أحب ابتسامتك، وسأضعك في قلبي وأحميكِ كما أحميه بالضبط، فلتتزوجيني".

لم يكن "ألايكيه" يتوقع أنه سيأتي طالبًا من "إيوان" أن يصنع له سكين قطع أشجار، وسيعود بزوج لابنته، كان يعرف "لينكيه"، ولقد رأى في ابنه "لوني" وسامة وشجاعة "لينكيه"، لذا وافق بالطبع على تزويجه ابنته "نيخاو"، لكنه قال إن "نيخاو" لا تزال صغيرة، وسيتم الزواج بعد سنتين.

كانت "إيفولينا" قد أخبرت "جينديه" سرًّا بأنها ستخطب له "نيخاو"، وكان "جينديه" قد أحب "نيخاو" أيضًا، لذلك عندما طلب "لوني" الزواج

منها على الملأ أصيب "جينديه" بالإحباط وسالت دموعه، لكـن "إيفولينـا" كتمـت غيظها، وسارت مع "ألايكيه" موسوسة لـه أن "نيخـاو" لا تـزال صـغيرة ولا يمكنهـا الزواج مبكرًا هكذا، حتى موضوع عقد النية على الزواج يجب أن يتم مـن خـلال الخاطبة التي تذهب لكم وتطلب ذلك رسميًّا، إنها فتـاة رائعـة ولا يـصح أن يـتم أمر زواجها بتلك العفوية.

في تلك الليلة التي غادرت فيهـا "نيخـاو" معـسكرنا، قامـت "إيفولينـا" بـربط "جينديه" إلى جذع شجرة، وظلت تجلده باستخدام فرع شجرة مؤنبـةً إيـاه عـلى افتقاده للكرامة، كيف أمكنه البكاء أمام الجميع؟ ألا يعني هذا اعترافـه بالهزيمـة أمام "لوني"؟ كيف يمكن للرجل الذي يبكي من أجل امرأة أن يصير ذا شـأن؟ لكـن "جينديه" كان حقًّا غير ذي نفع، فلقد ضربته "إيفولينا "قليلًا فظل يتأوه ويـصرخ "أي يوه أي يوه" مما أثار غضبها أكثر فزادت من ضربهـا، وسـبته قائلـة إنـه مثـل والده "كويينديه"، كلاهما كالنمل تحت أقدام النساء لا يعيشان إلا محنيي الـرأس، يمتلئ جسداهما بالعظام الحقيرة والعظام الرخوة، يستحقان أن تدوسـهما النـساء بأقدامهن. وظلت تضربه بذلك الغصن ولم تكف يدها إلا حين انكسر. كان صوت جلدها له قد وصل إلى المعسكر لكـن لم يتقـدم أحـد لمنعهـا، فقـد كـان الجميـع يعرفون طباعها، النصح لن يزيدها إلا قسوة في ضربه.

هذا السلوك من "إيفولينا" جعل "لوني" يـشعر أن الـذئب الـذي يطارده قـد وصل أمام عينيه وأنه محاصر على حافة الهاوية، لذلك اتخـذ خطـوة أكـثر جـرأة، لقد غادر المعسكر في اليـوم التـالي لقيـام "إيفولينـا" بـضرب "جينديـه" قـائلًا إنـه ذاهب للصيد وسيغيب لثلاثة أيام.

عاد بالفعل بعد ثلاثة أيام، لكن كان الصيد الذي معه هو "نيخاو"، ولقد أوصـلها "ألايكيه" بنفسه، وجلب معه فرقة كاملة لتوصيلهما، فوصـلت تلـك المجموعـة التـي تبدو عليهـا البهجـة إلى معـسكرنا، ولم نعـرف كيـف أقنـع "لـوني" "ألايكيـه" وجعلـه يزوجه "نيخاو" عن طيب خاطر على الرغم من أنها لم تبلغ بعـد. كـل مـا رأينـاه هـو

"نيخاو" الصغيرة التي تزينت في أبهى حلة، وأفصحت ابتساماتها الخجول عن الفرحة الشديدة في قلبها، لقد كانت بالتأكيد تحب التواجد مع "لوني".

ولقد أقام الكاهن "نيدو" مراسم زواج "لوني" و"نيخاو"، ونظر نظرة سريعة إلى "دامالا" الجالسة بجوار موقد النار ورغم ذلك ظلت ترتعش، ثم قال لـ"لوني": "من اليوم، "نيخاو" هي امرأتك، وحب الرجل كالنيران، فلا تجعل امرأتك تشعر بالبرد إلى الأبد، اجعلها تعيش في سعادة داخل حضنك الدافئ"، ثم أدار رأسه تجاه "نيخاو" وقال لها: "من اليوم "لوني" هو رجلك، أحبيه جيدًا، فحبك سيجعله قويًّا للأبد، والآلهة ستهبكم أفضل الأبناء والبنات على وجه الأرض".

لقد أحدثت كلمات الكاهن "نيدو" تغيرات في تعبيرات عدة نساء، فضحكت "نيخاو"، وعوجت "إيفولين" فمها، وتنهدت "مارية" وهزت رأسها، أما "دامالا" فقد توقفت عن الارتعاش، ونظرت للكاهن "نيدو" بعيون مبتلة، وبدا وجهها كأنما أضاءته شمس الغروب، وظهر على وجهها تعبير رقيق كان قد غادره منذ زمن بعيد.

غربت الشمس، وعندما تشابكت أيدي الجمع حول النيران للرقص، ظهرت "دامالا" فجأة ومعها "إيلان" الذي أصابه مرض العشى الناتج عن الهرم. كان "إيوان" مفتقرًا للحيوية غير مبالٍ، أما "دامالا" فقد كانت على العكس في كامل نشاطها، مما أدهش الجميع.

لن أنسى ما حييت ملابس أمي في ذلك اليوم، فقد ارتدت قميصًا قصيرًا من جلد الغزال لونه بيج، والتنورة التي أهداها لها الكاهن "نيدو"، وارتدت في قدميها حذاءً طويل الرقبة مصنوعًا من جلد الوعل، وأخفت قُصتها البيضاء داخل شعرها، ومشطته نحو الخلف ولفته عاليًا خلف رأسها مما جعل وجهها يبدو بسيطًا ونظيفًا للغاية، وما إن أطلت علينا حتى أطلق الجميع شهقات معًا بلا اتفاق، ولقد أثنى هؤلاء الذي لا يعرفونها وأتوا لتوصيل العروس على جمالها وطلعتها. كانت في الماضي تحني خصرها ورقبتها كمن ارتكب جرمًا

وتدفن رأسها في صدرها، أما في تلك اللحظة فقد كانت "دامالا" شامخة الرأس مستقيمة العود، لامعة العينين، حتى اعتقدنا أننا ننظر إلى شخص آخر، خصوصًا أنها كانت ترتدي تنورة الريش التي جعلتها تبدو كأنها ترتدي لوحة للخريف على النصف الأسفل من جسدها، تلك الألوان كانت كأنها قد غسلتها الرياح والبرد فصارت ألوانها زاهية رائعة الجمال.

بدأت "دامالا" في الرقص، كانت رقصاتها في منتهى الخفة، وكانت ترقص وتضحك، لم أسمعها من قبل تضحك من قلبها بهذا الشكل، أما "إيلان" الكلب العجوز فقد قبع بجوار النيران ومال برأسه وظل ينظر بحب وعطف إلى سيدته، أما "ويكيتيه" الصغير الشقي فقد رأى "إيلان" بتلك الطيبة والسكون فاستخدمه كحشية جلوس جلدية وجلس فوقه، وما إن جلس حتى صاح في "لاجيدا": "أما، أما، تلك الحشية الجلدية ساخنة جدًا!"، ثم التقط عودًا من العشب وظل يعبث به في عين "إيلان" وهو يقول: "غدًا ستلمع عيناك، وسأعطيك لحمًا، عندها ستتمكن من رؤية اللحم حين أعطيك إياه!". كان "ويكيتيه" في السابق قد ألقى بقطعة لحم لـ"إيلان"، لكن "إيلان" لم يلتفت إليها وإنما نكس رأسه ومشى، كنت أعرف أنه لا يرغب في تناول اللحم، فهو يرغب في استهلاك السعرات الحرارية الموجودة بجسده في أسرع وقت ممكن، لكن "ويكيتيه" الصغير اعتقد أن عينيه ليستا على ما يرام.

أعجبت "نيخاو" للغاية بتنورة "دامالا"، فكانت أشبه بالفراشة التي تحوم حول الزهور، ظلت تدور حول "دامالا" دورة تلو الأخرى وهي تنظر لتلك التنورة بحسد، ويبدو أن "لوني" أحس أن ارتداء أمه لتنورة الريش ورقصها أمام الجميع هو أمر لا يليق، لذا طلب مني أن أفكر في طريقة لإبعادها، لكن لم يطاوعني قلبي أن أفعل ذلك؛ كانت تبدو ممتلئة بالحيوية، فلم أكن أرغب في إحباطها، بالإضافة إلى أن الجميع باستثناء "إيفولينا" و"جينديه" كانوا في غاية السعادة من أجل "لوني" و"نيخاو". في أوقات السعادة يمكن المبالغة في إظهار المشاعر.

بدأت النيران في الخفوت تدريجيًّا، وقل عدد الراقصين تباعًا، وذهبت جموع المرافقين للراحة عند "إيوان"، إلا "دامالا" ظلت تدور حول النيران، في البداية ظللت بجوارها، بعدها شعرت بالنعاس الشديد ولم أعد أتمالك نفسي لذا عدت للخيمة للنوم، وحين غادرت لم يكن مع أمي سوى "إيلان" الغارق في النوم والنيران التي على وشك الخمود والقمر الناقص في السماء.

لم أكن مطمئنة تجاه "لوني"، كنت أخشى أن يتعامل مع "نيخاو" بغلظة فلا تتحمله ويتسبب في إيذائها، لأنها كانت في الواقع صغيرة للغاية، لذا لم أعد إلى خيمتي وإنما ذهبت إلى خيمة "لوني" لأعرف الأحوال، ولكني لم أكن قد وصلت إلى هناك حتى شاهدت "نيخاو" تركض خارجة وهي تبكي، وما إن رأتني حتى اندفعت إلى أحضاني وهي تقول إن "لوني" شرير، فجسده يحمل سهمًا يريد أن يؤذيها، فأضحكتني كلماتها، وظللت أواسيها وألوم على "لوني"، ثم وعدتها بأن "لوني" لو جرؤ على إيذائها بسهمه فسأعاقبه، عندها فقط عادت "نيخاو"، وكانت تتمتم وهي تسير أن الزواج من الرجال أشبه بتلقي العقاب. ولقد نظر لي "لوني" بشيء من الخجل فقلت له: "لقد كنت متعجلًا للفوز بها، وهي الآن ملك لك، لكنها لا تزال صغيرة، العب معها سنتين أولًا بعدها قم بدورك كزوج". فتنهد "لوني" ثم هز رأسه موافقًا، ولذلك في السنتين الأوليين وعلى الرغم من أن "لوني" و"نيخاو" كانا يعيشان في خيمة واحدة، فإن العلاقة بينهما كانت نقية مثل العلاقة بين الإخوة.

عدت إلى الخيمة وأنا أفكر في "دامالا" التي ترقص وحيدة، فشعرت بالبرد القارس من حولي واصطكت أسناني، فضمني "لاجيدا" في الظلام لحضنه الدافئ، إلا أنني ظللت أشعر بالبرد، ومهما ضمني بقوة ظل جسدي يرتعش ولم أستطع النوم، فقد كان ظل أمي وهي ترقص يتراقص أمام عيني.

عندما بزغ ضوء الفجر وضعت ملابسي على جسدي وسرت حتى المكان الذي كنا مجتمعين فيه أمس، فرأيت ثلاثة أكوام، الأولى كانت بقايا النيران التي

خمدت، والثانية كلب الصيد، حيث كان "إيلان" راقدًا بلا حراك، أما الثالثة فقد كانت جسدًا بشريًّا، حيث وجدت أمي راقدة على الأرض ووجهها للسماء، وعلى الرغم من أن عيونها كانت مفتوحة فإنها كانت جامدة، فقط التنورة الريشية على جسدها وشعرها الأبيض يتحركان بفعل نسمات الصباح. جعل ظهور تلك الأكوام الثلاث في وقت واحد ذلك المشهد يُنقش في ذاكرتي للأبد.

لقد رحل "لينكيه"، ورحلت أمي أيضًا. الأول أخذه البرق، والثانية أخذها الرقص. قمنا بدفن أمي فوق الأشجار، وكان الاختلاف بينها وبين أبي يتمثل في أن الشجر الذي اخترناه لها لم يكن شجر الصنوبر، وإنما شجر البتولا، وكان كفنها هو تلك التنورة المصنوعة من الريش، وعندما كان الكاهن "نيدو" يقوم بمراسم الجنازة من أجل "دامالا" مرت طيور الأوز البري العائدة من الجنوب في السماء فوقنا مشكلة ما يشبه شكل فروع الشجر، بل كانت أكثر شبهًا بالبرق، ولكن كان الفرق هو أن البرق هو الضوء الأبيض الذي يظهر وسط الغيوم السوداء، أما الأوز البري فهي الخطوط السوداء التي تظهر في وقت الصحو. ولقد غنى الكاهن "نيدو" أغنية جنائزية لوداع "دامالا"، تلك الأغنية المتعلقة بـ"نهر الدم" جعلتني أرى الحب العميق الذي كان يكنه لها.

كان أجدادنا يعتقدون أن الإنسان بعد أن يغادر هذا العالم يذهب إلى عالم آخر، هذا العالم الآخر أكثر سعادة من العالم الذي عاش فيه، وفي الطريق إلى هذا العالم السعيد يجب المرور بنهر دم عميق للغاية، هذا النهر هو المكان الذي تُختبر فيه أخلاق وسلوك الميت خلال حياته، فإذا جاء إليه شخص طيب فإن نهر الدم يطفو فوقه جسر يعبره الميت بسلام، أما إذا جاء إليه شخص شرير كثير الجرائم فلن يظهر جسر على هذا النهر، وإنما تظهر صخرة، فلو أبدى ندمًا على ما فعله من سلوك مشين في حياته السابقة فسيتمكن من القفز عبر تلك الصخرة، وإلا فسيغرق في نهر الدم وستزول روحه نهائيًّا.

هل كان الكاهن "نيدو" يخشى ألا تتمكن أمي من عبور نهر الدم لذا غنى لها مثل تلك الأغنية؟

"أيا نهر الدم العميق
أرجوك أن تبني جسرًا
فالقادمة إلى ضفافك
امرأة طيبة
ولو تخضبت أقدامها بالدماء
فإن ما تدوس فيه
هو دمها
ولو وجدت دموعًا بقلبها
فإن كل ما يحتويه
هو أيضًا دمعها
إذا كنتم لا تحبون
الدماء على أقدامها
والدموع في قلبها
وإذا نصبتم الصخرة لها
فأرجوكم أن تدعوها
تمر بسلام
فإن أردتم أن تحاسبوا أحدًا
فحاسبوني أنا
فقط دعوها تصل لبر السلام
حتى لو ذبت فيما بعد في نهر الدم
فلن أبكي".

كانت "نيخاو" ترتعش حينما كان الكاهن "نيدو" يغني كما لو أن كل كلمة من كلمات الأغنية قد تحولت إلى دبور يلسعها. وقتها لم نكن نعلم أن حياتها

السابقة كانت على قدر بمثل أغاني الآلهة تلك، كانت في الواقع بالنسبة إلينا مثل السمكة التي تعيش دائمًا في وسط مياه النهر التي لا نراها، وكانت أغنية الكاهن "نيدو" مثل الطعم الذي أصابها، لكننا وقتها كنا نعتقد أن الفزع قد أصابها بسبب الموت، ولقد أشفق عليها "لوني" فظل ممسكًا طوال الوقت بيدها. ولقد قالت "نيخاو" عند مغادرة المكان الذي وُضع فيه جثمان أمي إن عظامها ستسقط يومًا من فوق الشجر، والعظام التي ستسقط في التربة ستنبت.

بعد موت "دامالا" أصبح الكاهن "نيدو" أكثر كسلًا في الاهتمام بشؤون الحياة اليومية، فلم يعد يسأل أو يهتم بمواعيد الصيد، أو متى ننشر قرون الغزلان، أو متى نرتحل، ونحف جسده سريعًا، فشعر الجميع أنه لم يعد يصلح لأن يكون زعيم القبيلة فرشحوا "لاجيدا" ليكون زعيم القبيلة الجديد.

كان أول ما فعله "لاجيدا" بعد أن أصبح زعيمًا للقبيلة هو تقسيم القبيلة الأشبه بأسرة واحدة كبيرة إلى عدة أسر صغيرة، وعلى الرغم من أن الجميع ظلوا يخرجون سويًّا للصيد، فإن غنائم الصيد أصبحت بعد نقلها إلى المعسكر تقسم لحومها بالتساوي طبقًا لعدد أفراد كل أسرة، باستثناء الفراء وقرون الغزلان ومرارة الدببة وغيرها التي تظل مملوكة للقبيلة لاستخدامها في مبادلة الأشياء التي نحتاجها في حياتنا اليومية، وهذا يعني أن أبناء القبيلة لن يجتمعوا سويًّا لتناول الطعام إلا في الأعياد، وإنما سيأكل كل شخص الطعام الذي يخصه. وكان أكثر من تحمس لهذا القرار هو "لوني"، وكنت متفهمة أنه لا يريد أن يسمع كلمات "إيفولينا" الساخرة من براءة "نيخاو" على مسمع ومرأى من الجميع، كما أنه لا يرغب في رؤية نظرات "جينديه" الجائعة الحاقدة إلى "نيخاو"، لكن "إيفولينا" عارضت ذلك بشدة، وقالت إن "لاجيدا" بفعله هذا يفتقر إلى الإنسانية وسيفرق القبيلة، إن "إيوان" والكاهن "نيدو" هما أكثر الناس وحدة على وجه الأرض، فإذا لم تعد لديهما حتى الفرصة للجلوس مع الجميع وتناول الطعام، فمع من سيتحدثان؟ "هل سنترك الكاهن "نيدو"

يتحدث كل يوم مع الإله "مالو"، و"إيوان" يتحدث مع الغزلان؟". كنت أعلم أن "إيفولينا" كانت تتخذ من وحدة الكاهن "نيدو" و"إيوان" غطاءً للحديث عن وحدتها هي، فقد كانت لا تحب الجلوس مع "كوينديه" و"جينديه" لتناول الطعام، فقد كانت دائمًا ما يبدو عليها الامتعاض من زوجها وابنها، لكنني لم أكن أعلم جذور هذا الامتعاض، فسألت "مارية" التي كشفت لي هذا اللغز.

قالت إن "كوينديه" كان في الماضي رجلًا ممتلئًا بالحيوية، وذات عام ذهب إلى سوق نهر "أبا" لمبادلة بعض البضائع، وهناك أحب فتاة منغولية، لكن أباه لم يوافق؛ فقد كان قد اتفق مع جدي على أمر زواج "كوينديه" و"إيفولينا"، لذا وبعد أن تزوج "كوينديه" من "إيفولينا" رغمًا عنه أصبح مكتئبًا طوال اليوم، وكانت أكثر من تحتقره "إيفولينا" هو الرجل فاقد الهمة، لذا كانت دائمًا ما تعدد مثالبه وتزيد في هجائه، ولقد شعر والد "كوينديه" بالنفور من ذلك، وذات مرة قال لـ"إيفولينا": "لو كنت أعرف أنكِ ستعاملينه هكذا لكنت جعلته يتراجع عن وعد الزواج ويتزوج من تلك الفتاة المنغولية". عندها فهمت "إيفولينا" سبب كآبة "كوينديه" في وجهها، ولقد أغضبها هذا للغاية، وفي ثورة غضب عادت إلى قبيلتنا وأقسمت ألا تعود له مرة أخرى، وقتها كانت حبلى. ولقد جاء "كوينديه" عدة مرات للبحث عنها بأوامر من والده، إلا أنها في كل مرة كانت تسبه حتى يعود. وبعد أن أنجبت "جينديه" فكرت أن الطفل لا يمكن ألا يكون له أب، لذا تقبلت "كوينديه" لكنها اشترطت عليه أن يأتي للعيش في قبيلتنا، وهكذا جاء إلى هنا وعاش حياة خنوع، فكلما غضبت "إيفولينا" صبت جام غضبها عليه، ولقد احتمل كل هذا من أجل "جينديه"، لكن "إيفولينا" من أجل معاقبته لم تعد تنام معه إطلاقًا. ولقد قالت "مارية" إن "كوينديه" خرج ذات يوم للصيد مع "خاشيه"، فشرب الخمر حتى سكر ثم قال لـ"خاشيه" باكيًا إنه لا يشبه الرجال على الإطلاق؛ فمنذ جاء إلى قبيلتنا لم تستجب "إيفولينا" ولو مرة واحدة لرغباته، بل كانت تقول إن إنجابها لخطيئة واحدة منه كافٍ للغاية، ولقد رأت "مارية" أن سلوك "إيفولينا" هذا

قد تجاوز كل الحدود لذا نصحتها سرًّا، لكن ذلك أثار ثائرتها فقالت إنها لـن تنـام أبدًا مع من لا يحبهـا، فكلـما فكـرت أن "كوينديـه" قـد يتخيلهـا امـرأة أخـرى في الظلام فإن ذلك يثير اشمئزازها.

وقالت "مارية" إن "كوينديه" في شبابه كـان أشـبه بالعـشب الأخـضر الزاهـي الممتلئ بالعصارة، لكنه ما إن وصل إلى يـد "إيفولينـا" وبعـد سـنوات مـن الفـرك والعصر أصبح كالعشب الذابل. عندها فقط فهمت لماذا يبدو على "إيفولينا" نوع من الحسد والاحتقار تجاه سعادة الآخرين ومـشاعرهم الحقيقيـة. جعلنـي هـذا أتعاطف مع "لينكيه"، ولكني تعاطفت أيضًا مع "إيفولينـا"، لأنهـا هـي والكـاهن "نيدو" و"دامالا" كلهم ضحايا للحب.

ولقد قلت لـ"لاجيدا" بما إن "إيفولينا" لديها أسرار تعجز عن سردهـا، وبمـا أن الكاهن "نيدو" و"إيوان" وحيدان بالفعل، فليظـل الجميـع كـما كـانوا في المـاضي، وليجلسوا معًا لتناول الطعام. فقال "لاجيدا": "إذا ما تركت من يشعرون بالوحـدة يجلسون مع الأشـخاص الـسعداء فـسيزيدهم ذلـك وحـدة، مـن الأفـضل تـركهم يعيـشون وحـدهم، فبهـذا سـيكون لـديهم كثـير مـن الـذكريات الجميلـة التـي سترافقهم، لأنه في هذا العالم لن توجد امرأة أخـرى يمكنهـا أن تتربـع عـلى عـرشَي قلبيهما مثلما فعلت "ناديجدا" و"دامالا". أما بالنسبة لـ"إيفولينا"، فما دامت تنفر من "كوينديه"، وفي الوقت نفسه لا مفر أمامهما من العيش سـويًّا، إذًا فالطريقـة الوحيدة لإزالة الحواجز بينهما هي منحهما الفرصة للجلوس سـويًّا عـلى انفـراد"، وأضاف "لاجيدا": "إذا ما طالت الأيام التـي يجلـس فيهـا شخـصان مـع بعـضهما، فسيشيخان مع الوقت، وإذا ما رأى كل منهما الآخر وقد شاخ وجهه فإن قلبـيهما سيلينان".

وهكذا تم تنفيذ قرار زعيم القبيلة الجديد وسط لعنات واعتراض "إيفولينـا"، وكانت دائمًا ما تشعل نارًا في المعـسكر في وقـت العـشاء وتجلـس وحـدها هنـاك لتناول الطعام، وأحيانًـا أخـرى يعلـو صـوتها بالـسباب واللعنـات للغربـان تحـوم

حولها متطلعة للطعام الذي بين يديها. من يعلم؟ ربما كانت لعناتها للغربان هـي لعنات لـ"لاجيدا"، لكنه لم يهتم، بل قال إنها ستمل مع الوقت وستذهب للجلوس مع "كويندیه" و"جينديه". وبالفعل، عندما جاءت بشائر الثلوج لم تعد "إيفولينـا" تشعل نارًا في المعسكر، بل بدأت في تعلم الجلوس حول الموقد في خيمتهـا لتنـاول الطعام، لكنها ظلت غير راضية عن "لاجيدا"، وظلت تستفزه دومًا، فتقـول أحيانًـا إن اللحم الذي يفرقه على أسرتها قليـل، أو تقـول إن العظـام بـاللحم كثـيرة، فـلا يدافع "لاجيدا" عن نفسه، وإنما يدعوها في المرة التالية التي يوزع فيها الصيد لكي تختار أولًا. في البداية كانت "إيفولينا" تأخذ أفـضل اللحـم لهـا، لكنهـا بعـد عـدة مرات اكتشفت أن "لاجيـدا" دائمًـا مـا يأخـذ لنفـسه أدنى أنـواع اللحـم، فـشعرت بالخجل من ذلك، ومن وقتها لم تعد تختار اللحم الجيد.

في تلك السنة لم يأتِ "تولوكيف" إلى معسكرنا طوال الفترة من الصيف وحتى الشتاء، فصار لدينا نقص في الدقيق. وعندما استعد "لاجيدا" و"خاشـيه" للـذهاب إلى "تشورجان" لمبادلة بعض البضائع، وصل إلى معسكرنا شخص قصير بـدين مـن قومية الهان يمتطي حصانًا من نوع "سانخيما"، كان اسـمه "شـو تـساي فـا"، مـن "شاندونج"، ولديه متجران في "تشورجان"، تبدو عليـه الطيبـة. كـان عـلى معرفـة بأخي "لاجيدا" الأكبر، ولقد جاء إلى الجبل خصيصًا ليوصل بعض الأشـياء لـه، كـان أخو "لاجيدا" الأكبر قلقًا على أخيه لذا أرسل له بعض الدقيق والملح والخمر، وقام "شو تساي فا" بإيصالها لنا، ولقد أخبرنا أن اليابانيين قد أسسوا "مجتمع المنتجـات الحيوانية بمنشوريا" وذلك في "تشورجان"، والتي أصبحت "وتشيلوافو" حاليًا، ومن الآن فصاعدًا ستتم عمليات مبادلة السلع هناك. لكن اليابانيين بـارعون في بخـس الناس أشياءهم، فلو أخذنا فراء السناجب على سبيل المثال، نجد أن فراء سـنجاب واحـد يُـستبدل بعلبـة ثقـاب، وفـراء ثلاثـة سـناجب يُـستبدل بطلقـة بندقيـة، وفراء ستة سناجب يُستبدل بزجاجة خمر، وسبعة يُـستبدل بعلبـة شـاي صـغيرة،

لذلك فقد شعر الكثيرون من الـ"أندا" أنه لا يمكن ممارسة التجارة بهذا الشكل، لذا تسلل منهم من استطاع التسلل هربًا.

فقالت "إيفولينا" إن هؤلاء اليابانيين أكثر شرًّا من "تولوكيف".

كان "شو تساي فا" يعرف "تولوكيف"، لذا قال إنه قد عاد إلى الاتحاد السوفيتي، فلو تقابل شرير مع شرير فلن يبقى إلا الأكثر شرًّا.

كنت ما زلت أذكر "رولينسكي"، فتلمست أخباره من "شو تساي فا"، فقال إنه رجل جيد، لكن قدره ليس جيدًا، فلقد أدمن الخمر في السنوات الأخيرة، وفي شتاء العام الماضي كان ينقل بعض البضائع من "تشالاندوين" إلى "وتشيلوافو"، فقابل ذئابًا، ففزعت الخيل وجرت بجنون، لم تصب البضاعة بسوء، ولكنه سُحل حتى الموت.

فأصدرت "إيفولينا" صوتًا بأنفها وقالت: "بالطبع لم تصب البضاعة بسوء، فالبضاعة في الأصل هي أشياء ميتة".

واستطرد "شو تساي فا" قائلًا إنهم لم يعودوا يجرؤون على الدخول للجبال لنقل البضائع، فلو اكتشفهم اليابانيون فسيلاقوا على الأرجح مصيرًا سيئًا. وبعد أن وضع البضائع، شرب فقط عدة رشفات من الخمر، وأكل قطعتين من اللحم ثم هبط الجبل. ولقد أهداه "لاجيدا" بعضًا من فراء السناجب وجلود الوعول.

بعد أن رحل "شو تساي فا" بفترة قصيرة وفي يوم تساقطت فيه الثلوج، جاء إلى معسكرنا ثلاثة رجال على صهوة أحصنتهم. كان أحدهم يابانيًّا اسمه "جيتيان"، وهو نقيب، والثاني هو مترجم الياباني وهو من قومية الهان اسمه "وانجلو"، والثالث صياد من الـ"إيوينكيه" اسمه "لوديه"، وكان دليلًا لهما. كانت تلك هي المرة الأولى التي أسمع فيها من يتحدث اليابانية، تلك الأصوات المبهمة كانت أشبه بشخص قصير اللسان يتحدث، فلم تثر ضحكاتي أنا

فحسب، بل حتى "داشي" الصغير و"ويكيتيه" أيضًا ضحكا معي. وعندما رآنا "جيتيان" نضحك عقد حاجبيه وبدت عليه أمارات عدم السعادة، أما "وانجلو" فقد كان ذا قلب طيب، فعندما رأى "جيتيان" يبدي العداوة نتيجة لسخريتنا، ألف كلامًا بسرعة قائلًا له إن صيادي الـ"إيوينكيه" إذا ما أحبوا حديث شخص ما أطلقوا ضحكاتهم تجاهه. عندها عاد حاجبا "جيتيان" لطبيعتسهما، وقال: "في العام قبل الماضي تمت دعوة معظم الصيادين لعقد اجتماع أسفل الجبل، واختاروا زعماءً جددًا لقبائلهم، ولقد تم نسيانكم، لكننا لم ننسَكم، لقد جئنا، لذا ستعيشون حياة كريمة"، وأضاف أن السوفييت مجموعة أشرار، فلا يُسمح بأي تعاملات معهم في المستقبل، فاليابانيون فقط هم أصدقاؤكم الذين يمكن الاعتماد عليهم. كنا نعرف أنه لا يفهم لغتنا، لذا بعد أن انتهى "وانجلو" من الترجمة قالت "إيفولينا" إن الذئب حين يأكل الأرنب دائمًا ما يقول إن الأرنب جميل، وقال "خاشيه" أيضًا: "إذا كانوا أصدقاءنا فلماذا لا يمكن لفراء السنجاب إلا أن يُستبدل بعلبة كبريت؟ لقد كان "رولينسكي" يعطينا على الأقل خمس علب"، وقال "لاجيدا": "يبدو أن هؤلاء اليابانيين لم يأتوا معهم إلا بقدور الطعام التي ينتظرون أن يضعوا فيها لحومنا"، وقال "لوني": "إن ألسنتهم قصيرة للغاية، أرى أنهم سيجدون صعوبة في تناول اللحم"، ولقد أثار كلام لوني موجة من الضحك بين الجميع. لكن "إيوان" الذي ظل مطرق الرأس طوال الوقت لم يضحك، بل ظل ينظر إلى يديه نظرات زائغة كما لو كان ينظر لقدرين أصابهما الصدأ وعلى وجهه علامات الحيرة. ولما رأى "جيتيان" المترجم والدليل يضحكان معنا ظن أننا نثني على كلماته، فضحك هو أيضًا ورفع لنا إبهامه.

عندما تمت دعوتنا جميعًا للاجتماع مع "جيتيان"، لم يأتِ الكاهن "نيدو"، وعندما سأل "جيتيان" المترجم "وانجلو" عما إذا كان هناك في هذه القبيلة من لم يحضر الاجتماع، دخل الكاهن "نيدو"، كان يمسك بيده طبلة الآلهة، ويضع على جسده ملابس الآلهة وتنورة الآلهة، لكنه لم يكن يعتمر قبعة الآلهة، فكان شعره

الخفيف المشعث الذي غزاه الشيب منسدلًا بلا نظام، ولقد أثارت هيئته الغريبة تلك رعب "جيتيان" فارتعد وتراجع خطوة للوراء فاغرًا فاه وهو يشير بيده للكاهن "نيدو" ويسأل "وانجلو": "ما هذا الرجل؟"، فقال "وانجلو": "إنه كاهن، إنه الإله"، فسأل "جيتيان": "ما الذي يفعله الإله؟"، فأخبرته أنا أن الإله يستطيع أن يجفف الأنهار الجارية، ويجري المياه بعد جفافها، يمكنه أن يجعل الغابات تمتلئ بالحيوانات ويمكنه أيضًا أن يجعلها تنقرض، لكن ما ترجمه "وانجلو" كان أن الإله يستطيع أن يشفي المرضى. عندها لمعت عينا "جيتيان" وقال: "إذًا فهو طبيب؟"، فرد "وانجلو" بالإيجاب، فشمر "جيتيان" سرواله وأشار إلى جرحٍ دامٍ حديث ناتج عن احتكاك بفرع شجرة وسأل الكاهن "نيدو": "هل يمكنك أن تجعل هذا الجرح يختفي تمامًا الآن؟"، فبدت أمارات الفزع والدهشة على وجه "وانجلو"، لكن الكاهن "نيدو" كان في غاية الهدوء وطلب من "وانجلو" أن يخبر "جيتيان" أنه لو أراد لجرحه أن يختفي فلابد له أن يضحي بذلك الحصان الذي يركبه. وكانت ملامحه حين قال تلك الكلمات قد زال عنها الجنون والإحباط اللذان كانا يلازمانه مؤخرًا، كان هادئًا للغاية، ولقد اعتقد "جيتيان" أن الكاهن "نيدو" يريد قتل حصانه، فاستشاط غضبًا وقال إن هذا حصان حربي، تم اختياره بعناية من بين مئات الأحصنة، لا يمكن قتله، فقال الكاهن "نيدو": "إذا أردت للحصان أن يعيش، فلن ترى جرحك وهو يشفى". كما أخبره أنه هو الكاهن "نيدو" لن يستخدم سكينًا لجعل الحصان يموت، وإنما سينهي حياته باستخدام الرقص. عندها ضحك "جيتيان"؛ فقد كان لا يؤمن بامتلاك الكاهن "نيدو" لتلك القوى السحرية، فقال بأريحية أنه إذا استطاع الكاهن "نيدو" أن يجعل جرحه يختفي بلا أثر فإنه يوافق على التضحية بحصانه، لكنه لو فشل في ذلك فعليه أن يحرق أدواته وملابسه السحرية على الملأ وأن يركع أمامه معتذرًا طالبًا العفو والغفران.

وما إن ترجم "وانجلو" كلمات "جيتيان" تلك حتى ساد الخيمة صمت أشبه بالموت. وقتها كنا في وقت الغروب، وغابت الشمس حتى منتصفها، فقال الكاهن "نيدو": "يجب الانتظار حتى حلول الظلام، حينها فقط يمكن أن أبدأ

في رقصة الآلهة"، فتنهد "جيتيان" تنهيدة طويلة عميقة وقال: "إن ما تنتظـره هـو ليلك أنت". وبعد أن ترجم "وانجلو" تلك العبارة، قال للكاهن "نيدو": "لا تـرقص، قل إنك لست على ما يرام اليوم وسترقص في يوم آخر". لكن الكاهن "نيدو" أطلق تنهيدة وقال: "أنا أريده أن يعلم أن بمقدوري أن أجلب الليل والظلام، لكـن هـذا الليل لن يكون لي، بل سيكون له".

حل الظلام، ودق الكاهن "نيدو" طبلة الآلهة وبدأ في الرقص. انكمشنا جميعًا في أنحاء الخيمة الأربعة والقلق يعترينا من أجلـه، فمنـذ حادثـة الطـاعون الـذي أصاب الغزلان والشك يساورنا تجاه قواه السحرية. كان يرفع رأسه ضـاحكًا تـارة، ثم يخفضها متمتمًا تارة أخرى، وعندما اقترب من حفرة النـار رأيـت كـيس التبـغ معلقًا في وسطه، هذا الكيس الذي صنعته لـه أمـي، لم يكـن يبـدو عجـوزًا واهنًـا كالعادة، بل كان وسطه منتصبًا فيما يشبه المعجزة، وكانت أقدامه خفيفة رشيقة، فكنت عاجزة عن التصديق أن شخصًا مـا قـد ينقلـب تمامًـا إلى شـكل آخـر أثنـاء الرقص. كانت الحيوية بادية عليـه ويـشبه تمامًـا الكـاهن "نيـدو" الـذي رأيتـه في طفولتي.

كنت وقتها حبلى بـ"أنداور"، ولم يكن موعد الولادة قد اقترب بعد، لكني بعد فترة من مشاهدتي للكاهن "نيدو" وهو يرقص وأنا يملؤني التوتر والقلق بـدأت في الشعور بألم في بطني، وبدأت جبهتي وراحة يـدَي تتـصبب عرقًـا، فمـددت يـدي نحو "لاجيدا"، فاعتقد أن هذا العرق سببه الرعـب فقبّلنـي برقـة إلى جانـب أذني وظل يربت عليَّ، وهكذا تحاملت على الألم لأنتهي من مـشاهدة الكـاهن "نيـدو" وهو يرقص. لم أكن أتخيل أنه مثله مثل "دامالا" في حفـل زفـاف "لـوني"، سـتكون تلك رقصته الأخيرة. وبعد نهاية الرقصة اقترب "جيتيـان" مـن النـيران وشـمر عـن سرواله، عندها سمعت صرخـة تعجـب صـادرة عنـه، لأن الجـرح عـلى سـاقه قـد اختفى تمامًا، لقد كان هذا الجرح أشبه بزهرة طازجة، أما الآن فقـد ذاب وتـلاشى تمامًا مع الرياح التي أحدثها الكاهن "نيدو".

سرنا جميعًا خلف الكاهن "نيدو" خارجين من الخيمة لرؤية الحصان، وتحت ضوء النجوم المنعكس على الأرض الثلجية، ووسط غابات الصنوبر بالمعسكر، رأينا حصانين واقفين، أما ذلك الحصان الحربي الخاص بـ"جيتيان" فقد كان راقدًا على الأرض بلا حراك. هذا الحصان جعلني أتذكر ذلك الغزال الرمادي الصغير الراقد على أرض المعسكر في اللحظة التي بدأت ذكرياتي في التشكل، أما "جيتيان" فقد تحسس ذلك الحصان الميت فلم يجد فيه أي ضربة سكين، فاندفع نحو الكاهن "نيدو" وهو يصرخ بصوتٍ عالٍ بتلك الكلمات غير المفهومة، فقال "وانجلو" إنه يقول: "أيها المبجل، أيها المقدس، نحن في حاجة إليك، أيها المبجل أيها المقدس تعالَ معي، لتعمل من أجل اليابان".

سعل الكاهن "نيدو" عدة مرات ثم دار بجسده وغادرنا، وانحنى وسطه مرة أخرى، وظل يسير وهو يلقي بعض الأشياء، أولًا ألقى بعصا الطبلة، ثم ألقى طبلة الآلهة، وأتبعها بملابس الآلهة، وتنورة الآلهة. كان هناك كثير من التمائم المشبوكة في ملابس الآلهة، لذا عندما سقطت على الأرض أصدرت رنينًا معدنيًّا. وباستثناء "نيخاو" كنا جميعًا ملتفين حول الحصان الميت، كما لو كنا ننظر إلى حجر ضخم سقط من السماء، وفي الوقت نفسه كنا ننظر ببلاهة إلى ظل الكاهن "نيدو" المبتعد عنا، ولكن لم يقم أحد منا من مكانه، وإنما شاهدناه وهو يلقي بالأشياء، أما "نيخاو" فكانت تسير خلفه ببطء لتلتقطها، فكان كلما ألقى قطعة التقطتها، وعندما لم يعد على جسده أي ملابس آلهة أو أدوات سحرية سقط على الأرض.

في تلك الليلة ذهبت إلى خيمة الكاهن "نيدو"، وهناك أنجبت "أنداور"، فلم يكن لدينا وقت لبناء "ياتاتشو" خاص للولادة. كنت أعلم أن الكاهن "نيدو" قد رحل، لكن آلهتنا "مالو" لا تزال موجودة، ستساعدني الآلهة على عبور محنة الولادة المبكرة. لم أدع "إيفولينا" تبقى بجواري، ففي الخيمة التي سكن فيها الكاهن "نيدو" من قبل كنت أشعر أن الضوء والشجاعة مثلهما مثل

قدمَي يحملانني، وعندما بكى "أنداور" معلنًا وصوله إلى هذا العالم الثلجي، رأيت من سقف الخيمة المدبب نجمًا لامعًا يشع بضوء أزرق، كنت واثقة أن هذا هو الضوء الذي يشع من الكاهن "نيدو".

غادر "جيتيان" معسكرنا. لقد أتي راكبًا حصانًا حربيًّا، لكنه حين غادر كان ماشيًا على قدميه. لقد أهدانا الحصانين الآخرين، كان يبدو فاقدًا للهمة، كرجل مسلح بسلاح حاد تقاتل مع رجل أعزل إلا أنه مُني بالهزيمة، فكان الأسى يملؤه.

أحب "داشي" هذين الحصانين، لذا أصبح سيدهما، وفي هذا الشتاء كان يرعاهما في المنحدر الجبلي المواجه للشمس حتى يتمكنا من تناول العشب الجاف، فالعشب الموجود في المنحدر الذي لا يتعرض للشمس قد تغطى بطبقة كثيفة من الثلوج، وكانت "إيفولينا" هي أكثرنا نفورًا من الخيول، وذلك لأن الحصان الذي بادله "كويندبه" من قبل قد مات، وقالت بما أن أول حصان جاء إلى قبيلتنا لم يجلب لنا السعادة، لذا فإن الحصانين اللذين تركهما لنا الياباني لن يجلبا لنا سوى المصائب.

جاء ربيع العام التالي باكرًا للغاية. لم يكن "أنداور" قد تعلم المشي بعد، لذا وضعته في عربة هزازة بالمعسكر وطلبت من "ويكيتيه" الاعتناء به، وذهبت أنا و"لاجيدا" إلى الحقول القلوية.

إن كلًّا من الـ"كانداهان" والغزلان تحب لعق التربة القلوية، لذا كان الصيادون يستغلون تلك العادة، فكانوا يأتون للأماكن التي تذهب إليها تلك الحيوانات في العادة، ويحفرون الأرض بعمق قدم، بعدها يستخدمون خازوقًا خشبيًّا لصنع عدة حفر بالأرض يضعون بها الملح، بعدها يردمون التراب الذي أخرجوه في البداية، وبهذا تصبح التربة قلوية، وهكذا عندما تمر الغزلان من هنا تحب التوقف للعق التربة القلوية، فلا نحتاج إلا للاختباء في الغابات خارج الحقل القلوي حتى نتمكن من اصطيادها، لذا من زاوية أخرى تعد الحقول القلوية مقبرة للغزلان.

لقد استغرق منا الأمر يومين حتى صنعنا حقلًا قلويًّا جديدًا، ثم همس "لاجيدا" بجوار أذني: "إن تلك التربة القلوية الرخوة الناعمة هي خير فراش، يجب علينا طلب ابنة هنا". ولقد أثارتني كلماته، فأصبحت كأني أرى ابنة تطير حولنا مثل الفراشة الملونة، فقلت: "إنها حقًّا فكرة رائعة". كانت شمس الربيع ساطعة تضيءالحقل القلوي الجديد، فكانت أشعة الضوء الأبيض تشبه الملح الذي اندس في التربة، بهية وجميلة، لذا تعانقنا حتى أضفنا لضوء الربيع هذا بعضًا من الريح المنعشة، كانت تلك هي أكثر المرات الحميمية التي التحم فيها جسدانا، كما أنها كانت أيضًا المرة الأطول، كان تحت جسدي التربة القلوية الحارة، وفوقه الرجل الذي أحب، وفوق الرجل الذي أحب كانت السماء الزرقاء، وخلال ذلك التلاحم المؤثر كنت أنظر باستمرار إلى السحب في السماء، كانت هناك مجموعة من السحب تتصل فيما بينها وتتطاير من الشرق إلى الغرب لتشبه نهرًا سماويًّا، أما في أسفل جسدي فقد كان هناك نهر آخر يجري، إنه النهر الخفي الذي لا يوجد إلا أسفل أجساد النساء، ولا يجري إلا من أجل الرجل الذي تحب.

وعندما جاء الصيف، وفي يوم قمت فيه مبكرًا وتوجهت لحلب الغزلان، سقطت مغشيًّا عليَّ، وعندما أفقت كان "لاجيدا" ينظر لي مبتسمًا ويقول بحنان: "إن الحقل القلوي الجديد حقًّا جيد، يبدو أن بطنك يحرس الآن غزالة صغيرة مرقطة". عندها تذكرت أنني عندما كنت حبلي بـ"أنداور" أغشي عليَّ من قبل، وقتها أصيب "لاجيدا" بالهلع الشديد.

وعندما كنا ننشر قرون الغزلان أتى إلى معسكرنا ثلاثة رجال، كان من بينهما رجلان نعرفهما، الدليل "لوديه"، والمترجم "وانجلو". أما الثالث فقد كان يابانيًّا أيضًا، لكنه لم يكن "جيتيان"، وإنما كان "لينجموشيونان". كان قصيرًا ونحيفًا ولديه لحية كالمثلث المقلوب ويرتدي ملابس عسكرية ويحمل على ظهره بندقية، وما إن وصل إلى المعسكر حتى طلب خمرًا ولحمًا، وما إن نزل اللحم والخمر إلى معدته حتى طلب منا الرقص والغناء من أجله، كان في غاية الغطرسة. ولقد

أخبرنا "وانجلو" أن اليابانيين قد أسسوا "معـسكر تـدريب قتـال الغابـات بجوانـغ دونج" وذلك في مدينة "وتشيلوافو"، والمعروف باسم "معسكر دونج الكبير"، ولقد جاء "لينجموشيونان" تلك المرة ليجمع الرجـال الـصيادين كي يهبطـوا مـن الجبـل لتلقي التدريبات العسكرية، ويجب على كل الرجال ممـن هـم أقـل مـن أربعـين عامًا تلقي تلك التدريبات. فقال "لاجيدا": "إننا صيادون نعيش عـلى الجبـل، فـما الذي يدعونا للنزول منه؟، فقال "وانجلو": "على أي حال لن يستمر الأمر إلا لشهر واحد، والملك اليـوم لليابـانيين، ومـن يعارضـهم فـسيتحمل الـشقاء، مـن الأفـضل النزول معهم من الجبل، ولن يتعدى الأمر القيام ببعض الحركات، والصياح ببعض الهتافات، والتدريب على اسـتخدام الـسلاح، فلتعتبروهـا نزهـة". فقـال "لاجيـدا": "ألن نكون بذلك تعبئة للجيش؟ وحتى لـو قبلنـا بـأن نكـون تعبئـة لجـيش، فـلا نستطيع أن نكون جنودًا لليابانيين".

فقال "وانجلو": "من قال إن هذا تعبئـة لجـيش؟ إنهـا مجـرد تـدريبات، ولـن تحاربوا، ستعودون سريعًا".

فتنهد "لاجيدا" قائلًا: "لو قدر لنا أن نصبح تعبئة لجيش، فلـنكن جنـودًا مثـل "خايلانتسا".

كنت قد سمعت قصة "خايلانتسا" من قبل من أبي.

كان "خايلانتسا" من الـ"إيوينكيه"، ولقـد فقـد والـده في صـغره وماتـت أمـه مبكرًا، وعندما كان صغيرًا جدًّا ذهب إلى "هايلار" ليرعى خيول أحد التجار، وقبـل أن يذهب لرعي الخيول كانت خيول ذلك التاجر دائمًا ما تتعرض لهجوم الـذئاب، ولكنه بعد أن ذهب لهناك لم تعد الذئاب تجرؤ على الاقتراب. قيل إنه كان يصدر صوتًا مثل زئير النمر أثناء نومه، فكـان الـصوت ينتـشر لمـسافة كيلـو مـترات، لـذا كانت قطعان الذئاب تبتعد تلقائيًّا عـن قطعـان الخيـول التـي يرعاهـا. وفي فـترة حكم الإمبراطور "تشيان لونج" تم تجنيده في الجيش، وذهب في حملـة عـسكرية إلى "شـينجيانج"، وشـارك في قمـع التمـرد بمنطقـة "تـشوينخير"، ونجـح في أسر

قائد من جيش الخونة، لذا ذاع صيته وأعجب به الإمبراطور "تشيان لـونج" كثـيرًا، فقـرر إرسـاله في حمـلات عـسكرية إلى "ميانمـار" وتـايوان والتبـت وغيرهـا مـن المناطق، فأصبح قائدًا "إيوينكيًا" شهيرًا. ولقد قال والـدي إن "خايلانتـسا" لم يكـن يفوق في شجاعته الآخرين فحسب، وإنما كان وسيمًا قويًا، ولقد قال لي مـن قبـل: "عندما تبحثين عن رجل في المستقبل، فلتبحثي عن رجل مثل "خايلانتسا"، وأذكـر أنني حينها هززت رأسي رافضة وقلت له: "هـذا لـيس بـالأمر الجيـد، فلـو أصـدر صوتًا مثل صوت النمر أثناء النوم فسيصيب أذني بالـصمم، مـاذا أفعـل حينهـا؟"، فأضحكت كلماتي أبي حتى اهتز جسده من الضحك.

هنا أطلقت "إيفولينا" صوتًا من أنفها وقالت: "لو كان "خايلانتسا" حيًّا حتـى الآن هل كان اليابانيون سيجرؤون عـلى المجـيء إلينـا؟ لقـد امتلـك "خايلانتـسا" الشجاعة لمجابهة الإنجليز ذوي الأنوف العالية، فهل كـان ليخـشى اليابـانيين ذوي الأنوف المفلطحة؟ لـو لم يـضربهم حتـى تخـرج أحـشاؤهم لكـان هـذا أمـرًا غـير طبيعي.

عندها أصاب "وانجلو" الفزع حتى ارتعش فمـه، وقـال لــ"إيفولينـا" إن هـذا الياباني يمكنه فهم القليل من لغة الـ"إيوينكيه"، "لا تتحدثي أمامه بلا حـساب وإلا طار رأسك".

فردت "إيفولينا": "للإنـسان رأس واحـد، ولـو لم يطـيره شـخص مـا فسيـسقط وحده في النهاية مثل الثمرة الناضجة، فما الفرق بين سقوطه مبكرًا أو متأخرًا؟".

شعر "لينجموشيونان" أن جو الحديث قد أصبح متوترًا فسأل "وانجلو": "ماذا يقول هؤلاء "البريون"؟". لم يكن يدعونا بـ"أهل الجبل" كما كان يفعـل "جيتيـان"، وإنما كـان يـسمينا "البريـون". فـأخبره "وانجلـو" أن البريـين يقولـون إن التـدريب العسكري أمر جيد، وهم يرحبون للغاية بالرحيل معنا.

فأشار "لينجموشيونان" إلى "إيفولينا" بشك وريبة قـائلًا: "إذًا لمـاذا تبـدو تلـك السيدة غاضبة؟".

فرد "وانجلو" بسرعة بديهة قائلًا: "إنها تتذمر من أن الرجـال فقـط هـم مـن سيتلقون التدريبات، فهي تقول إن نساء الجبال قويات مثلهن مثل الرجـال، لمـاذا لا يُسمح للنساء بالذهاب؟".

فضحك "لينجموشيونان" مطولًا وردد: "إنها امرأة جيدة، إنها امرأة جيدة، لـو لم يكن أنفها معوجًّا لكان ذلك أفضل".

وعندما ترجم "وانجلو" كلماته تلك كاملة ضحك الجميع، وضحكت "إيفولينا" أيضًا وقالت: "أخبره أنني لو لم يكن أنفي معوجًّا لما كان له أن يراني وسط الجبـل، كنت سأصبح إمبراطورة". ثم تنهدت بعد أن أنهت كلامها ونظـرت نظـرة سريعـة إلى "كوينديه" و"جينديه" ثم قالت: "أنا أرحب برحيلهما لأرتاح قلـيلًا، لـو أصـبحا أكثر صلابة في معسكر التدريب، فسيكون هذا مصدر سعادة لي.

وافقـت "إيفولينـا" عـلى أن يغادرهـا كـلٌّ مـن "كوينديـه" و"جينديـه"، لكـن "مارية" لم تشاركها الرأي، فقد كان "داشي" قد بلغ في ذلك الوقت سـن التـدريب، كانت لا تمانع في نزول "خاشيه" من الجبل، لكن قلبها لم يطاوعها أن تترك "داشي" يذهب أيضًا، فما إن فكرت أنه قد يـصيبه التعـب والإرهـاق حتـى سـال دمعهـا، فأشار "لينجموشيونان" إلى "مارية" وسأل "وانجلو" لماذا تـبكي تلـك المـرأة؟ فقـال "وانجلو" إن تلك المرأة تبكي كلما فرحـت، فهـي تـرى أن ابنهـا محظـوظ، فعمـره بالضبط أربعة عشر عامًا وإلا فلم يكن ليتمكن مـن الـذهاب لتلقـي التـدريبات، وإن لم يفعل فلن يصير رجلًا. فأثنى "لينجموشيونان" قائلًا إن نـساء تلـك القبيلـة رائعات. وبعد أن أنهى كلامه حول بـصره ناحيـة "نيخـاو". كانـت "نيخـاو" تـشبه المصباح، أما نظرات "لينجموشيونان" فقد كانت أشبه بالعثة، لا تستطيع مقاومـة التوجه إليها.

لقد كبرت "نيخاو"، ورواها "لوني" حتى أصبحت امرأة يافعة، وكانت حبلى، فكانت في أشد لحظات التعلق بـ"لوني"، لذلك كان يعز عليها أن يهبط الجبل ويتركها، كما كانت في غاية الذكاء أيضًا، فعندما اكتشفت نظرات "لينجموشيونان" المتكررة لها، حتى وضعت ذراعها على كتف "لوني" ورأسه، كأنها تستخدم تلك الحركة الحميمية لتبلغ هذا الياباني أن من تحبه هو ذلك الرجل الذي تتكئ عليه.

اجتمع الرجال سويًّا وذهبوا إلى "وتشيلوافو" لتلقي التدريبات، وعندما كنا نودعهم مغادرين المعسكر رأينا كثيرًا من الفراشات البيضاء تتراقص وسط الغابات، وعلى الرغم من ضوء الشمس الساطع إلا أننا شعرنا كأنهم يسيرون وسط الثلوج وقد غطتهم تلك الفراشات. في العادة إذا كثرت الفراشات البيضاء في فصل الصيف يكثر الثلج في فصل الشتاء. ما زلت أذكر أن "لاجيدا" مد يده وأمسك فراشة ثم التفت لي قائلًا: "أهديكِ زهرة الثلج تلك". ثم ضحك وأفلت يده فطارت تلك الفراشة تجاهي، فأطلقت النساء المودعات ضحكات فرح وسعادة.

بعد أن تركنا في المعسكر شعرنا بسعادة لا تضاهى في الأيام الأولى، فبعد أن قمنا بنشر قرون الغزلان كنا نجتمع يوميًّا لشرب الشاي وتناول الطعام والقيام بالأعمال اليومية، إلا أننا سريعًا ما اكتشفنا أنه بغياب الرجال هناك كثير من الأشياء التي يصعب التغلب عليها، فعلى سبيل المثال دائمًا ما كانت تنقص بضعة رؤوس من الغزلان العائدة يوميًّا إلى المعسكر، فلو كان الرجال موجودين لكانوا تولوا البحث عنها، أما الآن فإن هذا العمل أصبح على عاتقنا، فكنا دائمًا ما نتحرك في جماعة من أجل البحث عن غزالتين أو ثلاث، ويستغرقنا ذلك نصف يوم. وأثناء بحثنا كنا نخشى أن تنتهز الحيوانات المتوحشة غيابنا لمهاجمة الأطفال بالمعسكر، لذا كنت أحمل "ويكيتيه" على ظهري وأضع "أنداور" في العربة الهزازة وأعلقها في مكانٍ عالٍ على الأشجار دون مبالاة لصوت بكائه. وذات مرة حين عدت إلى المعسكر وأنزلت "أنداور"، اكتشفت

تورم وجهه في مناطق عدة، يبدو أن الدبابير قد ظنت أن وجهه المتورد الناعم زهرة لذا لسعته بعنف. كان قد بكى حتى عجزت حنجرته عن إصدار أي صوت. كذلك لم يعد هناك من يخرج للصيد مع غياب الرجال، لذا كانت "إيفولينا" المحبة لتناول اللحم الطازج أكثرنا عدم تحمل، لقد أخذ الرجال البنادق معهم، لكن حتى لو كانت لدينا بنادق فلا نفع منها، فلا يوجد بيننا من تستطيع استخدامها. ولقد فكرت "إيفولينا" في أن نخرج للصيد بأنفسنا، فهي لا تزال تذكر أنني صنعت أنا و"لاجيدا" حقلًا قلويًّا، فأخذت بندقية خرز من خيمة "إيوان"، وطلبت مني أن أبقى أنا و"نيخاو" في المعسكر وذهبت هي و"مارية" للمرابضة في الحقل القلوي، إلا أنهما غابتا لثلاث ليالٍ وفي النهاية عادتا خاليتا الوفاض، وعند عودتهما في الصباح كان وجهيهما أبيض كصباح بلا شمس، لكن "إيفولينا" لم تستسلم، كانت على قدر كبير من الصلابة في عمل أي شيء، ففي اليوم الرابع ذهبت ثانيةً لترابض مع "مارية" في الحقل القلوي، وفي ذلك اليوم هطلت أمطار خفيفة، والغزلان تحب الخروج في الليل الذي يعقب هطول المطر، لذا عندما خرجت في ذلك اليوم كانت الثقة تملؤها، وقالت لي أنا و"نيخاو": "جهزا قدور سلق اللحم، بندقيتي ستقوم بالواجب اليوم".

لم تنكث "إيفولينا" بوعدها، ففي اليوم التالي عادت هي و"مارية" تحملان غزالًا صغيرًا وقد أصابت البندقية حنجرته، وقالت "إيفولينا" إنها تعرف أن الغزلان تسير عكس اتجاه الريح، لذا اختبأت هي و"مارية" وسط الغابات التي تهب الريح باتجاهها، وفي النصف الثاني من الليل تناهى إلى سمعيهما صوت وقع أقدام، وظهرت غزالتان واحدة كبيرة والأخرى صغيرة. وأضافت "إيفولينا" أنها اختارت الصغيرة لأنها كانت تواجهها بجنبها، لذا كانت رقبتها هدفًا سهلًا، أما الغزالة الأم فقد كانت توليهما ظهرها. وقالت "مارية" إن البندقية التي كانت "إيفولينا" تحملها انطلقت مثل الصاعقة نحو الغزال الصغير، فسقط من فوره على الأرض، وعندما كانت "مارية" تحكي والحماسة

تتملكها شعرت بغصة في قلبي، فلقد حبلت في ذلك الحقل القلوي، فلم أكن أرغب في أن تفقد غزالة أم صغيرها في ذلك المكان.

أقمت خيمة ثلاثية الأركان، وقطعت رأس الغزال وعلقته، ثم انتزعت أحشاءه وحملتها إلى داخل الخيمة لأقدمها للآلهة "مالو". كانت أدوات الكاهن "نيدو" الساحرة وملابس الآلهة لا تزال عند "نيخاو" بعد أن جمعتها، فقد قال "لاجيدا" إنه من حركات "نيخاو" يمكن أن نخمن أنها قد تصبح كاهنة في المستقبل، لذا وضعنا الإله "مالو" التي كان يقدسها الكاهن "نيدو" لديها. لقد رأيت أخيرًا الإله "مالو" التي رغبت برؤيتها دائمًا منذ أن كنت صغيرة، وذلك في اللحظة التي قدمنا فيها لها الغزال الذي اصطادته "إيفولينا".

كانت بالكيس الجلدي اثنتا عشرة تميمة، ندعوها كلها الإله "مالو"، كان الإله الرئيس بينها هو "شيتشينكيه"، أو إله الأجداد، كان في الواقع عبارة عن رأسَي رجل وامرأة منحوتين من الخشب، وكانت لديهما أيادٍ وأقدام، ولديهما أعين وآذان، ويلبسان ملابس صغيرة صُنعت من جلد الغزال، ونظرًا لأن شفاههما دُهنت بالكثير من دم الحيوانات لذا كان لونها قرمزي، أما الآلهة الأخرى المتبقية فكلها لها علاقة بالإله الرئيس "شيتشينكيه"، فهو يحب سماع صوت الطبول، لذلك صُنعت طبلة من أجله من جلد الغزال، ويحب أيضًا امتطاء طائر "شياخيه"، لذا كان هناك جلد هذا الطائر موضوعًا معه، ويحب أيضًا امتطاء الغزلان لذا أعطيناه لجامًا وكمامة غزال، وبالإضافة إلى تلك الأشياء كان هناك داخل الكيس الجلدي جلد سنجاب، وجلد بطة مائية، وجلد كيروناسيه (حيوان صغير أبيض اللون أسود الذيل يعيش فوق الصخور)، وكلها أشياء يحبها الإله "شيتشينكيه". وكان هناك أيضًا الإله الثعبان المصنوع من الحديد والجلد، والإله "وو ماي" الحامي للأطفال المصنوع من لحاء أشجار البتولا على شكل عصفور، والإلهان "ألونج" و"شيونج" الحاميان للغزلان والمصنوعان من فروع أشجار الصنوبر الملتوية.

وعندما كانت "نيخاو" تشرح لي تلك التمائم كان هناك صوت ريح يعصف بجوار أذني، ذلك الصوت كان صادرًا عن تمائم الإله "مالو"، فسألت "نيخاو" لماذا هي على دراية تامة بتلك التمائم؟ فأجابت أنها وهي صغيرة للغاية اعتادت رؤية جدها ينحتها، لذا فهي تعرف مهمة كلٍّ منها.

نظرت طويلًا لتلك التمائم المصنوعة من الخشب وفروع الأشجار وجلود الحيوانات، كانت جميعها قادمة من الغابات والجبال التي نعيش فيها، ولقد جعلني هذا على ثقة من أنها لو كانت قادرة على حمايتنا فإن سعادتنا موجودة بين الجبال والغابات، لن تكون في مكان آخر. وعلى الرغم من أنها لم تكن بالجمال والسحر الذي كان في مخيلتي، إلا أن تلك الريح الغامضة التي تصدر عن أجسادها جعلت أذنيَّ ترفرفان كجناحَي طائر، وجعلتني أكن كامل الاحترام لها. ولا بد أن تمتعي بسمع ثاقب ونظر حاد حتى الآن له علاقة بسماعي لصوت الرياح هذا من قبل.

قمنا بإشعال النيران وسط المعسكر في ذلك اليوم وأكلنا اللحم وشربنا الخمر، وأسرفت كلٌّ من "إيفولينا" و"نيخاو" في الشراب، لكن كان رد فعلهما بعد السكر مختلفًا، فقد بكت "إيفولينا"، بينما صدحت "نيخاو" بالغناء، كان صوت غنائها عذبًا، لكن بسبب وجود صوت بكاء "إيفولينا" خلفية له صار كئيبًا، بكت "إيفولينا" حتى نسيت نفسها، وغنت "نيخاو" حتى نسيت نفسها أيضًا، ولقد جعل هذا المزيج من البكاء والغناء الحصانين اللذين تركهما "جينان" يصدران صهيلًا فزعًا، فجزعت "مارية "وجرت نحوهما فقد كانت تخشى أن يقطعا الحبل ويهربا من المعسكر، فعندما غادر "داشي" المعسكر كان أكثر ما يعز عليه هو فراقهما، لذا طلب من "مارية" مرارًا وتكرارًا أن تراعيهما، وأخبرها أين يجب أن تأخذهما لتناول العشب، وأي نهر يجب أن يشربا منه، كل هذا أخبرها إياه بالتفصيل. وبعد رحيل "داشي" اهتمت "مارية" بالحصانين كما تهتم بعينيها.

لقد مررت في حياتي بالكثير من الليالي الجميلة، كانت تلك الليلة واحدة منها، لقد جلسنا ولم نعد للخيام حتى خبت نيران المعسكر، وكانت الرياح في تلك الليلة باردة، فنام "أنداور"، بينما ارتمى "ويكيتيـه" في أحـضاني طالبًـا منـي أن أحـكي لـه حكاية، فقصصت عليه حكاية كان قد حكاها لي "لاجيدا".

فقد حكى لي إن جده في شبابه ذهب ذات مرة إلى الجبل للـصيد عـن طريـق الحصار، ونظرًا لأنه لم يكن بإمكانهم العودة في اليوم نفسه، قـاموا بنـصب خيمـة نام فيها سبعة رجال، احتل كـل واحـد مـنهم ركنًـا، وفي منتـصف الليـل قـام جـد "لاجيدا" من النوم ليكتشف أن الخيمة مضاءة، فقـد كـان هـذا يـوم تمـام البـدر، فكان هناك بدر مستدير مضيء فوق الخيمة تمامًا، وعندما نظر إلى القمر ثم نظر إلى الرجال النائمين اكتشف أن وضعية نومهم تتخذ أشـكالًا مختلفـة، فمـنهم مـن يشبه النمر في رقدته، ومنهم من يلتف مثل الأفعى، ومنهم من نام القرفصاء مثل الدب في البيات الشتوي، عندها أدرك أن الناس يدون على هيئـاتهم الخفيـة حـين يكتمل القمر، ومن خلال وضعية النـوم يمكـن أن تعـرف مـاذا كـانوا في حيـواتهم السابقة، فمنهم من كان دبًّا، ومنهم من كان نمرًا، ومنهم من كـان ثعبانًـا ومـنهم من كان أرنبًا.

فسألني "ويكيتيه": "إذًا ماذا كان جد "أما" في الحياة السابقة؟"، فقلت: "لقـد استيقظ، لذا لم يعرف كيف كانت وضعية نومه". فقـال "ويكيتيـه": "إذًا لـن أنـام اليوم، فأنا أريد أن أعرف ماذا كانت "إيني" في الحياة السابقة". فـضحكت وقلـت له: "البدر لم يكتمل، لذا لن ترى شيئًا"، ثم ضممته إلى صدري ونظرت إلى النجـوم في سقف الخيمة، كنت أفتقد "لاجيدا" بشدة.

كنا نعتقـد أن الرجـال سـيعودون في الخريـف، إلا أنهـم ذهبـوا لـشهر ثـم شهرين ولم نسمع عنهم خبرًا ولم يعد أي مـنهم، لـذا وبعـد أن قمنـا بالارتحـال القصير لثلاث مرات بالقرب من المعسكر القديم، اضطررنا من أجل الغـزلان أن نرتحل ارتحالًا كبيرًا، فلم تعد هناك قربنا أي طحالب أو عـيش غـراب لتتغـذى

عليهـا الغـزلان، حتـى إنهـا أصـبحت تحتـاج للـسير بعيـدًا لدرجـة أنهـا لا تعـود للمعسكر ولا مرة خلال يومين، وحتى بعد قيامنا بربط صغار الغزلان في المعسكر فإن هذا لم يجدِ نفعًا. ولقد شقينا كثيرًا من أجل البحث عنها، فقالـت "إيفولينـا": "يجب علينا الرحيل عن هنا. ومن ثم بدأ الجميـع في ترتيـب أشـيائهم والارتحـال نحو الجنوب الغربي بمحاذاة نهر بايرتسيه".

وضعنا الأشياء التي لا نحتاجها في "الكاو لاو بـاو"، وحملنـا معنـا المـستلزمات الضرورية، وقدنا أكثر من سبعين غزالًا وحصانين لنبدأ الارتحال لمدة يـومين. كنـت أسير في المقدمة لأضع بالبلطة علامات على الأشجار فقالت "إيفولينا": من الأفضل ألا نترك علامات حتى لا يعرف الرجال مكاننا حين يعودون لنقتلهم قلقًا". فقلـت: "كيف يصح هذا؟ إن الشتاء على الأبواب، إذا لم يعـثروا علينـا مـن سيـصطاد مـن أجلنا؟ من أين لنا باللحم؟"، فقالت "إيفولينا" بصوتٍ عالٍ: "أرى أنـكِ لا تـشتاقين للحم الغزلان ولا لحم الدببة، بل تشتاقين للحـم عـلى جـسد لاجيـدا"، فـضحكت "نيخاو" التي كانت تمتطي غزالًا حتى كادت تـسقط مـن عـلى ظهـره، وضـحكت "مارية" التي كانت تمسك بلجام الحـصان في المـؤخرة حتـى جلـست عـلى الأرض. كان الملك "مالو" يسير خلفي، وخلفه الغزال الذي يحمل جذوة النار، أما الغـزلان الأخرى فكانت تتبعهما، ولقد ركب "ويكيتيه" على ظهر غزال أيـضًا، وعنـدما رأى الجميع ضحكوا بهذا الشكل بسبب جملة قال لي بـصوت عـالٍ: "إينـي، إذا كنـتِ تريدين أكل لحم "أما"، فلا تأكلي لحم أقدامه، فهو سيئ الرائحة"، فزادتنا كلماتـه ضحكًا على ضحك.

بعد أن سرنا لعدة ساعات التقطت "إيفولينا" البلطة من يـدي ثـم سـندتني لأركب على الغزال لأرتاح قلـيلًا وسـتقوم هـي بوضـع العلامـات، وكانـت تـصيح "أوه" في كل مرة تضع فيها علامة على شجرة باسـتخدام البلطـة، كـما لـو كانـت الشجرة التي ضربتها قد نبت لها فم وتأوهت. كان الارتحال شـاقًّا دون الرجـال، بالإضافة إلى عدم تأكـدنا مـن المكـان الـذي سـنذهب إليـه، فكـان سـيرنا بطيئًـا

للغاية، ولذلك سرنا لمدة يومين في رحلة كان المفترض لها أن تستغرق يومًا واحـدًا فقط. وأخيرًا ساعدتنا الغزلان على تحديد مكان المعسكر الجديد، فقد عثرت عـلى حلقة من عـيش الغـراب في سـفح الجبـل القريـب مـن النهـر فتوقفـت، ومـا إن توقفت حتى توقفنا معها، وقمنا بنصب خيمتين فقط، وسكنت أنا و"نيخـاو" مـع بعـضنا، وسـكنت "ماريـة" و"إيفولينـا" سـويًّا. ولم تعـد الغـزلان تـسير بعيـدًا في المعسكر الجديد، بل كانت تعود كل يوم في موعـدها، بـدا مـن الواضـح أن قـرار الارتحال كان صائبًا.

كان الخريف في غابات الشمال أشبه بالشخص مفرط الحساسية، ما إن تؤنبـه رياح الخريف ببضع كلمات حتى ينقلب وجهه ويشد رحاله، لـذا في نهايـة شـهر سبتمبر أصبح بإمكاننا رؤية القليل من زهور الأقحوان البري المتفتحة على المنحدر الجبلي المواجه للشمس، وفجأة هبت رياح عاصفة استمرت ليومين حولت العـالم الممتلئ بالحيوية إلى عالم بـلا ظـلال، فتعـرت الأشـجار مـن أوراقهـا حتـى صـارت صلعاء تمامًا، وتكومت طبقات سميكة من الأوراق المتساقطة تحـت الـشجر، ومـا إن هبت الرياح الباردة حتى انقلب الجو فجأة.

جاءت بشائر الثلوج مبكرًا. في العادة لا يكون السقوط الأول للثلج كثيفًـا، في الغالب ما إن يسقط حتى يذوب، لـذا كنـا لا نفـزع حـين نبـدأ في رؤيـة الثلـوج تتطاير، إلا أن تلك المـرة تـساقط الـثلج فيهـا لمـدة يـوم كامـل، وفي المـساء حـين التففنا حول نار المعسكر اكتشفنا أن الثلج صار سـميكًا، ولا تـزال هنـاك سـحب كثيفة تتجمع في السماء، فبدأنا في القلق على الغزلان التي خرجـت للبحـث عـن الطعام، لذا سـألت "إيفولينـا": "هـل سيـستمر الـثلج في التـساقط حتـى غـد؟"، فرفعت رأسها للسماء كمن يتفحص وجهًا عابسًا غبرًا ثـم قالـت بلهجـة متأكـدة إن السقوط الأول للثلج دائمًا ما يكون خفيفًـا، لا تلتفتـوا لـشكله القـاسي. كنـت أثق في كلامها فقد خبرت الكثـير، لـذا عـدت لخيمتـي مطمئنـة، كانـت "نيخـاو" تحيك قفـازًا لطفلهـا الـذي لم يـأتِ بعـد، أمـا "أنـداور" الـشقي فكـان يمـد يـده

ليمسك الخيط فلا تتمكن من إتمام العمل، فقالت لي "نيخاو": "لقد كانت الفراشات البيضاء في الصيف كثيرة، لذا فالثلج كثير في الشتاء بالفعل". لقد ذكَّرني كلامها بذلك اليوم الذي غادر فيه "لاجيدا" المعسكر فتنهدت، وتنهدت هي أيضًا، فكلانا كنا نشتاق لرجلينا، لم نكن نعرف هل تعرضا للعقاب أثناء التدريب؟ هل أكلا حتى شبعا؟ هل ناما حتى الراحة؟ لقد صار الطقس باردًا فهل سيعطيهما اليابانيون ملابس ثقيلة، ماذا لو تجمدا؟ ما العمل؟

كانت الثلوج كثيفة في تلك الليلة، ومن خلال الضوء الأصفر الضعيف المنعكس عن حفرة النار رأيت زهور الثلج المتطايرة تجاه الخيام، لقد أطلت برؤوسها المشعرة من خلال فتحة المدخنة الصغيرة، لكنها لم تكن قوية الجسد مثل حبات الرمل فتستطيع السقوط حتى النهاية، بل كانت أجسادها في غاية الرقة، لا تتحمل القليل من الدفء، لذا كانت تذوب بمجرد الدخول للخيمة. ظللت أنظر لها قليلًا ثم وضعت بضع قطع من الحطب الرطب داخل النيران حتى لا تحترق بسرعة بل تظل تحترق بثبات حتى الصباح، بعدها احتضنت "أنداور" ورحت في النوم.

لم يتخيل أي منا أنه في اليوم التالي لم نجد الثلوج لم تذب فحسب، بل ازدادت كثافة أيضًا، لقد تراكمت الثلوج خارج الخيمة حتى بلغت الركبة، وانخفضت درجة الحرارة للغاية، واكتست الغابة باللون الأبيض، وتجمد النهر. ما إن خرجت من الخيمة حتى رأيت "إيفولينا" تسير مترنحة وهي تصيح وقد شحب لونها: "يا للهول، إنها كارثة بيضاء"، كنا نطلق على كوارث الثلوج "الكارثة البيضاء". كانت الكوارث البيضاء لا تعرقل قيامنا بالصيد فحسب، بل الأخطر من ذلك أنها كانت تمثل تهديدًا لغزلاننا، فقد كانت الغزلان تعجز عن إزاحة طبقات الثلج السميكة للبحث عن الطحالب، لذا كانت تموت جوعًا.

لذا ظللنا ننتظر بقلق عودة الغزلان، مرت فترة ما قبل الظهيرة ولم يظهر أي أثر لها بالمعسكر، وظلت زهور الثلج تتطاير لتغمر المكان، كما بدأت الرياح

في الهبوب، كانت الرياح الباردة تجعل من يقف في الخارج للحظات يرتعش بشدة، فقررت "إيفولينا" الذهاب مع "مارية" للبحث عن الغزلان على أن أبقى لحراسة المعسكر أنا و"نيخاو"، فامرأتان ذواتا بطنين كبيرين في مثل تلك المواقف تعتبران عائقًا. لم تكن "إيفولينا" تعرف أين ذهبت الغزلان، ففي الطبيعي نتبع آثار أقدامها لنبحث عنها، لكن الثلوج الكثيفة غطت تلك الآثار.

انتظرت أنا و"نيخاو" ونحن في قمة القلق حتى حل الظلام، ولم يظهر أي أثر للغزلان، ولم تعد "إيفولينا" و"مارية". كنا في البداية قلقتين على الغزلان فحسب، أما الآن فقد امتزج نوعان من القلق في نفوسنا، حتى عجزنا عن الجلوس، فخرجنا مرة تلو الأخرى لخارج الخيمة نتطلع لوصولهما، لكننا كنا نعود دائمًا والخيبة تصاحبنا، وعندما وصل بنا القلق إلى حد البكاء ظهرت "إيفولينا" و"مارية" أخيرًا وقد التحفتا بالثلوج وتجمد شعرهما فبدوتا أشبه برجل الثلج، وقالت "إيفولينا" إنهما سارتا بعد الظهر لمسافة أقل من كيلو متر واحد فاشتدت الثلوج لدرجة عجزتا معها عن مواصلة السير، ولم تشاهدا أي أثر للغزلان وخشيتا أن نخرج للبحث عنهما لذا قررتا الرجوع.

قضينا تلك الليلة بلا نوم، وركعنا أمام الإله "مالو" لنصلي من أجل أن تجتاز الغزلان تلك اللحظات العصيبة. في تلك اللحظة زاد اشتياقنا لرجالنا، فلو كانوا موجودين لكانت هناك طريقة لمجابهة تلك الكارثة البيضاء. ولقد واستنا "إيفولينا" قائلة إن الغزلان ذكية، فعندما تغزر الثلوج تختار الاختباء تحت المنحدرات الجبلية، فالثلوج هناك قليلة، والرياح ضعيفة، وهناك أيضًا بعض الطحالب التي يمكنها تناولها، فلا مشكلة في بقائها هناك لثلاثة أيام أو خمسة أيام، فهي تنتظر حتى تتوقف الثلوج لتبحث عن طريقها وتعود إلى المعسكر.

يمكن القول إن تلك العاصفة الثلجية كانت أكبر عاصفة مررنا بها في حياتنا، فقد استمر سقوط الثلج ليومين وليلتين، وفي اليوم الثالث، وعندما كنا نهم بالخروج للبحث عن الغزلان عاد الرجال. بعدها سمعت "خاشيه" يقول

إن اليابانيين كانوا يرغبون في إبقائهم عدة أيام أخرى للتدريب، إلا أن "لاجيدا" رأى من حركة السحب أن هناك تغيرات ستحدث في الطقس، لذا لم يطمئن للنساء اللاتي تركهن في الجبل، لذا طلب من "وانجلو" أن يخبر "لينجموشيونان" أنهم يجب أن يعودوا للجبل، فلو حدثت كارثة بيضاء فستموت الغزلان. لكن "لينجموشيونان" لم يوافق، فذهب "لاجيدا" باحثًا عن "جيتيان" الذي كان رئيسًا لمعسكر "دونجدا". كان "جيتيان" يكن احترامًا لرجال قبيلتنا، ربما لأنه رأى من قبل بأم عينيه الكاهن "نيدو" وهو يدفع حصانه إلى الموت عن طريق الرقص، وأنه عالج جرح قدمه، لذا أمر "لينجموشيونان" أن يعيد للرجال بنادقهم ويتركهم يرحلون. وعندما كانوا في طريق العودة بدأ الثلج في الهطول، وقبل أن يصلوا للمعسكر القديم شاهدوا العلامات التي تركناها، وعلموا أننا رحلنا، لذلك اتبعوا علامات الأشجار وساروا بمحاذاة نهر "بايرتسيه" حتى عثروا علينا.

لم يرتاحوا ليومين كاملين، ولم يصطادوا في الطريق سوى أرنب بري لسد جوعهم، وبعد أن وصلوا للمعسكر وسمع "لاجيدا" أن الغزلان لم تعد منذ يومين، شرب فقط بضع رشفات من الماء ثم قسم الرجال وخرجوا في مجموعات منفصلة للبحث. انقسموا للسير في ثلاثة طرق، سار في أحدها "خاشيه" و"داشي" و"إيوان"، وسار في الثاني "كويندية" مع "لوني" و"جينديه"، أما الثالث فقد سار فيه "لاجيدا" وحده. ولقد ارتدى الجميع أحذية التزلج على الجليد ما عدا "لاجيدا" الذي امتطى حصانًا، فقد قال إن الحصان قد عاش مع الغزلان لفترة طويلة، وبالتأكيد قد اعتاد على رائحة أجسادها لذا فباستطاعته مساعدتنا في البحث عنها.

كانت لدى قبيلتنا بضعة عشر لوح تزلج مصنوعة من خشب الصنوبر وملصق على أسفلها جلد "كانداهان"، ومنحنية من الأمام ومموجة من الخلف، وفي الوسط بها حزام جلدي لربط الأقدام، ودائمًا ما يستخدمها الرجال عند

الخروج للصيد عند سقوط الثلج. وفي العادة يمكن باستخدام ألواح التزلج قطع المسافة التي تحتاج للسير ثلاثة أيام في يوم واحد. لم يجد الرجال الوقت للتحدث معنا بضع جمل، بل ركبوا ألواح التزلج وغادروا المعسكر على الفور، وكان لاجيدا هو آخر المغادرين، وعندما أوصلته لركوب الحصان أشار إلى بطني عندما رأى أننا وحدنا تمامًا وقال: "هل قاربت؟"، فهززت رأسي إيجابًا، فضيق عينيه وقال ضاحكًا: "ما إن تخرج حتى أضع واحدة أخرى مكانها، لن أترككِ بلا عمل".

وقرب مساء اليوم التالي عاد "لاجيدا"، لكنه لم يعد قادرًا على إلقاء التحية عليَّ بعد الآن، لقد كان مستلقيًا على الحصان بلا حراك، أما الحصان فقد كان متعبًا متقطع الأنفاس، وما إن وصل إلى المعسكر حتى سقط على الأرض. يبدو أنه التعب بعد السير لعدة أيام، فكان يرغب في قيلولة قصيرة على ظهر الحصان، لكنه دخل في نعاس عميق، فتجمد حتى الموت في حلمه. أما الحصان فقد أحس أن سيده الذي على ظهره لا يتحرك، بالتأكيد أصابه مكروه، لذا عاد إلى المعسكر.

أصابني الندم الشديد لأني لم أنصح "لاجيدا" بأن يستخدم الزلاجات مثل باقي الرجال لكي يبحث عن الغزلان، فبهذا لم يكن لينام، ولم أكن لأفقد الطفل الذي صنعته معه في الحقل القلوي، فعندما رأيت جثة "لاجيدا" المتصلبة أغشي عليَّ، وحين أفقت كان بطني فارغًا، ولقد لفت "إيفولينا" الطفل الذي وُلد مبكرًا في قماشة بيضاء وألقته على المنحدر الجبلي المواجه للشمس، كانت طفلة كما توقعنا.

بكت "إيفولينا"، كانت تبكي "لاجيدا" وتلك الطفلة الميتة، وبكت "مارية"، وكانت تبكي "لاجيدا" والطفلة أيضًا بالإضافة إلى ذلك الحصان، فعندما رأته متعبًا وعطشًا سقته بعض الماء، لكن من كان يتوقع أن الحصان بعد أن شرب الماء تجشأ بصوتٍ عالٍ ثم خر ميتًا على الأرض وانقطعت أنفاسه. وما إن فكرت في حزن "داشي" على ذلك الحصان الميت حتى انفطر قلبها بهذا الشكل.

بكيت أنا أيضًا، سال جزء بسيط من دموعي على وجنتي، أما الجانب الأعظـم فقد سال في قلبي، فما سال من عيني كان دمعًا، أما مـا سـال في قلبـي فقـد كـان دمًا، لقد امتزج "لاجيدا" في جسدي فصار دمًا حارًّا طازجًا مفعمًا بالرقة.

عاد الرجال الذين ركبوا الزلاجات تباعًا في اليوم الثالث للمعسكر، لقد تفرقت غزلاننـا في الكارثـة البيـضاء، فـسار ثلثـاهما إلى أسـفل المنحـدر الجـبلي في الجهـة الظليلة، وكان الثلج كثيفًا من البداية، وازداد الوضع سوءًا بهبوب الرياح الشمالية الغربية التي جلبت جزءًا من الثلج إلى هناك، فأصبح كأن هناك حائطًا عاليًـا مـن الثلوج بني من حولها فحوصرت في الداخل، مما جعل ذلك الجزء من الغزلان غير قادر على الخروج أو البحث عن الطعام، فمات معظمها تجمدًا أو جوعًا ولم تـنجُ إلا أربعة، أما الثلث الأخير فقد اختبأ تحت قيادة الملك "مالو" تحت حافة جبليـة مقابلة للوادي، كان الثلج هناك قليلًا، وهناك ما يمكـن أكلـه فـوق الـصخور، لـذا نجت كل الغزلان باستثناء عدد قليل مـن الغـزلان الـصغيرة التـي تجمـدت حتـى الموت. لكن كل تلك الغزلان معًا كانـت في حـدود بـضع وثلاثـين، لقـد انخفـضت أعداد غزلاننا بشكل حاد أشبه بتلك السنة التي انتشر فيها الطاعون.

قمنا بدفن "لاجيدا" في مكان قرب المعسكر الجديـد، وبعـد أن رحـل انتخـب الجميع "إيوان" ليكون رئيسًا جديدًا للقبيلة.

كان هذا الشتاء بالنسبة إليَّ كليلة طويلة بلا نهاية، وحتـى وسـط ذلـك اللون الأبيض الناصع الذي يغمر كل شيء كنت أشعر أن ما أمام عيني هـو سواد فحسب، وفي كل مرة يصدح فيها صـوت خطـوات الرجـال العائـدين من الصيد في المعسكر، كنت أهرع كما اعتدت في الماضي إلى خارج الخيمـة لأستقبل "لاجيدا"، كانت النـساء الأخريـات يـستقبلن رجـالهن ويعـدن إلى الخيمة، وحدي أنا كنت أقف وحيـدة وسـط الريـاح البـاردة، تلـك الريـاح الباردة تجعلنـي أدرك تـدريجيًّا أن "لاجيـدا" قـد رحـل حقًّـا. كنـت أرغـب بـشدة في أن تحملنـي الريـاح البـاردة للمكـان الـذي تقبـع فيـه روحـه،

لكن صوت ضحكات "ويكيتيه" و"أنداور" المنبعثة من الخيمة كانت تحملني على العودة إلى جوار موقد النار، والعودة إلى جوار أطفالي.

وفي الربيع أنجبت "نيخاو" ولدًا أسماه "لوني" "جواجيلي"، كنا نحبه كلنا ما عدا "إيفولينا" التي كانت في كل مرة تراه في مهده تضيق عينيها وتقول إن تلك الوحمة الحمراء على جبينه مثلها مثل التي لدى "إيوان"، و"إيوان" حظه عاثر، لذا فلن ينعم هذا الطفل بحياة جيدة. بالطبع كانت تقول هذا الكلام و"إيوان" غير موجود، لكن "لوني" لم يكن يعير كلامها اهتمامًا فهو يعرف أنها كانت تضمر في نفسها بغضًا بعد أن فشل "جينديه" في الفوز بـ"نيخاو". وبعد ولادة "جواجيلي" بفترة قصيرة رتبت "إيفولينا" لابنها زواجًا، كانت فتاة ماهرة اسمها "جيفولينا"، حسنة الطباع لكن فمها معوج قليلًا فتبدو كأنها غاضبة دائمًا من أمر ما، ولقد قال "جينديه" إنه لا يحبها، لكن "إيفولينا" قالت إنها تحبها، فرد عليها "جينديه": "ألا تكفيني أم ذات أنف معوج حتى أتزوج امرأة بفم معوج؟"، ولقد جنت "إيفولينا" غضبًا من كلامه وزعقت قائلة: "ستعجز عن الزواج ممن تحبها، وستأتي من لا تحبها حتى بابك، إن قدرك مثل قدر أبيك"، فقال "جينديه": "لو أجبرتني على الزواج منها فسأقفز من فوق حافة الجبل"، فضحكت "إيفولينا" ببرود وقالت: "لو كانت لديك هذه الجرأة فأنت حقًّا ابن إيفولينا".

وما إن حل موسم المطر حتى ذهب الرجال مرة أخرى إلى "وتشيلوافو"، وأخذوا معهم ما اصطدناه عازمين على مقايضتها بالأشياء التي نحتاجها عند عودتهم.

ولقد قال "خاشيه" إنهم أثناء تلقيهم التدريب في معسكر "دونجدا" كانوا يصطفون في طوابير يوميًّا، ويتدربون على القتال والطعن، كانوا يتلقون دروسًا في الاستطلاع، وكان "داشي" هو الأكثر ذكاءً لذا تم ضمه لفرقة الاستطلاع، كما تعلم أيضًا التصوير. وكان اليابانيون يعلمونهم أيضًا اللغة اليابانية، لكن "إيوان" رفض تعلمها، وفي كل مرة يُطلَب منه تعلمها كان يُخرج لسانه معوجًّا

ليريه لـ"لينجموشيونان"، فـيما معنـاه أن لـسانه لا نفـع منـه، لا يمكنـه التحـدث، لذلك في كل مرة نتعلم فيها اليابانية كـان "إيـوان" يعـاني مـن الجـوع، فقـد كـان "لينجموشيونان" يعاقبه قائلًا: "إن لسانك لا يستطيع التحدث، لـذا مـن الطبيعـي ألا تستطيع تناول أي شيء".

لقد قضوا في التدريب تلك المرة أربعين يومًا فقط وعادوا في الخريف، لكن ما بادلوه من أشياء كان قليلًا لدرجة تدعو للرثاء، ولقد قال "خاشيه" إنه لـو لم يكـن "إيوان" ذا نظرة مستقبلية فقام سرًّا بإخفاء بضعة وعشرين فـراء سـنجاب وسـتة جلود وعـل في كهـف بـالقرب مـن معـسكر "دونجـدا" ولم يأخـذ كـل الأشـياء إلى "مجتمع منشوريا للمنتجات الحيوانية" لكانت الأشياء التي أحضرناها أقل. وبعـد انتهاء التدريب عاد "إيوان" إلى ذلك الكهـف واسـترد الأشـياء مـن هنـاك، وتحـت جنح الليـل ذهـب إلى "وتـشيلوافو" باحثًـا عـن "شـو تـساي فـا" وبادلهـا بـبعض الطلقات والنبيذ الأبيض والملح، وإلا لكانت تلك السنة التي صارت قاسية بـسبب خسائر الغزلان أكثر قسوة وصعوبة.

وفي ربيع العام الحادي والثلاثين من دولة الصين الديمقراطية، أي العام التاسع من حكم "كانج ديه" حـدث أمـران كبـيران في قبيلتنـا، الأول هـو تحـول "نيخـاو" لكاهنة، والثاني هو تحديد "إيفولينا" لميعاد زواج "جينديه" رغمًا عنه.

في ذلك العام خلال عيد "أنيه" - أي بعد انتهاء عيد الربيع بقليل - أصـبح سلوك "نيخاو" يتسم بالغرابة، فذات يوم قرب المساء تساقط الـثلج، فقامـت فجأة وقالت لـ"لوني" إنها ترغب في الخـروج لمـشاهدة غـروب الـشمس، فـرد عليها أن الثلوج تتساقط، كيف لها أن ترى الغـروب؟ لكنهـا لم تـرد عليـه، ولم ترتدِ حـذاءها، وإنمـا ركـضت حافيـة القـدمين نحـو الخـارج، فـالتقط "لـوني" حـذاءها الجلـدي وركـض في أثرهـا قـائلًا: "إنـكِ لم ترتـدِ حـذاءك، سـتتجمد أقدامك"، لكنها اكتفت بضحكات عالية وهي تجري أمامه ولم تلتف لـه. كـان "لوني" أسرع أبناء القبيلة في العدو، إلا أنه عجز عن اللحاق بها، فقـد ازدادت

سرعتها حتى اختفت سريعًا بلا أثر. أصيب "لـوني" بالرعـب ونـادى عـلى "إيـوان" وعليَّ، وما إن استعددنا للتفرق للبحث عنها حتى عادت فجأة مثل الريح، كانـت لا تزال تركض حافية القدمين على الثلج بخفة غير عادية فبدت أشبه بغزال صغير رشيق، وبعد أن عادت للخيمة احتضنت "جواجيلي" ورفعت ملابسها لترضعه كأن شيئًا لم يحدث، أما قدمها فلم تـصبها أي بـرودة، فـسألتها: "أيـن ذهبـتِ للتـو يـا "نيخاو"؟"، فردت: "أنا هنا أرضع جواجيلي"، فسألتها ثانيةً: "هل تشعرين بالبرد في قدميكِ؟"، فأشارت إلى النيران وقالـت: "أنـا أجلـس بجـوار النـار، كيـف سـتتجمد أقدامي؟"، عندها تبادلت النظرات مع "لوني" وقد أدرك كلٌّ منـا أن "نيخـاو" ربمـا ستصبح كاهنة، فقد كان ذلك الوقت هو المتمم لثلاث سنوات بعد وفـاة الكـاهن "نيدو"، لقد وجب على قبيلتنا أن يخرج منها كاهن جديـد. بعـدها بفـترة قـصيرة أصيبت "نيخاو" بالمرض، فاستلقت بجوار موقد النار وظلت محدقـة العينـين ليـل نهار ولا تأكل ولا تشرب ولا تتحدث، وظلت على هذا الوضع سبعة أيـام، بعـدها اعتدلت جالسةً فجأة وهي تتثـاءب كأنمـا قامـت لتوهـا مـن قيلولـة، ثـم سـألت زوجها: "هل توقف سقوط الثلج؟"، فقد كـان الـثلج يتـساقط عنـدما نامـت منـذ سبعة أيام، فرد "لوني": "لقد توقف منذ فترة طويلة، فأشـارت إلى رضـيعها قائلـة: "كيف له أن ينحف لمثل هذه الدرجة خلال نومي؟". لم ترضع نيخاو طفلهـا لمـدة سبعة أيام، فاضطر "لوني" لإطعامه لبن الغزلان فكان من الطبيعي أن ينحـف، وفي اللحظة التي اعتدلت فيها "نيخاو" دخلت "ماريـة" إلى الخيمـة حاملـة نبـأ الملـك "مالو"، كان قد عاش لأكثر من عشرين عامًا، لذا مـات بالـشيخوخة، فخـيم علينـا جميعًا الصمت حزنًا وألمًا. في العادة حـين يمـوت الملـك "مـالو" يـتم نـزع الجـرس المعلق في رقبته ثم يوضع لدى الكاهن، وننتظـر حتـى يولـد ملـك "مـالو" جديـد فيقوم الكاهن بإلباسه الجرس.

ذهبنا إلى قطيع الغزلان لنرى الملك "مالو" وقد رقد عـلى جنبـه، وقـد بـدا الشعر على جسده أشبه ببقايا ثلج متسخ نتيجة للسنوات الطويلة التي مـرت

عليه وسط الرياح والأمطار، فركعنا أمامه وتقدمت "نيخاو" بشكل طبيعي للغاية وفكت الجرس النحاسي المعلق على رقبة الملك "مالو" ثم وضعته فجأة في فمها، فذهل "لوني" وصرخ: "نيخاو كيف أكلتِ الجرس النحاسي؟"، ولكن ما إن انتهى من كلماته حتى كانت قد ابتعلت الجرس بسلاسة، رغم أنه كان في حجم بيضة بطة برية، وحتى الحنجرة التي في سُمك حنجرة البقرة لم يكن بإمكانها بلعه بمثل تلك السهولة، مما أصاب "لوني" بالفزع، لكن لم يبدُ عليها أن أي شيء قد حدث، فلم تتجشأ حتى.

إن الفترة بين شهري إبريل ومايو من كل عام هي موسم ولادة الغزلان. في هذا الوقت نبحث عن صدع جبلي قريب من النهر غني بالطحالب ليكون مكان استقبال الغزلان الصغيرة، ثم نحبس الغزلان الذكور والغزلان المخصية في حظيرة غزلان بسيطة حتى تمر الولادة بسلاسة. كنا وقتها على بُعد شهر تقريبًا من موسم الولادة ولم نكن قد اخترنا بعد المكان المناسب لذا بقينا في المعسكر القديم. وفجأة قالت لنا "نيخاو" إن الملك "مالو" الجديد على وشك الوصول لعالمنا.

كانت على حق، فقد أطلقت غزالة بيضاء مرقطة فجأة صرخة عالية، تلتها ولادة غزال صغير أبيض كالثلج بدا أشبه بسحابة سقطت على الأرض. وعندما جريت أنا وهي نحوه توقفت فجأة وفتحت فمها ومدت يديها الاثنتين وبكل بساطة بصقت الجرس النحاسي، ثم حملته في يد واحدة وسارت ببطء نحو الملك "مالو" المولود لتوه. كان الجرس يبدو نظيفًا لامعًا كما لو كان قد صُنع لتوه، لا بد أن بجسدها نهرًا صافيًا لتتمكن من غسل التراب والأوساخ عن الجرس بهذا الشكل الرائع.

أصبح هذا الغزال الصغير هو الملك "مالو" الجديد، وقامت "نيخاو" أخيرًا بتعليق الجرس حول رقبته.

عندما دفنا الملك "مالو" غنت "نيخاو" أغنية، وكانت تلك هي بداية غنائها لأغاني الآلهة.

"هذا اللون الأبيض كالثلج على جسدك
ذاب في الربيع
هذه الآثار التي كالزهور تحت حوافرك
أنبتت عشبًا أخضر
السحابتان البيضاوان اللتان ظهرتا في السماء
هما عيناك اللامعتان".

وعندما كانت "نيخاو" تغنى تلك الأغنية ظهرت في السماء بالفعل سحابتان مستديرتان بيضاوان، فنظرنا إليهما فشعرنا كأننا ننظر لعيون الملك "مالو" الصافية اللامعة، فاحتضن "لوني" زوجته بين ذراعيه وربت على شعرها في مشهد يجمع بين الرقة والحزن. كنت أدرك أنه يتمنى أن يظهر كاهن في قبيلتنا، لكنه في الوقت نفسه مشفق على المرأة التي يحب من الألم الجسدي الذي سينتابها حين تتمثل أرواح الآلهة من حولها.

اخضر العشب، وتفتحت الأزهار وعادت طيور السنونو من الجنوب، والتمعت موجات الضوء على صفحة الأنهار مرة أخرى. وأقيمت مراسم تنصيب "نيخاو" كاهنة لقبيلتنا تحت ضوء الربيع.

طبقًا لعاداتنا فإن مراسم تنصيب كاهن جديد يجب أن تتم بالذهاب إلى قبيلة يتواجد فيها كاهن قديم. وقتها كانت "نيخاو" حبلى، فخاف "لوني" عليها من تعب الطريق، لذا تدخل "إيوان" ودعا كاهنة عجوزًا من قبيلة أخرى لكي تشرف على مراسم تنصيب "نيخاو" كاهنة. كان اسمها الكاهنة "جيلا"، وقد تجاوزت السبعين من العمر إلا أن ظهرها كان مستقيمًا وأسنانها كاملة وشعرها يملأ رأسها، وصوتها مجلجلًا، ولقد شربت على التوالي ثلاثة أكواب من الخمر ولم يزغ بصرها.

قمنا بنصب عمودين ناريين في الجهة الشمالية من الخيمة، كان الأيسر منهما عبارة عن شجرة بتولا بيضاء، أما الأيمن فكان شجرة صنوبر، وكان لا

بد أن يكون كلاهما شجرة كبيرة، وأمام هاتين الشجرتين قمنا بنصب شجرتين صغيرتين، اليمنى شجرة صنوبر أيضًا واليسرى شجرة بتولا بيضاء، ثم قمنا بشد رباط جلدي بين الشجرتين الكبيرتين وعلقنا عليه القرابين المقدمة لآلهة الكهنة، مثل قلب غزال ولسانه وكبده ورئتيه وغير ذلك، ثم دهنا الشجرتين الصغيرتين بدم قلب غزال. وبالإضافة إلى ذلك قامت الكاهنة "جيلا" بتعليق شمس خشبية في الناحية الشرقية من الخيمة، وتعليق قمر في الناحية الغربية، ثم صنعت أوزة ووقواق من الخشب وقامت بتعليقهما.

بدأت مراسم رقصة الآلهة، وجلس كل أبناء القبيلة بجوار النيران لمشاهدة الكاهنة "جيلا" وهي ترقص رقصة الآلهة، وكانت "نيخاو" تضع على جسدها ملابس الآلهة التي تركها الكاهن "نيدو" لكن بعد أن قامت الكاهنة "جيلا" بتعديلها، لأن الكاهن "نيدو" كان سمينًا كما كان أطول من "نيخاو"، لذا كانت الملابس واسعة عليها، كانت "نيخاو" في ذلك اليوم كأنها أصبحت عروسًا مرة أخرى، فقد بدت جميلة ونبيلة للغاية في ملابس الكاهنة، وكان معلقًا على الملابس شكلًا يمثل عمودًا فقريًّا مصنوعًا من رقائق خشبية، وسبع قطع حديدية ترمز إلى ترقوة الإنسان، وشكلًا يمثل البرق وكثيرًا من المرايات النحاسية الكبيرة والصغيرة. أما الوشاح الذي كانت تسدله على كتفيها فقد كان أكثر بهاءً، فقد كانت الزينات المعلقة به تمثل البط المائي والسمك والبجع والوقواق، أما تنورة الآلهة التي كانت ترتديها فقد كان مخاطًا بها عدد كبير من الأجراس النحاسية الصغيرة مع اثني عشر شريطًا ملونًا متطايرًا، وفي مقدمة قبعة الآلهة كانت هناك شرائط حريرية حمراء اللون تصل حتى أنف "نيخاو" لتجعل بصرها يخترق تلك الشرائط ويزيد من غموض عينيها. وقبل البدء في رقصة الآلهة قامت كما علمتها الكاهنة "جيلا" بإلقاء كلمة على أبناء القبيلة قالت فيها إنها بعد أن تصبح كاهنة ستحمي بحياتها وبالقوى التي وهبتها إياها الآلهة قبيلتها، وستعمل على تزايد أعداد القبيلة، وكثرة قطعان غزلانها، ووفرة صيدها كل عام. بعدها بدأت في رقصة الآلهة مع الكاهنة "جيلا" وهي ممسكة بطبلة الآلهة في

يدها اليسرى، وبعصا الطبلة المصنوعة من قدم وعل في يدها اليمنى. وعلى الرغم من سنها الكبيرة كانت الكاهنة "جيلا" ترقص بحيوية، وعندما قرعت الطبل، طار كثير من الطيور من أماكن بعيدة متوافدًا على الأشجار القريبة من المعسكر، فامتزج صوت الطبول مع صياح الطيور في صوت يهز القلوب، كان هذا هو الصوت الأجمل الذي سمعته في حياتي، أما "نيخاو" فقد رقصت حتى حلول الظلام لست أو سبع ساعات كاملة بلا توقف أو راحة، ولقد أشفق "لوني" عليها فحمل لها وعاءً من الماء لترتشف منه، لكنها بدت غير عابئة به، وأصبح قرعها للطبلة أفضل ورقصها لرقص الكاهنة أكثر براعةً وجمالًا، وعندما توقفتا عن الرقص صار الماء في الوعاء الذي بيد "لوني" أكثر، فقد زادت عليه قطرات العرق المتساقطة من على جبينه.

بقيت الكاهنة "جيلا" في معسكرنا لثلاثة أيام رقصت فيها. لقد استخدمت صوت طبلتها ورقصها لتجعل من "نيخاو" كاهنة.

وعندما استعدت للرحيل أخذ "إيوان" غزالين معه ليودعها كهدية لها، وفي اللحظة التي غادرا فيها المعسكر ظهرت "إيفولينا" بين صفوف المودعين، كانت ترتدي ملابس سوداء جعلتها أشبه بالغراب، وقالت إنها قد حددت ميعاد زواج ابنها "جينديه"، وعندما يعود من التدريب في "وتشيلوافو" سيستقبل عروسه "جيفولينا"، وأضافت أن زفاف ابنها يجب أن يشرف عليه كاهن قدير متمكن، وأنها قد أحبت الكاهنة "جيلا"، لذلك وجهت لها الدعوة مسبقًا ورجتها أن توافق. ما زلت أذكر أن "جيلا" قد حركت فقط جانب فمها، ولم تهز رأسها رفضًا أو إيجابًا، وركبت على ظهر الغزال ولوحت لنا بيدها ونادت على "إيوان" لكي يمضيا في طريقهما. وعندما غادرا المعسكر تناهى إلى أسماعنا من فوق شجرة صنوبر قريبة صوت نقار الخشب وهو ينقر الشجرة، فبدا أشبه بصدى صوت لقرعات الكاهنة "جيلا" فوق طبول الآلهة.

ما إن رحلت الكاهنة "جيلا" و"إيوان" حتى تشاجر "جينديه" و"إيفولينا"، وقال لها ابنها: "لن أسكن مع تلك المرأة ذات الفم المعوج في خيمة واحدة حتى لو ظللت عزبًا طوال حياتي، ولو لم يكن هناك مفر من ذلك فالأفضل لي أن أسكن في قبر". وبعد أن انتهى من كلامه نظر إلى "نيخاو" بعين يترقرق فيها الدمع، ثم عضت شفتها السفلى وأطرقت برأسها بسرعة، وضحكت أمها ضحكة باردة وقالت: "إذًا فلتسكن في القبر".

عندما ذهب الرجال إلى معسكر "دونجدا" بدأت "إيفولينا" بالفعل استعدادات الزواج، فأخرجت قطع القماش التي كانت قد ادخرتها من قبل قطعة قطعة، وأرادت أن تخيط لكلٍ من "جينديه" و"جيفولينا" طقمًا من ملابس الزفاف، كنت أحب مهارة "إيفولينا" اليدوية، لذا كنت أحمل "أنداور" وأذهب لأشاهدها وهي تعمل. وكان لديها ثوب من جلد السمك، ففردته أمامي، كان أصفر اللون وعليه نقاط رمادية، ذا رقبة مفتوحة ووسط مستقيم وحزام وسط، كان بسيطًا للغاية وجميلًا للغاية، كانت جدتي ترتديه في شبابها، ولقد أخبرتني "إيفولينا" أن جدتي كانت متوسطة القامة نحيفة، أما هي فطويلة القامة وتميل للبدانة، لذا لم تستطع ارتداءه قط، وأضافت أن الملابس المصنوعة من جلد السمك أكثر متانة من تلك المصنوعة من جلد الوعل، ثم وضعت الملابس تلك على جسدي لتقيسها ثم ألقت بالمفاجأة قائلة: "لتلبسيها، لن تكون ضيقة عليكِ، خذيها فهي هدية لكِ". فقلت: "جيفولينا ستصبح عروس "جينديه"، وقطعة الملابس تلك مناسبة لجسدها، فلتبقيها لها". فتنهدت "إيفولينا" وقالت: "إن تلك الفتاة لا تربطها بنا قرابة دم، وتلك الملابس توارثناها عن أجدادنا فلماذا أعطيها لها؟".

شعرت من تنهيدتها أنها غير راضية تمامًا عن تلك الزيجة فقلت لها ناصحة: "لا تضغطي على "جينديه"، فهو لا يحب "جيفولينا"، فلماذا تجبرينه؟"، فحدقت في وقالت بصوت خفيض: "إنكِ قد أحببتِ "لاجيدا"، لكن

أين ذهب؟ و"إيوان" أحب "ناديجدا"، ولكن ألم تأخذ الأطفال وتتركه في النهايـة؟ "لينكيه" وعمك كلاهما أحبا "داMALA" لكنهما في النهاية كانا عـلى وشـك أن يـصيرا أعداء، و"جينديه" أحـب "نيخـاو"، لكنهـا في النهايـة تزوجـت "لـوني". إن كـل مـا تحبينه ستفقدينه في النهاية، أما ما لا تحبينه فهو الذي سـيبقى معـكِ". وبعـد أن انتهت من كلامها تنهدت مرة أخرى، لذا لم يطاوعني قلبي أن أحدث امـرأة امـتلأ قلبها بكل تلك الجروح والحزن عن أهمية السعادة بالنـسبة للـشخص، حتـى لـو كانت تلك السعادة قصيرة الأجل.

خاطت "إيفولينا" من أجـل "جينديـه" جلبابًـا طـويلًا مفتـوح الجـانبين أزرق اللون، وزينت ياقته وأطراف أكمامـه بـاللون الأخـضر الفـاتح، واسـتخدمت تلـك القطع الصغيرة من القماش وجلود الوعل والتي لم يكن منها نفع كبير لتصنع منها ملابس لـ"جيفولينا". كانت تنورة ضيقة من الأعلى واسعة مـن الأسـفل ذات ياقـة على شكل هلال وأكمام مثل حافر الحصان، وقد طعَّمت وسـطها بـشريط عـرضي أخضر اللون، كانت في غاية الجمال حتى إنها ذكَّرتني بتنورة الـريش التـي صـنعها الكاهن "نيدو" من أجل أمي، ومع قطعة الملابس تلـك كـان هنـاك حـذاء طويـل الرقبة مطرز بزهور على الجانبين. وبالإضافة لكل هذا صنعت مـن أجلهـما غطـاء سرير من جلد الوعل، وحشية مصنوعة من شعر وجلد خنزير بري، وقالت إنه لا يمكن للعروس أن تنام على حشية مصنوعة من جلد الدب، وإلا فلن تنجب.

وعندما عـاد الرجـال إلى المعـسكر كانـت "إيفولينـا" قـد جهـزت كـل الأشـياء المطلوبة للزفاف.

كان "داشي" عند عودته تلك المرة في قمة حيويته ونشاطه، وقد جلـب معـه معطفًا قطنيًّا أصفر اللون، فهو لم يتعلم هناك ركوب الخيل فحـسب، بـل تـسلل مـع فريـق الاسـتطلاع وعـبر نهـر أرجـون إلى الـضفة اليـسرى. وعنـدما سـمعت "مارية" أن "داشي" ذهب إلى الاتحاد الـسوفيتي أصـيبت بـالفزع حتـى سـقطت

على الأرض وظلـت تـردد: "مـاذا لـو لم تعـد؟ هـؤلاء اليابـانيون يـدفعون بزهـرتي الوحيدة إلى حافة الهاوية". ولقد أضحكت كلماتها تلـك الجميـع، وأخبرنـا "داشي" أنه هو واثنين آخرين تسللوا تحت جـنح الظـلام وركبـوا قاربًـا مـن لحـاء أشـجار البتولا حتى وصلوا إلى الضفة اليسرى لنهر أرجون، ثم خبؤوا القارب بـين الأشـجار الموجودة على ضفة النهر، بعدها ساروا بمحاذاة الطريق العام للبحث عن خطوط السكك الحديدية وإحصاء عدد الكباري والطرق الموجـودة في المنطقـة، بالإضـافة إلى توزيع الجنود ونقاط الـدفاع. وكـان "داشي" مـسؤولًا عـن التـصوير، أمـا ذلـك الشخص الذي يجيد الكتابة فكان مـسؤولًا عـن التـسجيل، والـشخص الآخـر كـان مسؤولًا عن الاستطلاع والعد، وكان مطلوبًا منهم تسجيل أنواع القطارات التي تمر كل يوم وعددها وعدد عرباتها، وكانوا يحملـون عـلى ظهـورهم البنـادق وأكيـاس الطعام المجفف الذي يحتوي على طعـامٍ كـافٍ لـسبعة أو ثمانيـة أيـام مـن لحـم مجفف وبسكويت. وأضاف أنه ذات يوم عندما كان يصور جسر سـكك حديديـة على شكل قنطرة تم اكتشافه من قِبل دورية اسـتطلاع سـوفيتية، فطـاردوه وهـم يصرخون، فجرى هو وصحبه فزعًـا بجنـون وهربـوا إلى داخـل الغابـة، وكـان مـن حسن الحظ أنه قد علق الكاميرا في رقبته، وإلا لكان أضاعها وسط حالة الارتبـاك، ومن يومها اكتشفوا زيادة عدد الدوريات وأعداد أفرادها حول الطرق والجـسور، لذا ازدادت صعوبة القيام بعمليات الاستطلاع، ولقد بقوا داخل الاتحاد السوفيتي لمدة سبعة أيام بعدها بحثوا عن المكان الذي أخفوا فيه القارب وعادوا إلى الضفة اليمنى تحت ستر الظلام. ولقد كان اليابانيون راضون تمام الرضا عن نتائج عمليـة الاستطلاع تلك، لذا أهدوا كلًا منهم معطفًا قطنيًا.

وعندما كنا نستمع لحكاياته قالت "إيفولينا" فجأة موجهة كلامها لـ"إيـوان": "لو كنت تعلمت الاستطلاع مثله وذهبت للاتحاد السوفيتي، ألم يكن باسـتطاعتك أن تجد "ناديجدا" وتعود بها؟".

فشبك "إيوان" يديه الضخمتين ولم يقـل شـيئًا بـل غـادر مـتجهم الوجـه، أمـا "كويندیه" فقد تنهد بقوة، وبدا أنه كان ينوي لـوم "إيفولينـا" لكنـه في النهايـة لم يجرؤ على فتح فمه.

وقال "خاشيه" إن قيام اليابانيين بإرسال أشخاص لاستطلاع تلك الأشياء داخـل الاتحاد السوفيتي يبدو أنه نية لتوسـيع حـدود دولـة منـشوريا لتـصل إلى هنـاك. فأصدرت "إيفولينا" صوتًا من أنفها أعقبته بـالقول: "إنهـم يحلمـون، هنـا ليـست أرضهم، إنهم هناك يغتصبون الطعام والـشراب، فهـل يفكـرون أيـضًا في الـذهاب للاتحـاد الـسوفيتي لـسرقة المزيـد؟ هـل يعتقـدون أن الاتحـاد الـسوفيتي لقمـة سائغة؟ إني أراهم يعيشون في وهم".

في ذلـك الوقـت كنـا نـستعد للانتقـال مـن المعـسكر الـصيفي إلى المعـسكر الخريفي، فقالـت "إيفولينـا" إن الـزواج يجـب أن يـتم قبـل ذلـك، وذهبـت مـع "كويندیه" إلى قبيلة الفتاة لتحديد يوم الزواج.

وعندما عاد "إيوان" ومن معـه و"جينديـه" بـالعروس إلى قبيلتنـا، كـان يومًـا ساطعًا، ولقد ارتدى العريس جلباب العـرس الجديـد وكانـت ملامحـه بـاردة، أمـا "جيفولينا" فقد ارتدت الرداء والحذاء اللذين صنعتهما لها "إيفولينـا" وقـد مـلأت رأسها بالزهور البرية واعوج فمها، وكانت السعادة بادية عليها. أما "إيفولينا" فقد أرادت في البداية أن تدعو الكاهنة "جيلا" لتقـوم بمراسـم الزفـاف، إلا أن "إيـوان" أصر على أن تتم المراسم تحت إشراف كاهنة قبيلتنا، لذا لم يكـن أمـام "إيفولينـا" سوى التنازل. وعندما ألقت "نيخاو" نيابة عن كل أفـراد القبيلـة كلـمات التهنئـة، كانت "جيفولينا" تنظر بوجه مبتسم إلى "جينديه"، أما هو فقد كـان يـضع بـصره على جسد "نيخاو"، كانت نظراته مليئة بالحـب والرقـة والحـزن، فأصـابت قلبـي بغصة مفاجئة.

وبعـد انتهـاء مراسـم الـزواج التـف النـاس حـول النـار يـشربون الخمـر ويأكلون اللحم، وبعدها بدؤوا في الغناء والرقص، وقام "جينديه" بتقـديم وعـاء

من الخمر لكل واحد، بعدها لوح بيده وقال للمحتفلين: "فلتأكلوا جيدًا ولتشربوا الخمر ولتغنوا ولترقصوا، أنا متعب ومضطر لمغادرتكم". فاعتقد الجميع أن مراسم الزواج قد أرهقته وسيعود للخيمة ليستريح، وعندما غادر، غادر "داشي" أيضًا، وكان الجميع يعرفون أنه ذاهب لركوب الخيل، فهو يذهب كل يوم بعد الظهر لركوب الخيل على جانب النهر.

وقرب المساء ظهر "داشي" فجأة بجوار النيران وقد امتلأ وجهه بالدموع. كان الجميع وقتها يشاهدون بفرح "خاشيه" و"لوني" يرقصان رقصة صراع الدببة. كانا قد شربا كثيرًا ويطلقان الصرخات بصوتٍ عالٍ وهما يثنيان أرجلهما ويميلان بجسديهما ويرقصان وهما يتمايلان، كان منظرًا في غاية البهجة. ولقد أفزعت دموع "داشي" "مارية" وظنت أن الحصان قد أصابه سوء، وما إن همت بسؤاله حتى رأت "نيخاو" تهب واقفة من جوار النيران وتسأله: "إنه "جينديه" أليس كذلك؟" فهز رأسه بالإيجاب.

عندما كان "داشي" على وشك الوصول للمعسكر ممتطيًا حصانه، رأى جثة "جينديه" معلقة على شجرة صنوبر جافة. كنت قد رأيت تلك الشجرة من قبل، على الرغم من أنها لا تزال منتصبة إلا أنها قد جفت ولا يوجد عليها أي ورقة خضراء، ويوجد عليها فقط فرعان ممدودان أشبه بقرون الغزلان. وقتها كنت أجمع الحطب أنا و"إيفولينا"، وعندما هممت بضرب الشجرة بالبلطة منعتني هي، فقلت لها إن تلك الشجرة قد ماتت بالفعل لماذا لا يمكن قطعها؟ فردت أنه ما دامت فروع تلك الشجرة تشبه قرون الغزلان فلا يمكن قطعها، فلربما تعود للحياة ذات يوم. بالطبع لم تكن "إيفولينا" تتخيل أن تلك الشجرة ستأخذ حياة "جينديه". كانت فروعها تبدو جافة وهشة، حتى كأنها لا تتحمل ولو بومة، لكن من كان يتوقع أنها ستتحمل وزنه حين شنق نفسه عليها؟ إما أنها صُنعت من حديد أو أن "جينديه" صُنع من ريش.

قالت "نيخاو" إن "جينديه" طيب للغاية؛ فعلى الرغم من أنه كـان يرغـب في الانتحار شنقًا، إلا أنه لم يكن يرغب في إلحاق الأذى بـشجرة حيـة، فاختـار شـجرة ميتة، لأنه كان يعلم أنه طبقًا لتقاليدنا فإن أي شخص يموت شـنقًا يجـب أن يـتم حرقه هو والشجرة التي انتحر عليها.

ما زلت أذكر أننا عندما وصلنا لمكان الحـادث أطلقـت تلـك الـشجرة الجافـة فجأة صوتًا يشبه نعيق الغربان، بعدها مال جسدها إلى ناحية الغرب، ومال معها جسد "جينديه" المعلق، فبدت كأنها تحتضن جسده ثم وقعت محدثةً صوتًا عاليًا على أرض الغابة وتحطمت لعدة قطع. والغريب أن الشجرة قـد تكـسر جـسمها، إلا أن هذين الفرعين الشبيهين بقرون الغزلان لم يصبهما أي سـوء. ولقـد تقـدمت "إيفولينا" للأمام وركلت بقوة تلك الفـروع وهـي تـصرخ بـأعلى صـوتها: "اللعنـة، اللعنة". لقد ركلت بأقـصى قوتهـا إلا أن تلـك الفـروع لم تـصب بـأي أذى وظلـت متفتحة القرون الجميلة تجاه "إيفولينا". كانت تـبكي بعنـف، لكـن "كوينديـه" لم يبكِ، بل تقلص وجهه ألمًا، وأخيرًا تمتم موجهًا كلامه لـ"إيفولينـا": "والآن هـل هـو ابن إيفولينا؟".

تقريبًا لم يفعل أي كاهن من قبل ما فعلته "نيخاو" في ذلك اليوم، فقد أقامت مراسم زواج، ثم أقامت مراسم جنازة في اليوم نفسه، وكلاهما لنفس الـشخص، في العادة كانت جنازة المشنوق تقام في اليوم نفـسه، لـذا أتينـا بـالملابس التـي كـان يرتديها "جينديه" وهو حي والأشياء التي استخدمها من قبل وحرقناها كلها معـه هو وتلك الشجرة، وعندما أشعلت "نيخاو" النار اندفعت "جيفولينا" نحو النـيران وهي تبكي وتصرخ: "جينديه، لا تتركني، جينديه، أريد أن أذهـب معـك"، فقمـت بشدها بمساعدة "مارية"، لكن قدمها داست على النار، وكانت شديدة القوة، وفي النهاية شدها "إيوان" بيديه بالغتي القوة بعيدًا عن النيران، فجلست عـلى الأرض تبكي بكاءً يقطع القلوب.

شق ضوء النيران عتمة الليل وأضاء وجه "جيفولينا". لم يكن أحـدنا ليتوقـع أن يسير "داشي" فجأة ليقف أمـام "جيفولينـا" ويركـع عـلى ركبتيـه أمامهـا قـائلًا: "جينديه لم يرِدكِ، فلو ذهبتِ معه سيظل غـير راغـب فيـكِ، إذًا فـذهابك خلـف رجل لم يضعكِ في قلبه هو غباء، أليس كذلك؟ فلتتزوجيني، سأتزوجكِ ولن أتركـكِ تقفزين في النيران".

لو سألتني عن عدد اللحظات التي أصابت فيها الدهشة قلبي وحركت روحي لقلت لك إن اللحظة التي جثا فيها "داشي" على ركبتيه في موقع حـرق "جينديـه" وطلبه الزواج من "جيفولينا" التي أصبحت أرملة لتوها كانت هي أكثر اللحظـات التي لا يمكن نسيانها في حياتي. لقد بـدا "داشي" الـضئيل النحيـل في تلـك اللحظـة كبطل مغوار.

أصاب الوجوم كـل الموجـودين، الوحيـد الـذي لم يـصمت دهـشةً كـان ضـوء النيران التي زاد اشتعالها وارتفعت ألسنتها، وزكمت رائحة عطرة غريبـة الأنـوف، وكان الجميع يعرف أن تلك هي رائحة جسد "جينديه" وهو على وشـك الـذوبان في النار.

أمـا "ماريـة" فبعـد أن عقـدت الدهـشة لـسانها لفـترة طويلـة أفاقـت أخـيرًا واحتضنت "داشي" وهي تصرخ: "داشي داشي، هل أنت سكران؟ أفق. إن جيفولينا أكبر منك بكثير، وفمها معوج، وهي أرملة الآن، هل جننـت؟ أفـق مـن هـذيانك، داشي داشي".

لم ينبس بكلمة، وإنما أزاح "مارية" وظـل جاثيًـا أمـام العـروس الأرملـة نـاظرًا إليها بحنان مثل طائر السنونو الذي ينظر إلى عشه، أما هي فقد ألجمتها مفاجـأة عرض الزواج هذا، فتوقفت عن البكاء، ونظرت لـ"داشي" كما ينظـر عـشب جـاف إلى مطر فارقه طويلًا نظرات يملؤها التطلع. وفي تلـك اللحظـة التـي هـوى فيهـا الجميع إلى قيعان الصمت صدح صوت "نيخاو" بأغنية الآلهة يصاحبها إيقاع مـن طقطقة النيران.

"يا من ذهبت روحه إلى مكان بعيد
لا تخشَ الليل البهيم
فهنا توجد حزمة ضوء نيران
تضيء لك المسير
يا من ذهبت روحه إلى مكان بعيد
لا تشتق إلى أقربائك
فهناك توجد نجوم، ومجرات وسحب وقمر
تغني فرحًا بقدومك".

خفتت النيران تدريجيًّا حتى ذوت، وصار "جينديه" والشجرة الجافة رمادًا مختلطًا، وعاد الظلام من جديد، فعدنا إلى المعسكر. أما نيران الفرح فقد ذبلت كالزهور وانتشرت رائحة الحزن في المكان. وبكت "إيفولينا" وبكت "مارية" أيضًا، لم أكن أعرف أيًّا منهما يجب أن أواسي، فسألت بصوت خافت "داشي" الذي كان يسير بجواري: "هل ترغب حقًّا في الزواج من "جيفولينا"؟"، فأجابني: "سأنفذ ما أقوله". فسألته مرة أخرى: "هل تحب "جيفولينا" حقًّا؟"، فقال: "إن "جينديه" لم يردها، لكنها أتت إلى قبيلتنا وأصبحت واحدة منا، ولقد صارت أرملة، وفمها معوج، لو لم أتزوجها فمع من ستعيش؟ أنا لا أرغب في رؤيتها تبكي، إنها مثيرة للشفقة". لقد جعلت كلماته عينَي تغرقان بالدموع، لكنه لم يرَ الدمع في عيني، فلم يكن هناك قمر في تلك الليلة، وكانت النجوم خافتة أيضًا. لذا فالإنسان وسط مثل هذا الظلام يصير جزءًا من الليل.

كنت الأقرب لخيمة "كويند يه"، لذا كنت أسمع في تلك موجات تلو موجات من صرخات "إيفولينا". ظننت أن "كويند يه" يلومها ويحمِلها ذنب وفاة ابنهما، لذا وضعت ملابسي عازمة على الذهاب لإثنائه عن ذلك، وعندما سرت للأمام سمعت "إيفولينا" تصرخ: "كويند يه، لا أريد، هذا مؤلم، هذا مؤلم، لا أريد". أما "كويند يه" فلم يكن يتكلم، لكنني سمعت صوت أنفاسه الثقيلة اللاهثة مع صوت

ريح كمن يجلد شخصًا ما، كان كأنه يطلق طلقاته تجاه "إيفولينا"، عندها فهمت الطريقة التي يعاقبها بها، عدت إلى خيمتي، ورأيت "ويكيتيه" الذي كان غارقًا في النوم وقد استيقظ وجلس جوار النيران ليضيف لها بعض الحطب، وقال لي: "إيني، يبدو أن هناك ذئابًا تعوي في الخارج، يجب أن نزيد من النيران لنفزعها بعيدًا، وإلا ما العمل لو دخلت الذئاب وأخذت "أنداور"؟.

في صباح اليوم التالي أمر "إيوان" الجميع بحزم أمتعتهم والاستعداد للرحيل تجاه معسكر الخريف، كنت أعلم أنه يريد أن نرحل في أسرع وقت عن هذا المعسكر الذي فطر قلوبنا، ففي ليلة واحدة هزلت "إيفولينا"، واحمرت عيناها وتورمتا، وأصبحت تسير بعرج، فنظرنا لها جميعًا بنظرات تعاطف، فقط "مارية" كانت تنظر لها بنظرات كره وعداء، كنت أدرك أنها تلومها في أعماق قلبها، فلو لم تجبر "جينديه" على الزواج من فتاة لا يحبها لما مات، ولو لم يمت "جينديه" لما تعاطف "داشي" مع "جيفولينا" وتحركت في ذهنه فكرة الزواج منها. وكان حث "مارية" على تقبل "جيفولينا" صعب بدرجة حثها على السير حافية القدمين على نهر جليدي.

ولقد قالت "مارية" لـ"داشي": "لو أردت الزواج حقًّا منها فيجب عليك أن تنتظرها لثلاث سنوات لتنهي عدتها من جينديه". فرد "داشي": "سأنتظر".

فقالت "مارية": "إن "جيفولينا" الآن تعتبر من أسرة "إيفولينا"، في خلال تلك السنوات الثلاثة ستسكن معهما".

لم تقل "إيفولينا" أو "كويندیه" شيئًا، بل نظرا نظرة متفحصة إلى "جيفولينا".

فقالت "جيفولينا" لـ"داشي": "سأعود لأعيش مع أهلي، وبعد ثلاث سنوات إن أردت أن تتزوجني فتعالَ وابحث عني، ولو لم تأتِ فلن ألومك".

فرد: "سأذهب".

وأثنـاء تحركنـا تجـاه معـسكر الخريـف امتطـى "داشي" جـواده وأخـذ معـه "جيفولينا" ليرجعها إلى أهلها. ركبا سويًّا على حصان واحد، وعلى الرغم من أنه قد أخبره بالاتجاه الذي سنسير إليه إلا أن "لوني" لم يطمئن قلبه، لذا ظل أثنـاء الـسير يترك علامات الأشجار ببلطته. في البداية لم يصدر عـن "ماريـة" أي رد فعـل، لكـن قرب الغروب عندما اكتست الوديان والأنهار بلون شمس الغروب الذهبي لم تعد قادرة على كتم بكائها أكثر من ذلك، حينها كان "لوني" يـضع علامـة ببلطتـه عـلى شجرة كبيرة فاندفعت "مارية" نحوه واختطفت البلطة من يده وصاحت بـصوتٍ عالٍ: "أنا لا أرغب في أن يعثر علينا "داشي"، دعـه يـذهب، لا تـدعوني أراه ثانيـةً". وتردد صوتها في أنحاء الوادي ليصدر موجة تلو الأخرى مـن صـدى الـصوت. كـان الصدى مجلجلًا كما لو أنه لم يخرج من فم "مارية"، ففكرت في أنه قد صار رقيقًـا بعد أن لامس الأشجار والسحب والنسمات.

وفي خريف ذلك العام بدأت الرسم على الصخور.

لو لم يكن "إيوان" يطرق الحديد، ولو لم يكن الطـين الموجـود في موقـع طـرق الحديد قد أصبح بفعل صهر الحديد ناعمًا ملونًا، لما كانت جالت بخـاطري فكـرة أن أستخدمه كألوان.

ولو لم أرسم على الصخور لما تعلمت "إليانا" التي لازمتني منذ صغرها الرسـم، ولما راح شبابها مبكرًا مع نهر "بايرتسيه".

لكني أرى أنه لا جرم في الرسـم، لقـد سـاعدني في إخـراج الكثـير مـن الأفكـار والأحلام الموجودة في قلبي.

إنكم الآن جميعًـا تعرفـون الرسـوم الـصخرية الموجـودة عـلى ضـفة نهـر "أنيانجي" المتفرع مـن نهـر "بايرتـسيه"، فـوق تلـك الرسـوم الـصخرية التـي تآكلت بفعل عوامل التعرية تظهر رسـوم بلـون أحمـر كالـدم. لقـد اسـتخدم

أجدادنا التربة الحمراء القانية في ذلك المكان لرسم أشكال الغزلان و"الكانـداهان" والصيادين وكلاب الصيد وطبول الآلهة على الصخور.

وعندما كنت أرسـم عـلى الـصخور لم تكـن رسـوم "أنيـانجني" الـصخرية قـد اكتُشفت بعد، على الرغم من وجودها من قبل أن أوجد أنا.

على الضفة اليمنى لنهر أرجون بقي كثـير مـن مواقـع الرسـوم الـصخرية، ولا أحد يعرف أماكنه ولا أشكاله باستثناء عدة مواقـع تعرفهـا "إليانـا"، التـي لم تعـد موجودة موجودة، فلم يبقَ أحد يعرف الرسوم الصخرية سواي، ربمـا كـان الـزمن قد محاها تمامًا فلم يبقَ منها أثر، فـذبلت تلـك الخطـوط مثـل الزهـور في قلـب الوديان الجبلية.

كنت أقوم بفرك الطين المتبقي بعـد طـرق "إيـوان" للحديـد ليـصبح شرائـط أرصها داخل الخيمة، وأنتظر حتى تجف في الظل وأستخدمها كأقلام رسم. كانت المـرة الأولى التـي قمـت فيهـا بالرسـم عـلى الـصخور عـلى الناحيـة اليمنـى مـن الصخور على ضفة نهر "ماتشي". كانت تلـك صـخورًا خـضراء اللـون، لـذا عنـدما وقعت الخطوط الحمراء القانيـة فوقهـا بـدت أشـبه بـضوء شـق عبـاب الـسماء القاتمة. لم أكن أتخيل أن تكون الصورة الأولى التـي أرسـمها صـورة جـسد رجـل، كان رأسه رأس "لينكيه"، وذراعاه وقـدماه تـشبهان الكـاهن "نيـدو"، أمـا صـدره العريض فقد كان بلا شك يـشبه صـدر "لاجيـدا". هـؤلاء الأقـارب الثلاثـة الـذين فارقوني تجمعوا في تلك اللحظة سويًّا ليظهروا لي ملامـح رجـل كامـل بـلا عيـب. بعدها رسمت حول هذا الرجل ثمانية غزلان، واحد في الشرق والغرب والجنـوب والشمال، بعدها واحد في الجنوب الـشرقي والـشمال الـشرقي والجنـوب الغـربي والشمال الغربي، فباتوا أشبه بنجمـة ثمانيـة تحـيط بـه في المنتـصف. منـذ رحيـل "لاجيدا" لم يعد يفور في قلبي ذلك الإحساس الناعم الذي يدغـدغ المـرء، لكـن يـا للعجب، بعد أن انتهيت من الرسم عـلى الـصخور فاضـت في قلبـي ميـاه الربيـع الدافئة تلك ثانيةً، كما لو أن تلك الألوان قد امتزجت في قلبي المصاب بفقر الـدم

لتجعله يفيض مرة أخرى بالحيوية والقوة، هذا القلب بلا شك يشبه نبتة الزهـور التي ستتفتح فيها الأزهار ثانيةً.

في خريف ذلـك العـام أنجبـت "نيخـاو" طفلهـا الثـاني، كانـت طفلـة أسـمتها "جياوكوتواكان"، والذي يعني زهرة الليلي.

وفي عمق الليل كنا لا زلنا كالعادة نسمع صـوت ضرب الـسياط الـصادر عـن خيمة "كويندیه" و"إيفولينا"، وكانت "إيفولينا" دائمًـا مـا تـصرخ بجملـة واحـدة: "كوينيديه، لا أريد، إنه مؤلم"، وتدريجيًّا بـدأ ظهرهـا في التقـوس، أمـا "كوينديـه" فعلى العكس استقام ظهره، وذات مرة شرب حتى سكر فقال لـ"خاشيه": "يجـب على "إيفولينا" أن تنجب لي "جينديه" آخر، عليها أن تعيد لي ابني الذي أضاعته".

وعنـدما بـدأ الـصيد الـشتوي تـم اسـتدعاء الرجـال مـرة أخـرى إلى معـسكر "دونجدا"، فقالت "إيفولينا" وهي تجز على أسنانها: "أرجـو أن يبقـيهم اليابـانيون ليكونوا حطبًا للجيش".

إلا أن "كوينديه" عاد هو ومن معه، فقط "إيوان" لم يعد.

ولقد أخبرنا "داشي" أنه ذات يوم حين كانوا ينتظمـون في صـفوف ويـسيرون بخطوات عسكرية ارتكب "كوينديه" خطأ، فقد طُلب منه الالتفاف للشرق لكنه دار نحـو الغـرب، كـما أنـه كـان دائمًـا مـا يحيـد عـن الـصف. وقـد استـشاط "لينجموشيونان" بسبب هذا غضبًا فأمر "كوينديه" أن يقـف في منتـصف سـاحة التدريب وأطلق عليه كلب الـصيد الألمـاني ليعـضه، وفي لحظـات أوقعـه الكلـب على الأرض وخمـش بمخالبـه خطوطًـا طويلـة عـلى وجهـه وسـاعده. في البدايـة كان "إيوان" مثلـه مثـل الجميـع ينظـر إلى هـذا المـشهد وقـد فغـر فـاه وحـدق بعينيه، بعدها أثارت ضـحكات "لينجموشـيونان" الـذي كـان يـشاهد في الجـوار غضبه، فجرى بسرعة البرق وأمسك بذيل الكلـب بيـده اليمنـى مـستخدمًا إيـاه

كحبل، ثم لف ودار به دورة تلو الأخرى والكلب يعوي بصرخات متألمة، وسريعًا ما انفصل ذيله عن جسده، فاندفع الكلب الذي فقد ذيله كالمجنون ناحية "إيوان"، فمد "إيوان" يده بسرعة خاطفة وأمسك به ووضعه أسفل قدمه ثم سحقه بجنون، وبعد ثلاث أوخمس مرات همدت حركة الكلب؛ فقد كانت قدم "إيوان" مثل يده بالغة القوة. أما "لينجموشيونان" فقد وقف ذاهلًا؛ لقد شاهد بأم عينيه "إيوان" وهو يحول كلب صيد ألماني في لحظات إلى فأر ميت، فتصبب جبينه بقطرات العرق، ولم يستفق إلا عندما أمسك "إيوان" بذيل الكلب وسار نحوه وألقاه بين يديه، حينها زعق مناديًا على اثنين من الجنود أمسكا بـ"إيوان" وسجناه في السجن الكائن بالناحية الغربية للمعسكر. في تلك الليل تناهى إلى أسماع الجميع صوت ضربات السياط تخرج من ذلك السجن، لكن لم يسمع أحد صرخات إنسان، يبدو أنه تحامل على نفسه لكي لا يصدر أي صوت. وفي تلك الليلة هرب "إيوان"، كان الباب الحديدي للسجن موصدًا، وهناك قضبان حديدية على النافذة، إلا أنه استخدم يديه الحديديتين لثني قضبان الحديد وهرب من المعسكر كالطائر الذي يهرب من القفص، ولقد ذهب جنديان يابانيان ومعهما كلب صيد في أثره للبحث عنه في الجبال، إلا أنهم لم يعثروا له على أي أثر.

***

عندما كان "داشي" يقص ما حدث لـ"إيوان" كان "كويندية" يجلس مطرقًا برأسه بجوار النار وقد بدا عليه الشعور بتأنيب الضمير، أما "إيفولينا" فقد طافت ببصرها لتلقي نظرة أولًا على زوجها، ثم عوجت فمها وقالت: "إنك حتى غير قادر على مواجهة كلب صيد ياباني، فقط تستطيع مواجهة النساء، أي رجل أنت؟".

ظل "كويندية" مطرقًا رأسه ولم يجادل معها، فقط سمعنا صوت فحيح قادمًا من وسط النيران، يبدو أن دموعه قد سالت لتسقط داخل حفرة النيران.

ومنذ ذلك الوقت لم نعد نسمع في ليل المعسكر صوت "إيفولينا" المتألم، لقد تحول هذا الألم ليصب في جسد "كويندية"، ولم يعد ظهر "إيفولينا" محنيًّا، وعادت لتتحدث مع الجميع بصوتٍ عالٍ، أما زوجها فقد انحنى ظهره كفرع شجرة ثقل عليه الثلج.

بعد رحيل "إيوان" انتخبنا "لوني" ليصير زعيمًا للقبيلة. وفي هذا الشتاء اصطدنا ثلاثة دببة، وعندما كانت "نيخاو" تقوم بمراسم الجنازة للدببة كانت دائمًا ما تهوى غناء أغنية جنائزية، تلك الأغنية شاعت من وقتها في قبيلتنا.

"أيتها الدبة الجدة
لقد سقطت
فلتنامي بعمق
فمن يأكل لحمك
هي تلك الغربان السوداء
لقد أخذت عينك
لأضعها بإخلاص بين الأشجار
كما لو كنت أضع مصباحًا سحريًّا".

بعد أن عاد "داشي" إلى المعسكر امتطى حصانه وذهب لرؤية "جيفولينا". أما "مارية" فكانت دائمًا ما تتنهد وتتحسر، وعلى الرغم من أن "إيفولينا" كانت تعرف حق المعرفة سبب نكدها، إلا أنها تعمدت إثارتها، فقالت لها: "لا تقلقي من أمر زواج "داشي" بها، فسأتولى أنا تجهيز ملابس زفافه"، في تلك اللحظة عجزت "مارية" المعروفة دائمًا بهدوئها ورقتها عن كظم غضبها فقالت لـ"إيفولينا "والشرر يتطاير من عينيها: "لو أراد الزواج حقًّا من تلك الفتاة ذات الفم المعوج فلن أحتاجكِ لكي تصنعي ملابس زفافه؛ فملابس الزفاف التي تصنعينها تجلب سوء الطالع لمن يرتديها". فضحكت "إيفولينا" ببرود وصححت لـ"مارية" كلماتها قائلة: "أنتِ مخطئة، إن من سيتزوجها

"داشي" ليست فتاة معوجة الفم، بل هي أرملة معوجة الفم". عندها وصل الغضب بـ"مارية" إلى مداه واندفعت نحو "إيفولينا" وأمسكت أنفها قائلة إنها من سلالة ذئب، أما "إيفولينا" فقد ظلت تضحك ببرود قائلة: "حسنًا حسنًا، يجب أن أشكرك على إمساكك بأنفي، ربما استطعتِ عدله". عندها وضعت "مارية" يدها واستدارت مغادرة وهي تبكي. ولقد جعلهما هذا الموقف تبتعدان عن بعضهما بعد أن كانتا أقرب الناس.

جاء الربيع ثانيةً، وكان هذا العام العاشر من حكم "تانجديه". حيث استقبلنا عشرين غزالًا صغيرًا في مكان بجوار أخدود ماء جبلي صافٍ يمكن رؤية قاعه. في العادة تستطيع الغزالة الواحدة أن تنجب غزالًا واحدًا فقط، لكن في هذا العام أنجبت أربع غزالات غزالين، وكانت كلها بصحة جيدة، فكان أمرًا يدعو للفرح، كان هذا الأخدود المائي الذي ليس له اسم يصب في وادٍ أخضر، فأطلقنا عليه اسم "رولينسكي" لتخليد ذلك الـ"أندا" الروسي الذي كان طيبًا للغاية معنا. كانت مياه ذلك الأخدود صافية مسكرة، فكانت الغزلان تحب الشرب منها، وكنا نحن أيضًا نحب الشرب منها، ومن وقتها أصبحنا في موسم ولادة الغزلان من كل عام إما نذهب إلى أخدود "رولينسكي"، وإن لم نستطع فكنا نتحدث عنه كما نتحدث عن قريب غائب في مكان بعيد.

أصبح "ويكيتيه" طفلًا كبيرًا، ولقد تعلم رمي السهام مع "لوني" حتى أصبح بإمكانه إصابة الطيور التي تقف على أفرع الأشجار بكل بساطة، ولقد أكد "لوني" أن قبيلتنا قد ظهر بها صياد ماهر جديد. وصار "أنداور" طويلًا أيضًا وأصبح باستطاعته اللعب مع "جواجيلي"، وعلى الرغم من أنه كان أسمن وأطول منه، إلا أنه كان دائم التعرض للمضايقة منه؛ فقد كان "جواجيلي" شقيًّا للغاية، وكان يلعب مع "أنداور"، ثم فجأة يسقطه بضربة من قبضته متطلعًا إلى أن يسمع بكاءه، أما "أنداور" فقد كان لا يبكي بعد سقوطه وإنما كان ينظر للسماء ويخبر "جواجيلي" أنه يرى عدة سحابات بيضاء في السماء،

فكان يثير بذلك غضبه فيركله عده ركلات، إلا أن "أنداور" يظل لا يبكي وإنما يصدر ضحكات، عندها يغضب "جواجيلي" لحد البكاء وينهض "أنداور" من على الأرض ويسأله لماذا تبكي؟ فيقول "جواجيلي": "لقد أسقطتك أرضًا فلماذا لا تبكي؟ ولقد دست عليك بقدمي فلماذا لا تبكي؟"، فيقول "أنداور": "لقد أسقطتني فتمكنت من رؤية السحب، وهذا أمر جيد، فما الذي يبكيني؟ وجسدي كله يغطيه اللحم، لذا فقدمك تدغدغني حين تدوس عليَّ، أليس هذا سببًا لضحكي؟". كان الجميع يقولون على "أنداور" من صغره إنه طفل أحمق، إلا أنني أحبه للغاية، أما "أنتساور" فهو يشبه أبيه كثيرًا.

كان "أنداور" و"جواجيلي" يحبان تلك الغزلان الصغيرة للغاية، وعند حلول موسم نشر قرون الغزلان تصبح تلك الغزلان الصغيرة قادرة على تناول العشب في كل مكان، وكنا نخشى أن تتعرض لهجوم الذئاب إذا ما خرجت مع قطيع الغزلان، فكنا نقوم بربط الغزلان التي تسير ببطء في المعسكر، فكان "أنداور" و"جواجيلي يحبان فك حبالها وأخذها لأخدود "رولينسكي"، وقبل الذهاب يضعان بعض الملح في جيوبهما، فقد كانا يحبان وضعه في راحة اليد لتلعقه الغزلان. وذات يوم ذهب للأخدود لأغسل ملابسي فوجدت "أنداور" يبكي بحرقة، ولقد أخبرني "جواجيلي" أن "أنداور" قال إن الغزلان ترغب في لعق الملح وترغب أيضًا في شرب الماء، فمن الأفضل أن نرش الملح في الماء، ألن يكون من الأفضل أن ندعها تشرب ماءً بالملح؟ فأخبره "جواجيلي" أن الملح ما إن يدخل إلى الماء حتى يذهب مع تياره، لكن "أنداور" لم يصدقه، فرش كل الملح الموجود في جيبه في الماء، ورأى زهور الملح الأبيض تلك تذوب في الماء فألصق وجهه بسطح الماء ليلعقه، لكنه لم يتذوق طعم الملح، فبدأ في البكاء بصوتٍ عالٍ لاعنًا المياه بأنها مخادعة، وأنه لن يأكل السمك من الآن فصاعدًا، فالأشياء التي تخرج من الماء كلها شياطين، ولو دخلت للمعدة فستقرضها حتى تصير مثل شبكة الصيد مليئة بالثقوب.

في صيف ذلك العام انتشر مرض الصفرة في الجبال، فألغى اليابانيون التدريبات في معسكر "دونجدا"، لقد جلب لهم المرض حريتهم.

مد المرض أقدامه إلى ثلاث أو أربع قبائل، فكانت بشرة وعيون من يصاب به تصير صفراء كشجر الخريف، ويعجزون عن تناول الطعام أو الشراب وتنتفخ بطونهم كالطبلة ولا يستطيعون السير. ولقد سمع "لوني" أن الغزلان في القبائل المصابة لم تجد من يرعاها فكانت الخسائر كبيرة، والحقن التي استخدمها الأطباء اليابانيون لمواجهة المرض لم يكن لها أي تأثير ومات الكثيرون. لم يصب أحد منا بالمرض، لذا منعنا "لوني" من نزول الجبل، ومنعنا من الذهاب للقبائل المجاورة فقد خشي أن نجلب معنا المرض.

وفي الوقت الذي تراقص فيه المرض حولنا كأسراب الجراد، كانت السعادة البالغة تبدو على "مارية"، أما "داشي" فقد كان حزينًا منكسر الفؤاد. كنت أعرف أن "مارية" كانت تتمنى أن يجتاح المرض القبيلة التي تسكنها "جيفولينا" لتأخذ السماء تلك الفتاة معوجة الفم، عندها تستطيع أن ترتب عروسًا لابنها. أما "داشي" فقد كان قلقًا على "جيفولينا"، وطلب أكثر من مرة من "لوني" أن يسمح له بامتطاء حصانه والذهاب لرؤيتها إلا أن "لوني" لم يسمح له، وأخبره أنه باعتباره زعيم القبيلة لا يمكن أن يسمح له بجلب المرض، فقال "داشي" إذًا سأعود بعد أن ينتهي المرض، فرد "لوني": "ماذا لو أبقاك المرض هناك للأبد؟ من سيرعى "مارية" و"خاشيه"؟". عندها عجز "داشي" عن الرد، وفي النهاية اختار البقاء لكنه ظل دائمًا معقود الحاجبين.

كان المرض الأصفر أشبه بزهرة سامة، ظل متفتحًا لما يقارب الشهور الثلاثة حتى ذبل في الخريف، وبعد أن حصد أرواح أكثر من ثلاثين شخصًا، لم أكن أتخيل أن قبيلة "لاجيدا" الضخمة اكتسحها المرض حتى لم يبقَ منها إلا شخص واحد وهو "لاجيمي". الذي فقد كل أقاربه، لذا استقبلته في قبيلتنا، وعلى الرغم من أن "لاجيدا" لم يعد موجودًا إلا أني كنت أشعر أن "لاجيمي" أحد أقاربي.

كان وقتها في الثالثة عـشرة، قـصيرًا نحيفًـا، وهـو الـذي كـان في الماضي طفـلًا ممتلئًا بالحيوية، لكنه عندما رأى أقاربه يرحلون واحدًا تلو الآخـر كنجـوم الفجـر أصبح صموتًا. وعندما ذهبت لأخذه كان متربعًـا مثـل الـصخرة عـلى ضـفة النهـر ممسكًا بيده الهارمونيكا التي تركها والده "موكوليان"، وكـان ينظـر لي بـلا حـراك. فقلت له: "لاجيمي، تعالَ معي". فقال لي بجفاء: "هل مرض الصفرة هو الـسماء؟ كيف له أن يأخذ الأشخاص كما يحلو له؟". وبعد أن أنهى كلامه وضـع الموكوليـان على شفتيه ونفخ برقة وسالت دموعه في خطين متصلين.

نجت "جيفولينا"، فكانت فرحة "داشي" لا تـضاهى، أمـا "ماريـة" فقـد بـدأت مرة أخرى في الهمهمة والتذمر.

أحب "داشي" "لاجيمي" فعلمه ركوب الخيل، وصارا دائمًا مـا يركبـان الحـصان سويًّا فبدوا أشبه بالإخوة، فأصبح بإمكاني أن أسمع ضحكات "لاجيمي" مرة ثانية، وعنـدما كـان يعـزف عـلى الموكوليـان كـان الـصوت يخلـو مـن الجفـاء، فكانـت الموكوليان كأنها مُلئت برياح الربيع التي تهز الصفائح الموجـودة بـداخلها لتـصدر موسـيقى عذبـة، لم يكـن "ويكيتيـه" والأطفـال فقـط يحبونهـا، بـل كانـت حتـى "إيفولينـا" و"ماريـة" والكبـار يحبونهـا، وأصـبحت القبيلـة بعـد أن حظيـت بآلـة موسيقية كأن بها طائرًا صغيرًا فتح لقلوبنا أفاقًا جديدة.

إن الفترة ما بين شهري سبتمبر وأكتوبر من كل عام هي فترة تزاوج الغزلان، في هذا الوقت كانت الغزلان الذكور دائمًا ما تتصارع مع بعضها للفـوز بالإنـاث، ومن أجل الوقاية من أن تصيب بعضها بالأذي كنا نقص قرون الذكور، وبعـضها كنا نضع له غطـاء رأس. في المـاضي كـان "إيـوان" و"خاشـيه" هـما مـن يتوليـان القيام بتلك الأمور، أما الآن فقد أصـبح كـلٌّ مـن "داشي" و"لاجيمـي" مـسؤولين عنها. في العادة كنا نقوم بإخصاء ذكور الغزلان ماعدا تلـك المخصـصة للتلقـيح، فكان أكثر ما أخـشاه هـو سـماع صرخاتهـا المتألمـة أثنـاء الإخـصاء، فقـد كانـت

الطريقة التي تتم بها غاية في القسوة، فقد كان يـتم إسـقاط الغـزال عـلى جانبـه أرضًا، ثم تغطية خصيتيه بقماش ثم تحطيمهما باستخدام عـصى خـشبية، عنـدها كانت صرخات الغزلان التي تتعرض للإخصاء تـرج أنحـاء الوديـان الجبليـة، وكـان بعضها يموت، وكنت أفكر أنها ربما لم تمت بسبب جراحها فحـسب، وإنمـا بـسبب فقـدانها لقـدراتها. وفي العـادة يـتردد الرجـال البـالغون في القيـام بتلـك العمليـة للغزلان، إلا أن "لاجيمي" البالغ من العمر ثلاثين عامًا كان يقـوم بهـا ببراعـة وبـلا أدنى تردد، ولقد قال إنه تعلم هـذا الفـن مـن والـده منـذ الـصغر، فكانـت يـده سريعة في الضرب بالعصى الخشبية، لذا لم تكـن ذكـور الغـزلان تعـاني الكثـير مـن الألم، كما أنه كان بعد عمليـة الإخـصاء يعـزف لهـا عـلى الموكوليـان ليـسري عنهـا بالموسيقى، فكانت الغزلان تتعافى سريعًا.

أثنـاء النهـار قـام "داشي" و"لاجيمـي" بحـبس غـزلان التلقـيح في حظـيرة، وأطلقوها ليلًا لتبحث عن الطعام وتلقح الغزلان الإناث في الوقت نفسه. في هـذا العام لم يمت لنا أي غزال بسبب الإخصاء، بل بدا عليها جميعًا الصحة.

وفي شتاء هذا العام أتى إلى معسكرنا رجـل يـدعى "خيبـاولين" ممتطيًـا غـزالًا، كان قادمًا ليدعو "نيخاو"؛ فقد مرض ابنه البالغ مـن العمـر عـشر سـنوات مرضًـا شديدًا، وزادت الحمى عليـه فعجـز عـن تنـاول الطعـام، وقـد جـاء ليطلـب مـن "نيخاو" أن تنقذه. في العادة كـان الكهنـة يرحبـون بالـذهاب لمـساعدة النـاس في التخلص من المرض، ولقد وافقت "نيخاو" عـلى الـذهاب شـفاهةً، إلا أن حاجبيهـا كانا معقودين، فظن "لوني" أنها قلقـة عـلى الأطفـال فواسـاها قـائلًا إنـه سـيراعي "جواجيلي" و"جياوكوتواكان" جيدًا. وقبل أن ترحـل حاملـةً معهـا ملابـس الآلهـة والأدوات السحرية احتضنت "جواجيلي" ولم تعر "جياوكوتواكان" التي كانت تلهو بجوار النار أي اهتمام، ثم قامت بتقبيله وعينيهـا تترقرقـان بالـدموع، ثـم سـارت مبتعدة عن المعسكر إلا أنهـا ظلـت تلتفـت للخلـف وتنظـر لـه وقـد عـز عليهـا الفراق.

منذ أن ولد "جواجيلي" ظلت "نيخاو" بجانبه دائمًا، لذا في أول يـومين لم يكـن يشتاق لها كثيراً، فقد كان يتعلم هو و"أنداور" صراع الدببة على الثلج مع "لـوني"، فكان في غاية السعادة، ولكن في اليومين التاليين بدأ يطلب من "لـوني" أن يحـضر له "إيني"، قائلًا إن "إيني" تخصه هو، فلماذا أخذها شخص آخـر؟ فـأخبره "لـوني" أن "إيني" ذهبت لتشفي طفلًا مريضًا وستعود سريعًـا، فبـدأ "جـواجيلي" يتـسلق الأشجار مثل القطط الجبلية قائلًا إنه سيصعد إلى الأعلى لـيرى أي أثـر لــ"إينـي". وفي اليوم الذي عادت فيه "نيخـاو" إلى القبيلـة تـسلق "جـواجيلي" أطـول شـجرة صنوبر قرب المعسكر، وما إن جلس واستقر على فـرع شـجرة حتـى ظهـر غـراب وطار نحوه، فمد "جواجيلي" يده ليمسك ذلك الغراب، فطار بعيدًا تجاه الـسماء، أما هو فقد مال جسده وسقط. كـان هـذا في وقـت مـا قبـل الظهـيرة، كنـت أنـا و"مارية" نقف في المعـسكر لاسـتقبال الغـزلان العائـدة فرأينـا بالتفـصيل مـشهد سقوطه، كان يشبه طائرًا ضخمًا أصابه سهم فسقط فاردًا ذراعيه مـن أعـلى وهـو يصرخ، وكان آخر صرخاته التي تركها في دنيانا هي: "إيني".

عندما حملـت أنـا و"ماريـة" "جـواجيلي" الـذي اختلطـت ملامحـه بالـدم إلى المعسكر عادت "نيخاو"، وما إن دخلت حتى أظهرت شـفافية وقالـت لنـا بهـدوء بعد أن نظرت إلى "جواجيلي": "أنا أعرف، لقد سقط من على شجرة". ثم قالت لنا باكية إنها عندما غادرت المعسكر كانت تعرف أنها لو أنقذت ذلك الطفل المريض فـستفقد أحـد أبنائهـا، فـسألتها لمـاذا؟ فقالـت إن الـسماء تريـد لهـذا الطفـل أن يذهب، لكني أبقيته، لذا وجب أن ينوب ابني مكانه.

فقالت "مارية" وهي تبكي: "كان بإمكانك ألا تذهبي لإنقاذه".

فقالت "نيخاو" بجفاء: "أنا كاهنة، كيف لي أن أرى الموت ولا أنقذ البشر؟".

قامت "نيخاو" بحياكة كـيس قـماشي أبـيض بيـدها ورمـت "جـواجيلي" عـلى المنحدر الجبلي المواجه للشمس. وهناك غنت له أغنية الأطفال الأخيرة.

"أيا طفلي، يا طفلي
إياك أن تذهب إلى طبقة الأرض
فهناك لا توجد شمس، هناك برد شديد
أيا طفلي، يا طفلي
إن ذهبت فاذهب للسماء
فهناك الضوء
وهناك درب التبانة المضيء
سيجعلك تطعم الغزال الإله".

يعد نشر الجليد للحصول على الماء من الأعمال التي لا غنى عنها في فصل الشتاء، حيث نقوم بنشره باستخدام منشار، ثم نضعه داخل الدلاء المصنوعة من لحاء البتولا أو داخل أكياس جلدية، ولو كان المعسكر قريبًا من مصادر الماء كنا نحملها مباشرةً إلى المعسكر، أما لو كان بعيدًا فكنا نستخدم الغزلان لنقلها. وفي هذا الشتاء صار "لوني" و"نيخاو" كالمجانين يذهبان كل يوم لمصدر المياه لنشر الجليد، ومهما بعد الطريق لا يستخدمان الغزلان لنقل الجليد، وإنما يحملانه اعتمادًا على قوتهما، كانا يفضلان الذهاب مساءً، مرة ومرتين وثلاثًا حتى يصل القمر إلى الغرب، عندها فقط يعودان للخيمة وقد تملكهما التعب ويروحان في سبات عميق بمجرد وضع رأسيهما كما لو كانا يفعلان ذلك رغبةً في تضييع الليل الطويل. وهكذا تكومت أمام المعسكر كومة عالية من قطع الجليد، وكانت تصدر عنها في فترة الظهيرة أضواء ملونة بعد انعكاس أشعة الشمس عليها كما لو كانت أعدادًا لا تحصى من الأحجار الكريمة، وكنت دائمًا ما أرى "نيخاو" شاردة الذهن والدمع يسيل من عينيها أمام أكوام الجليد تلك، وما إن تراها "إيفولينا" منكسرة الفؤاد حتى تبدأ في الغناء، ربما كانت تضمر في نفسها أمر عدم زواج "نيخاو" من جينديه، لذا كانت رؤيتها لها تعيسة تخفف من إحساسها بالذنب تجاه "جينديه".

في العام الحادي عشر من حكم "تانجديه"، أي في صيف عام 1944، جاء الـ"دليللوديه" والمترجم "وانج" جالبين معهما "لينجموشيونان" مرة أخرى، في تلك المرة كان "لينجموشيونان" يعرف الكثير من اللغة الصينية، ونادى على كل من في المعسكر للاجتماع، وسأل أولًا هل عاد "إيوان" من قبل؟ فقلنا لا، فقال إذا عاد فيجب احتجازه وإرساله إلى معسكر "دونجدا"، قائلًا إنه شخص سيئ وهو عدو لنا، فإذا أخفينا خبر عودته فإن القائد "جيتيان" سيصدر أوامره باعتقال كل أبناء قبيلتنا، ثم استطرد بعدها أن المرض الأصفر قد انتهى لذا سيتم التدريب بشكل طبيعي في ذلك العام، وأضاف أننا لو لم نتدرب بشكل جيد فكيف سنواجه السوفييت فيما بعد؟ ففكرت أن اليابانيين قد أحسوا في ذلك الوقت أن نهايتهم قد اقتربت. ثم طلب من "لوني" أن يحمل معه كل ما اصطدناه خلال الشتاء قائلًا إنه سيحمل على عاتقه مهمة استبداله بما نحتاج بعد الوصول إلى "وتشيلوافو"، ثم سيحملها لنا "لوديه". كان من الواضح أنه يريد أن يلعب دور التاجر ليحقق بعض المنفعة الشخصية.

في ذلك العام كان "لاجيمي" قد أتم لتوه أربعة عشر عامًا، وكان يكنُّ الحذر الشديد تجاه اليابانيين، لذا عندما طلب "لينجموشيونان" من الجميع الاجتماع اختبأ بعيدًا، لكنه أولًا وأخيرًا طفل ساذج، لذا قام بالنفخ في الموكوليان أثناء اختبائه، لذا كشف الصوت الذي بدا أشبه بصفير رياح الجبل عن مكانه، فتتبع "لينجموشيونان" الصوت وسأله عن عمره فأجاب بعفوية أربع عشرة سنة. فأخذ الموكوليان من يده وحاول النفخ فيها، لكن لم يصدر عنها صوت، فهز رأسه وأعادها له وطلب منه أن يعزف عليها لحنًا آخر، فقام "لاجيمي" بعزف لحن آخر فبدت السعادة على وجه "لينجموشيونان" وقال: "إنك الآن في الرابعة عشرة، ويجب عليك خدمة دولة منشوريا، ستذهب إلى معسكر دونجدا". لم يكن "لاجيمي" ليفترق عن "داشي"، فكان بالطبع يوافق على الذهاب إلى المكان الذي سيذهب إليه، لذا هز رأسه موافقًا، فأشار "لينجموشيونان" إلى الموكوليان التي بيده وقال وأحضر هذه معك لكي تعزف للقائد. وعندما رأى "داشي" أن

"لينجموشيونان" قد أحضر "لاجيمي" معهم لكي يدخل الفرح على قلب القائد "جيتيان"، وفي الوقت نفسه كان يعز عليه فراق حصانه الأثير، لذا تفتق ذهنه عن فكرة ذكية فأشار إلى الحصان الذي كان واقفًا في وسط المعسكر وقال موجهًا كلامه لـ"لينجموشيونان": "هذا الحصان تركه القائد "جيتيان" ولم يره لعدة سنوات، بالتأكيد اشتاق إليه، لم لا نأخذه معنا لكي يلقي عليه نظرة؟". فوافق وقال إنه يمكن للحصان أن يحمل صيد الشتاء.

كان "لوني" يعرف أنه لو أخذ كل الصيد معه فإن "لينجموشيونان" سيخصم منه الكثير، كان هذا أشبه بإرسال عدة أرانب سمينة إلى فم الذئب مباشرةً، لذا استغل فرصة انتشاء "لينجموشيونان" بشرب الخمر ووضع خلسة في يدي ثلاث ربطات من فراء السناجب ومرارتَي دب لأخبئها في كهف بشجرة قرب المعسكر. وعند الانطلاق بدا على "لينجموشيونان" الشك تجاه أعداد غنائم الصيد، فسأل "لوني": "لماذا هي قليلة هكذا؟، فأخبره "لوني" أن الحيوانات كانت قليلة للغاية في الشتاء الماضي، وكان لدينا نقص في الطلقات، لذا لم نصطد الكثير، فقال "لينجموشيونان": "إذا خبأتم شيئًا فسأصادر كل بنادق الصيد خاصتكم"، فرد عليه "لوني" بهدوء: "فلتفتش، وإذا وجدت شيئًا فأنا موافق على إعطائك البنادق"، كان مدركًا أن البحث عن الأشياء التي نخبئها في مثل صعوبة الصعود إلى السماء.

مرة أخرى بقيت في المعسكر النساء والأطفال، لذا انشغلنا مرة ثانية، فكان علينا الاعتناء بالغزلان، والأطفال أيضًا. وبعد عدة أيام أرسل "لينجموشيونان" مع "لوديه" الأشياء التي استبدلها من أجلنا، كيسًا من الدقيق الأسود، وعلبة كبريت، وعلبتين من الشاي وقليلًا من الملح، كان أكثر ما تتطلع له "إيفولينا" هو الخمر، ولما رأت الأشياء التي استبدلها ليست قليلة إلى حد الرثاء فحسب، وإنما ليست بها زجاجة خمر واحدة حتى صبت جام غضبها على رأس "لوديه" متهمة إياه بأنه شرب الخمر في الطريق، فغضب "لوديه" وقال لها إن

"لينجموشيونان" قال إن من بقي في الجبل كلهم نساء وأطفال، لا حاجة لهم بشرب الخمر، لذلك لا خمر في الأطعمة التي أرسلها إلى كل القبائل، بالإضافة إلى أنه لو فكر في شرب الخمر فلا يحتاج لسرقة الأشياء من أفواه الآخرين، بل إن بإمكانه شراءها في أي مكان وزمان أثناء تواجده في "وتشيلوافو"، لكنها قاطعته بصوت من فمها قائلة إنه يعمل كعبد لدى اليابانيين، فهو خريطتهم الحية، وكل عام يأتي بهم للجبل ويحصل على مكافأته شهريًّا من أجل ذلك، بالطبع لن يقلق بشأن الطعام والشراب، فتنهد "لوديه" وأنزل الأشياء وغادر مع الحصان دون أن يشرب حتى شربة ماء.

كنت قد خزنت دلوًا من الخمر الذي عتقته بنفسي، فأهديته لـ"إيفولينا"، وفي مساء هذا اليوم غادرت المعسكر مترنحة بعد أن شربت وعاءين منه، كانت إذا ما أسرفت في شرب الخمر تحب الذهاب للنهر لشرب الماء، وبعد أن وصلت للنهر بفترة قصيرة سمعنا صوتًا يموج بالحزن، في البداية لم نميز أن هذا صوت بكاء بل ظننا أن مياه النهر تصدر خريرًا عاليًا، فقد كان هذا موسم الأمطار فاعتقدنا أن مياه النهر قد ارتفعت، بعدها ميزت "نيخاو" أن هذا صوت بكاء "إيفولينا"، كانت تلك هي المرة الأولى التي أسمعها فيها تبكي بحزن، لكني لم أذهب لمواساتها بل جلست خارج الخيمة أنتظر عودتها بهدوء.

استمر النحيب القادم من جوار النهار حتى منتصف الليل، عندها فقط عادت "إيفولينا" مترنحة إلى المعسكر، كان هذا يومًا اكتمل فيه القمر لذا كان الليل مضيئًا كالنهار، فكان الضوء الأبيض الفضي يغلفها لذا رأينا بوضوح شعرها المنسدل وفي يدها اليسرى أفعى تتراقص، وسارت بها حتى بلغت الساحة الخالية أمام الخيمة ثم بدأت ترقص مع الأفعى، فكانت أقدامها تتراقص جيئةً وذهابًا وتلك الأفعى في يدها تتراقص جيئةً وذهابًا أيضًا، وفجأة انتصبت تلك الأفعى في يد "إيفولينا" فيما يشبه المعجزة ورفعت رأسها وقربت رأسها من أذنها كما لو كانت تهمس لها بسر، وما هي إلا لحظات حتى هوت راكعة على الأرض وهي

تقول للأفعى: "دامالا، أنا متأسفة، فلتذهبي في سلام"، فقفزت تلك الأفعى من بين أحضانها وفردت جسدها للحظات ثم تلوت مبتعدة في اتجاه العشب.

لم أفهم لماذا نادت "إيفولينا" الأفعى باسم أمي، ولم أعرف كيف أمسكت بها حية، وبعد أن غادرت الأفعى المعسكر عادت إلى الخيمة لتنام، وفي اليوم التالي سألتها لماذا نادت الأفعى باسم أمي، فقالت لي: "هل أحضرت حقًّا أفعى معي؟ ألم يخدعك بصرك؟ لقد شربت كثيرًا ولا أتذكر شيئًا". فاعتقدت أنها تقول الصدق لذا لم أسأل ثانيةً، ولكن بعد سنوات عديدة وخلال جنازة "إيوان" عندما كنا ننظر إلى الفتاتين اللتين ظهرتا فجأة وقالتا إنهما ابنتاه الروحيتان ونخمن قصتهما، قالت "إيفولينا" التي كان بصرها قد صار ضعيفًا من الشيخوخة إن هاتين الفتاتين البيضاوين بالتأكيد هما الثعلبان الأبيضان اللذان أطلق إيوان سراحهما في الجبل في الماضي، كان كل أبناء قبيلتنا قد سمعوا من قبل قصة قيام "إيوان" بإطلاق ثعلبين أبيضين في الجبل، فيقال إنه في شبابه خرج ذات مرة بمفرده للصيد، وسار لمدة يوم كامل لكنه لم يكتشف أي حيوان، وقرب المغيب اكتشف ثعلبين أبيضين كالثلج خرجا فجأة من كهف جبلي، فتحمس كثيرًا وشهر بندقيته، وعندما هم بإطلاق النار نحوهما فتح الثعلب فمه وتكلم معه بعد أن قام بتحيته بيده قائلًا: "إيوان، نحن نعرف أنك بارع في استخدام البندقية"، وعندما سمعهما إيوان يتحدثان بحديث البشر عرف أنهما ثعلبان خالدان، فركع أمامها وتركهما يذهبان. وفي جنازة "إيوان" أخبرتني "إيفولينا" بصراحة أنها في ذلك العام الذي جلست فيه تبكي على ضفة النهر، ظلت تبكي حتى فكرت في إلقاء نفسها في المياه، وحين همت بذلك زحفت أفعى فجأة من خلفها بخفة والتفت حول عنقها ومسحت دموعها، فعرفت أن تلك الأفعى وراءها قصة لذا عادت بها إلى المعسكر، لكنها لم تكن تتوقع أنها حين تراقصت مع الأفعى، اقتربت من أذنها وتحدثت بحديث البشر وقالت: "إيفولينا، مهما رقصتِ، هل يمكنك أن تتفوقي عليَّ في الرقص؟". وكان هذا صوت "دامالا"، لذا جثوت على ركبتي وأطلقت سراحها". كانت "إيفولينا" حين أخبرتني بهذا الكلام قد صارت

عجوزًا مقعدة، فلم يكن لديها سبب لخداعي، بالإضافة إلى أنني على الرغم من أني لم أسمع حديث الأفعى إلا أنني متأكدة أني سمعت "إيفولينا" تنادي اسم "دامالا" كما أنها ركعت بالفعل، ومن وقتها لم أعد أسمح لأي من أبنائي وأحفادي أن يصطادوا أي أفعى.

كانت تلك المرة التي تلقى فيها رجال القبيلة التدريبات في صيف عام 1944 هي المرة الأخيرة، ففي العام التالي خسرت اليابان الحرب وأعلنت استسلامها، وكانت التدريبات في تلك المرة قصيرة للغاية واستمرت لحوالي عشرين يومًا فحسب بعدها عاد الرجال، لكن "لاجيمي" وذلك الحصان لم يعودا وبدا الحزن الشديد والتأثر على "داشي"، فقد قال إن القائد "جيتيان" عشق سماع عزف "لاجيمي" على الموكوليان لذا أبقاه جواره ليصبح سائسًا لحصانه، ولذلك بقي ذلك الحصان أيضًا هناك. كنت قلقة للغاية عليه فسألت "لوني" لماذا لم يصر على عودته؟ فقال إنه أصر لكن "لينجموشيونان" لم يوافق فقد قال إن "جيتيان" يحب "لاجيمي" ويحب سماع عزفه ولا يمكنه فراقه. ولقد أضاف "داشي" أن "لاجيمي" لم يكن يرغب في البقاء، لكن "لينجموشيونان" هدده أنه لو لم يبقَ ليعمل سائسًا للأحصنة فإنه سيقتل "داشي" وذلك الحصان الذي يحبه، لذا لم يعد أمامه سوى البقاء.

لكن من كان ليتوقع أن هذا الحصان سيكون سببًا في سوء طالع "لاجيمي" مدى الحياة؟

في النصف الأول من شهر سبتمبر من عام 1945 ظهرت الطائرات السوفيتية في السماء، وترددت في الغابات أصوات هدير المدافع، وسريعًا ما عبر الجيش السوفيتي الأحمر نهر أرجون وبدأ الهجوم على معسكر "دونجدا". عندها أدركنا أن نهاية اليابانيين قد حلت.

وبعد انتهاء المعمعة أخبرنا "لاجيمي" أنه قبل وصول الجيش السوفيتي غرق معسكر "دونجدا" في الفوضى، فقد بدأ اليابانيون في حرق المستندات

وترتيب الأغراض للقيام بالأعمال التحضيرية للانسحاب. وقتها وعلى الرغم مـن أن إمبراطور اليابان لم يكن قد أعلن الهزيمة والاستسلام رسميًّا، إلا أن "جيتيـان" كـان يعرف أن مجد اليابان قد زال، وعند مغادرته لمعسكر "دونجدا" ألقى بخريطـة في حضن "لاجيمي" وقال له: "أنا لا أضمن حياتك، اركـب الحـصان وعـد إلى الجبـال بحثًا عن أقربائك، إنك لا زلت صغيرًا، استخدم الخريطة لو ضللت الطريق، أما لو صادفت الجيش السوفيتي فإياك أن تخبرهم أنـك عملـت كـسائس أحـصنة لـدى اليابانيين". ثم أعطاه بندقية آلية وعلبـة كبريـت وبعـضًا مـن البـسكويت، وقبـل الرحيل طلب منه عزف لحن أخير على الموكوليـان، فعـزف "ليلـة الفـراق"، كانـت تلك الأغنية قد ورثها عن والده، وعندما مـات أقاربـه الواحـد تلـو الآخـر بـسبب المرض الأصفر كانت تلك الأغنية هي ما ودعهـم بـه، ولقـد جعلـت تلـك الأغنيـة الحزينة دموع "جيتيان" تغرق وجهه. وكانت كلماته الأخيرة له حين سـاعده عـلى ركوب الحصان: "إنكـم خـارقون، رقـصكم يمكـن أن يُـذهب الـروح مـن الحـصان الحربي، وموسيقاك قادرة على شفاء الجروح".

لم يكن "لاجيمي" يعرف موقعنا وقتها، لكنه قدر أننا بالتأكيد نتحرك بـالقرب من نهر "بايرتسيه"، لذا سار بمحاذاته بحثًا عنا. وقتها كانت الغزلان قـد بـدأت في التفرق نتيجة للقصف المدفعي، لذا كنا نمضي معظم اليوم في البحـث عنهـا. كـان صوت المدافع كصوت رعد صادر مـن الأرض، فتـسبب هـذا الـضيف المفـاجئ في فزع البشر والحيوانـات، فكنـت تـرى الطيـور التـي تطـير فزعًـا بـين الأشـجار، أو الحيوانات التي تجري خوفًا وسـط الغابـة، لكـن بنادقنـا في هـذا الوقـت صـارت حديدًا خردة، نفدت الطلقات، ونفد منا الـدقيق، ولم يبـقَ إلا القليـل مـن اللحـم المجفف، واضطررنا إلى ذبح بعض من غزلاننا المحبوبة لكي نحل مشكلة الغذاء.

في تلك اللحظات العصيبة قابلت "والواجيا" على ضفة نهر "بايرتسيه".

لو سلمت بأن كارثتي الأولى كانت الجـوع، إذًا فالكارثـة الثانيـة كانـت نـيران الحرب.

عندما صدح هدير مدافع الجيش السوفيتي المهاجم، فر الجنود اليابانيون المرابضون في تلك المنطقة تباعًا، واحتل السوفيت كل الطرق والمعابر، فلم يعد أمام الفارين بدٌّ من اختراق الغابات، لكنهم كانوا على غير دراية بجغرافية المكان، لذا كانوا ما إن يدخلوا الغابة حتى يضلوا الطريق. وكان "والواجيا" زعيم إحدى القبائل، وقتها لم يكن في قبليتهم تلك سوى بضعة وعشرون شخصًا، ولقد تلقى "والواجيا" الأوامر من الجيش الأحمر السوفيتي بقيادة أبناء قبيلته لتعقب هؤلاء الجنود الذين ضلوا الطريق، وعندما قابلته كان قد أمسك لتوه باثنين من الجنود الفارين.

وقتها كان الجنديان منهمكين في قطع الأشجار باستخدام بلطة لصنع قارب صغير، فقد فكرا في ركوب القارب مع تيار نهر "بايرتسيه"، وعندما حاصرهما "والواجيا" ورجاله أدركا أن الكثرة تغلب الشجاعة فألقيا بالبلطة والبنادق واستسلما لهم.

كان هذا في وقت الظهيرة، وكانت مياه نهر "بايرتسيه" تشع ضوءًا أبيض يزيغ البصر نتيجة لانعكاس أشعة الشمس القوية عليها، وعلى سطحها كانت تتراقص أسراب من اليعاسيب الزرقاء. وكان "والواجيا" النحيل يقف على ضفة النهر وقد بدت عليه هيبة غير طبيعية. كان يرتدي بنطلونًا أملس من جلد الوعل، وقميصًا بلا أكمام من جلد الغزال يكشف عن ساعديه، وحول رقبته يلتف حبل جلدي قرمزي معلقة معه عظام صفراء، وخلف رأسه ينسدل شعر طويل. استنتجت من شعره أنه زعيم قبيلة لأن الزعيم فقط هو من يترك شعره طويلًا. كان وجهه نحيفًا للغاية، وعلى وجنتيه شقوق على شكل هلال، وكانت نظراته دافئة يملؤها الحزن تشبه المطر الخفيف في بدايات الربيع، وعندما نظر لي شعرت بموجة من الرياح تتوغل في قلبي، وجسدي وقد صار دافئًا، فشعرت برغبة في البكاء.

في تلك الليلة قام رجال القبيلتين بنصب الخيام سويًّا على ضفة النهر وأشعلنا النيران وتجمعنا سويًّا لتناول الطعام معًا، فقد اصطاد الرجال بما غنموه من

بنادق وطلقات خنزيرًا بريًّا يزيد وزنه عن مائتي جين (الجين وحدة قياس صينية تعادل نصف كيلو جرام)، في العادة تحب الخنازير البرية السير في قطعان، لكن نيران المدافع جعلتها تتفرق، فكان ذلك الخنزير الذي اصطدناه شاردًا عن القطيع، وقتها كان يستخدم أنيابه الحادة في قطع لحاء الأشجار وتناولها، وعندما قمنا بشي لحمه كان هذان الجنديان اليابانيان ينظران للنيران بنظرات يملؤها الجوع، فربما كانا يعتقدان أن "والواجيا" لن يعطيهما طعامًا، لذا عندما تمت دعوتهما لتناول طليعة ما تم شيه من لحم الخنزير سالت الدموع على وجهيهما، فسألا "والواجيا" بلغة صينية ثقيلة: "لقد ألقيتم القبض علينا فهل ستقتلوننا؟"، فرد عليهما أنهما سيؤخذان إلى خارج الجبال ويسلمان للجيش الأحمر السوفيتي كأسيرَي حرب، فتوسل أحدهما إليه قائلًا إنهما لو وقعا في يد الجيش الأحمر فإنهما هالكان لا محالة، وأضاف أنهما يرغبان في العيش معنا في الجبال، سيرعيان الغزلان من أجلنا، فلم تنتظر "إيفولينا" ردًّا من "والواجيا" وقالت: "لو أبقيناكما ألا يعادل هذا الإبقاء على ذئبين؟ ارجعا من حيث أتيتما"، ثم نهضت وسرت إلى ما خلف ظهريهما ووضعت في ياقة كل منهما الشعر الصلب مثل الدبابيس الذي نزعناه من على جسد الخنزير البري، فآلمهما ذلك حتى صرخا، ولقد أضحك ما قامت به "إيفولينا" كل الموجودين.

وفي اليوم التالي افترقنا نحن والقبيلة التي يتزعمها "والواجيا"، فقد ذهب بأسيريه إلى "وتشيلوافو"، أما نحن فقد استمررنا في البحث عن الغزلان المفقودة. كنت أعلم أن الاتجاه الذي ذهب فيه هو نهر أرجون فرجوته أن يساعدنا في البحث عن "لاجيمي"، وما زلت أذكر أنه قال لي: "سأعود أنا وأتركه إلى جوارك"، لكني لم أدرك وقتها المغزى العميق وراء كلماته تلك، لذا عندما ظهر أمامي فجأة بعد بضعة عشر يومًا وقد جلب معه "لاجيمي" طالبًا الزواج مني أغشي عليَّ.

هنا أود أن أخبركم أن المرأة لو أغشي عليها فرحًا من أجل رجل ما فإن حياتها لم تمر هباءً.

كانت زوجة "والواجيا" قد رحلت عنه منذ عشرين عامًا أثناء ولادة متعثرة. كان يحبها بقوة، لذا لم تحرك قلبه أي امرأة أخرى. كان وحيدًا يقود قبيلته للصيد في الجبال متخيلًا أن السعادة لن تطرق بابه مجددًا، لكنه في تلك المرة على ضفة نهر "بايرتسيه" عندما رآني للمرة الأولى واقفة على ضفة النهر اختلج قلبه بعنف، وجب عليَّ أن أشكر أشعة شمس الظهيرة؛ فقد أنارت الحزن والتعب والرقة والجلد الظاهرين على وجهي، تلك التعابير المعقدة هي ما حركت مشاعر "والواجيا"، ولقد أخبرني بعدها أن المرأة التي تملك تلك التعبيرات التي تجعل الرجل يسترجعها مرارًا وتكرارًا هي بالتأكيد امرأة ذات روح غنية يمكنها أن تعبر معه صعاب الحياة. وأضاف أيضًا أنه على الرغم من لون وجهي الشاحب إلا أن ضوء الشمس قد جعل هذا الشحوب يبدو رقيقًا، أما عيناي فعلى الرغم من الحزن البادي فيهما إلا أنهما صافيتان، وقال "والواجيا" إن تلك العيون بالنسبة للرجل هي مثل مياه البحيرات. وعندما علم من "لوني" أن "لاجيدا" قد رحل عني، اتخذ في قرارة نفسه قرار الزواج بي.

عندما أفقت وجدت نفسي بين أحضان "والواجيا"، إن أحضان الرجال تختلف فيما بينها، فعندما كنت في حضن "لاجيدا" كنت أشعر كأنني رياح تمضي بين وديان جبلية، أما في حضن "والواجيا" فكنت أشعر كأنني سمكة تسبح في مياه الربيع. فلو قلنا بأن "لاجيدا" شجرة باسقة فإن "والواجيا" هو العش الدافئ على تلك الشجرة، إن كلًّا منهما هو حبي.

على الرغم من عودة "لاجيمي" سالمًا إلا أنه لم يعد الكامل، فذات يوم أثناء بحثه عنا مر على غابة صنوبر، عندها ألقت طائرات الجيش السوفيتي التي كانت تحلق في المكان قنبلتين، فتسبب الصوت في إفزاع الحصان فركض بجنون و"لاجيمي" على ظهره، فظل يهتز حتى غامت الأرض وانقلبت السماء أمام عينيه، وعندما توقف الحصان أخيرًا شعر "لاجيمي" بسرج الحصان وقد ابتل

وأصبح دافئًا، وحين نظر إليه وجد دمًا طازجًا ذا لون أحمر قانٍ، ليكتشف أن كيس خصيته قد تمزق وأن خصيته تحطمت من الارتجاج. لقد كانت تلك الطائرات أشبه بصقر مفترس، أما خصيتاه فكانتا أشبه بالطائر الكامن في بيضته والذي أخذه الصقر قبل أن تتاح له فرصة الغناء، ولقد قال "لاجيمي" إنه أدرك حينها أنه لم يعد رجلًا حقيقيًا، فلم يعد يرغب في الحياة، فجدل حبلًا من الأعشاب وربط الموكوليان في رقبة الحصان وتركه يبحث عنا بنفسه، كان يرغب في أن يدرك "داشي" حين يرى الحصان والموكوليان أنه قد غادر دنيانا، كان يرغب في الانتحار بواسطة البندقية، لكنه بعد أن جرب طلقتين وجد أن هذا مستحيل، كما أن صوت إطلاق النار قد جذب "والواجيا" الذي كان يمر هو وأسيراه بالقرب من المكان، فقام بإنقاذ "لاجيمي" وأخذه معه إلى "وتشيلوافو"، وقتها كان معسكر "دونجدا" قد أصبح أطلالًا، ووقع كل الجنود اليابانيين أسرى في يد الجيش السوفيتي باستثناء "جيتيان" الذي انتحر على طريقة "الهاراكاري" على ضفاف نهر أرجون.

عاد "لاجيمي" بذلك الحصان، وما إن رأى الحصان "داشي" حتى اغرورقت عيناه بالدموع، وأضرب عن أكل العشب ورفض تناول الماء، حينها فهم "داشي" ما يجول بقلبه فأخذه إلى جانب أخدود مائي وقتله ودفنه هناك، ولقد بكى كلٌّ من "داشي" و"لاجيمي" أثناء دفن الحصان، ولقد كنا نعرف أنهما لا يبكيان من أجل الحصان فحسب.

ومن وقتها لم تعد قبيلتنا تربي خيولًا، أما عملية إخصاء الغزلان فقد أصبح "لاجيمي" يبادر بتوليها وحده.

وفي خريف ذلك العام انتهت دولة منشوريا وتم القبض على حاكمها وإرساله إلى الاتحاد السوفيتي. وفي نهاية الخريف أنجبت "نيخاو" ولدًا أسمته "يرنيسنيه"، والذي يعني شجرة البتولا السوداء، متمنين أن يصبح مثل هذا النوع من الشجر متين وصحيح ويتحمل تقلبات الدهر، ولقد أصبحت

"نيخاو" بعـد ولادة هـذا الطفـل أكـثر تفتحًـا وإشراقًـا، بـل إنهـا عقـدت طقـوس زواجين، الأول كـان زواج "داشي"، والثـاني زواجـي. لم يخلـف "داشي" وعـده، لقـد تزوج "جيفولينا" ذات الفم المعوج، وخـلال حفـل زفافـه شربـت "ماريـة" الخمـر حتى ثملت، عندها قامت بسكب كيس مـن الـدقيق فـوق رأس "إيفولينـا"، التـي بـدت بعـد أن غطـى الـدقيق شـعرها ووجهها كـشخص مـتعفن. أمـا زفـافي أنـا و"والواجيا" فقد كان ضخمًا صاخبًا، اجتمعت فيه قبيلته وقبيلتـي وشرب الجميـع الخمر وغنوا الأغاني. أما أنا فقد ارتديت مرة أخرى ملابس الزفاف التي صنعتها لي "إيفولينا"، ولقد أعجب "والواجيا" أيضًا بالقماش الوردي المطرز على ياقة وأكـمام ووسط ذلك الفستان الأزرق، وقال إنه يشبه قوس قزح الذي يظهر في السماء بعد سقوط المطر.

من كان يتوقع أنه خلال حفل زفافي وبينما كانت السعادة تجري بيننا كميـاه الربيع ظهر فارس ملثم على ظهر حصانه في معسكرنا فجأة؟ كان الحصان الأحمـر الذي يمتطيه شديد البأس حتى إن نظرات الحسد والتنهدات صدرت مـن "داشي" و"لاجيمي" في الوقت نفسه. وبعـد أن ترجـل الملـثم عـن حـصانه سـار إلى جـوار النيران وصب لنفسه وعاءً من الخمر شربـه دفعـة واحـدة. أمـا يـداه الـضخمتان اللتان أمسكتا بالوعاء فقد جعلتنا جميعًا نشعر بالألفـة والـصدمة، لـذا لم ننتظـر حتى يميط لثامه وصرخ أحدنا مناديًا باسمه: "إيوان".



الغسق



أظلمت الخيمة، يبدو أنه وقت الغسق، إن ضوء الغسق مع التيار الدافئ المنبعث من الموقد جعلاني أنا وحكاياتي نأخذ غفوة، ففكرت أن الوقت حان لكي أخرج وأستنشق الهواء النقي الطازج.

توقفت الأمطار، وتطايرت في السماء من الغرب دفقات من أضواء الغسق البرتقالية، فلو قلنا إن الشمس الغاربة كالطبلة، فإن أضواء الغسق هي صوت الطبول الصادح، أما السحب المنتشرة في السماء فقد صارت بيضاء ناصعة بعد أن غسلتها الأمطار، واكتشفت حينها أن المعسكر صار أخضر اللون، لقد غرس "أنتساور" أشجار الصنوبر في الأماكن التي أزيلت منها الخيام.

لم تبقَ إلا خيمة واحدة في المعسكر، لقد خشي "أنتساور" بالتأكيد أن يصيبني الحزن إن رأيت تلك الأرض الخالية، لذا غرس تلك الأشجار. لقد كان الهواء المنعش والأشجار الخضراء التي أتت بشكل مفاجئ كقطتين رقيقتين تجريان نحوي وتمدان لسانيهما المفعمين بالحيوية والرطوبة لتلعقا وجهي ذات اليمين وذات الشمال لتزيلا كل متاعبي وهمومي.

غادرت الغزلان المعسكر بحثًا عن الطعام، وقتها كانت النيران التـي في الموقـد قد خبت إلا أن رائحة رماد الخشب الدافئ ظلت تتصاعد منها.

إن الغـزلان أشـبه بـالنجوم، تـسير في الليـل في كـل مكـان، وفي الـصباح تعـود للمعسكر لتستريح.

لم يبقَ إلا ست عشرة غزالة، فكرت "داجيانا" كثيرًا في مسألة كم عدد الغـزلان الواجب تركها لنا، فقد كانت تخشى إذا ما تركت الكثير ألا نتمكن أنا و"أنتـساور" من رعايتها، وكانت تخشى أيضًا إذا ما تركت القليل أن نشعر بالخواء، وفي النهايـة اخترت أنا و"أنتساور" تلك الغزلان التي ستصاحبنا، بالطبع كان مـن الـضروري أن يبقى الملك "مـالو" الـذي يحمـل الآلهـة عنـد الارتحـال في الغابـات، بالإضـافة إلى الغزال الآخر الذي يحمل جذوة النار، هذان الغـزالان تـركتهما لنـا "داجيانـا"، أمـا الغـزلان الأخـرى فقـد اختـار "أنتـساور" نـصفها واخـترت أنـا النـصف الآخـر. إن "أنتساور" يتمتع بقلب مليء بالحـب والـشفقة، لـذا كانـت الغـزلان الـستة التـي اختارها عجوزًا ضعيفة، ومن بينها اثنان مصابان بسعال شديد. أما أنا، فقد قمـت باختيار أقوى غزالَي تخصيب، وثلاث غـزالات في أقـوى مراحـل الخـصوبة وغـزالين صغيرين ممتلئين بالحيوية، وذلك لكي أضمن أن تـنعم غزلاننـا بالـصحة، وعنـدما اخترت تلك الغزلان لمع الدمع في عيون "داجيانا" وقالت لي: "إن عيـون "إينـي" لا تزال لامعة".

جاء "أنتساور" من بعيد حاملًا دلو الماء في يد، وفي اليد الأخرى باقة من زهور الأقحوان القرمزية. كان يعرف أني أحب هذا النـوع مـن الزهـور، بالتأكيـد قطفـه خصيصًا لي في طريقه إلى النهر. وعندما رآني خرجت من الخيمة ضحك وسار حتى وصل أمامي وقدم لي الزهور، بعدها حمل دلو المـاء ليـسقي تلـك الأشـجار التـي غرسها لتوه.

وبعد أن سقى الأشجار ووضع دلو الماء لم يذهب للراحة، بل دخل إلى الخيمة وأخـذ بعـض الخفـافيش المجففـة، ووضـعها عـلى قطعـة مـن الحجـر الأخـضر

ثم استخدم قطعة من الحصى لطحنها، ناويًا أن يصنع منها بعد سحقها عقار ماء مالح وضخه في أنوف الغزالتين المريضتين لكي يعالج سعالهما.

عدت إلى الخيمة فاكتشفت أن النار قد تأججت عن ذي قبل، يبدو أن "أنتساور" قد أضاف لها بعض الحطب حين دخل ليأخذ الخفافيش. أضاء ضوء النار الخيمة، وكنت أنوي أن أخرج المزهرية المصنوعة من لحاء البتولا لكي أضع فيها زهور الأقحوان القرمزية.

لم أستخدم تلك المزهرية منذ فترة طويلة، كان "والواجيا" يعلم أني أحب زهور الأقحوان القرمزية لذا صنعها خصيصًا لي، ولقد اختار خصيصًا لحاء شجر ذا لون غامق مع خطوط تشبه المياه لكي يتناسب مع اللون القرمزي، ويبلغ ارتفاع تلك المزهرية ارتفاع كف واحد فقط، ومن الجانب تبدو إلى حدٍ ما مسطحة، واتساعها متماثل من أعلى ومن أسفل، إلا أن فتحتها تضيق قليلًا إلى الداخل، ولقد قال "والواجيا" إنه لا يمكن استخدام مزهريات عالية ورفيعة لوضع مثل هذا النوع من الأقحوان، فهذا الشكل لن يجعل الزهور الموضوعة قليلة فحسب، بل ستبدو الزهور كأن أمامها عوائق فلن تكون جميلة. فهذا النوع من الزهور الذي يتميز بزهرة صغيرة وفروع كثيرة يحتاج إلى مزهرية ذات فتحة كبيرة وجسم قصير، عندها ستبدو الزهور في غاية الحيوية.

لديَّ كيس من جلد الغزال أضع به الأشياء التي أحبها، مثل المرآة التي أهداها "رولينسكي" إلى "لينا"، والمزهرية التي أهداني إياها "والواجيا"، وعصا الطبول المصنعة من قدم وعل التي استخدمها من قبل الكاهن "نيدو" و"نيخاو"، وقطعة جلد غزال كان يستخدمها "لينكيه" لتنظيف البندقية، وغمد السكين المصنوع من لحاء البتولا الذي كان يضع فيه "لاجيدا" سكين الصيد خاصته، والمنديل الذي أهدته لي "إيفولينا" والمطرز عليه فراشتين، ولوحة من الجلد تركتها "إليانا"، وحقيبة جلدية مطرز عليها تعاريج قرون الغزلان والأشجار أهدتها لي "جيفوليانا". كل تلك الأشياء تركها أشخاص قد رحلوا.

بالطبع كان من بينها أشياء أهداها لي أشخاص لا يزالون على قيد الحياة، مثل الشمعدان الذي صنعه لي "مكسيم" باستخدام فرع شجرة ذي ثلاثة تفرعات، ووعاء البصق الذي نحته لي "شيبان" باستخدام أفرع جففتها الرياح على شجرة بلوط، ومشبك الشعر الفضي المنقوش عليه زهرة البرقوق وطائر العقعق الذي ابتاعته "داجيانا" من أجلي، ونظارة كبار السن التي فصلها لي باريجي في المدينة، والساعة التي تعطلت منذ زمن بعيد والتي أهدتها لي "ليوشا".

وعلى الرغم من أنني قد بلغت التسعين من العمر، إلا أن عينَي لم تضعفا، لذا لا أحتاج لاستخدام نظارة كبار السن، وأنا لا أصاب بالبرد إلا نادرًا، ولكني فقط أسعل ليوم أو اثنين ثم أشفى، لذا أصبح وعاء البصق مجرد شيء موضوع، كما أني أحب ضوء القمر والضوء المنعكس من نيران الموقد، لذا ليس هناك أي دور للشمعدان في الليل. إن الشمس والقمر في نظري هما ساعتان مستديرتان، وقد اعتدت طيلة حياتي أن أرى الوقت في وجهيهما، لذا أصبحت الساعة عمياء في يدي، ولو غرسنا مشبك الشعر الفضي في شعر أسود فاحم لصار ذلك المشبك جميلًا كطائر أبيض حط على الخيمة، لكن شعري امتلأ بالشيب، فلو وضع هذا المشبك في مثل هذا الشعر فسيدفن جماله، لذا لا أستخدمه، ولو كان "والواجيا" موجودًا لكان ذلك أمر جيد، كنت سأعطيه المشبك لأنه محب للقراءة ليستخدمه كعلامة لصفحات الكتب.

فتحت الكيس المصنوع من جلد الغزال فبدت الأشياء بداخله كأصدقاء لم نتقابل منذ فترة طويلة تتهافت لمصافحتي، ما إن لمست عصا الطبلة حتى التصقت حاوية السكين المصنوعة من لحاء البتولا بظهر يدي، ولم أكد أبعد مشبك الشعر الفضي الذي شكني حتى انزلقت الساعة الباردة إلى راحة يدي.

بحثت حتى وجدت المزهرية، ووضعت فيها بعض الماء ثم وضعت زهور الأقحوان القرمزية، ثم وضعتها أمام الحشية المصنوعة من جلد الوعل. كانت الزهور حين وُضعت في المزهرية أشبه بالفتاة التي عثرت على رجلها المناسب، جميلة ونبيلة.

دخل "أنتساور" الخيمة، يبدو أنه قد انتهى من طحن الخفافيش، ثـم أعطـاني خبز "جيليبا"، فكسرته نصفين، أخذت نصفه وأعطيته النصف الآخر.

قبل أن ترحل "ليوشا" صنعت لنا كيسين من خبز الـ"جيليبا"، هذا النـوع مـن الخبز يمكن تخزينه لشهر كامل دون أن يفسد. ولقد خبزته ليومين كـاملين، ولقـد تورمت عيناها واحمرتا خلال هذين اليومين، ربمـا بفعـل الـدخان. وعنـدما كنـت أشرب الخبز مع الشاي خرج "أنتساور" مرة ثانية، كان شخصًا لا يستطيع الجلوس بلا عمل.

فكرت بأن أضواء الغروب بالتأكيد قد انتهت، فكـان يمكـن مـن خـلال فتحـة الخيمة رؤية لون السماء وقد استحال رماديًّا غامقًا، لكن في ليالي الصيف الصافية هذا اللون الرمادي الغامق لا يستمر طويلًا؛ فالقمر والنجوم سريعًا ما تحولانه إلى الأزرق الغامق.

لم تنتهِ حكايتي بعد. ولقد فكرت أن تلك الأشياء الموجودة في الكيس الجلـدي الذي فتحته للتو قد فتحت آذانها بالتأكيد منذ الـصباح، لتـستمع إلى حكايـاتي في فترة ما قبل الظهيرة مع الأمطار والنيران، وفي فترة ما بعد الظهيرة مع الأشياء التي التقطها "أنتساور"، لذا فأنا أوافق أن أكمل لها الجزء الباقي مـن الحكايـة، ولـو لم تستطع زهور الأقحوان القرمزيـة التـي أتـت لتوهـا أن تتابعهـا معـي فـلا داعـي للقلق، ليهدأ قلبك أولًا ولتستمعي مع رفاقك، أما فيما يتعلق بالبدايـة، فـانتظري حتى انتهي واطلبي من المزهرية المصنوعة من لحاء البتولا أن تحكي عـلى انفـراد، أما أنتِ أيتها المزهرية فلا يمكـن التهـرب، فأنـتِ مـن احتـضنتِ زهـور الأقحـوان القرمزية في أحضانكِ وامتصصتِ الرحيق العطر الذي يسيل من أجسادها.

عندما نزع "إيوان" قناعه في حفل زفافي أنا و"والواجيا" بدا المعسكر كأنـه قـد أصابه الغليان، فقد قفز "لوني" كالأطفال وهو يصرخ فرحًا، وتقدم مـسرعًا ليـصب لـ"إيوان" إناء الخمر الثاني، أما "خاشيه" فقد قطع قطعـة كبـيرة مـن كبـد الوعـل الطـازج وقـدمها لـه، ولقـد شرب "إيـوان" الوعـاء الثـاني بـسرعة وبعـد أن ابتلـع

كبد الوعل مشى حتى وصل أمامي أنا و"والواجيا" وقال إنه سمع أننا سنعقد حفل زفافنا لذا وضع قناعًا ليصنع لنا مفاجأة، ثم صب لنفسه وعاء من الخمر وشربه حتى آخر قطرة متمنيًا لنا السعادة، ومن ثم صببت له الإناء الرابع ترحيبًا بعودته إلى قبيلتنا، وبعد أن شرب الوعاء الرابع من الخمر أخبرنا أنه لا يستطيع المكوث سوى ليومين أو ثلاثة، فهو الآن جندي. وأضاف أنه بعد أن هرب في تلك السنة من معسكر "دونجدا" صادف في الجبال فريق مقاومة الجيش الياباني، ولكن نظرًا للظروف الصعبة ومن أجل الإبقاء على قواهم كانوا يستعدون للهرب إلى داخل الاتحاد السوفيتي، ومن ثم عمل دليلًا لهم وقادهم للعبور بسلاسة إلى الضفة اليسرى من نهر أرجون، وهناك أصبح جنديًّا، والآن جاؤوا إلى هنا لضرب الشياطين اليابانيين تعاونًا مع الجيش السوفيتي. ولقد قال إن هناك بعضًا من هؤلاء الشياطين لا يزالون بالجبال، ولن يعود إلا بعد أن يقضي عليهم تمامًا.

بدا أن هبوطه المفاجئ من السماء قد أصاب "مارية" بمس شيطاني، فظلت تضرب على صدرها وهي تردد "يا للسماء يا للسماء" كأنها لا تصدق أنه أمام ناظريها بالفعل. أما "إيفولينا" فقد أصابها قليل من الإحباط وبدا ظهرها كأن حجرًا ثقيلًا جثم عليه فتقوس في لحظات، أما "كوينديه" فكان كمن رأى الشمس والسماء بعد أن سُجن ظلمًا لسنين، فنظر إليه والدمع يغرق وجهه. لو لم يعد "إيوان" لقضى "كوينديه" بقية حياته وسط شعور بتأنيب الذات.

أما "لاجيمي" فلم يتمالك نفسه من العزف على الموكوليان، فقد كانت تلك هي المرة الأولى التي يعزف فيها منذ أن تحطمت خصيتاه. كان الكل يعرف أنه لا يعزف ترحيبًا بـ"إيوان" فحسب، وإنما تمجيدًا لذلك الحصان الأحمر الجميل، وذلك لأنه أثناء عزفه ظل يقترب من الحصان و"داشي" يتبعه متجهًا نحو الحصان أيضًا وقد بدت آثار الدمع على وجهيهما، أما الحصان فقد تأثرت عيناه أيضًا باللحن فبدا عليهما لمعان الدموع.

ما إن تلاشى صوت العزف وسط أشجار الغابة كالماء الذي يجري بعيدًا، حتـى سألت "مارية" "إيوان" سؤالًا غبيًّا: "هل عـثرت عـلى ناديجـدا والطفلـين بمـا إنـك ذهبت للاتحاد السوفيتي؟".

ففرك وجهه بكفيه الضخمين وقال باللـهجة نفـسها التـي اسـتخدمها عنـدما هربت "ناديجدا" منذ بضعة عشر عامًا: "لن أبحث عنهم، لا يمكن العثور على من اختار الهرب".

مكث "إيوان" معنا ليومين بعدها ركب حصانه الأحمر ومضى، وعند رحيله أعطاه "داشي" خريطة، كانت تلـك هـي الخريطـة التـي أهـداه إياهـا "جيتيـان"، وعندما عاد "لاجيمي" إلينا وأراد حرقها أخذها منـه "داشي" قـائلًا إن عليهـا كثـيرًا من الخطوط والأشـياء المتعرجـة التـي لا نفهمهـا، لنبقِهـا فقـد تكـون ذات نفـع. فقالت "إيفولينا": "لقد انهزم اليابانيون، والإبقاء عليها سيجلب المـصائب"، لكـن "داشي" حفظها سرًّا.

وفي الليلة التي غادر فيها "إيـوان" سـمعت مـرة أخـرى صـوت "كويندیـه" وهو يجلد "إيفولينا"، وكانت تصرخ كالعادة ألمًا. لـو كـان "إيـوان" قـد تحـول إلى سوط وأعطاه بنفسه لـ"إيفولينا" مما جعل ظهرها يستقيم، فـإن عودتـه جعلـت هذا السوط يغير سـيده، فهـو الآن في يـد "كويندیـه". وفي بدايـة الـشتاء، كانـت المفاجأة في أن "إيفولينـا" العجـوز قـد حبلـت، وأصـبح مـن العـادة أن يـتردد في المعسكر صوت تقيؤها. أما "كويندیه" فأصـبح يتعامـل معهـا برقـة واضـحة. كنـا ندرك مدى اشتياقه لطفل من صلبه، لذا فقد أظهر لها حنانًـا غـير مـسبوق، فلـم يكن يدعها تلمس الماء البارد أو تقطع الحطب أو تطعم الغزلان ملحًا؛ فقد كـان يخشى أن تعاند غزالة ما فتركل بطنهـا فتـسقط الزهـرة التـي يتـوق إليهـا، حتـى عندما تقوم "إيفولينا" بأعمال الحياكة كان ينبهها مرارًا وتكرارًا، فقد كـان يخـشى أن تؤذي ظهرها فتحرك الجنين.

أما "إيفولينا" فلم يكن يعنيها اهـتمام "كوينديـه"، بـل إنهـا كانـت تقابلـه أحياناً بضحكات باردة، فقد ظلت تقوم بالأعمال التي تحبها. ففي منتصف الشتاء وذات يوم نزلت فيه ثلوج كثيفة اختفـت فجـأة ولم يـرَ أي شـخص أيـن ذهبـت، فذعر "كوينديه" حتى جف حلقه وانعقد لسانه، وظـل يـدس كتـل مـن الـثلج في فمه، فقد اعتقد أن معدته اشتعل فيهـا عـدد لا نهـائي مـن جـذوات النـار، ومـع حلول المساء حين توقف الثلج ظهرت "إيفولينا" فجأة كالشبح في المعسكر، كانـت مسدلة الشعر تركب زلاجة الجليد وعلى وجهها آثار بكاء وقـد تخـضب بنطلونهـا المصنوع من جلد وعـل بلـون قرمـزي مـن دم طـازج، ووقفـت مباعـدة الـساقين أمامنا، فكانت سيقانها ترتعشان بـشدة كجـذعي شـجرة جـافين تـضربهما الريـاح العاصفة، ومن بينهما تتساقط قطـرات مـن الـدم القـاني لتـصبغ الأرض الجليديـة بلون أحمر زاهٍ.

لقد ركبت "إيفولينا" الزلاجة وظلت تتجول بين الجبال والوديان الثلجية ليوم كامل حتى أنهت تلك الحياة الصغيرة التي يتطلع لهـا "كوينديـه" ليـل نهـار، لـن أنسى أبدًا تلك النظرة التي كانت ترمقه بها، فخلف نظـرة الانتقـام المتـشفية بـدا حزن تعجز الكلمات عن وصفه.

في تلك الليلـة، عـاد مـرة أخـرى صـوت "كوينديـه" وهـو يجلـدها لينتـشر في المعسكر، لكن في تلك المرة كان سوطًا جلديًّا حقيقيًّـا، ولم تعـد "إيفولينـا" تـصرخ ألمًا، لقد جعلها الألم متبلدة الإحساس، ومن بعدها صار الكلام بينهما نادرًا، وبعـد تلـك الليلـة أصـبحا أكـثر هرمًـا، وأكـثر صـمتًا، وفي الأيـام التاليـة صـارا كـصخرتين متقابلتين عرتهما الرياح.

في عام 1946 أنجبتُ "داجيانا"، وكان "والواجيا" يحبهـا حبًّـا جـمًّا لـذا كـان دائمًا ما يحتضنها بين ذراعيه ويجلس بها بجوار النار لـيقص عليهـا الـشعر غـير عابئ إذا ما كانت تفهمه أم لا، فكانت "داجيانـا" تطلـق كلـمات غـير مفهومـة وتمسك بشعره الطويل وتـضعه في فمهـا كالحمـل الـذي يأكـل العـشب، فكـان

لعابها يبلل شعره، لذا كان دائمًا ما يلتصق شعره ببعضه ويصعب تمشيطه، فكنت أغسله له دائمًا بالماء النظيف.

كان "والواجيا" قد تعامل من قبل مع أبناء قومية الهان وتعلم اللغة الصينية من قبل في صغره، لذا كان يمكنه فهم كتب الرموز الصينية، وكان يحب كتابة الشعر لذا يعد شاعر قوميتنا، فلو شعرتم أن أسلوب سردي للقصص لا تنقصه الحماسة، وأن طريقتي في التعبير جيدة، فإن هذا له علاقة بالتأكيد باحتكاكي مع "والواجيا".

بعد أن انتهى زفافنا قام "والواجيا" بتقسيم قبيلته إلى قسمين، واختار شخصًا يدعى "جيالا" ليكون زعيمًا لها وطلب منه أن يقود بضعًا وعشرين شخصًا ويغادروا معًا، لكنهم ظلوا يمارسون الصيد في محيط نهر "بايرتسيه"، وعندما يقابلهم أمر جلل يحتاج لاتخاذ قرار كان "جيالا" يأتي لزيارة زعيمهم.

أما البضعة عشر فردًا المتبقين فقد بقوا معنا واندمجوا بقبيلتنا. كنت أعلم أن "والواجيا" قد فعل هذا من أجلي، فعلى الرغم من أنه زعيم قبيلتهم، إلا أنه في قبيلتنا وجب عليه أن يطيع "لوني"، لكن تصرفه الرقيق الكريم هذا قد أثار سخط رجل من قبيلتهم يلقب بـ"مافينباو"، فقد قال إن "والواجيا" خائن باع قبيلته.

ظلت "مارية" تضمر أمرًا في نفسها بعد زواج "داشي" من "جيفولينا"، فعلى الرغم من أنها لم تتفوه بشيء إلا أن أي شخص كان يمكن أن يرى من طريقة معاملتها لها أنها لا تطيقها، فهي لم تنظر إليها مرة واحدة بشكل مباشر، بل كانت عيناها دائمًا ما تنظران لمكان آخر حين تأمرها بعمل شيء ما كما لو كانت "جيفولينا" زهرة سامة. ولقد كانت "مارية" من قبل مجدة للغاية، أما من بعد مجيء "جيفولينا" فقد أصبحت كسولة جدًّا وصارت تلقي بكل العمل على عاتق "جيفولينا"، وإذا لم تطعها ولو قليلًا منعت عنها الطعام، وذات يوم طلبت منها أن تمشط لها شعرها، وعندما رأت المشط وقد امتلأ

بالشعر الأبيض، لم تقل إن شعرها يتساقط بغزارة، وإنما أصرت على أن "جيفولينا" تعمدت شد شعرها لتجعلها صلعاء، ثم نادت على "داشي" وأعطته المشط وقالت له لو لم يفقأ عين زوجته بهذا المشط فإنها ستقتلع شعرها كله، لكن من كان يتوقع أن يمسك "داشي" بالمشط ويحاول فقء عينيه به، فهرعت "مارية" نحوه وانتزعت المشط من يده وقالت وهي تبكي: "داشي، داشي، هل تريد أن تقتلع حياتي العجوز؟". وعلى الرغم من أنه لم يقتلع عينيه إلا أن إحدى عينيه أصيبت، مما جعل كره "مارية" يزداد تجاه "جيفولينا".

وذات يوم كان "داشي" يقطع الحطب في المعسكر وتساعده "جيفولينا" في رصه، وعندما جلس ليستريح وضع البلطة على الأرض، فلم تنتبه لها "جيفولينا"، وخطت من فوقها وهي تحتضن الحطب، فرأتها "مارية". ويعد تخطي النسوة للبلطة من المحرمات في معتقدات قوميتنا؛ حيث يقال إن من تفعل ذلك ستنجب أطفالًا بُلهاء، ولقد أصرت "مارية" على أنها تعمدت ذلك، فأمرتها أن تجثو على ركبتيها على الأرض، وأمسكت بقطعة من الحطب وظلت تضربها على يدها ورأسها ووجهها، حتى إن أبناء قبيلة "والواجيا" رأوا هذا المشهد فشعروا أن "مارية" ظالمة، لكنها لم تتوقف عن عقابها إلا بعد أن أمسك "داشي "بالبلطة وقال إنه سيقطع بها قدمه ليصير أعرجًا.

إلا أن هذا الموقف مقارنةً بما حدث بعد ذلك لا يعد مبالغًا فيه.

فبعد أن حبلت "جيفولينا"، أصرت "مارية" على أنها قد خطت من فوق البلطة من قبل لذا فالطفل الذي ببطنها قد أصابته اللعنة، هو طفل أبله بالتأكيد لذا لا يمكن السماح لها بالإبقاء عليه. ولقد ظلت "جيفولينا" تبكي ليومين وليلتين، وفي النهاية ومن أجل ألا تحرج "داشي" تسللت خلسة وصعدت إلى منحدر جبلي ثم تدحرجت من فوقه للأسفل، وهكذا أجهضت حملها، وعندما عادت للمعسكر ووجهها ممتلئ بالدمع والجروح وبنطالها ملطخ بالدماء،

ذكرني مشهدها بـ"إيفولينا"، لكن الاختلاف بينهما كـان أن واحـدة فعلتهـا بـدافع الحب، أما الأخرى فقد كان الكره دافعها.

كانـت كراهيـة "ماريـة" تجـاه "جيفولينـا"، وعـدم انـسجام "إيفولينـا" مـع "كوينديه" أشبه بغمامتين تغطيان سماء قبيلتنا، لكن كانـت هنـاك غمامـة أخـرى تحوم في سماء قبيلة "والواجيا"، ألا وهي "مافينباو".

إن الـ"مافينباو" الحقيقي هو نوع من الفطريـات ينمـو في الغابـات، يأخـذ شكل الكرة ويكون أبيض اللون في بداية ظهوره، وبعـد أن يكـبر يـصير لونـه بنيًّـا، ويملؤه من الداخل ما يشبه الإسـفنج البحـري، لـذا كـان الأطفـال يحبـون سـحقه بأقدامهم أثناء اللعب فقد كان يصدر عند سحقه صوت فرقعة وينكمش حجمـه في لحظات، وتتطاير من أماكن تكسره ألياف تشبه الغبار. والـ"مافينباو" يدخل في صناعة الأدوية، فلو تورمت الحنجرة وصار بهـا ألم أو كـان هنـاك نزيـف خـارجي فإن غلي المسحوق الموجود فيه يساعد على الشفاء سريعًا.

كان هذا الشخص الذي يلقب بـ"مافينباو" عربيـدًا، وكـان قـصيرًا بـدينًا، فلـو رأيته يسير من بعيد لظننت أنه كرة تتدحرج تجاهك، وكانت لديـه ابنـة عمرهـا تسعة أعوام، أصغر من "ويكيتيه" بثلاث سنوات اسمها "ليوشـا"، لم تكـن تـشبهه عـلى الإطـلاق، فقـد كـان جـسمها جمـيلًا وحاجباهـا معقوفـان وكـذلك فمهـا، وضحكتها جميلة، وكان هو كلما ثمل صب جنونه عليها، فيطلـب منهـا أن تخلـع له الحذاء، وتشعل له التبغ، ولو تباطأت في حركتهـا يـضربها، ومـا إن تخـرج مـن الخيمة وهي تغطي وجهها بيديها حتى يعرف الجميع أن أباها قـد ضربهـا مـرة أخرى، ولقد قال "والواجيا" إن أمها كانت فتاة جميلـة مـن قوميـة "دوار"، وذات عام وفي بداية الربيع كانت تصطاد السمك مع فتاتين أخـريين مـن قوميتهـا عنـد نهر أرجون، فهبت رياح ربيعية قوية، فتـشقق الجليـد عـلى سـطح النهـر فجـأة ليتكسر إلى قطع صغيرة وكبيرة، فقفزت كل فتاة من الهلع على قطعة من الـثلج، كانت قطعتا الجليد اللتان قفزت علـيهما الفتاتـان عـلى الـرغم مـن صـغرهما إلا

أنهما طفتا تجاه الضفة، أما القطعة التي قفزت فوقها أم "ليوشا" فعلى الرغم من كبر حجمها إلا أنها سارت مع التيار نحو المنتصف، ثم اصطدمت في لمح البصر مع قطعة جليد ضخمة فسقطت في الماء. لا يوجد تقريبًا أي فرد من قومية "دوار" لا يجيد السباحة، لكن مياه النهر الذي فتح لتوه كانت باردة للغاية، لذا فقد عافرت قليلًا ثم أصيبت قدماها بشد عضلي، أما الفتاتان اللتان وصلتا للضفة لتوهما فقد صرختا طلبًا للنجدة.

وقتها كان "مافينباو" قد عاد لتوه من "وتشيلوافو" وقد بادل بعض الطلقات، وكان يمر من هناك، فخلع ملابسه وقفز في المياه الباردة التي توخز العظام وأنقذها، فلم يهتم والد الفتاة بأن هناك من يسكن قلبها، بل أصر على زواجها من "مافينباو" عرفانًا منه بجميل إنقاذ حياتها، ومن وقتها غادرت تلك الفتاة قومها وجاءت لتعيش معه في الجبال.

قال "والواجيا" إنه لم يسترح من البداية لتلك الزيجة، فقد كانا مختلفين تمامًا، سواء من ناحية الشكل أم من ناحية الطبع أم من ناحية عادات الحياة، فما بالك بأن قلب تلك الفتاة لم يكن يومًا لـ"مافينباو"، لذا فبعد أن أنجبت "ليوشا" بفترة قصيرة هربت، وبعد أن عادت لقومها خشيت أن يأتي "مافينباو" بحثًا عنها لذا هربت مع من تحب مغادرة مكان قبيلتها ولم يسمع عنها أحد خبرًا بعدها.

ومن وقتها صار "مافينباو" معاقرًا للخمر، وكارهًا لكل النساء، فكان يتذمر دومًا من "ليوشا" ويقول إنها ستصبح مثل أمها حين تكبر، امرأة حقيرة. أما "ليوشا" الصغيرة فكانت مثل أمها تحب أكل السمك، لذا كانت تفرح حين تراه، لكن "مافينباو" كان يتعمد حرق السمك في النار ويقول لها: "يجب أن تفهمي أنكِ لا تستطيعين الحصول على كل ما تحبين".

أما "ويكيتيه" فقد أحب "ليوشا" من وقتها، لذا فإذا ما اكتشف أنها خرجت من الخيمة وهي تغطي وجهها وآثار الدموع تملأ وجهها ويعرف أن "مافينباو" ضربها مرة أخرى حتى يستشيط غضبًا، ومن أجل تأديبه قام

باصطحاب "أنداور" معه إلى الغابة وجمعا معًا سلة كاملة من فطر الـ"مافينباو"، ثم قاما برصها أمام مخرج خيمته، وما إن خرج منها وداس عليه حتى تطايرت الألياف الشبيهة بالغبار لتملأ وجهه وجعلته يبدأ في السعال. عندها ضحك "ويكيتيه" المختبئ في مكان قريب وصاح بصوتٍ عالٍ: "لقد داس مافينباو على المافينباو".

كان "لاجيمي" أول من ركض ليرى هذا المشهد، فرأى هيئة "مافينباو" المزرية فلم يتمالك نفسه من الضحك، فأغضبت ضحكاته "مافينباو" واندفع نحوه ولكمه بقوة في صدره وسبه قائلًا: "إنك لست رجلًا حتى، هل أنت حقًّا كفؤ للاستهزاء بي؟"، ولقد جرح هذا الكلام المخزي "لاجيمي" لكنه رد بلا ضعف: "إن عقلك أشبه بطفل، فهل أنت حقًّا كفؤ لتكون رجلًا؟" ثم تشابكا معًا بالأيدي، فخنق "مافينباو" عنق "لاجيمي"، الذي ركله بقدمه فيما بين فخذيه، حينها صرخ "مافينباو": "أنجدوني يا قوم، هذا الشخص الذي ليس برجل يريدني أن أصير مثله".

بعد تلك الحادثة لم يعد "مافينباو" يتحدث مع أبناء قبيلتنا، أما نحن فصرنا نكرهه أكثر وأكثر، ليس لأنه عنيف مع "ليوشا" فحسب، وإنما لأنه لا يحترم "والواجيا" أيضًا، بل كان دائم السخرية منه قائلًا إنه فكك قبيلته من أجل الزواج من أرملة، إنه مجرم. لكن "والواجيا" كان مدركًا للجرح العميق الذي بقلب "مافينباو" لذا لم يكن يجادل معه.

أما "ليوشا" فقد كانت طفلة واعية، وكانت تحب جمع الخضراوات البرية والفواكه، ولقد أخبرت "ويكيته" فيما بعد أنها تحب هذا العمل لأنه لا يبعدها عن مضايقات والدها فحسب، وإنما يجعلها تتمتع وحيدة بالسعادة التي تجلبها لها نسمات الجبال المنعشة وغناء الطيور.

ذات يوم تمكن "والواجيا" و"لوني" من اصطياد دب، وبعد أن حملاه عائدين إلى المعسكر وقفت جموع المرحبين وهم يذرفون الدمع عمدًا. ولقد

تطوع "مافينباو" في ذلك اليوم بسلخ جلد الدب. في العادة نقوم أولًا بنزع خصيتي الدب قبل الشروع في سلخ الجلد ومن ثم نعلقهما على شجرة؛ لاعتقادنا بأن الدب يصير مطيعًا بعد إخصائه، لكن "مافينباو" بعد أن قام بقطع خصيتَي الدب لفهما بأوراق الأعشاب ثم أعطاهما لـ"لاجيمي" طالبًا منه أن يعلقهما فوق الشجرة، وعندما أعطاهما إياه طافت على فمه ابتسامة غريبة، لم يقل "لاجيمي" شيئًا وإنما شحب وجهه وتناولهما بيد مرتعشة وقام مترنحًا تجاه شجرة صنوبر ثم علقهما عليها، وعندما استدار عائدًا كانت الدموع تترقرق في عينيه.

عند اصطياد دب تتجمع القبيلة كلها معًا لتناول لحمه، وتلك هي أكثر أوقاتنا سعادة، وبعد تناول لحم الدب يشرب كل منا بعضًا من الشحم، لكن بعد هذا السلوك المشين من "مافينباو" تجاه "لاجيمي" ساد الغضب سائر أبناء قبيلتنا، فظلت وجوه الجميع مكفهرة، ولقد شعر "مافينباو" بنفور الجميع منه فتعمد الضحك بصوتٍ عالٍ وشرب الخمر بأريحية، أما "ليوشا" فلم ترضَ برؤية تلك التصرفات من أبيها لذا تناولت قطعة لحم صغيرة فقط ثم نهضت حاملةً دلو لحاء البتولا لتجمع البرسيمون، فقد كان هذا موسم نضجها، وما إن غادرت "ليوشا" حتى بدأت "جياوكوتواكان" في الصراخ رغبةً في الذهاب معها.

كان الجو حارًّا إلا أن "نيخاو" كانت ترتعش تحت أشعة الشمس الحارة وقالت لها: "لا يمكن الذهاب مع ليوشا". فقالت "جياوكوتواكان": "أريد الذهاب أريد الذهاب"، وبدأت في البكاء، فقال "لوني" موجهًا كلامه لـ"نيخاو": "الأطفال يحبون اللعب، دعيها تذهب معها، لن يذهبا بعيدًا". فنصحتها "نيخاو" مشددة عليها قائلة: "لا تسيري بمفردك، ابقي مع ليوشا، هل سمعتِ؟"، فردت بسرعة: "حسنًا حسنًا"، وعندما جرت في الاتجاه الذي سارت فيه "ليوشا" بدأت "نيخاو" في الارتعاد ثانيةً.

هناك الكثير من المحرمات أثناء تناول لحم الدب، فمثلًا مهما كان السكين الذي يتم به قطع اللحم حادًّا نظل نطلق عليه "كارجينجي" والتي تعني "السكين البارد"، إلا أن "مافينباو" تعمد التلويح بالسكين وهو يقول بصوتٍ عالٍ: "انظروا، يا له من سكين حاد، من لا يصدق يمكنه التجربة بقطع شعرة، بالتأكيد ستقطعها بلمسة واحدة". وعند تناول اللحم لا يجوز إلقاء العظام، إلا أن "مافينباو" كان يلقي بالعظام بعشوائية بعد أن ينتهي مما عليها من لحم، عظمة وسط النيران، وعظمة أخرى قذفها بعيدًا كالحجر. ولقد أثارت أفعاله غضب "والواجيا" فعنفه مهددًا إياه بأنه لو ألقى عظمة أخرى فسيقطع يده. كان "مافينباو" وقتها منهمكًا في قضم عظمة فرد عليه دون أن يتوقف عن الأكل: "أرجوك، لو قطعت يدٍ فاقطع الاثنين، فدونهما لن يعود مطلوبًا مني القيام بأي عمل، بل وستقدسونني مثلي مثل الإله "مالو"، يا لها من راحة".

وما إن انتهى من كلامه حتى أصدر حشرجة، لقد انحشرت عظمة الدب في حلقه، وتحول وجهه في لحظات لوجه شبح، وفتح فاه على مصراعيه وجحظت عيناه واهتز اللحم على وجنتيه وارتعشت شفتاه، وازرق ذلك الوجه الذي كان متوردًا منذ لحظات. كان يلوح بذراعيه عاجزًا عن النطق بكلمة واحدة، فدس "والواجيا" إصبعه في فمه وحركه قليلًا لكنه لم يمسك بالعظمة، يبدو أنها انحشرت في مكان عميق. وظل "مافينباو" يتحشرج بصوت خفيض وقد تجمعت قطرات العرق على جبينه وهو يتوسل العون من رجال قبيلته.

قام الجميع أولًا بوضع عدة ملاعق من شحم الدب في فمه ثم قاموا بالخبط على ظهره؛ معتقدين أنه بعد تزييت فمه وحنجرته ستنزلق العظمة كالثمرة الناضجة إلى معدته نتيجة لخبطاتهم، لكن تلك العظمة كانت كأنما نبتت لها أسنان تعض بها على قناته الهضمية. وعندما وجدوا أن لا نفع من تلك الطريقة قاموا بتعليقه ورأسه للأسفل قائلين إن العظمة يمكن أن تنزلق للخارج بهذا الشكل، ومن ثم قام "لوني" بربط قدميه بحبل وعلقوه على شجرة بتولا قرب

المعسكر وظلوا يخبطون على أكتافه، إلا أن العظمة ظلت كالبذرة التي وجدت أخيرًا أرضًا خصبة فظلت مدفونة بها لا تتحرك، فقام الجميع بإنزاله من على الشجرة، وقتها كان وجهه قد تحول للون القرمزي وقد ضعفت أنفاسه، وظل يلوح بيده تجاه "لاجيمي" وقد امتلأت عيناه بالندم كما لو كان يرجو العفو منه، فتنهد "لاجيمي" وشوح بيده تجاه "مافينباو" ونهض لجمع العظام التي رميت في كل مكان كما لو كان يبحث عن روح إنسان، بدقة وإخلاص. عندها سال الدمع من عيون "مافينباو".

إلا أن العظام التي تم جمعها لم تساعد على تحريك العظمة المحشورة في حنجرة "مافينباو"، يبدو أن تلك العظمة كان مقدرًا لها أن تتحول إلى سكين يقطع حنجرته.

عندها ودون اتفاق مسبق توجهت أنظار الجميع نحو "نيخاو"، لم يعد سواها قادرًا على إنقاذه، لكنها ارتعشت ولم تقل شيئًا، وإنما دفنت رأسها بأسى في أحضان "لوني" الذي أدرك من تصرفها أنها لو أنقذت "مافينباو" فربما سيفقدان "جياوكوتواكان" المحبوبة، فبدأ "لوني" في الارتعاش معها.

لكن "نيخاو" في النهاية وضعت على جسدها ملابس الآلهة. بالتأكيد كانت تلك الملابس بالنسبة لها أثقل من جبل. وارتدت قبعة الآلهة، بالتأكيد كانت كأنها مصنوعة من الأشواك التي تجرح رأسها، ثم حركت طبلة الآلهة، والتي كانت بالتأكيد بالنسبة لها كأنها مصنوعة من حديد ساخن أحمر يحرق يدها. وفي الوقت الذي حُمل فيه "مافينباو" إلى داخل الخيمة وبدأتْ في رقصة الآلهة، ذهب "لوني" للبحث عن "جياوكوتواكان".

في العادة لا يمكن البدء برقصة الآلهة قبل أن يحل الظلام؛ فالآلهة صعب أن تتجلى في هذا الوقت، وعلى الرغم من قرب حلول الغسق إلا أنه وبسبب الصيف كانت السماء لا تزال مضيئة، ومن أجل صنع الظلام طلبت "نيخاو" من الموجودين أن يلفوا جلود الحيوانات الثقيلة التي لا تُستخدم إلا في الشتاء حول

الغشاء الرقيق المصنوع من لحاء البتولا حول الخيمة وذلـك لمنـع تـسرب الـضوء، كما قامت بإغلاق الفتحة الموجودة جهة الشرق المستخدمة كباب بإحكـام مانعـة أي شخص من الدخول أو الخروج، وأطفأت نيران الموقد، وهكذا لم يعد هنـاك إلا الضوء المتسرب من سقف الخيمة.

لم يبقَ في الخيمة سواي أنا و"والواجيا". كانت يـداه لا تـزالان مخـضبتين بـدم الغزال، فعندما قررت "نيخـاو" إنقـاذ "مافينبـاو"، أمـسك الجميـع بـسرعة بغـزال صغير من الباقين في المعسكر وذبحوه تقربًا للآلهة "مالو".

عندما تبدأ "نيخاو" في رقصة الآلهة تصير شخصًا آخر، فيختفي ضعفها وتبدو ممتلئة بالحماسة. وعندما صدح صـوت الطبـول دق قلبـي بعنـف معـه، كنـا في البداية نستطيع سماع آهات "مافينباو"، لكن هذا الصوت اختفـى بعـدها وسـط هزيم الطبول، وعندما دارت "نيخاو" لتـصل إلى منتـصف الخيمـة أضـاءها ذلـك الضوء الـسماوي الأبـيض فبـدت كـشمعة ملونـة وهـذا الـضوء مثـل النـار التـي تشعلها.

وبعد أن رقصت لساعتين تقريبًا هبت داخل الخيمة فجأة رياح غريبة ظلـت تعوي كأنها رياح الشمال التي تأتي في الشتاء، وقتها لم يعد الضوء القادم من أعلى الخيمة أبيض اللون، بل اصطبغ بلون الغسق، يبدو أن الشمس قد غربت. كانـت تلك الرياح الغريبة تنتشر في كل الأرجاء في البداية، بعدها صارت تعوي في مكـان واحد، فـوق رأس "مافينبـاو". حينهـا انتـابني إحـساس بـأن تلـك الريـاح سـتدفع العظمة للخارج، وبالفعـل، مـا إن وضـعت "نيخـاو" طبلـة الآلهـة وتوقفـت عـن الرقص، حتى هب "مافينباو" جالسًا فجأة وقال: "آه" بصوتٍ عالٍ، وبـصق عظمـة الدب لتخرج وهي مغلفة بالدماء الطازجة في وسط الخيمـة فبـدت أشـبه بـوردة سقطت من السماء.

ظلت "نيخاو" منتصبة، بينما أجهش "مافينباو" بالبكاء بصوت خفـيض. وبعـد أن صـمتت "نيخـاو" لبرهـة بـدأت في غنـاء أغـاني الآلهـة، لم يكـن غناؤهـا مـن

أجل "مافينباو" الذي تم انتزاعه من بين براثن الموت، وإنما من أجل زهـرة اللـيلي التي ذبلت، من أجل "جياوكوتواكان".

"نامت الشمس
واختفى الضوء من بين الغابات
لم تظهر النجوم بعد
وهبت الرياح لتصدح الأشجار بصوتها
زهرتي الليلي
لم يأتِ الخريف بعد
ولا يزال معك هذا الصيف الجميل
لماذا ذبلت أوراقك؟
عندما سقطت
سقطت معك الشمس
لكن عطرك لم يسقط
وسيرتفع القمر".

وعندما انتهت "نيخاو" من الغناء وخرجنا معها من الخيمة، رأينا "لوني" عائدًا تجاه المعسكر حاملًا "جياوكوتواكان" بين يديه، وخلفه "ليوشا" تبكي.

عندما كانت "ليوشا" تجمع البرسيمون، طلبت مـن "جياوكوتواكـان" أن تظـل خلفها، بعدها عثرت على كرمة من البرسيمون فاندمجت في جمعها ونسيت تمامًـا "جياوكوتواكان" فلم تعرف متـى غادرتهـا، بعـدها أفاقـت عـلى صـوت صرخاتهـا، فمشت تجاه الصوت لتجدها وقـد سـقطت عـلى الأرض، فقـد اصـطدمت بعـش دبابير كبير معلق في فرع شـجرة بتـولا، فلـسعتها الـدبابير حتـى صـارت ملامحهـا مبهمة، وخلف شجرة البتولا تلك كان هناك حقل كبير من زهـور اللـيلي الحمـراء القانية المتفتحة، بالتأكيد كانت تجري تجاه الزهور.

إن الدبابير الموجودة بالغابة أكبر من الدبابير العادية، وهذا النوع من الدبابير الصفراء المخططة بالأسود يحمل سُمًّا في أذنابها، فلو لم تزعجها فإنها ستطير داخلة وخارجة من أعشاشها لجمع رحيق الزهور، أما لو دمرت عشها بلا قصد فإنها ستهاجم بغرض الانتقام، لم تكن "جياوكوتواكان" تتوقع أن أمام زهور الليلي الجميلة هناك "نمر يعترض الطريق"، لقد كان اصطدامها بذلك العش الطري سببًا في صعودها للسماء. وعندما وجدها "لوني" كانت "ليوشا" تحاول بكل قواها حملها لتعود للمعسكر، وعندما ضمها "لوني" إلى أحضانه ابتسمت له وقالت بصوت خفيض "أما" ثم أغمضت عينيها.

في هذا المساء خيم جو من الحزن على المعسكر، وانتزعت "نيخاو" الإبر السامة من وجه "جياوكوتواكان"، وغسلت جروحها، وأبدلتها ملابس وردية اللون. أما "لوني" فقد جمع زهور الليلي الموجودة خلف عش الدبابير ووضعها في أحضانها، ثم وضعها داخل الكيس القماشي الأبيض.

وبعد أن قبَّل كلٌّ من "نيخاو" و"لوني" جبين "جياوكوتواكان" للمرة الأخيرة قمت أنا و"والواجيا" بحمل ذلك الكيس القماشي الأبيض. وعندما سرنا تجاه المنحدر الجبلي المواجه للشمس شعرت بأنها خفيفة للغاية، كأني كنت أحمل في يدي سحابة.

كان القمر لا يزال في السماء حين ذهبنا، وأثناء عودتنا سقطت الأمطار على غير المتوقع، فقال لي "والواجيا": "أخبري "نيخاو" ألا تطلق على الأطفال أسماء زهور، لا توجد زهور طويلة العمر في العالم. لو لم تكن تسمى "جياوكوتواكان" لم تكن لتلسعها الدبابير".

وقتها كان قلبي يموج بالكراهية؛ فلولا تصرفات "مافينباو" السيئة لما اضطرت "نيخاو" إلى إنقاذ من لا يجب إنقاذه، وما كانت "جياوكوتواكان" لتموت. لذا قلت لـ"والواجيا" بلهجة حادة: "لقد ماتت "جياوكوتواكان"

الزهرة بسبب قبيلتكم، لو لم تُبقِ على شخص فاسد مثل "مافينباو" لكانت تعيش في سلام الآن، أنا لا أرغب في رؤية ذلك الشخص المزعج مرة أخرى".

وقفت أبكي وسط المطر، فمد "والواجيا" يده نحوي، كانت يده دافئة للغاية، وقال لي: "غدًا سأطلب من "تشيالا" أن يأخذه إلى قبيلته، حسنًا؟ أنا لا أرغب في رؤية امرأتي والدمع يسيل من عينيها". ثم ضمني إلى صدره وربت على شعري برفق.

إلا أن "مافينباو" لم ينتظر "والواجيا" لتنفيذ خطته، بل استخدم طريقة وحشية ليجعلنا نغفر له.

ففي اليوم التالي لحادثة الوفاة كانت السماء صافية، وفي الصباح الباكر سمعنا صوت بكاء "ليوشا"، فاعتقدت أنا و"والواجيا" أن "مافينباو" قد صب غضبه عليها ثانيةً فهرعنا لنوقفه، لكن المشهد البادي أمام أعيننا أذهلنا وألجم ألسنتنا، فقد رأيناه راقدًا على حشية جلد وعل وقد اصفر وجهه وباعد ما بين رجليه، وعلى الرغم من ارتدائه لسرواله إلا أن حزام السروال لم يكن معقودًا، وقد تخضب السروال بدم قرمزي قانٍ، وبجانبه كان هناك بعض من قشور المافينباو الجافة، يبدو أنه فتحها واستخدم الألياف بداخلها لوقف نزيف الدم.

وما إن رآنا "مافينباو" حتى فتح فمه وجاهد لكي يُخرج ضحكة يلتمع فيها ضوء بارد، ثم قال بصوت متحشرج: "لا حاجة بي لهذا الشيء، أشعر بأني أخف كثيرًا، وانزاح الهم عن قلبي".

لقد قام "مافينباو" بإخصاء نفسه في الفجر باستخدام سكين صيد، ومن وقتها أصبح صديق "لاجيمي" الحميم، ولم يعد "لوني" و"نيخاو" يعتقدان بأنه شخص لم يستحق الإنقاذ.

بعد واقعة "مافينباو" عشنا أيامنا في سلام وهدوء. وفي عيد الربيع هبطنا كالعادة من الجبل لمبادلة ما اصطدناه بالأشياء التي نحتاجها. وفي ربيع عام

1948 أنجبت "نيخاو" ابنة أخرى، وكان "إيوان" من اختار لها اسم "بارينا". وعاد إلى المعسكر ممتطيًا حصانه وقد تغير لباسه، فصار يرتدي زيًّا عسكريًّا، وأخبرنا أن الخريطة التي أعطاها إياه "داشي" لم تكن خريطة عادية، فلم تكن بها أسماء الجبال والأنهار فحسب، بل كانت موضحة عليها أيضًا المنشآت العسكرية التي بناها جيش "جوانجدونج" الياباني. وبفضل تلك الخريطة عثروا على الكهوف المخبأ بها الدبابات والقنابل، وعثروا أيضًا على جنديين يابانيين مقاومين، لم يكونا يعلمان بأن إمبراطور اليابان قد أعلن الهزيمة والاستسلام.

وقتها كان جيش التحرير الشعبي قد بدأ حملة لتطهير أوكار العصابات المختبئة بالجبال، ولقد عاد "إيوان" تلك المرة خصيصًا ليخبرنا أن الجبال بها الآن جنود "الكومينتانج" الهاربون، وبها أيضًا العصابات المناهضة للحزب الشيوعي، فلو اكتشفناهم في أي وقت فلا بد من الإبلاغ فورًا وعدم تركهم.

في تلك المرة حمل لنا خبرًا صاعقًا، لقد تم القبض على "وانجلو" و"لوديه" بتهمة الخيانة، ولو ثبتت التهمة عليهما فسيواجهان عقوبة الإعدام، لكننا لم نتفهم الأمر، وكان "لوني" أكثرنا عنفًا حيث قال إن "وانجلو" و"لوديه" لم يساعدا اليابانيين في أي فعل سيئ، لكن كان أحدهما يفهم اليابانية، والأخر يعرف الطرق فتم استغلالهما من قبل اليابانيين، فلو قلنا إنهما مذنبان، فإن ذنب "وانجلو" في لسانه، وذنب "لوديه" في ساقيه، ولو أردنا عقابهما فيكفي قطع لسان "وانجلو" وبتر ساقي "لوديه"، لكن لماذا الإعدام؟ فقال "والواجيا" إننا ربما رأينا فقط الظاهر منهما، لكننا لا نعرف ما الذي فعلاه من أجل اليابانيين، وما المصالح التي ساعداهم للحصول عليها، لكن "لوني" لم يسعد بهذا التقييم لأدوارهما، فقال: "لو تم تقييم الخونة بهذا الشكل، فلن يفلت "لاجيمي"، ألم يبقَ في معسكر "دونجدا" لكي يعزف الموكوليان من أجل "جيتيان"؟".

ما إن وقعت كلمات "لوني" حتى تكلمت "إيفولينا" التي ظلت صامتة لفترة طويلة وقالت: "لقد قام "لاجيمي" بعزف الموكوليان من أجل "جيتيان"، وتسبب عزفه في هزيمتهم".

كان صوتها عميقًا أشبه برياح صادرة من وادٍ جبلي، فنظرنا لها بدهشة، إلا أنها استمرت في حياكة الجورب الجلدي ولم ترفع رأسها.

وعلى الرغم من أن "لوني" قد غضب قليلًا من "إيوان"، إلا أنه وبسبب إنجابه لطفلة مع مجيئه فقد شعر أنه جلب معه أخبارًا سارة له، لذا طلب منه أن يختار اسمًا للمولودة. ففكر "إيوان" قليلًا ثم قال: "لنسمِها بايرنا".

هنا فتحت "إيفولينا" فمها وتحدثت مرة أخرى قائلة: "لا نساء يبقين بجوار "إيوان"، لو اختار لطفلة اسمًا فبالتأكيد لن تبقى". وظلت مطرقة برأسها أثناء الكلام وهي منهمكة في العمل، لكن "لوني" ارتعش". فتنهد "إيوان"، وقال: "لا تعتد بهذا الاسم، يمكنك اختيار اسم آخر أنت ونيخاو".

فرد "لوني": "لقد اخترنا اسمًا بالفعل، كيف نغيره ونحن لم نستعمله ليوم واحد حتى؟! سنسميها بايرنا". لكن نبرة "لوني" كانت منخفضة وثقيلة حين قال تلك الكلمات.

***

لم يبقَ "إيوان" معنا إلا ليوم واحد ثم رحل، وقد تجمع كثيرون لوداعه بأنظارهم وهو يهبط الجبل ممتطيًا حصانه، إلا "إيفولينا" التي أحنت ظهرها وجلست تلهو بسكين صيد تحت شجرة صغيرة بجوار المعسكر، وعندما ابتعد صوت حوافر حصانه تدريجيًّا مثل المياه الجارية تنهدت وقالت: "لم يعد لدينا حداد، فلو انكسرت سكاكين بنادقنا أو مناشير الجليد خاصتنا، أو احتجنا لسن سكاكينا وبلطاتنا فأين نذهب بحثًا عن حداد؟".

لقد ذكَّرتني كلماتها بأقلام الرسم التي كنـت أحـتفظ بهـا، تلـك العيـدان مـن الطين الأحمر المتخلف عن طرق "إيوان" للحديد، لذا وفي اليوم الذي غادرنـا فيـه "إيوان"، وبعد ظهيرة ربيعية مشمسة سرت وحدي لعدة كيلو مترات حاملةً معي أقلام الألوان التي جفت وتشققت، وبحثت بجـوار أحـد الفـروع الـصغيرة للغايـة لنهر "بايرتسيه" على منطقة بها صخور بيضاء ورسمت عليها طبلة آلهة بها خطوط نارية وتحيط بها سبعة غزلان، لقد اعتبرت طبلة الآلهة هي القمر، أما تلك الغزلان السبعة المحيطة بها فقد كانت بمثابة النجوم. لم يكن لهذا النهير اسم، لكن من بعد أن تركت رسوماتي هناك أطلقت عليه في خاطري اسم نهر "ويندوينج"، وتلك كلمة تعني طبول الآلهة، والآن جف هذا النهر مثله مثل أخدود "رولينسكي".

كانت تلك أكثر رسمة شعرت بالرضا نحوها، لأن مياه نهر "ويندوينج" كانت صافية، لذا عندما وقفت في وسط مياهه حافية القدمين أمام تلك الصخور البيضاء وانهمكت في الرسم شعرت بالأسماك الصغيرة وهي تقبل كعبي، هي بالتأكيد لم ترَ من قبل مثل هذين العمودين الأبيضين المنتصبين وسط الماء، فكانت بعض الأسماك شقية وفضولية، لذا كانت تجرب عضي، وعندما تكتشف أن تلك ليست صخورًا كانت تقلب أجسادها وتسبح مبتعدة، وعندما تفعل ذلك تصدر صفحة المياه صوتًا مسببة موجات تشق سطح الماء. أما أنا فقد استمررت في الرسم حتى مغيب الشمس، وعندما كست شمس المغيب المياه الجارية والصخور البيضاء بطبقة من الذهب كنت قد انتهيت من تجهيز قمر وسبعة نجوم من أجل الليل القادم.

في تلك الفترة كنت مؤمنة أن هناك قمرين يسطعان على نهر "ويندوينج"، الأول في السماء صنعته الآلهة، أما الثاني فكان على الصخور وقد صنعته أحلامي.

وعندما عدت إلى المعسكر بعد أن ارتفع القمر في السماء، كان "والواجيا" واقفًا أما الخيمة ينتظرني في قلق، وفي اللحظة التي رأيته فيها انتابني شعور

اللقاء بعد فراق طويل، فلم أتمالك نفسي من البكاء، فالمشهد المرسوم على الصخور والمشهد الحقيقي الماثل أمامي كلاهما أثر في نفسي، لكني لم أخبره أين ذهبت، لأني رأيت أن ما فعلته هو سر بيني وبين الصخور، أما هو فلم يسأل عن أي شيء، وإنما ناولني قدرًا من لبن الغزلان المغلي، فالرجل الصالح لا يسأل النساء عن أين ذهبن.

في تلك الليلة احتضنني بشدة، وتصاعد صوت شخير "داجيانا" الرقيق مثل رياح الربيع في الخيمة. في تلك الليلة امتزجت أنا وهو سويًّا مثل امتزاج الأسماك بالمياه، وامتزاج الزهور بالمطر والندى وامتزاج الرياح اللطيفة بصوت الطيور وامتزاج القمر بمجرة درب التبانة.

وفي تلك الليلة أيضًا غنى لي بصوت خفيض أغنية من تأليفه، كانت أغانيه تختلف عن أغاني الآلهة التي تغنيها "نيخاو"، فقد كانت أغنية دافئة.

"بللت قطرات ندى الصباح العيون
وسطعت شمس الظهيرة على الظهور
إن أجراس الغزلان في الغسق هي الأكثر صفاءً
وقد عادت الطيور للغابات في الليل".

وعندما غنى "والواجيا" الجملة الأخيرة "وقد عادت الطيور للغابات في الليل" ربت على ظهري، تلك التربيتة الخفيفة جعلت عينَي تغرورقان بالدموع، من حسن الحظ أننا كنا ليلًا فلم يرَ أثر دموعي، فدفنت رأسي عميقًا في صدره كالطائر الذي يدفن نفسه في العش.

لم تحبل "إيفولينا" مرة ثانية منذ أن أجهضت، فكانت دائمًا ما تذهب لـ"نيخاو" وهي شاحبة الوجه لتركع أمام الإله "مالو" لتصلي بصدق وإخلاص. هذا المشهد ذكرني بـ"مارية" في شبابها، ألم تكن دائمة الذهاب للكاهن "نيدو" راجية الإله "مالو" أن تهبها طفلًا؟ لكن الفرق أن "مارية"

كانت ترتدي حجابًا على رأسها، أما "إيفولينا" فلم تكن ترتدي شيئًا فوق رأسها، بل إنها حتى لم تكن تسوي شعرها. كانت على الأرجح تعلم أن العيب في فمها، لذا كانت دائمًا ما تمشط شعرها ناحية الجانب غير المعوج من فمها، تلك الكتلة من الشعر كانت تبدو مثل السحب الكثيفة التي تغطي جانب القمر فكانت تغطي على عيبها لتجعل وجهها يبدو سليمًا. أما "ماريـة" فيبدو أنها ندمت وأدركت أنها ما كان عليها ترك "إيفولينا" لتفقد الطفل الحبلى به، لذا في كل موسم نشر قرون الغزلان كان الدمع يتساقط من عينيها بمجرد رؤية الدماء الطازجة التي تخضب القرون.

وفي عام 1950، أي في العام الثاني لتأسيس جمهورية الصين الشعبية، تم تأسيس جمعية تعاونية للبيع والشراء "بوتشيلوافو"، فقام ذلك الـ"أندا" من قومية الهان الذي يدعى "شو تساي فا" باصطحاب ابنه وأسسا معًا جمعية تعاونية، كانت تلك الجمعيات تشتري الجلود وقرون الغزلان وغيرها من المنتجات، ثم توفر لنا البنادق والطلقات والقدور الحديدية والكبريت وملح الطعام والأقمشة والحبوب والتبغ والخمور والسكر والشاي وغيرها من المنتجات.

وفي صيف ذلك العام أحضر "لاجيمي" فتاة معه من "وتشيلوافو".

كان قد ذهب مع "داشي" في تلك المرة إلى "وتشيلوافو"، وبعد أن انتهيا من مقايضة السلع في الجمعية التعاونية ذهبا لقضاء ليلة في أحد الفنادق الصغيرة، وفي صباح اليوم التالي عندما استعدا للانطلاق بعد تناول الفطور قال "داشي" موجهًا حديثه لـ"لاجيمي" إنه ذاهب للجمعية التعاونية كي يطلب من "شو تساي فا" مساعدته في جلب دواء من أجل "إيفولينا"، ففهم "لاجيمي" أن "داشي" ذاهب ليجلب لها دواءً للعقم. بعدها شعر "لاجيمي" بالملل فقرر الخروج للتمشية، وعندما خرج من الباب ومر بإسطبل خيول مجاور للفندق سمع صوت ضحكات طفل ينبعث من الداخل، ففكر أن صاحب الفندق مهمل حقًّا، لقد تسلل طفل إلى داخل إسطبل الخيول ولم ينتبه له، ماذا لو رفسه الحصان؟ فعاد من فوره للفندق

وقال لصاحبه: "إن طفلكم ذهب إلى إسطبل الخيل، ألن تذهبوا لرؤيته؟"، فضحك صاحب الفندق وقال: "إن ابني يمكنه مساعدتي في إدارة الفنـدق الآن، وابنتـي في الرابعة عـشرة مـن العمـر، أي طفـل تقـصد؟ لا بـد أنـك سـمعت بالخطـأ"، فـرد "لاجيمي": "مستحيل، هذا الصوت الذي سمعته هو صوت طفل"، فقـال صـاحب الفندق: "بالتأكيد سمعت بالخطأ، لا داعي لكي أذهب لأرى، فكل من سـكن هنـا خلال الأيام الماضية ليس معهم أطفال"، ثم داعب "لاجيمي" قائلًا: "لو كان هنـاك طفل بالفعل داخل الإسطبل فهو الرب، ولأصبح هو أبو السماء ولن يحتاج لتحمل المشقة في إدارة هذا الفندق".

لكن "لاجيمي" أصر على أنه لم يخطئ بالسمع، فقال صاحب الفندق: "حـسنًا سأذهب معك، ولكن لو لم يكن هنـاك طفـل هنـاك فـستعطيني قطعـة الملابـس الجلدية المصقولة التي على جسدك تلك"، فوافق "لاجيمي".

وما إن دخلا إلى الإسطبل حتى تسمرا دهشةً من المشهد الماثل أمامهما، فقـد كانت هناك طفلة صغيرة ملفوفة راقـدة عـلى العـشب الجـاف، وحـصان رمـادي اللون يمد لسانه ويلعق وجهها كما لو كان يغسله، وكانت الطفلة تخشى الدغدغة لذا كانت تصدر أصوات ضحكات.

كانت ملفوفة بغطاء قماشي أزرق مخطط بأبيض، ووجههـا متـورد نـاعم، أمـا عيناها السوداوان فكانتا تدوران بسرعة، وكانت إحدي يديها خارج الغطـاء، فلـما رأت أحدهما ينظـر إليهـا بـدأت في تحريـك ذراعهـا وهـي تـضحك بقـوة. أحبهـا "لاجيمي" من أول نظرة، فقد كانت بالفعل جميلة ولطيفة.

قال صاحب الفندق إن تلك الطفلة بالتأكيد معاقة، وإلا لمـاذا تركهـا أحـدهم هنا؟ فقاما أولًا بفحص عينيهـا وأذنيهـا وأنفهـا وحنجرتهـا ولـسانها ويـديها، فلـم يكتشفا أي أمر غير طبيعـي، لـذا فتحـا الغطـاء الملفوفـة بـه ليتأكـدا إذا مـا كـان تنقصها قدم أو غيرها، فلما وجدا كل شيء طبيعيًّا فتحا بنطلونها، عنـدها اكتـشفا أنها أنثى.

هنـا صـاح صـاحب الفنـدق متعجبًـا: "كيـف لأحـدهم ألا يريـد تلـك الفتـاة الجميلة الذكية؟".

فقال "لاجيمي" له: "أنا أريدها".

فقال صاحب المحل: "يبدو أنها قد أكملـت شـهرًا لتوهـا، ولا تـزال في مرحلـة الرضاعة، فكيف ستربيها؟"، فقال "لاجيمي": "سأرضعها بلبن الغزلان".

كان صاحب الفندق يعرف بأمر فقدان "لاجيمي" لخصيتيه، لذا قال له: "إنك بالفعل الشخص المناسب، ورأيي أن السماء قد أهدتها لك، وعنـدما تكـبر سـتصير ابنتك وترعاك في كبرك، أليس هذا أمرًا رائعًا؟".

وعندما سمعت زوجة صـاحب الفنـدق أن أحـدهم ألقـى طفلـة في إسـطبل الخيل، تركت ما بيدها وذهبت لترى، وقالت إنها سمعت في الليلة الماضية صـوت حوافر خيول، ولقد تلاشى هذا الصوت هنا في الفندق، ولقـد فكـرت وقتهـا كيـف يمكن أن يأتي ضيوف في مثل هذا الوقت المتأخر؟ ثم انتظرت لكي يقـرع الـضيوف الباب حتى تحضر المصباح، وأضافت أنها أمسكت بالثقاب في يدها بالفعل، لكنها لم تسمع طرقًا على الباب، فظنت أنها تخيلت الصوت لذا دلفت لفراشها ونامـت، وما إن رقدت حتى تعالى صـوت حـوافر الخيـول ثانيـةً، لكـن الـصوت كـان يقـل تدريجيًّا في تلك المرة، يبدو أن راكب الحصان قـد غـادر، وقتهـا كانـت العـصابات تنتشر بالجبال، لذا شكت أن هذا لص وضع ناظريه على فندقها، فقامت وأضافت لوحًا آخر لإغلاق الباب، بعـدها نامـت مطمئنـة، يبـدو أن هـذا الـشخص راكـب الحصان جاء ليترك الطفلة.

لم تكن هناك أي وريقات داخل غطاء الطفلة، فلم يعلموا من أين أتت وأيـن ولدت، لكن من خلال أسنانها اللبنية يمكن اسـتنتاج أن عمرهـا مـا بـين الـشهرين والثلاثـة شـهور، ومـن خـلال ملامحهـا يمكـن التأكـد مـن أنهـا لا تحمـل دمـاء الــ"إيوينكيـه"، فأنفهـا عـالٍ وعيناهـا واسـعتان وشـفتاها ملتفتـان وبـشرتها

بيضاء، فقالت زوجة صاحب الفندق إن والديها على الأرجح من قومية الهان، لكن لماذا تخليا عن لحمهما الذي أنجباه؟ فقال صاحب الفندق محللًا: "ربما كانت ابنة غير شرعية لأحد الأغنياء من إحدى العاهرات، أو ربما كان أحدهم سرقها انتقامًا من أسرة ما." أما زوجته فقالت: "لو كان انتقامًا ألم يكن من الأفضل إلقاء الطفلة طعامًا للذئاب في الجبال؟ لقد ألقاها راكب الحصان في الإسطبل، من الواضح أنه أراد لها الحياة".

قام "لاجيمي" و"داشي" بجلب الطفلة معهما للجبل، لم يكن أحد ليتوقع أن يجلبا طفلة معهما، ولقد أحبها الجميع، فهي لم تكن جميلة فحسب وإنما كانت تحب الضحك وقليلة البكاء. ولقد طلب "لاجيمي" من "والواجيا" أن يختار لها اسمًا، ففكر قليلًا ثم قال: "لقد تم إلقاؤها في إسطبل خيل، ولقد رعتها الخيول لليلة كاملة ولم تؤذِها، ليكن لقبها "ما" (أي الحصان في اللغة الصينية) وهي محبة للحركة، ومنذ صغرها ويداها وساقاها تتراقص كثيرًا، بالتأكيد ستحب رقص "إيكان" عندما تكبر، إذًا فلنسمِها ما إيكان". وكلمة "إيكان" تعني "رقص الحلقة" أو "رقص النيران".

جلبت "ما إيكان" سعادة لا تضاهى لكل أفراد القبيلة، فكنت كل يوم حين أحلب لبن الغزلان وأذهب به أولًا إلى "لاجيمي"، الذي يقوم بغليه ثم ينتظر حتى يصير دافئًا ليرضعها إياه، وكان يتعجل أحيانًا في إطعامها فكانت تسعل، لذا كنت أذهب دائمًا لمساعدته، وقتها كانت "بايرنا" قد بلغت الثانية من عمرها، وكانت لا تزال ترضع، وعلى الرغم من أن "نيخاو" لم تكن غزيرة اللبن، إلا أنها أحيانًا ما كانت ترضع "ما إيكان"، وكانت ما إن تضع ثديها في فم "ما إيكان" حتى تبدو "بايرنا" وكأنها تعرضت لظلم كبير، فتشد ملابس "نيخاو" وهي تبكي بلا انقطاع، لذا كانت "نيخاو" دائمًا ما ترضعها قليلًا ثم تضعها وتحتضن "بايرنا".

كانت "إيفولينا" كذلك تحب "ما إيكان" كثيرًا، لكن عندما تحتضنها كان يغطي وجهها تعبير بارد حزين، فقد كانت تشتاق كثيرًا لطفل من صلبها. أما "مارية" فكانت في كل مرة ترى فيها الطفلة، كانت تلف لسانها بحركة لا إرادية، كما لو كانت "ما إيكان" نارًا تحرقها، ثم تقول: "يا إلهي، لم أرَ طفلة بهذا الجمال من قبل، تلك العفريتة الصغيرة".

لكن "إيفولينا" كانت باردة تجاهها، فلم تلقِ عليها نظرة فاحصة منذ أن جاءت للمعسكر منذ شهرين. وفي منتصف الخريف، ومن أجل تجهيز ملابس شتوية جميلة من أجل "ما إيكان"، قام "لاجيمي" بحمل الطفلة، ووضع تحت إبطه قطعتين من جلد الوعل المدبوغ وذهب طالبًا العون من "إيفولينا"، قائلًا إنه يثق فقط في مهاراتها اليدوية.

كانت تلك هي المرة الأولى التي ترى فيها الطفلة، فضيقت عينيها وقالت: "أليست تلك كرة نار فوق سطح الماء؟"، فلم يفهم "لاجيمي" ما تقصده فاكتفى بالضحك، فأضافت "إيفولينا" جملة أخرى: "إنها أيضًا سمكة فوق أرض عشبية".

اعتبر "لاجيمي" أنها لا ترغب في حياكة الملابس من أجل الطفلة لذا تتعمد الحديث بكلام مجنون لدفعه للرحيل، وما إن هم بالاستدارة مغادرًا حتى قالت له: "اترك الجلد، وتعالَ خذه بعد ثلاثة أيام".

وبعد ثلاثة أيام انتهت من صنع الملابس، كانت ملابس عجيبة، بلا ياقة ولا أكمام وتشبه كيسًا كبيرًا، حتى إن عينَي "لاجيمي" جحظتا من الغيظ لرؤيتها، فقلت له إن "إيفولينا" كبرت في السن ولم تعد مهارتها كالسابق كما أنها مجنونة قليلًا، لذا من الطبيعي أن تصنع مثل تلك الملابس، ثم قمت بفك الملابس وأعدت تصنيع قطعة أخرى منها، فقمت بتطريز خيوط حريرية خضراء عند الياقات والأكمام، فكان "لاجيمي" راضيًا للغاية عنها ولم يعاتب "إيفولينا".

لم يعد "إيوان" إلى الجبال كما قال، كنت أنا و"لوني" نشتاق إليه كثيرًا، وفي شتاء هذا العام جاء "شو تساي فا" جالبًا معه كثيرًا من البضائع على ظهور الخيل، وكان أكثرها الحبوب وملح الطعام والخمر، وأخبرنا أن "إيوان" طلب من تاجر سيارات منغولي أن يرسل نقودًا إلى الجمعية التعاونية طالبًا منه أن يشترى بضائع بتلك النقود ويرسلها للقبيلة. وأرسل "إيوان" أيضًا رسالة معه بأنه الآن في "تشالاندوين"، طالبًا منا ألا نشتاق إليه، سيعود لزيارتنا بعد سنتين.

كانت تلك هي المرة الأولى التي نستمتع فيها بأشياء لا نحتاج لمبادلتها بالجلود وقرون الغزلان، ولقد أسعدت تلك المفاجأة غير المتوقعة الجميع، فقال "خاشيه": "إيوان رائع حقًّا، يمكننا الآن أن نأكل من راتب الجندية خاصته"، فقال "شو تساي فا": "من وجهة نظري إن الاعتماد مخصصات الجندية ليس أنسب من الاعتماد على الأشياء الموجودة بالجبال وتربية الغزلان"، وما إن انتهى من كلامه حتى جاءت "إيفولينا" وناولته وعاءً من لبن الغزلان. لم يرَ "إيفولينا" لعدة سنوات، فلم يصدق أنها ذبلت لتصير على هذا النحو، فظهرها انحنى تمامًا، عندها تنهد قائلًا: "إن حياة الجبال تدفع الناس للشيخوخة".

كان "شو تساي فا" قد سمع عن الطفلة التي وجدها "لاجيمي" في الفندق بـ"وتشيلوافو"، فقال له إن الناس يقولون إنها طفلة رائعة الجمال، لماذا لا تأتي بها لأراها؟ فسأله "لاجيمي": "هل هناك من أتى بحثًا عنها خلال نصف العام الماضي؟"، فرد عليه: "إن الطفل الذي يتم إلقاؤه أشبه بالماء الذي يتم سكبه، من سيبحث عنه؟". عندها فقط اطمأن قلب "لاجيمي" وذهب ليحضرها، فقد كان يخشى دائمًا أن يصاب الشخص الذي تخلى عنها بالندم فيأتي بحثًا عنها. وعندما احتضن الطفلة وعاد بها أطلق "شو تساي فا" صفيرًا بفمه إعجابًا بها وقال: "إنها جميلة بالفعل، أرى أنها ستكون زوجة لحفيدي في المستقبل"، عندها تغير لون وجه "لاجيمي" وقال: "ما إيكان هي ابنتي، وعندما تكبر لن تكون لرجل غيري". عندها ضحك كل الموجودين من كلماته.

قال "شو تساي فا" إن هناك حملة إصلاح زراعي خارج الجبل، فإقطاعيو الماضي الذين كانوا ذوي شأن أصبحوا الآن هباءً منثورًا، فأراضيهم وعقاراتهم وحيواناتهم كلها لم تعد ملكًا لهم، بل تم توزيعها على الفقراء. هؤلاء الفلاحون الذين كانوا يعملون لديهم في الماضي وصاروا يحاربون الإقطاع بسعادة بالغة، كما أن من الإقطاعيين من تم ربطه والسير به في الشوارع مكسور النفس يرتدي حذاءً باليًا يُظهر أصابع أقدامه، أما بناتهم اللاتي كن يلبسن الحرير، فقد أصبحن الآن حتى سائقي عربات الأحصنة لا يريدون الزواج منهن، لقد تغير العصر تمامًا.

لم يعلق أي من الحضور بشيء تجاه كلماته، فقط "إيفولينا" تنحنحت ثم قالت: "هذا جيد، هذا جيد، لنفعل ذلك أيضًا مع السوفييت واليابانيين، لقد أخذوا منا الكثير ويجب أن نستعيده، إذا كان بإمكاننا محاربة الإقطاع، ألن نستطيع محاربتهم؟".

لم يلتفت أحد لحديثها، لذا نظرت إلى الجميع ثم هزت رأسها ونهضت ببطء وهي تكرر العبارة التي قالها "شو تساي فا" لتوه: "حياة الجبال تدفع الناس للشيخوخة" بعدها غادرت محنية الظهر.

في ذلك المساء أشعلنا في المعسكر نارًا وشوينا لحم السناجب، وجلس الجميع يأكلون ويشربون الخمر. وبعد شرب الخمر التف الجميع حول النار ليرقصوا، أما أنا فوقفت بعيدًا أستمتع برؤية اللهب البرتقالي المتراقص، يا لبهائه وسطوعه، لم ينر فحسب الغابة القريبة، لكنه أنار أيضًا حتى منحنيات الجبل البعيدة، فلو قلنا إن السماء تصطاد أيضًا، فإن كتلة النار تلك ستكون طريدتها التي جلبت لها السعادة للسماء ولنا، وأنا على ثقة أن السماء أيضًا تستمتع بتناول طريدتها، فعندما تصير النار رمادًا أفلا تتطاير تلك الأدخنة والرماد إلى الأعلى؟ وعندما اكتشف "والواجيا" وقوفي وحيدة سار بخفة حتى وصل خلفي ثم أحاط عنقي بذراعيه وألصق فمه بأذني وقال بصوت يحرك المشاعر: "أنا

الجبل وأنتِ الماء، الجبل ينتج الماء، والماء يرعى الجبـل، والجبـل والمـاء صـنوان لا يفترقان، كالأرض والسماء خالدان".

لو شبهنا الضفة اليمنى لنهر أرجون التي نعيش فيها بعمـلاق يحمـل الـسماء ويثبت الأرض بأقدامه، فإن تلك الأنهار الكبيرة والـصغيرة هـي عـروق الـدم التـي تتقاطع في جسد هذا العملاق، أمـا هيكلـه العظمـي فيتكـون مـن الجبـال. تلـك الجبال تتبع سلسلة جبال "داشينج أنلينج".

لم أعد أذكر عدد الجبال التي رأيتها في حياتي، فأنا أرى أن كل جبل من الجبال الواقعة على الضفة اليمنى للنهر، كما أرى نجـمًا يلمـع عـلى الأرض. تلـك النجـوم تصير خضراء اللون في فصلي الربيع والصيف، أما في الخريـف فتـصير ذهبيـة، وفي الشتاء تكتسي باللون الأبيض. أنا أحبها، فهي كالبشر، لهـا طبـائع وأجـساد، فمنهـا القصير الصغير المستدير، أشبه بالطبق المقلوب، ومنهـا الجبـال المنتـصبة المتـصلة ببعضها فتبدو مثل قرون غزلان جميلة ممدودة، وكانت أشـجار الجبـال في عينـي مثل مجموعات تلو مجموعات من اللحم والدم.

وتختلف الجبال عن الأنهار، فمعظمها لا يحمل أسـماء، لكننـا أطلقنـا أسـماء على بعض الجبال، فمـثلًا أطلقنـا عـلى ذلـك الجبـل العـالي المنتـصب اسـم جبـال "ألاتـشي"، وأسـمينا الجبـل الـذي تظهـر بـه صـخور بيـضاء عاريـة باسـم جبـل "كايلاتشي"، وأطلقنا اسم "يانجيتشي" على ذلك الجبـل المغطـى بأشـجار الـصنوبر والذي يفصل مياه نهر "ياجيـه" ونهـر "لوجيـدياو"، أمـا ذلـك الجبـل الـذي يعـد المنحدر الشمالي لجبال "داشينج أنلينج" الذي اكتشفت فيـه رأس بقـرة مـن قبـل فقد أطلقنا عليه اسم جبل "كليدويه". وهنـاك كثـير مـن ينـابيع المـاء في الجبـال، معظمها بارد مسكر، لكن هناك جبل كان به ينبوع ماء مر كما لو أن هذا الجبـل مليء بالضغائن، ومن ثم أطلقنا على هذا الجبل اسم "جبل شينلوسكا".

كان "مافينباو" يهوى إطلاق الأسماء على الجبال، فمثلًا عندما يرى جبًلا ما به الكثـير مـن الطحالـب، وتحـب الغـزلان التجـول فيـه، يطلـق عليـه اسـم "جبـل

مواخوافوكان" وتعني الجبل الذي يحتوي على طحالب. وإذا ما رأى جبلًا يكتسي بعشب "هوانجشيه" الطبي أطلق عليه اسم "أيكوشياما" والتي تعني "الجبل الذي ينمو عليه القتاد"، ما زلنا نذكر أسماء الجبال تلك، لكن لا نذكر أي الجبال بالتحديد، لكن هناك اسم سنظل نذكره إلى الأبد ألا وهو جبل "ليسيوانكيه" الموجود بحوض نهر "جين".

* * *

في ربيع عام 1955 بدأت الغزلان موسم الولادة، عندها قررنا عقد مراسم الزفاف "ويكيتيه" و"ليوشا"؛ لأن "ويكيتيه" استغرق ربيعًا كاملًا لكي يصنع عقدًا من عظام الغزلان من أجل "ليوشا"، وكانا دائمًا ما يذهبان معًا من خلف ظهورنا لجمع الفواكه البرية أو اصطياد السناجب، ولقد قال "والواجيا" إنهما قد صارا بالغين، لا بد من الجمع بينهما.

وبينما نحن في قلق من أن تتذكر "نيخاو" ابنتها الراحلة "جياوكوتواكان" إذا ما رأت "ليوشا" أثناء عقدها لمراسم الزفاف، جاءتنا أخبار بوفاة زعيم عشيرتنا، وكان لا بد أن تقوم "نيخاو" بالإشراف على مراسم جنازته باعتبارها الكاهنة، وبهذا الشكل أصبح بإمكانها تجنب مراسم زفاف "ليوشا".

لم تكن "نيخاو" ذاهبة بمفردها لجنازة زعيم العشيرة، بل وجب على "لوني" أن يذهب معها باعتباره زعيم قبيلتنا، وعندما غادرا لم نخبرهما بأمر عقد زفاف "ويكيتيه"، فقد خشينا أن تعارض "نيخاو"؛ فمنطقيًّا كان يجب تأجيل الزفاف بسبب وفاة زعيم عشيرتنا، لكني فكرت بأن الحياة هكذا، ما دامت هناك ولادة فهناك موت، وما دام هناك همٌّ فهناك أيضًا سعادة، إذًا ما دامت هناك جنائز فهناك أيضًا أفراح، فلا يجب أن تكون هناك كل تلك المحظورات، لذلك ما إن غادرنا "لوني" و"نيخاو" حتى بدأ كل أبناء القبيلة في الاستعداد للزفاف.

ترك "لوني" و"نيخاو" ابنهما وابنتهما في المعسكر، ولقد أوصتني "نيخاو" قبل مغادرتها أن أراعيهما جيدًا، فطمأنتها لأن "داجيانا" البالغة من العمر تسع سنوات و"بايرنا" الأصغر منها بسنتين مقربتان جدًا من بعضهما ولا تفترقان أبدًا كالشخص وظله، كما أنهما طفلتان مطيعتان، وكانت "ما إيكان" قد بلغت من العمر وقتها خمس سنوات وكلا الطفلتين تحبان اللعب معها، لذا كان منظر الثلاثة وهن يطاردن بعضهن في المعسكر أشبه بثلاث فراشات تطير في الهواء. أما "يرنيسينيه" فقد بلغ في ذلك العام عشر سنوات، وهو طفل ذكي يفهم الكثير، قادر على التحمل وفي الوقت نفسه مجد، وهو محبوب أكثر من الراحل "جواجيلي"، فعندما كانت "نيخاو" تأكل خبز "جيليبا" كان دائمًا ما يساعدها في دهن الخبز بدهن الدب، وعندما يرغب "لوني" في شرب الشاي كان يذهب مسرعًا لغلي الماء، وعندما بلغ الثامنة من العمر ذهب مع "لوني" لصيد السناجب، وعند عودته كان دائمًا ما يحمل بعض الأغصان الجافة لاستخدامها كحطب، لذا كان "والواجيا" يقول إن "يرنسينيه" سيصير رجلًا فاضلًا حين يكبر، رقيقًا ومجتهدًا.

وكان "يرنسينيه" يحب الغزلان الصغيرة، فعندما كان "مافينباو" و"لاجيمي" يساعدان الغزلان على الولادة كان دائمًا ما يذهب معهما، وما إن تولد الغزلان الصغيرة حتى يتراقص فرحًا مثلها ويصرخ وهو يلوح بذراعيه، وأحيانًا كانت الغزلان تذهب بعيدًا للبحث عن الطعام، فتعاني الغزلان الصغيرة من الجوع، فكانت النساء تذهبن للبحث عن الغزلان الأم للإمساك بها لكي ترضع الصغار، فكان "يرنسينيه" يذهب معهن للبحث، وعندما يجدها يقول لها: "لقد كبرتِ بفضل لبن أمهاتك، لو لم يرضعوكِ وقتها لكنتِ تحولتِ إلى رماد من زمن بعيد".

وفي اليوم الثالث بعد مغادرة "نيخاو" و"لـوني" قـام "والواجيـا" بعقـد مراسـم زفاف "ويكيتيه" و "ليوشا". كان الجو صافيًا للغاية فقد سقط مطر غزير في اليـوم السابق، وكانت أصوات الطيور في الغابة فرحة للغاية.

عُقد الزفاف تحت سفح جبل على ضـفة نهـر "جـين". ولقـد ارتـدت "ليوشـا" النحيفة فستان الزفاف الذي صنعته لها، ووضعت على رأسها تاج زهور صُنع مـن الزهور البرية، وفي رقبتهـا ارتـدت عقـد عظـام الغـزلان الـذي صـنعه لهـا بعنايـة "ويكيتيه" فكانت تبدو في غاية الجمال، أما "مافينباو" فقد كان هندامه نظيفًـا في ذلك اليوم، بل إنه حلق لحيته أيضًا فكان واضحًا رضاه عن تلك الزيجة ولم تفارق الابتسامة وجهه. كان صوته قد صار متحشرجًا بعـد أن قـام بإخـصاء نفـسه، كـما ترهلت عضلات وجهه. ولقد قال له "لاجيمـي": "يجـب عليـك إعطـاء اسـم لهـذا الجبل تخليدًا لزفاف ويكيتيه وليوشا". كـان هـذا الجبـل مغطـى بأشـجار صـنوبر وارفة، لذا قال "مافينباو": "لندعُه بجبل ليسيوانكيه"، وكلمة "ليـسيوانكيه" تعنـي غابات الصنوبر.

ما إن صار لهذا الجبل اسم حتى بدأ "والواجيـا" في اسـتخدامه، فعنـدما كـان يعقد مراسم الزواج قـال موجهًا كلامـه لـ"ويكيتيـه" و"ليوشـا": "نجتمـع هنـا في موضع ولادة الغزلان لنتمنى السعادة لزواجكما، لتكن ميـاه نهـر "جـين" الرقراقـة هي مطر وندى حبكما، وليكن جبل "ليسيوانكيه" الراسخ مهدًا لسعادتكما، ندعو لكي تحيط بكما ميـاه هـذا النهـر إلى الأبـد، ولـيرافقكما ذلـك الجبـل إلى الأبـد في نومكما".

عندما رأيت هيئة "ويكيتيـه" المفعمـة بالحيويـة تـذكرت "لاجيـدا"، تـذكرت حـين قابلـت الرجـل الأول في حيـاتي عنـدما ضـللت الطريـق وفي وسـط الجـوع، فابتلت عيناي بالدموع، وعلى الرغم من أن "والواجيا" كان ينظر لي وقتهـا برقـة وحنان، إلا أنني في تلك اللحظة كنت أشتاق بشدة لـ"لاجيدا"، حينهـا أدركـت أن مصباح حياتي لا يزال يحمـل بقايـا زيـت المـصابيح الـذي تركـه "لاجيـدا"، وعـلى

الرغم من انطفاء نيرانه إلا أن قوتـه ظلـت دائمًـا موجـودة، وعـلى الـرغم مـن أن "والواجيا" قد ضخ فيَّ زيتًا جديدًا وأشعله برقته ومشاعره، لكن ما أشـعله كـان في الواقع مصباحًا قديمًا يحمل بقايا زيت مهمل.

وبعد انتهاء مراسم الزواج بدأ الجميع في تناول اللحـم وشرب الخمـر والغنـاء والرقص. وكان طعام الزفاف من صنع "إيفولينا"، فحظيت النقـانق التـي صـنعتها بترحيب الجميع، فقد قامت بتقطيع لحم الوعل لقطع صغيرة ثم خلطتها بالبصل الجبلي والكرفس وأضافت الملح، وبعد التقليب حـشتها في الأمعـاء ثـم سـلقتها في مياه مغلية لمدة ثلاث إلى خمس دقائق، ثـم انتـشلتها وقطعتهـا بالـسكين، فكـان طعمها طازجًا لذيذًا بشكل لا يضاهى. كما استخدمت القدر المعلـق لـسلق عـدة بطات برية، وأضافت للحساء بعضًا من الثوم المعمر الـبري المقطـع، فكـان طعـم البط دسمًا ولكنه خفيف في الوقت نفسه. وبالإضافة لكـل هـذا كـان هنـاك رأس الوعل المسلوق وجبن لبن الغزلان وشرائـح اللحـم المـشوي وحـساء زهـرة الـليلي. يمكن القول إن تلك كانت أكبر وليمة زفاف مرت عليَّ، ولقد أثنى "والواجيا" عـدة مرات على مهاراتها في الطهي، وظل يثني عليها حتى احمر وجهها خجلًا.

كان ظهر "مارية" وقتها قد صار منحنيًا مثـل "إيفولينـا"، وعـلى الـرغم مـن جلوسهما سويًّا بجوار النيران لشرب خمر الزفاف، إلا أنهما لم تتبادلا كلمة واحدة، بل حتى لم تنظر إحداهما للأخرى، كانت "مارية" تـسعل بـشدة في ذلـك الـشتاء، حتى إن أنفاسها كانت تتقطع حين تشتد عليها نوبات السعال، وكانت "إيفولينـا" ما إن تسمع صوت سعالها حتى تبدو كأنها سمعت خبرًا سـارًّا، فتتقـافز حواجبهـا فرحًا وترتسم على وجهها ابتسامة لا يصعب إخفاؤها.

لو قلنا إن موقد النيران في النهار أشبه بالزهرة المغلقـة، فـإن تلـك الزهـرة تتفتح على خجل وسط أضواء الغروب، وعندما يحل الظلام تزدهـر تمامًـا، وفي منتصف الليل تفرغ كل طاقتها، وفي الوقت الـذي اسـتعرت فيـه النـيران تمـل

"مافينباو"، وثمل "كويندية" أيضًا. شرب "كويندية" الخمر حتى ارتعشت يداه فقطع يده بالسكين وهو يقطع النقانق وانبثقت الدماء القانية من بين أصابعه، فقال له "مافينباو" مواسيًا بلسان أثقلته الخمر: "لا تخف، قم بطحني ثم ضعني على الجرح وسيتوقف النزيف"، ولقد تسببت كلماته تلك الناتجة عن السكر في حالة من الضحك بين الراقصين، أما "كويندية" فقد سال دمعه تأثرًا وقال: "إن جسدي مليء بالجراح، ومن حسن الحظ وجود "مافينباو" كبير مثلك، وإلا فكيف سأوقف نزيف ذلك الدم".

لم يكن "أنداور" يتناول الخمر قط، لكنه كان سعيدًا بزواج أخيه الأكبر، لذا رفع إناءه، فربت "مافينباو" على كتفه وقال: "إيه، لو كان لديَّ ابنتان لكان ذلك أفضل، "ليوشا" الكبرى و"ليوشا" الصغرى، واحدة أزوجها لـ"ويكيتيه" والأخرى لك، لتتزوجا أنتما الاثنان في اليوم نفسه".

فسأل "أنداور" بجدية: "هل كنت ستزوجني "ليوشا" الكبرى أم الصغرى؟".

وعلى الرغم من أن "أنداور" قد قارب الوصول لسن الزواج أيضًا، إلا أن طباعه البلهاء قليلًا لم تتغير، لذا كان سؤاله هذا مثار ضحك بين الجميع.

وفي تلك الليلة التي تم فيها الزفاف أنجبت الغزالة الأخيرة التي تركناها في المعسكر، لكنها أنجبت غزالًا مشوهًا، في العادة لا تنجب الغزلان السوداء غزلانًا مشوهة، أما الغزلان البيضاء فتميل إلى ذلك، وإن كان الغزال المشوه أنثى فهي تعبِّر عن الحظ السعيد، أما لو كان ذكرًا فهو يعبِّر عن المصائب. وفي العادة لا تعيش تلك الغزلان المشوهة طويلًا، حيث لا تتجاوز الأيام الثلاثة وتموت بعدها من تلقاء نفسها، وكانت "إيفولينا" قد وصفتها من قبل بـ"أشباح الغزلان الصغيرة"، وبعد أن تموت تلك الغزلان المشوهة لا يمكن إلقاؤها ببساطة مثل الأطفال الصغيرة حين تموت، بل يجب ربط أشرطة زرقاء على آذانها وذيولها ووسطها ورقابها، ثم اختيار شجرة بتولا مستقيمة وتعليقها عليها واستدعاء الكاهن كي يرقص رقصة الآلهة من أجلها.

إلا أن تلك الغزالة الأم التي ولدت غزالًا مـشوَّها لم تكـن بيـضاء خالـصة، بـل كان يشوبها بعض من اللون الرمادي، وكان الغزال المشوه الذي أنجبته ذكرًا أبيض كالثلج له رأس وليس له ذيـل، ولـه ثلاثـة أقـدام فقـط، كـما كـان وجهـه معوجًـا فكانت لديه عين كبيرة وعين صغيرة. وعندما سمع أبناء القبيلة أن "لاجيمـي" قـد استقبل غزالًا مشوهًا عند ضفة النهر تركوا الرقص وتدافعوا لكي يروا الأمر، عندها تغير لون وجه كل من رآه من الكبـار، لم يكـن ذلـك الغـزال قـادرًا عـلى الوقـوف فتكور تحت أقدام أمه مثل كتلة من الـثلج، ومـا إن ألقـت عليـه "ماريـة" نظـرة حتى صرخت وقالت بصوت مرتعش: "متى تعود نيخـاو؟"، وعنـدما كانـت تنظـر لذلك الغزال المشوه وعلى الرغم مـن ترنحهـا إلا أنهـا لم تحـتَج إلى مـن يـسندها، لكنها حين غادرت ضفة النهر استندت على "داشي".

أما "والواجيا" فقد خشي أن يخفـف مولـد الغـزال المـشوه مـن فرحـة زفـاف "ويكيتيه"، لذا قص على الجميع أسـطورة، لم أكـن أعـرف وقتهـا أنهـا كانـت مـن تأليفه.

في الماضي البعيد كانت هناك بجعة بيـضاء جميلـة أفرخـت عـشًا مـن البجـع الصغير، وكان كله أبيض كالثلج، إلا أن إحداها كانـت قبيحـة للغايـة، فقـد كانـت أرجلها قصيرة ورقبتها قصيرة أيضًا ويغطي جسدها زغب رمادي وأسـود، فعزفـت البجعات الأخريـات عنهـا. لكـن البجعـة البيـضاء لم تنفـر منهـا، بـل اسـتمرت في إطعامها باهتمام، وكبرت البجعات الصغيرات يومًا بعد يوم وأصبحت قـادرة عـلى الـذهاب مـع أمهـا للنهـر لـصيد الـسمك. وذات يـوم بيـنما كانـت البجعـة الأم تصطحب صغارها للعب فـوق ميـاه النهـر هبـت ريـاح عاتيـة، فقـد انقـض مـن السماء صقر شرس انـدفع تجـاه البجعـة البيـضاء وحملهـا بـين مخالبـه، ففزعـت البجعات الصغيرات وهربت متفرقة، إلا تلك البجعة القبيحـة التـي تقـدمت لإنقـاذ أمها، لكنها كانت ضعيفة فلم يعد بحيلتها سوى التحديق في الصقر وهو يحمـل الأم مبتعدًا، عندها هدأت الرياح على صفحة النهر، وتجمعت البجعات الصغيرات ثانيةً لتلعـب سـويًّا، مـا عـدا تلـك البجعـة القبيحـة التـي انفطـر قلبهـا ووقفـت عـلى

ضفة النهر تصيح حزنًا، فجذب صوتها انتباه صياد كان يمر بالمكان فسألها: "لماذا تبكين؟"، فقالت إن أمي قد اختطفها صقر إلى الصخور الموجودة على الضفة المقابلة للنهر، وأجنحتي ليست قوية بعد فلا أستطيع إنقاذها، أرجوك أن تنقذ أمي"، فقال الصياد: "إن إنقاذك لأمك قد يكلفك حياتك، ألا تخافين؟"، فقالت: "يكفي أن تنقذ أمي من بين براثن الصقر لأوافق على الموت". عندها عبر الصياد النهر ووصل إلى سفح الجبل وأرسل سهمه تجاه الصقر أعلى الصخور فسقط مجندلًا وتم إنقاذ البجعة الأم، أما تلك الصغيرة القبيحة فقد ماتت بالفعل على ضفة النهر، وبعد أن أخبر الصياد البجعة الأم بكل شيء بكت، ورجته أن ينقذ صغيرتها، فقال الصياد: "لو أنقذتها فستفقدين مجموعة الصغار التي تلهو على سطح الماء تلك، كانت البجعات الصغيرات تلهو وقتها غير عابئة بشيء"، فردت الأم: "لا أعبأ بفقدانها من أجل إعادة صغيرتي إلى الحياة"، فضحك الصياد ولم يقل شيئًا واستدار مغادرًا، وما إن غادر حتى ارتفع الماء بجنون، وضربت الأمواج البجعات الصغيرات فأطلقت صيحات الفزع، أما البجعة القبيحة الميتة على ضفة النهر فقد تحركت أجنحتها ثانيةً ونهضت ببطء وعادت للحياة، وما يدعو للدهشة هو أن تلك البجعة القبيحة صارت بيضاء جميلة ذات رقبة طويلة، أما تلك البجعات الميتة على سطح النهر فقد صارت سوداء ورمادية اللون فبدت أشبه بقمامة طافية.

هزت تلك القصة مشاعر كل الموجودين، لذا لم يعد أحد حزينًا، وكان "يرنسينيه" هو الأكثر سعادة فأشار إلى الغزال المشوه وقال: "أنا أعرف أنك ستتحول غدًا إلى غزال لطيف، وستلمع عيناك أكثر من النجوم، أما قدمك الناقصة فستنبت مثل قوس قزح بعد الأمطار".

وفي اللحظة التي نزلت فيها كلمات "يرنسينيه" على الجميع مواسية لهم، أضاف كلمات أخرى جعلت الوجوه تتغير: "لو واجهت "إيني" أي مخاطر فإنني أوافق أن أموت بدلًا منها مثل تلك البجعة القبيحة".

وهكذا خيم جو من الكآبة على ليلة زواج "ويكيتيه" و"ليوشا" بسبب ذلك الغزال المشوه. كنا نعلم أنه سيعيش لثلاثة أيام فحسب، لذا كنا نتطلع لعودة "نيخاو" في الوقت المناسب لكي ترقص له رقصة الآلهة بعد موته.

وفي الظهيرة أمطرت السماء مرة أخرى، كانت الأمطار في البداية خفيفة، بعدها ازدادت مع الوقت، في العادة تعد الأمطار بشرة خير إذا ما سقطت في ليلة الزفاف، لذا بعد أن عدت للخيمة وسمعت صوت الأمطار بدأ قلبي يهدأ تدريجيًّا بعد أن كان اضطرب بسبب ذلك الغزال المشوه.

هطلت الأمطار لليلة كاملة، ولم تتوقف إلا في الصباح. وعندما خرجت من الخيمة شعرت كأني دخلت إلى عالم العجائب، فقد غابت الجبال البعيدة والقريبة وسط ضباب أبيض، وأحاط الضباب بالمعسكر أيضًا حتى بدا الأشخاص المقابلون كالظلال، مما جعل المرء يشعر كأنه غادر الأرض وطار في الهواء. استيقظ "والواجيا" مبكرًا عني فقال لي إنه ذهب إلى النهر فوجد أن مياه نهر "جين" ارتفعت، وغرقت أشجار البتولا الموجودة على ضفته وسط المياه وانتشر ضباب كثيف على سطح النهر. وأضاف أن لو أمطرت السماء ليوم آخر فهو يخشى أن تتجاوز المياه مهد النهر، وربما لن نتمكن من الاستمرار في البقاء في هذا المعسكر، لذا يجب الاستعداد للارتحال نحو أعالي النهر المرتفعة في أي وقت.

كنت أفكر في ذلك الغزال المشوه، فسألت "لواجيا" عما إذا كان لا يزال على قيد الحياة، فأخبرني ضاحكًا أنه ليس فقط على قيد الحياة، وإنما تبدو عليه الصحة، فهو لم يعد بمقدوره الإمساك بحلمة ضرع أمه للرضاعة فحسب، بل صار بإمكانه السير لعدة خطوات، فاندهشت للغاية وقلت له: "كيف لغزال بثلاثة أقدام أن يسير؟"، فرد عليَّ: "إن كنتِ لا تصدقين فتعالي وشاهدي بنفسك".

ذهبت إلى ضفة نهر "جين"، كان الضباب هناك أكثر منه فوق الجبل، فكنت أسمع صوت خرير الماء لكنني لا أراه، وكان "لاجيمي" منهمكًا في وضع أغطية الرؤوس للغزلان، وكان هذا الغزال المشوه يسير بالفعل بشكل منحنٍ، وقال

"لاجيمي": "يبدو أنه يحب ذلك الضباب على النهر، فهو يسير دومًا تجاهه، إلا أنه لا يسير بعيدًا، بل يحاول السير لثلاث أو خمس خطوات ثم يسقط أرضًا"، لذا قلت له: "انتبه له جيدًا، ولو مات احمله للمعسكر في انتظار عودة "نيخاو"، إياك أن تتركه للغربان لتأكله".

عدو الضباب هو الشمس، لذا في فترة الظهيرة استطاعت أخيرًا أن تمزق وجه السحب، فلو قلنا إن الضباب مثل قطيع من الأفيال البيضاء الرحالة، فإن ضوء الشمس أشبه بالسهام الحادة التي ما إن تنطلق حتى لا يبقى أي جزء منه إلا وقد أصيب، وسريعًا ما يتم أسرها بواسطة أشعتها حتى يختفي كل أثرها، وما إن يصفو الجو حتى تصفو قلوب الجميع. ولو لم تمطر ثانيةً فسيمكننا البقاء في مكاننا ولن نحتاج للارتحال؛ لأن الطحالب في الجبال بهذه المنطقة وفيرة، فلا تحتاج الغزلان للسير بعيدًا لتجد ما تأكله، وهذا يجعلنا لا نحتاج للسير طويلًا للبحث عن الغزلان، فنحن بحاجة دومًا للبحث عنها لإرضاع صغارها بعد انتهاء موسم الولادة، لذا كان المعسكر القديم بلا شك ذا موقع مميز.

كان الأطفال يحبون ذلك الغزال المشوه، وما إن انقشع الضباب حتى تسابقوا إلى ضفة نهر "جين" لرؤيته. ولقد جاءت "داجيانا" بكلٍ من "بايرنا" و"ما إيكان"، ثم صنعت حلقة من عشب أخضر ووضعته على رقبة الغزال لكي لا يتلوى، أما "يرنيسينيه" فقد جاء بنار لكي يطرد عنه الناموس.

عندما وقعت الحادثة لـ"يرنيسينيه" والغزال المشوه كان ذلك في وقت الغسق، وقتها كنا مشغولين بالعشاء في المعسكر، فرأينا "داجيانا" و"بايرنا" قادمتين من ناحية ضفة النهر وهما تبكيان، وقالتا إن النهر ابتلع "يرنيسينيه" والغزال الصغير ولم يُرَ لهما أثر. أخذ "ويكيتيه" القارب وذهب خلفهما.

وكان ما حدث أنه عندما مالت الشمس ناحية الغرب قالت "ما إيكان" إنها جائعة، فاحتضنها "لاجيمي" وعاد بها للمعسكر ليعد لها بعض الطعام، وقبل الرحيل أوصى "داجيانا" ومن معها بأن ينادوا عليه إذا ما حدثت أي مشكلة للغزلان.

كانت "داجيانا" و"بايرنا" في البداية مع "يرنيسينيه" يلتفون حول الغزال الصغير ويلعبون، بعدها شاهدتا "ويكيتيه" وهو ممسك بشوكة صيد الأسماك فعرفتا أنه ذاهب لصيد السمك من أجل "ليوشا" التي تعشق أكله، فجريتا نحوه لمشاهدته، وبعد ارتفاع المياه تصبح الأسماك أكثر من المعتاد، اختار "ويكيتيه" منطقة منحنية من النهر، فهناك تيار مرتد فيها لذا تصير الأسماك بها مثل الطائر الذي حُبس في قفص فتتقافز هناك ويصير من السهل اصطيادها. وقف فوق صخرة في منتصف المياه، وكلما غرس شوكته في سمكة ألقاها ناحية الضفة لتقوم "داجيانا" و"بايرنا" بربطها باستخدام فروع الصفصاف، وكانت هناك أسماك لم تمت من الضربة، لذا ظلت تحرك رأسها وتضرب بذيلها بعد أن رُميت إلى الضفة، وعندما كانت "داجيانا" و"بايرنا" تمرران الفروع في تلك الأسماك كانتا تصدران ضحكات متصلة، فقد كانت تلك الأسماك تضرب وجهيهما بذيولها لتضع فوقه طبقة بيضاء من سائل لزج.

إن صيد السمك بالشوكة عمل يتطلب عينًا حادة ويدًا سريعة، لكن "ويكيتيه" كان يقوم بالأمر بكل سهولة، فقد كان يغرس الشوكة باتزان ودقة، ولقد ازدادت الأسماك المرمية إلى الضفة حتى إن "داجيانا" و"بايرنا" لم تلاحقا على العمل، فقالت "داجيانا" لـ"بايرنا": "لدينا كل هذه الأسماك، إذًا يجب أن نصنع طوقًا من السمك لكي يرتديه ذلك الغزال المشوه بدلًا من ذلك الطوق العشبي"، فردت "بايرنا": "حسنًا، فلو ارتدى طوق الأسماك ربما سيعتدل وجهه"، فتعالت ضحكاتهما، وهنا تعالت صيحات "يرنيسينيه": "ارجعوا ارجعوا".

وقتها كان "ويكيتيه" في أعالي النهر يصطاد السمك، أما "يرنيسينيه" فكان مع الغزال المشوه في أسفل النهر وبينهما مسافة جبل لذا كان يمكن رؤية أسفل النهر بوضوح، فقط رأينا ذلك الغزال وقد ركض بسرعة من الضفة وقفز للماء في لمحة بصر. في تلك اللحظة بدا كأنه قد صار سمكة ضخمة. أما

"يرنيسينيه" فقد كـان يـصرخ ويـركض ويطـارده إلى داخـل النهـر، وعنـدما وصـل الغزال والطفل إلى منتصف النهر يبدو أنهما قابلا دوامة فظـلا يلفـان ويغطـسان ويبرزان، حتى صعب التفريق من الغزال ومن الطفل، عندها صاح "ويكيتيه": "يا للسماء"، ثم قفـز بـسرعة إلى الـضفة وألقـى بـشوكة الأسـماك مـن يـده. وعنـدما هرولنا نحن الثلاثة تجاه أسفل النهر كانت المياه العارمة قد ابتلعت "يرنيـسينيه" والغزال، فسحب "ويكيتيه" قارب لحاء البتولا الموضوع بـين الأشـجار، ووضـعه في الماء وقفز فيه بسرعة وقـاده لإنقـاذ الطفـل، أمـا "داجيانـا" و"بايرنـا" فقـد عادتـا للمعسكر لإبلاغ الخبر.

تدافعنا تجاه ضفة النهر، كانت الشمس قد غابت حتى منتصفها فـصبغت المياه ناحية الغرب باللون الأصفر، فبدا النهر كأنه انقسم إلى نصفين، نصف أزرق ونصف أصفر. لذلك وبعد سنوات عديدة حين كنت أذهب لمتاجر بلدة "جيليـو" وأرى الأقمشة الفاتحة والغامقة المعلقة أمام متاجر القماش كنت أتذكر نهر جين الذي رأيته في تلك اللحظة، فقد كان النهر في تلك اللحظة يشبه كثيرًا قطعتين من القماش إحداهما فاتحة والأخرى غامقة موضـوعتين عـلى بعـضهما. لكـن متـاجر القماش كانت محدودة مغلقـة، أمـا النهـر فكـان مفتوحًـا وممتـدًا إلى أمـاكن لا نراها.

حمل كلٌّ من "والواجيا" و"مافينباو" قاربًا وذهبا للبحث عن "يرنيسينيه"، أمـا نحن فقد انتظرنا على ضفة النهر والقلق يلتهمنـا، وقـد غلـف الـصمت الجميـع. فقط "بايرنا" ظلت تقول لـ"داجيانا" مرارًا وتكرارًا: "هذا الغزال بالتأكـد نبتـت لـه قدم أخرى، لقد رأيناه جميعًا، لقد ركض أسرع مـن "يرنيـسينيه"، لـو لم تكـن لـه أربع أقدام فأنى له الركض بتلك السرعة؟ أليس كذلك؟". كانت ترتعش وهي تقول تلك الكلمات، أما نحن فكنا نرتعش ونحن نسمعها.

غابت الشمس وأخذت معها الأضواء اللامعة المتلألئة على سـطح المـاء، فعـاد لون النهر ليصبح لون نهـر صـافٍ، ولكنـه بـدا قاتمًـا قـديمًا بـسبب لـون الـسماء،

وبدا صوت خرير الماء أشبه بشخص يستعمل سكينًا، ذلك السكين يوخز قلوبنا، كان مؤلمًا للغاية.

ظهرت النجوم أيضًا وظهر معها القمر، ولم يعد الرجال الذين ذهبوا للبحث عن "يرنيسينيه"، لكن "لوني" و"نيخاو" وقفا خلفنا، وكانت الجملة الأولى التي قالتها "نيخاو" حين رأتنا: "لا داعي للانتظار، لقد رحل يرنيسينيه".

ما إن انتهت من جملتها حتى ظهر على صفحة الماء قاربان بدوا أشبه بسمكتين عملاقتين تسبحان نحونا، وكان هناك أربعة أشخاص على متنهما، ثلاثة واقفين ورابع راقد. أما ذلك الراقد فقد كان راقدًا للأبد، لقد كان "يرنيسينيه".

وعلى الرغم من أن مياه النهر قد غسلت جسده مرات ومرات إلا أن "نيخاو" استخدمت مياه النهر لغسل جسده مرة أخرى، وألبسته ملابس أخرى، ثم قمت أنا و"والواجيا" بوضعه في كيس قماشي أبيض وألقيناه على المنحدر الجنوبي لجبل "ليسيوانكيه". لذا كان هذا الجبل الذي سمي تخليدًا لزواج "ويكيتيه" و"ليوشا" في نظري مجرد مقبرة.

ولقد قالت "نيخاو" إن "يرنيسينيه" قد مات من أجل انقاذها، فعندما كانت عائدة للمعسكر هي و"لوني" على ظهر الغزال، كانت ترغب بشدة في رؤية أطفالها في أسرع وقت ممكن، ومن أجل الوصول سريعًا للمعسكر اتخذا طريقًا أقرب، وسارا فوق طريق من الحصى الأبيض يصعب السير فيه، كان هذا الطريق ضيقًا ومتعرجًا، وعلى جانبه حائط صخري، أما الجانب الآخر فكان واديًا سحيقًا. في العادة لا نسير في هذا الطريق لو لم يكن هناك أمر طارئ. حتى الغزلان كانت أقدامها ترتعش حين تصل لذلك الطريق الصغير.

كان الطريق زلقًا رطبًا نتيجة لتساقط موجتين من الأمطار، لذا مشيا ببطء وبحذر. لكن هذا الطريق كان ضيقًا للغاية، بالإضافة إلى مياه الأمطار التي جعلت تربة جوانبه مفككة، لذلك وعند أحد المنحنيات زلت قدم الغزال الذي

يحمل "نيخاو" والذي كان يسير في المقدمة في بقعة طين على جانب الطريق، فانحنى جسده وسقط هو و"نيخاو" في الوادي السحيق. ولقد قال "لوني" إنه كان يراها هي والغزال أمامه، وفي طرفة عين لم يعد يراهما، ففزع قلبه، إن الوادي عميق للغاية، ولو سقطا فيه فستكون نهايتهما. لكن المعجزة حدثت، فقد سقط الغزال حتى باطن الوادي ومات، لكن "نيخاو" تعلقت في فرع شجرة بتولا سوداء تبعد عن الطريق بمسافة قريبة. فأنزل "لوني" حبلًا وجذبها إلى الأعلى، وما إن صعدت حتى انفجرت في البكاء وهي تقول له: "لا بد أن خطبًا ما أصاب "يرنيسينيه"، فشجرة البتولا السوداء حين اعترضت طريقها رأت تلك الشجرة وقد مدت ذراعين في لحظة خاطفة، كانت تلك ذراعي "يرنيسينيه"، ولقد كان اسمه يعني شجرة البتولا السوداء".

عندما وقعت تلك الحادثة لـ"نيخاو" كان الوقت وقت الغسق، وهو بالضبط الوقت الذي ابتلعت فيه مياه النهر "يرنيسينيه". قال "لوني" إنه تفحص تلك الشجرة مرات ومرات فوجدها قوية متينة مثل "يرنيسينيه"، لكنه من الأعلى لم يرَ تلك الأذرع التي ذكرتها "نيخاو"، لقد كان يتمنى أن يحتضن ذراعي ولده الدافئتين.

هذا الغزال المشوه بالفعل جلب لنا الشؤم.

في تلك الليلة التي فطرت القلوب، وفي اللحظة التي خيم الصمت والحزن والألم على الجميع حتى زهدوا في الطعام والشراب، أشعلت "إيفولينا" نارًا في المعسكر لتشوي البط البري الذي اصطاده "كويندية" في النهار، وشربت الخمر وهي تأكل. كانت رائحة اللحم المشوي أشبه بالطلقات التي تخترق قلوبنا الحزينة. وظلت هي تشرب حتى وصل القمر إلى الغرب، حينها فقط عادت إلى الخيمة مرتعشة مترنحة. وعندما كانت تسير نحو الخيمة سمعت صوت بكاء "نيخاو"، فتوقفت ورفعت رأسها ناظرةً للسماء، وضحكت عدة مرات بصوتٍ عالٍ، ورقصت وهي تصفق بيدها وتقول: "جينديه، اسمع، اسمع جيدًا، من الذي يبكي؟ المرأة التي أردتها

والمرأة التي لم تردها، أيهما تعيش حياة أفضل؟ "جينديه"، استمع جيدًا لصوت البكاء هذا، إنني لم أسمع من قبل صوتًا بهذا الجمال يا "جينديه".

كانت "إيفولينا" في تلك اللحظة أشبه بشيطان، فقد كانت سعادتها بمأساة المرأتين اللتين لهما علاقة بـ"جينديه" تجعل المرء يشعر بالألم.

وقتها كنت أجلس أنا وعائلة "مارية" بجوار موقد النار، وحين سمعنا نداءات "إيفولينا" الشامتة، استشاطت "مارية" غضبًا حتى سعلت، فخبطت "جيفولينا" برفق على ظهرها، وعندما خفت سعالها أمسكت "مارية" بيدها وقالت بأنفاس متقطعة: "يجب أن تنجبي لي طفلًا، أنجبي لي طفلًا، أريدك أن تعيشي أنتِ و"داشي" في خير حال لترى "إيفولينا" كم أنتما سعيدان".

لم أكن أتخيل أن تتسبب أحقاد "إيفولينا" المتنامية في أن تسامح "مارية" زوجة ابنها.

عندها أمسك "داشي" و"جيفولينا" كلٌّ منهما بيد "مارية" وأجهشا في البكاء تأثرًا.

وعندما غادرتُ "مارية" عائدة لخيمتي سمعت "نيخاو" تغنى أغنية الآلهة.

"أيا أكياس القماش الأبيض
لم لا تمتلئي بالحبوب واللحم المجفف
لماذا تسحقين زهرة الليل
وتقطعين شجرة البتولا السوداء التي تخصني
لتضعيها في جيبك القذر".

سريعًا ما غادرنا جبل "ليسيوانكيه" وغادرنا نهر "جين"، ولكن لم نتجه عند الارتحال في تلك المرة إلى اتجاه واحد، بل انقسمنا لطريقين، قاد أحدهما "والواجيا"، وقاد الآخر "لوني". لقد آلمت صرخات "إيفولينا" المجنونة في تلك الليلة قلوب الجميع، لذا قال "لوني" إنه لا بد من الفصل بين "مارية"

و"إيفولينا". لذا أخذ "لوني" معه "مارية" وعائلتها، و"أنداور" وبعض الأفراد من قبيلة "والواجيا". لم أوافق أن يفترق عني "أنداور"، لكن يبدو أنه كان يحب "لوني" أكثر، وكنت أحترم رغبات الأطفال فيما يحبون.

أما أكثر من كانت معترضة على السير مع "لوني" فكانت "بايرنا"، فقد كان يعز عليها فراق "داجيانا" و"ما إيكان"، لذا عند الفراق بكت كثيرًا، فقلت لها: "على الرغم من افتراقكم إلا أنكم ستظلون في أماكن قريبة، وستقابلين "داجيانا" كثيرًا"، عندها فقط توقفت عن البكاء.

عندما شاهدت "إيفولينا" "لوني" يقود مجموعة من الغزلان والأشخاص في اتجاه آخر، وشاهدت "مارية" من بينهم صارت في منتهى الشراسة والعدوانية كالمحارب الذي فقد عدوه فجأة، وسبَّت "لوني" قائلة إنه سيفرق القبيلة وإنه مجرم، كانت قد سبَّت "لاجيدا" بالكلمات نفسها من قبل.

لكن "لوني" لم يعرها اهتمامًا، عندها التفتت نحو "بايرنا" وطرقت على رأسها قائلة: "لو مشيتِ معهم هل سيكون مصيركِ جيدًا؟ ما إن ترقص "نيخاو" رقصة الآلهة حتى تفقدي حياتك".

كانت "بايرنا" قد توقفت عن البكاء، لكن كلمات "إيفولينا" أفزعتها فبكت ثانيةً، عندها تنهدت "نيخاو" واحتضنتها. وعلى الرغم من ضوء الشمس الساطع الذي كان يغمر وجهيهما، إلا أن لونهما كان شاحبًا.

كان "كويندية" قد توقف عن الكلام مع "إيفولينا" منذ فترة طويلة، إلا أنه في تلك المرة أمسك فجأة بسكين صيد وسار حتى وصل أمامها ولوح بالسكين قائلًا: "لو جرؤتِ على التفوه بكلمة أخرى فأقسم أن أنتزع لسانكِ وأطعمه للغربان".

عندها عوجت "إيفولينا" رأسها ونظرت إليه وضحكت ببرود ثم أغلقت فمها.

وفي ربيع العام التالي عاد "إيوان". لم نره لعدة سنوات، كـان قـد نحـف كثـيرًا وأصابته الشيخوخة أيضًا. وعندما رأته "إيفولينا" صرخت "أي يوه" وقالـت: "هـل لم تعد رواتب الجندية كافية للعيش فعدت للجبال ثانيةً؟".

فأخبر "إيوان" "كويندبه" أنه لم يعد في الجيش، فسأله "كويندبه" عمَّا إذا كان قد ارتكب خطأ ما فتم فصله، فقال إنـه فقـط لم يعتـد عـلى تنـاول الطعـام عـلى موائد في غرف مغلقـة، وإغـلاق الأبـواب والنوافـذ بإحكـام عنـد النـوم في المـساء لدرجة لا تسمع معها حتى صوت الرياح. بالإضافة إلى أن الجيش دائمًا مـا يعرفـه على نساء، تلك النسوة كلهن كأنهن نقعـن مـن قبـل في دواء، لا طعـم لهـن. ثـم أضاف أنه لو بقي هناك أكثر فسيموت مبكرًا، بالإضافة إلى أن علاقته الحزبية قـد استقرت أخيرًا في "مانجويه"، فأصبح بإمكانه الحصول على راتب آخر مـن هنـاك، وهو أعلى بكثير من الدعم الشهري المقدم للصيادين.

ثم قال "إيوان" موجهًا كلامه لـ"كويندبه" إنه يخشى ألا تظل الغابات والجبال هادئة بعد الآن؛ فقد أتى كثير من عمال الغابات إلى "مانجويـه"، وهـم يـستعدون للدخول للجبال لقطع الأشـجار لتطـوير منطقـة "داشـينج أنليـنج"، كـما أتى أيـضًا جنود استعدادًا لمد خطوط الـسكك الحديـد والطـرق العامـة إلى داخـل الجبـال، وذلك استعدادًا لنقل الأخـشاب إلى الخـارج. فـسأل "ويكيتيـه": "مـاذا سـيفعلون بالأشجار بعد قطعها؟"، فرد "إيوان": "الناس خارج الجبل كثيرون، وهم يحتـاجون للمنازل، دون الأخشاب كيف ستُبنى البيوت؟".

عندها خيم الصمت على الجميع، فقـدوم "إيـوان" لم يجلـب لهـم الـسعادة، لكن يبدو أنه لم يحس بمشاعر الجميع المنقبضة، فقص علينا أمرين آخرين، الأول متعلق بـ"وانجلو" و"لوديه"، والثاني متعلق بـ"لينجموشيونان".

فقال إن "وانجلـو" و"لوديـه" لم يعـدما، ولكـن تـم الحكـم علـيهما بالـسجن، أحدهما عشر سنوات والثاني سبع. وعند نطق رقمي عشرة وسبعة بـدا أن لـسانه تصلب قليلًا.

أما القصة المتعلقة بـ"لينجموشيونان" فقد كانت كالتالي، فقد ذكر أنه قد تـم أسره أثناء هروبه، وتم أسر العديد من الجنود اليابانيين معـه، ثـم تـم نقلهـم إلى الاتحاد السوفييتي ووضعهم مع الأسرى الألمان لبنـاء سـكك حديـد سـيبريا. وكـان "لينجموشيونان" يشتاق لوطنه ويشتاق لأمه العجوز ويرغب في العـودة لليابـان، ومن أجل تحقيق ذلك تعمد أن يكسر ساقه بوضعها تحت كتـل الخـشب، فـصار أعرج ولا يستطيع بناء السكك الحديد فتم ترحيله إلى اليابان.

وبعد أن قص "إيوان" ما حدث لـ"لينجموشيونان"، تنهد "كويندیـه" وقـال إن ذلك الرجل سيسير ليلًا لما تبقى من حياته. أما "لاجيمي" فقد قال: "لم أكن أتوقع أن يصير معاقًا مثلي".

ولقد بقي "إيوان" لدينا لثلاثة أيام فقط بعدها ذهب لزيارة "لوني".

في ذلك العام رُزقت بحفيد، فقد أنجبت "ليوشا" صبيًّا صحيحًا وطلبت مني أن أسميه، وما إن فكرت في أبناء "نيخاو" الضعفاء الذين سمتهم على أسماء زهور وأشجار، حتى اخـترت لـه اسـم "جيويـوا" (وتعنـي الـشهر التاسـع)، فقـد وُلـد في "سبتمبر"، فقد فكرت في أن الآلهة من السهل أن تختطف الزهور والأشجار، لكنها تعجز عن أخذ الشهور، فالسنة بغض النظر عمَّا إذا ما كانت جيـدة أم سـيئة فـلا يوجد بها أي شهر من الشهور الاثني عشر يمكن اقتلاعه بسهولة.

كان "إيوان" محقًّا، ففي عام 1957 دخل عمال الغابـات وسـكنوا بالجبـال. لم يكونوا على دراية بجغرافية الأرض، كما أن حمل المعدات والأشياء المطلوبة للبنـاء هـو أمـر مجهـد للرجـال، لـذا كنـا نعمـل كـأدلاء لهـم، ونـستخدم الغـزلان لـكي نساعدهم في نقل الخيام وغيرها من المعدات. ولقد قاد "والواجيا" رجـال القبيلـة لثلاث مرات من قبل ومعهم الغزلان لكي ينقل أشياءً لهم، وفي كل مرة كان يغيب نصف شهر.

ومنذ ذلك الوقت صدح صوت قطـع الأشـجار، ومـا إن يحـل موسـم تـساقط الثلـوج حتـى يمكـن سـماع صـوت المناشـير والبلاطـي، وتتهـاوى أشـجار الـصنوبر

الضخمة على الأرض واحدة تلو الأخرى، ومدت الطرق المخصصة لنقلها واحدًا تلو الآخر، في البداية كان يتم استخدام الخيول لجر الأخشاب غير المصنعة نحو الطرق المخصصة للنقل، بعدها دخلت الجرارات، إن قوتها تفوق الخيول، فبإمكانها جر بضع عشرة شجرة في المرة الواحدة. وكل الأشجار التي يتم جرها من قلب الجبال كانت تُحمَل في سيارات نقل طويلة وتُنقل إلى خارج الجبال.

كنا نحن والغزلان نعشق الهدوء، لذا من وقتها صار ارتحالنا في الغابات متكررًا بمجرد بدء موسم قطع الأشجار. كنا نذهب بحثًا عن المناطق النائية الهادئة، لكن لم تكن كل الأماكن النائية صالحة لتكون معسكرًا، فكان يجب أولًا أن نرى إذا ما كانت هناك طحالب يمكن أن تأكلها الغزلان، وثانيًا يجب أن تكون المنطقة صالحة للصيد. ومن وقتها أصبحنا نحب الربيع أكثر، فقطع الأشجار ينتهي بحلول الربيع، وتستعيد الغابة هدوءها.

وفي عام 1959 بنت الحكومة لنا عدة مساكن من الخشب في "وتشيلوافو"، وبدأ بعض أفراد العشائر في الذهاب للسكن هناك على مراحل متفرقة، لكنهم كانوا دائمًا لا يسكنون هناك طويلًا، فهم يفضلون حياة الجبال. لذلك كان أكثر من نصف تلك المنازل خاليًا، ونادرًا ما ينبعث منها الدخان. كانت هناك مدرسة ابتدائية يمكن لأطفال صيادي الـ"إيوينكيه" أن يذهبوا إليها مجانًا، لذا اقترح "والواجيا" أن نُدخل "داجيانا" هناك.

اختلفت في الرأي معه في مسألة الالتحاق بالتعليم، فقد كان يرى أن الأطفال يجب أن يتعلموا في المدرسة، أما أنا فكنت أرى أن الأطفال في الجبل سيتعلمون كل أنواع النباتات والحيوانات ويتفهمون كيف يتعايشون معها في سلام، وسيتمكنون من رؤية علامات تغير الرياح والبرد والأمطار والثلوج، وكل هذا يعتبر تعليمًا. لقد كنت ولا زلت أؤمن باستحالة معرفة عالم مضيء سعيد من الكتب، لكنه قال إن الإنسان الذي يمتلك المعرفة سيمتلك الأعين لرؤية الضوء في هذا العالم.

لكني كنت أرى أن الضوء موجود على الرسوم الصخرية بجوار النهر، موجود في تلك الأشجار المتصلة واحدة بالأخرى، موجود في قطرات الندى فوق الأزهار، موجود في النجوم في سقف الخيمة المدبب، موجود فوق قرون الغزلان، لو كان مثل هذا الضوء ليس ضوءًا، إذًا فما الضوء؟

في النهاية لم تذهب "داجيانا" للمدرسة، لكن "والواجيا" بدأ في تعليمها القراءة هي و"ما إيكان" في أوقات فراغه، لقد استخدم فروع الأشجار أقلامًا، واستخدم الأرض ورقًا، وكتب عليها بعض الرموز وعلمهم كيف يقرآنها، فكانت "داجيانا" تحب تعلم الرموز، أما "ما إيكان" فلم تكن كذلك، بل كانت تسمعه حتى يصيبها النعاس، ولقد أشفق "لاجيمي" عليها فلم يدعها تتعلم ثانيةً، قائلًا إن "والواجيا" قد دس بعض النمل في عقلها، وهو لن يدع ذلك النمل يؤذي ابنته المحبوبة.

وفي منتصف خريف عام 1959 جاء "لوني" فجأة بحثًا عني ليدعوني إلى زفاف "أنداور".

كانت هناك فتاة ممن ذهبوا مع "لوني" اسمها "واشيا"، وكانت أكبر من "أنداور" بثلاث سنوات، وهي من قبيلة "والواجيا". كانت فتاة كثيرة الكلام والضحك، وكانت أطول من "أنداور" ومحبة للتزين، ولقد قال "لوني" إن أحدًا لم يتوقع أن يتزوجها "أنداور"، لأنها كانت مخطوبة بالفعل.

فذات يوم في الصيف نقصت الغزلان العائدة للمعسكر ثلاثة، فجمع "لوني" شباب القبيلة للخروج بحثًا عنها. ولقد غادر الجميع قبل الظهيرة، ووجدوها بعد الظهر، لقد عثروا على الغزلان لكنهم أضاعوا أشخاصًا، حيث لم يعد كلٌّ من "أنداور" و"واشيا". لم يكن أحد يعرف متى انفصلا عن الجمع، فقال "لوني" إنه يعرف أن "أنداور" طفل صالح مؤدب لن يفعل شيئًا يخرج عن حدود الأدب، كما أن "واشيا" مخطوبة، لذلك فهو متأكد أنه لن يحدث أي شيء وهما معًا. ولقد عادا قرب المساء، وكان الشرود باديًا على "أنداور"، وعلى وجهه

خطوط جروح كما لو كان أحدهم قد خمشه، وبسؤاله قال إنه احتك ببعض أشواك شجر البرقوق، أما "واشيا" فكانت تبدو كمن شرب ماء ينابيع باردًا في يوم صيفي حار، كانت في غاية السعادة، وأخبرت الجميع أنها و"أنداور" سارا في طريق خاطئ لذلك عادا متأخرين.

وبعد أكثر من شهر بدأت "واشيا" في التقيؤ كل يوم صباحًا، فاعتقد الجميع أنها أصيبت بمرض في المعدة، فقاموا بجمع عشب "لسان الذئب" وغلوه لتشربه. ومر شهران آخران، وفي الخريف كبر بطنها، عندها فهم الجميع ما الذي بداخل ذلك البطن وتذكروا واقعة عودة "أنداور" و"واشيا" وحدهما للمعسكر، فذهب والد "واشيا" بحثًا عن "أنداور" وقال إنها مخطوبة وإنك بفعلتك تلك كمن دفعها من فوق الهاوية، ثم ضربه حتى تورم وجهه وازرق أنفه، لكن "أنداور" لم يفهم ما الخطأ الذي ارتكبه، وأضاف أنه لم يكن يرغب في فعل ذلك لكن "واشيا" أخبرته أنه أمر رائع، ثم قال إنها في ذلك اليوم بادرت بخلع سروالها وضمته إلى أحضانها، وهو لم يكن يعرف كيف يقوم بالأمر فعلمته، وكانت وقتها في غاية السعادة، حتى إنها في لحظة صارت كالمجنونة وظلت تصيح بصوتٍ عالٍ "أنداور أنداور" وهي تخربش وجهه بيدها مسببة له جروحًا، ثم نصحته أن يخبر أي شخص يسأله عن تلك الجروح أنها بسبب أشواك شجر البرقوق.

ثم قال "لوني" إن "واشيا" أخبرته برواية مختلفة، فقالت إنها كانت مجبرة وإن "أنداور" اغتصبها. ثم أضاف، بغض النظر عما حدث، لقد حبلت بطفل من "أنداور"، لذا أصبحت خطوبتها هي والعدم سواء، ووجب على "أنداور" أن يتزوجها. كان هذا زواجًا غير مرضي عنه من الطرفين، فقد قال "أنداور" إنه لا يرغب في الزواج من امرأة كاذبة، وقالت هي باكية إنها لا تريد الزواج من أحمق.

وعندما ذهبت عند "لوني" سألت "أنداور": "هل توافق على الزواج من "واشيا"؟"، فقال: "لا أوافق، فهي تخربش حين تكون سعيدة، كما أنها كاذبة".

فقلت له: "لكنك تسببت في حملها بطفل لك، لذا وجب عليك الزواج منها".

عندها غطى وجهه بكفيه وبكي بلا صوت. وعندما رأيت الدموع المندفعة من بين أصابعه شعرت بقلبي يتمزق. وبعد أن انتهى من البكاء هز برأسه تجاهي موافقًا على ابتلاع تلك الثمرة المرَّة التي زرعها بنفسها.

وعندما كانت "نيخاو" تقوم بمراسم زواج "أنداور" و"واشيا"، ظل مطرقًا برأسه، أما "واشيا" فقد ظلت تلكزه بقدمها، وكانت "مارية" تسعل وهي تشير بإصبعها وهي تقول لها: "ثبتي أقدامك وإلا فقد يصيب الطفل مكروه". لم أكن أرغب في أن تستمر "مارية" في كلامها لئلا يحزن "أنداور" أكثر، لذا ناولتها وعاء خمر، وكانت "مارية" قد هرمت حقًّا، لقد شربت بشكل متقطع لعدة مرات، ولم تنتهِ إلا من نصف الوعاء فقط، كما أن يدها التي تمسك به كانت أشبه بجذوة نار تعرضت لرياح باردة، فكانت ترتعش باستمرار.

وبعد انتهاء زفاف "أنداور" عدت إلى قبيلتنا. ولكن بعد شهر، وعندما كست الثلوج الجبال بحجاب أبيض فضي، دعاني "لوني" للذهاب ثانيةً، لكن في تلك المرة للمشاركة في جنازة.

لقد ماتت "مارية"، وعند رحيلها أمسكت بيد "جيفولينا" طويلًا حتى لفظت أنفاسها الأخيرة، حينها فقط تراخت يدها ببطء.

وحتى موتها لم ترَ طفل "داشي" الذي تمنته طويلًا، لقد رحلت وعيونها مفتوحة.

وأثناء تلك الجنازة أخبرني "لوني" أن "نيخاو" حبلى ثانيةً، ولقد ارتعشت شفتاه قليلًا حين أخبرني بتلك الكلمات، فالحمل بالنسبة للآخرين هو أمر سعيد، لكن الخوف كان قد سيطر عليهما، فقلت لـ"نيخاو": من الآن فصاعدًا اعتبري أطفالك هم أطفال الآخرين، واعتبري أطفال الآخرين أطفالك، وسيكون كل شيء على ما يرام، ولقد فهمت "نيخاو" مغزى كلماتي فقالت بحزن: "وأنا أيضًا لا يمكنني أن أقف مكتوفة الأيدي وأنا أرى أطفالي يعانون".

فأدركت أنا أيضًا أنها تقصد بـ"أطفالي" أطفال الآخرين.

صعدت "مارية" إلى السماء، وكان "إيوان" وقتها غير قادر على السير بسبب إصابته بالروماتيزم وتشوه مفاصل الركبة، لذا ذهب إلى خارج الجبل للاستشفاء، كما أن الأسرتين من قبيلة "والواجيا" اللتين بقيتا مع "لوني" قد رحلتا إلى "وتشيلوافو"، فأصبح المكان عند "لوني" خاويًا، فقلت له: "مارية" ماتت، وانتهت العداوة التي بينها وبين "إيفولينا"، لنعد سويًّا مرة ثانية، وهذا أيضًا من أجل "أنداور"، فـ"واشيا" يبدو أنها مستهترة ومستبدة، أخشى ألا تعامله بشكل جيد، إن بقاءهما معي سيعد بمثابة قيد لها، فلو استبدت عليه، عندها يمكن أن أستخدم معها هيبة وصرامة الجيل الأكبر". ولقد وافق "لوني" و"نيخاو" على ذلك، فقد أصبحت "بايرنا" متوحدة أكثر وأكثر بعد أن فقدت رفقاء اللعب. ولقد قالت "نيخاو" إنها أمسكت ذات مرة بفراشة صفراء وقالت إنها ستضعها في معدتها لتطير داخلها وتلعب معها، ولقد اعتقدت "نيخاو" أنها تلقي كلامًا وحسب، من كان يتوقع أن تقوم بذلك بالفعل؟ لقد وضعت الفراشة حية في فمها، وأغلقته، وضيقت عينيها وظلت لا تتحدث لعدة ساعات، حتى أفزعت كلًّا من "نيخاو" و"لوني".

عندما قاد "لوني" رجال قبيلته عائدًا إلى معسكرنا، اكتشفت "إيفولينا" غياب "مارية" و"إيوان"، وكبر بطن كلٍ من "نيخاو" و"واشيا"، فقالت: "رحل اثنان وسيأتي اثنان"، فأخبرتها أن رحيل "إيوان" يختلف عن رحيل "مارية"، لقد صعدت "مارية" للسماء لتنعم بالسعادة، أما "إيوان" فقد ذهب خارج الجبل للاستشفاء. فتسمرت "إيفولينا" قليلًا، لكنها أفاقت سريعًا وأصدرت صوتًا من أنفها كعادتها ثم قالت: "إن كل من عاد بعد أن أخذ مخصصات الجندية لم يعد منه نفع، بل وأصيب بالمرض".

وبعد أن انتهت من تعديد مثالب "إيوان"، لمعت الدموع فجأة في عينيها، كانت تتحدث عن "إيوان" لكن قلبها كان يفكر في "مارية"، وكانت دموعها خير دليل.

ولقد أخبرني "كويندیه" أنها لم تتناول الطعام في هذا المساء.

وفي اليوم الثاني لم تتناول الطعام أيضًا.

وفي اليوم الثالث لم تعد قادرة على السير جيدًا، فتوكأت على عصا خشبية وجاهدت للسير حتى "خاشيه" وسألته هل تم دفن "مارية" عن طريق "الرياح" أو دُفنت في التراب؟

كان "خاشيه" لا يزال ينفر منها لذا رد ببرود: "مارية لن تحتاج رفع رأسها وستتمكن أيضًا من رؤية الشمس والقمر، والسناجب ستحتضن أشجار الصنوبر وتقفز فوق جسدها لتلعب معها، فما رأيك، هل هو دفن بالرياح أو دفن في التراب؟".

عندها أطرقت برأسها وقالت: "الدفن وسط الرياح جيد، ذلك أفضل".

وعندما غادرته، ألقت فجأة العصا الخشبية من يدها، وضمت يديها وصلت للسماء ثلاثًا، وبعد أن انتهت التقطت العصا وعادت للخيمة وهي ترتعش.

ثم بدأت في تناول الطعام، لكن من وقتها لم تعد العصا تفارقها.

وفي شتاء ذلك العام عندما ذهب "والواجيا" و"خاشيه" إلى الجمعية التعاونية في "وتشيلوافو" لمقايضة بعض الحبوب أخبرونا أن هناك مجاعة خارج الجبل، وأصبح هناك نقص في الحبوب، لذا لم يرجعا إلا بثلاثة أجولة من الدقيق وجوال من ملح الطعام، كانت تلك الكمية من الدقيق غير كافية بالنسبة لكل الموجودين في القبيلة، ولقد تسبب نقص الحبوب في نقص الخمور، لذلك ارتفع سعرها، وصار كل من يحبون شرب الخمر فاقدي الهمة، لكن كان لدينا مخزون وفير من اللحم المجفف والخضراوات المجففة، كما كانت هناك كمية لا بأس بها من الطلقات، فكان الصيد يوفر لنا الطعام، ولذلك لم يقلق الجميع، وتم توزيع الدقيق بشكل أساسي لكلٍ من "لوني" و"أنداور"، فكلٌّ منهما لديه امرأة حبلى.

منذ أن تزوج "أنداور" من "واشـيا" لم تعـرف الابتـسامة طريقهـا لوجهـه، ولم يكن ينـام معهـا، وكـان هـذا أكـثر شيء لا تقبلـه، لـذا جـاءتني ذات مـرة وبكـت مشتكية قائلة إن حظها سيئ، إن "أنداور" لا يعرف حتى كيف ينـام مـع النـساء، إنه حقًّا أكثر الرجال حماقةً في العالم، فسألتها: "إذا قلـتِ إنـه لا يجيـد النـوم مـع النساء، فهل ما في بطنك قد صنعته الريـاح؟". فـازداد بكاؤهـا حـدة وقالـت إنهـا منحوسة؛ فـ"أنداور" لم ينم معها سوى تلك المـرة فحبلـت بتلـك البـذرة اللعينـة. فقلت لها: "أنتِ الآن حبلى، لذا يجب منع العلاقة بـين الرجـل والمـرأة مـن أجـل سلامة الطفل، فلو أجهضتِ الطفـل الأول فربمـا ستـصبحين مثـل "إيفولينـا"، مـن الصعب أن تحبلي ثانيةً"، فصرخت وهي تركل بقـدمها: "أنـا لا أثـق بهـذا الكـلام؛ لقد أجهضت منذ ثلاث سنوات طفلي الأول ورغم ذلـك حبلـت مـرة أخـرى تلـك المرة، لماذا أنا منحوسة هكذا؟".

وما إن انتهت مـن كلماتهـا حتـى أدركـت زلـة لـسانها فغطـت فمهـا بيـدها والتمعت نظرة خوف وقلق في عينيها ولم تنبس بكلمة أخرى. عندها فقط عرفت أنها لم تكن فتاة نظيفة قبل أن ترتبط بـ"أنداور"، لكنها لم تقـل مـن الـذي كانـت تربطها به علاقة، ولم أسألها أنا.

بعد تلك الحادثة تحسنت طباع "واشيا" كثيراً، فلم تعد تـسب "أنـداور" بأنـه أحمق، إلا أن قلبها ظل غير مطمئن، فكانت عندما ترى النساء تصير نظراتها مثـل السمكة الميتة ليس بها أي ضوء، لكن رؤية ظل أي رجل بالغ كانت تجعل عينيهـا تدوران بشدة، وحواجبها تتراقص، إلا أن الرجال كانوا لا يفهمون تلميحاتها.

وذات مرة سأل "والواجيا" "أنداور": "ألا تحـب "واشـيا"؟". فكـرر "أنـداور" كلماته السابقة قائلًا: "أنـا أكرههـا، إنهـا تخـربش الوجـه حـين تكـون منتـشية، ويدها أشبه بمخالب الصقر، كما أنها تحب الكذب، والفتاة الصالحة لا تكذب". فـسأله "والواجيـا" مـرة أخـرى: "إذًا فهـل تحـب الطفـل الـذي حبلـت بـه

من أجلك؟"، فرد "أنداور": "الطفل لم يولد بعد، كيف أعرف إذا ما كان محبوبًا أم لا؟"، ولقد أضحكتني إجابته تلك.

وفي شهر يونيو من العام التالي أنجبت "واشيا" صبيًّا على الأرض العشبية، وأطلق عليه "والواجيا" اسم "أنتساور".

أعاد وصول "أنتساور" الابتسامة مرة أخرى إلى وجه "أنداور"، إلا أن "واشيا" لم تكن تحب ذلك الطفل، وبما إنها لم تعد تجرؤ على مناداة "أنداور" بالأحمق، لذا حولت هذا اللقب إلى "أنتساور"، فكانت دائمًا ما تقول له عند إرضاعه: "ارضع أيها الأحمق"، وعندما تمسح له برازه كانت دائمًا ما تقول بغضب: "براز ذلك الأحمق كريه الرائحة حقًّا".

كانت "واشيا" تعتقد أنه بعد مولد "أنتساور" ورضا "أنداور" عنه فإنه من الطبيعي أنه سيشعر بالعرفان والمحبة تجاهها وسيسعى لإرضائها، لكنه ظل عازفًا عن النوم معها، فكانت لا تستطيع منع نفسها من سب الطفل في كل مرة ترضعه فيها من شدة الغيظ فتقول: "أيها الأحمق، لقد دمرت حياتي".

وذات مرة سمعها "لاجيمي" وهي تسب الطفل فأنبها قائلًا: "إن أطفال أي شخص هم أحباب قلبه، كيف لكِ أن تنعتي ابنكِ بالأحمق طوال اليوم؟ لو لم يكن أحمق لصار في المستقبل بسبب كلامك".

فردت عليه "واشيا" قائلة: "إن أباه أحمق، فمن الطبيعي أن يصير أحمق، أليس كذلك؟ فأي رجل لا ينجذب للنساء ويستشعر جمالهن سوى الرجال عديمي النفع أمثالك؟ إلا إذا كان أحمق بالفعل".

لقد أوجعت كلماتها "لاجيمي" بشدة، كما آلمت أيضًا قلوب كل أبناء القبيلة، لذا من بعدها لم يعد أحد راغبًا في الكلام معها، لم أكن أتخيل أنها بكل هذا الفُجر، لذا لم أعد راغبة في أن يقضي "أنداور" بقية حياته معها، فهذا ليس من العدل له، فتباحثت مع "والواجيا" لكي نفك رباط هذا العقد، ولقد وافق، فدعونا

"أنداور" أولًا وأخبرناه بما ننوي، ولكنه على عكس ما تخيلنا رفض، وقال: "إنها تخربش حين تنتشي، كما أنها تحب الكذب، فلو أطلقت سراحها فإنها ستؤذي رجالًا آخرين، مثلها مثل ذئب أعلم تمام العلم أنه يأكل البشر ومع ذلك أطلقه، إذًا أنا مجرم أيضًا، أريد أن أبقيها وأراقبها كي لا تأكل أحدًا آخر".

كانت تلك على ما أذكر أطول كلمات قالها "أنداور"، وكانت أيضًا أكثرها ترتيبًا وإصرارًا، ولقد رأيت ظل "لاجيدا" في كلماته تلك.

وفي أغسطس من تلك السنة وحينما أشرفت "نيخاو" على الولادة، ضاعت منا عشرة غزلان دفعة واحدة، منها أربعة صغار وذكرا تلقيح وأربع غزالات، وكانت تلك خسارة ضخمة لنا وغير معتادة، لذا انقسم الرجال لثلاث مجموعات للبحث عنها، فسار "والواجيا" و"ويكيتيه" و"أنداور" في طريق، وسار "لاجيمي" و"مافينباو" و"داشي" في طريق، وسار "لوني" و"كويندية" و"خاشي" في طريق ثالث. وبعد أن غادروا المعسكر ظللنا ننتظرهم في قلق، وفي مساء اليوم الأول عادت المجموعة التي قادها "لاجيمي" بأيدٍ خالية، وفي مساء اليوم التالي عادت مجموعة "والواجيا" وخيبة الأمل ترتسم على وجوههم، وفي مساء اليوم الثالث عادت أخيرًا المجموعة التي يقودها "لوني" ومعها الغزلان، وبالإضافة إلى ثلاثة رجال غرباء من قومية الهان، اثنان منهم يسيران مع "خاشيه" و"كويندية"، أحدهما قصير والثاني طويل، أما الثالث فكان مستلقيًا رخوًا على ظهر غزال أشبه بالميت بلا أثر للحياة.

قال "لوني" إن هؤلاء الثلاثة سرقوا الغزلان عازمين على نقلها إلى خارج الجبل لذبحها وتناول لحمها، وعندما لحق بهم "لوني" كانوا قد ذبحوا غزالًا صغيرًا بالفعل وأكلوه، لذلك عادوا بتسعة غزلان فحسب، وعندما كان "لوني" يحكي لنا ركع الشخص القصير والشخص الطويل متوسلين لنا لكي نطلق سراحهم ولا نطلق الرصاص عليهم ونقتلهم، وقالوا باكين إنهم سرقوا غزلاننا بسبب الجوع، فهم لا يجدون ما يأكلونه، وأباؤهم وأمهاتهم وزوجاتهم وأطفالهم

يعـانون مـن الجـوع، ولقـد سـمعوا أننـا نطلـق الغـزلان في الجبـال فتخمـرت في أذهانهم فكرة السرقة. عندما سألهم "والواجيا" من أين أتوا؟ وماذا يعملون؟ قالوا فقط إنهم جاؤوا من خارج الجبل ولا عمـل لـديهم، لكـنهم لم يزيـدوا عـلى ذلـك شيئًا، لكنهم أشاروا إلى ثالثهم الممدد على ظهر الغزال وقـالوا: "نتوسـل إلـيكم أن تنقذوه، إنه في السادسة عشرة فحسب ولم يتزوج بعد".

فتمتم "خاشيه" قائلًا: "طفل في السادسة عشرة ويسرق؟ إذًا ماذا سيفعل حين يكبر؟" إلا أنه أمسك بذلك الشخص الممدد على ظهر الغزال ووضـعه عـلى الأرض. كان وجهـه المـستدير شـاحبًا، ولـه حواجـب كثيفـة، وعينـاه مغمـضتان، وشـفتاه غليظتان، لكنهما كانتا مثل وجهه لا أثر للدم فيهما، وكان يبدو عليه فعـلًا أنـه في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة، فكانت ذقنـه خفيفـة مزغبـة أشـبه بالعـشب الأخضر الذي ينمو في الربيع على المنحدر الجبلي المواجه للشمس، طريـة وغـضة، وكان بطنه منتفخًا كبطن الضفدع، ولقد اعتقد الجميـع أنـه مـات عنـدما رأوه لا يتحرك. ركع "والواجيا" بجواره واختبر أنفاسه بيده فلم يجد أثرًا للتنفس، فطلـب من الاثنين الآخرين الراكعين أن ينهضا وسألهما: "ما مشكلة هـذا الـصبي؟"، فقـال الطويل إنهم ذبحوا الغزال وأشعلوا نارًا التفـوا حولهـا لـشيه، وهـذا الـصبي كـان جائعًا للغاية، فبدأ في تقطيع اللحم وأكلـه حتـى قبـل أن ينـضج، وبعـد أن نـضج اللحم أكل منه ثانيةً حتى تكور بطنه، ثم قال إنه عطـشان، فناولتـه إبريـق المـاء فشربه دفعة واحدة، عندها شعر بتوعك، ثـم أضـاف القـصير: "لم يـشعر بتوعـك مباشرةً بعد شرب الماء، وإنما نهض وقضى حاجته قبالة شجرة كبيرة، ثم عاد مترنحًا وجلس على الأرض ووجهه يتصبب عرقًا، ثم مال ليسقط على الأرض".

فقال "والواجيا": "كيف له أن يقضي حاجته قبالة شجرة؟ بالتأكيد قد أغـضب إله الجبل".

وقال "كويندية": "لقد أنزل عليه إله الجبـل عقابـه، أرى أنـه لا أمـل لديـه في الحياة".

عندها خر الطويل والقصير راكعين ومرغا رأسيهما ساجدين أمامنا وهما يقولان: "لقد سمعنا أن لديكم كثيرًا من الآلهة، لذا يجب الحذر عند دخول الجبل، فلم نجرؤ على الجلوس على الأشجار ولا على الصخور ولا على الأعشاب، من كان يعلم أن قليلًا من البول سيزعج إله الجبل؟ لم نكن متعمدين. لقد سمعنا أن لديكم ساحرات يمكنهن استدعاء الآلهة، وطلب عفوها له، أما نحن فلن نسرق ثانيةً حتى لو متنا جوعًا، لو مات هذا الصبي فكيف نشرح الأمر لعائلته حين نعود؟ نتوسل إليكم أنقذوه".

كانت "ليوشا" تحتضن "جيويوا"، و"واشيا" تحتضن "أنتساور"، و"داجيانا" تمسك "بايرنا" بيد، وباليد الأخرى تمسك "ما إيكان"، وكلهم ملتفون حول ذلك الصبي الراقد على الأرض. وقتها كان جسد "نيخاو" قد صار ثقيلًا، وكانت قد بنت بالفعل الـ"ياتاتشو" المعد لاستقبال مولودها، إلا أن توسلات هذين الغريبين جعلتها ترتعش، وما إن ارتعشت حتى بدأ "لوني" في الارتعاش معها وأفلتت منه صيحة:"يا للسماء، لماذا جلبتهم معي؟". ثم احتضن "بايرنا" بين ذراعيه. كان "لوني" وقتها أشبه بصخرة متآكلة، أما "بايرنا" فكانت كالطائر الصغير الذي لجأ إلى الصخرة ليحتمي من المطر والأعاصير. لم أكن أرغب أن أراهما يفقدان طفلًا آخر من أجل إنقاذ الآخرين، لذا قلت للغريبين: "ليست لدينا ساحرات هنا، كما أني لا أعتقد أن هذا الصبي قد أزعج إله الجبل، ولكنه أكل كثيرًا، انظروا إلى بطنه، لقد أكل نصف غزال تقريبًا، أليس هو من جلب الموت لنفسه؟ فكرا في طريقة لانتزاع لحم الغزال من بطنه وسيصير بخير". فقال الطويل: "ما يدخل البطن أشبه بما يسقط في بئر عميق، كيف يمكن استرجاعه؟".

وقال القصير: "أليس لديكم أي دواء يجعله يتقيأ ما في بطنه؟".

فقمنا بإيقاف ذلك الصبي على قدميه، ووضعنا إصبعًا في فمه لتحفيز حلقه وجعله يتقيأ، لكن دون أي رد فعل، فقمنا بوضع أدوية الإسهال في فمه آملين أن يخرج ما أكله، لكن تلك الطريقة لم تُجدِ نفعًا أيضًا.

غابت الشمس خلف الجبل، وظهرت عدة شرائط ضوئية برتقالية في السماء، كانت تلك أنفاس الشمس الأخيرة، عندها أظلمت السماء، وكان هذا اللون سببًا في الألم الذي اعتصر قلبي، ففي كل مرة كان الكاهن "نيدو" أو "نيخاو" يرقصان فيها رقصة الآلهة، كانت البداية دائمًا في تلك اللحظة. ولقد جس "والواجيا" مرة ثانية أنفاس الصبي، فارتعشت يده، يبدو أن الصبي لفظ أنفاسه الأخيرة ووجب رميه. في تلك اللحظة انتابني شعور بالراحة؛ فقد فكرت أن روحه قد ذهبت لذا لا داعي لإنقاذه.

في تلك اللحظة جاهدت "نيخاو" لتنحني بجسدها وجست بيدها جبين ذلك الصبي، وبعد أن نهضت قالت لـ"لوني": "اذبح غزالًا صغيرًا واحمله إلى خيمتنا".

هنا صحت بصوتٍ عالٍ: "نيخاو، فكري في أبناء الآخرين". ولقد كنت أعرف أنها تدرك المغزى من كلمة "أبناء الآخرين"، فقالت لي بعيون بللها الدمع: "أطفالي ما زال بالإمكان إنقاذهم، فكيف لي...".

لم تكمل عبارتها، لكن الجميع فهم ما تم حذفه.

أما "لوني" فقد تسمر في مكانه بلا حراك، فقط احتضن "بايرنا" بقوة، لذا أمر "والواجيا" "مافينباو" أن يذبح غزالًا صغيرًا ليقدم قربانًا للآلهة "مالو"، أما هو فقد تعاون مع "خاشيه" لكي يحمل ذلك الصبي إلى داخل خيمة "لوني".

في تلك المرة لم تسمح "نيخاو" لأي شخص بالدخول إلى الخيمة، لذا لم يعرف أحد كيف تحاملت على نفسها وجاهدت لكي ترتدي ملابس الآلهة الثقيلة وتربط تنورة الآلهة وتعتمر قبعة الآلهة، وعندما صدح صوت الطبول حل الظلام الحقيقي فاختفت خطوط الضوء البرتقالية التي كانت تلتمع في السماء، لقد ابتلعها الظلام تمامًا. أما نحن فوقفنا والقلق يعترينا على أرض المعسكر وقد أحطنا بـ"لوني" و"بايرنا" كما تحيط المياه بجزيرة في منتصفها، وقال "لوني" موجهًا حديثه لـ"بايرنا": "لا تخافي، لا شيء يدعو للخوف". أمَّا "واشيا" فقالت

لها: "لقد سمعت أن أمكِ ما إن ترقص رقصة الآلهة حتى يموت أحد أبنائها. لو كنتِ تخشين الموت فلماذا لا تهربين؟ إنكِ لحمقاء". كانت "بايرنا" ترتعش من البداية فزادها كلام "واشيا" ارتعاشًا، عندها أخذت "أنتساور" من بين أحضان "واشيا" وقلت لها: "من فضلك غادري المكان". فقالت: "هل قلت شيئًا خطأ؟"، فرفعت صوتي قائلة: "غادري المكان، فورًا"، عندها تمتمت بكلمات غير مفهومة واستدارت مغادرة. وما إن غادرت حتى غادر "أنداور" أيضًا. وبعد قليل لم نعد نسمع صوت طبلة الآلهة التي تقرعها "نيخاو" ولا صوت تصادم الزينة المعدنية المعلقة بملابس الآلهة، لأن صوت بكاء "واشيا" وسبابها قد غطى على الأصوات الأخرى، عندها جاء "ويكيتيه" وأخبرنا أن "أنداور" قد ربط "واشيا" في شجرة ويضربها بفرع شجرة بتولا. عندها قال أبوها وأمها في صوت واحد: "إنها تستحق الضرب"، ولم يذهب أي منا لمنعه.

بعد أن بكت "واشيا" بصوتٍ عالٍ لمدة نصف ساعة خفت صوت بكائها، وضعف صوت سبابها. كان صوت البكاء والسباب أشبه بطبقة من الغمام، ما إن انزاحت حتى صار صوت الطبول الشبيه بالقمر أكثر وضوحًا. كان صوت قرع الطبول سريعًا، يمكن تخيل قوة وحماسة رقصات "نيخاو"، لكنها ضعيفة الجسد، وتحمل طفلًا على وشك الولادة، فكيف تتحمل ذلك؟ كان صوت الطبول بالنسبة لنا كرياح الشمال ذات التيارات الباردة، جعلنا نرتعش بردًا.

وصل القمر إلى كبد السماء، كان هلالًا، وعلى الرغم من نقصانه إلا أنه بدا لامعًا مضيئًا، عندها توقف صوت الطبول، يبدو أن الرقصة انتهت، كانت "بايرنا" لا تزال في أحضان "لوني"، عندها تنهدنا كلنا تنهيدة طويلة، وقلت لـ"بايرنا": "اسمعي، لقد توقف صوت الطبول، وأنتِ بخير"، عندها أطلقت آهة وانخرطت في بكاء طويل كما لو كانت تعرضت لظلم كبير. عندها انتظرنا خروج "نيخاو"، فما إن تخرج حتى تتوقف "بايرنا" عن البكاء، لكن "نيخاو" لم تخرج، فأصابني القلق أنا و"لوني"، وما إن هممنا بدخول الخيمة لنرى

ماذا حل بها حتى خرج علينا من الخيمة صوت غنائها، تلك الأغنية ذكرتني بنـوع من الضوء، ألا وهو ضوء القمر على سطح جليدي.

"أيها الطفل، عد إلى هنا
إنك لم ترَ بعد أضواء هذا العالم
وذهبت مباشرةً إلى الظلام
لقد جهزت أمك لك قفازات جلدية
ولقد جهز أبوك لك لوح تزلج
أيها الطفل، عد إلى هنا
لقد أشعلنا النيران
وعلقنا قدور الطعام
لو لم تعد
فسيجلسان بجوار النيران
ويعانيان من البرد
لو لم تعد
فسيجلسان بجوار القدور الممتلئة
ويعانيان من الجوع
أيها الطفل، عد إلى هنا
اركب لوح التزلج واذهب خلف قطعان الغزلان
فبغيابك ستؤذي الذئاب
قرون الغزلان الجميلة".

عندها أدركت أنا و"لوني" أن أغنية الآلهة تلـك غنتهـا "نيخـاو" للطفـل الـذي على وشك القدوم لعالمنا. لم نصدق أن الطفل مات قبل أن يولد، لذلك ركـضنا إلى الخيمة، كانت رائحة الهواء لا تطاق، تجمع بين رائحة كريهة ورائحة الدم، وكانت النيران في الحفرة على وشك الخمود، فأشعل "لـوني" مـصباح زيـت الـدب، فرأينـا

الصبي الذي بُعث للحياة مرة أخرى وهو متكور على نفسه يبكي في ركن الخيمـة، وبجواره تناثرت أكوام وأكوام من القيء، أما "نيخاو" فكانت تحتـضن جنينًـا ميتًـا وتجلس مطرقة الرأس بجوار النـيران. لقـد خلعـت عـن رأسـها قبعـة الآلهـة، أمـا شعرها الذي بلـلـه العرق فبدا أشبه بشجرة صفصاف منحنية تنسدل عـلى شـعر ذلك الجنين الميت. كانت لا تزال مرتدية لملابس الآلهة وتنورة الآلهة، ربمـا لم تعـد لديها القوة الكافية لخلعها، وكانت تنورة الآلهة قد اصطبغت بالدماء القانية، أما تلك الزينات المعدنية المعلقة في ملابس الآلهة فكانت لا تزال تلتمع بالأضواء.

كان الجنين الميت ذكرًا، لقد غاص في الظلام قبل أن يرى أضواء هـذا العـالم، لم يحظَ حتى بفرصة إطلاق اسم عليـه، وكـان هـو الوحيـد مـن بـين أبنـاء "نيخـاو" المتوفين الذي لم يطلَق عليه اسم.

حملت أنا و"والواجيا" مرة ثانية كيس القماش الأبيض وذهبنا لكي ندفن ذلك الذي من لحم ودم "لوني" و"نيخاو"، لكننا لم نلقـه بـشكل عـشوائي في تلـك المـرة، وإنما حفرنا له حفرة بأصابعنا ودفناه. كان في نظرنـا أشـبه بالبـذرة التـي سـتنبت فيما بعد لتكبر وتصير شجرة باسقة، كـان ضـوء شـمس أغـسطس قويًـا، وصـارت التربة ساخنة، ومن وجهة نظري كان المنحدر الجبلي المواجه للشمس بالإضافة إلى الأشجار الكثيفة التي تنمو به، ينمو به أيضًا نوع آخـر مـن النباتـات الـساخنة ألا وهو ضوء الـشمس، فعنـدما كنـت أنـا و"والواجيـا" نحفـر تلـك الحفـرة اكتـست أظافرنا بذلك التراب الحار، كان عطرًا للغاية، وأثناء الحفر اصطدم ظفـري بـدودة أرض وردية اللون، فقطعتها دون قصد إلى نصفين، وظل جـسدها يتلـوى وينـدس في التربة هنا وهناك. إن قدرة ديدان الأرض على الحياة مذهلة، فجـسدها يحمـل عدة حيوات بداخله، ولقد جعلني هذا أتفكر مرارًا، سيـصير الأمـر رائعًـا لـو كـان للإنسان القدرة نفسها على الحياة.

قـام "لـوني" بحـرق الــ"ياتاتـشو" الـذي بنتـه "نيخـاو"، لم تـدخل أي امـرأة حبلى ذلك الـ"ياتاتشو" ولم يولد فيـه أي طفـل، لقـد كـان أشـبه بـسحب كثيفـة،

كان المتوقع أن تجلب لـ"لوني" و"نيخاو" اللذين أصابهما الجفاف المطر والندى والبرد، إلا أنها تبخرت بلا أثر.

في النهاية أطلقنا سراح السارقين الثلاثة، وقال "والواجيا" إن السرقة بسبب الجوع يمكن العفو عنها، وعندما غادروا المعسكر أعطاهم "لوني" الحزين بعض اللحم المجفف ليأكلوه في الطريق، فركعوا جميعًا على الأرض وخروا ساجدين يمرغون رؤوسهم في التراب والدمع يسيل من عيونهم قائلين إنهم سيردون جميل إنقاذ حياتهم لنا في يوم من الأيام.

وبعد أن استراحت "نيخاو" في الخيمة لمدة أسبوع صارت لديها القوة لتخرج. صارت أكثر نحافة مع الوقت، وغاصت وجنتاها وابيضت شفتاها، وأضيفت بضع شعيرات بيضاء أخرى إلى شعرها. بدا أنها تخشى الضوء، فما إن خرجت حتى ارتعشت، كانت أشبه بشخص ثري لديه مخزن حبوب ممتلئ، وصار هذا المخزن خاويًا بسبب المجاعات، لقد صار بطنها مقعرًا، وشممنا رائحة عطرة غريبة تنبعث من جسدها، كانت تلك رائحة المسك.

يعد "اليحمور" أقبح حيوانات الغابة، فلونه بني مصفر، وفراؤه خشن، لكن يوجد شريط أبيض على صدره كما لو كان قد أعد لنفسه فوطة بيضاء ملازمة له دائمًا لمسح العرق عنه. وعلى الرغم من أن شكله يشبه الغزال إلا أنه لا تنبت له قرون، ورأسه صغير ومدبب ومجعد، في غاية القبح، والذكور منها صعب الحصول عليها؛ فلديها إفرازات غددية في كيس ما بين سرتها وجهازها التناسلي، إذا ما تم استئصالها وتجفيفها تصدر عنها رائحة عطرة مميزة، وهذا هو المسك، لذا كنا نطلق على اليحمور اسم اليحمور العطر.

والمسك دواء مشهور وباهظ الثمن، لذا في كل مرة نصطاد فيها "يحمور العطر" يصير هذا عيدًا لقبيلتنا. يمكن للمسك علاج التسمم؛ فله القدرة على إفاقة العقل وإزالة الجلطات، وبالإضافة إلى ذلك يمكنه أن يُستخدَم كدواء منع

الحمل، فقط بشم رائحته يمكن الوصول لنتيجة منع الحمل، لـذلك إذا مـا قامـت المرأة بوضعه في جيوب ملابسها دائمًا فإنها تستطيع منع الحمل للأبد.

لقد أدرك الجميع لماذا وضعت "نيخاو" المسك في جيوبها، أي امـرأة لا ترغـب في الحمل؟ لكن حمل "نيخاو" دائمًا مرتبط بالكوارث، إنها مثل الطـائر الـذي بنـى عشه بالعرق والجهد، لكنه بعد أن بناه أخذته الرياح والأمطار.

كانت رائحة المسك تحفز دموع النساء، كما لـو كانـت تلـك الرائحـة العطـرة تحرق عيوننا. أما "لوني" فلم يلُم "نيخاو" على تصرفها، لكنه في قـرارة نفـسه كـان مصابًا باليأس، ففي الفترة من الصيف وحتى الخريف وخـلال الأيـام التـي كانـت "نيخاو" تضع فيها المسك في جيوبها كان دائمًا ما يـذرف الـدمع فجـأة أمـام أعـين الآخرين، وعندما كان يسرع بمسح دموعه كان دائمًا مـا يـبرر قـائلًا إن رائحـةً مـا أصـابته بحـساسية. لكنـي كنـت أعلـم أنـه يـشتاق لابـن، لقـد كـان "جـواجيلي" و"يرنسينيه" مثل شهابين مرا في سماء قلبه، لم يعد لهما أي أثر الآن.

وفي بداية الشتاء تلاشت رائحة المـسك مـن عـلى جـسد "نيخـاو"، وبـدا لي أن دموع "لوني" طردت الرائحة، لقد كانت الرائحة كالضباب الكثيف، ودموع "لوني" كانت بمثابة الشمس التي أضاءت ضباب "نيخاو" فأزالته.

بعد عام 1962 ظهرت بوادر انفراج في المجاعة خارج الجبل، لكـن إمـدادات الحبوب ظلت قليلة. وفي الخريـف عـاد "إيـوان"، كـان لا يـزال يجـد صـعوبة في السير، لكنه استأجر حصانين وجلب لنا الخمر والبطـاطس والجـبن الـذي اشـتراه من المنغوليين، لكن يديـه الـضخمتين تغـير شـكلهما، فـبرزت المفاصـل وانحنـت. هاتان اليدان اللتـان كـان بإمكـانهما في المـاضي سـحق الـصخور أصـبحتا تجـدان صعوبة في سحق بيضة غراب. ولقد أخبرنا أنـه سـمع أن الحكومـة تخطـط لأمـر كبير، إنها تخطط لبنـاء قـرى حتـى ينتقـل إليهـا كـل الـصيادين في الجبـال، فـرد "خاشيه": "إن تلك المنازل في "وتشيلوافو" لم تمتلـئ مـن قبـل بالـسكان، فلـو تـم بناء مكان آخر فسيظل خاليًا أيضًا". وقال "داشي": "لو نزلنـا مـن الجبـل فكيـف

ستعيش الغزلان؟"، وأضاف "لاجيمي": "نعم، أرى أن الحياة فوقه أفضل؛ فالمجاعة تنتشر خارجه، وكذلك اللصوص، فالعيش أسفل الجبل ألا يساوي العيش في وكر لصوص وقطاع طرق؟".

لم يكن "لاجيمي" موافقًا على مغادرة الجبل من أجل "ما إيكان" أيضًا، فلم يكن يأخذها معه للخارج أبدًا، فقد كان يخشى أن يأتي أبواها اللذان أنجباها للبحث عنها وطلب عودة ابنتهما.

كانت "ما إيكان" في غاية الجمال، وكان جمالها قادرًا على جعل الزهور تفقد ألوانها، والقمر يصير باهتًا، لذا كان بمجرد أن تصدح أصوات حوافر خيول في معسكرنا حتى يصير "لاجيمي" أشبه بكلب الصيد، فيرهف آذانه ويصير في حالة حذر شديد معتقدًا أن أهل "ما إيكان" قد أتوا.

وفي اليوم الذي عاد فيه "إيوان" شرب الجميع الخمر، وفي المساء كنت أرغب وبشدة في أن أختلي أنا و"والواجيا"، لكن "داجيانا" صارت فتاة كبيرة، فخشيت لو صنعنا صوت الريح في الليل أن نفزعها، وعلى الرغم من أنها سمعت هذا الصوت في كل مراحل نضجها، لكن تلك الليلة تختلف، فالخمر تشبه جذوة النار التي تشعل الحماسة والرغبة فيَّ أنا و"والواجيا"، لذا فصوت التصادم الحار بالتأكيد سيكون أقوى من المعتاد. حينها انكمشت في أحضان "والواجيا"، كنا نأمل في أن نكبت الرغبة بالكلام، فسألته: "هل توافق على النزول من الجبل والسكن بالأسفل؟"، فقال: "يجب سؤال الغزلان، هل توافق على النزول من الجبل؟"، فقلت: "لن توافق بالتأكيد". فقال "والواجيا": "إذًا يجب علينا طاعتها". لكنه تنهد بعدها وأضاف: "لو استمر قطع أشجار الجبل بهذا المعدل، فسيأتي يوم إن عاجلًا أو آجلًا سننزل فيه حتى لو كنا نرفض النزول". فقلت: "إن الأشجار أعلى الجبل كثيرة لا يمكن أن تنتهي"، فتنهد ثانيةً وقال: "سنغادر المكان في يومٍ ما قرُب أم بعُد". فسألته: "لو بقيت أنا في الجبل، ونزلت الغزلان منه، فماذا ستفعل؟"، فقال برقة: "بالطبع سأبقى معكِ؛

فالغزلان ملك للجميع، أما أنتِ فملكي وحدي". لـذلك زادت كلماتـه مـن رغبتـي، فاحتضنا بعضنا بقوة أكبر وبدأنا في تبادل القبلات، وأخيرًا عصفت بنا الرغبة مثـل هزيم الرعد الذي يأتي من خلف السحب السوداء الكثيفة، فاعتلى جسدي فكـان مثل ضوء الشمس في يوم ربيعي، يسكر العقل، لقد أذابني تمامًا، يجب أن أشـكر صوت الرياح الذي أهدته لنا الطبيعة في تلك الليلة، فـما إن بـدأنا في الـسباحة في نهر الحياة السري لنتمتع بتلك السعادة الفريدة، حتى هبت رياح عاصـفة خـارج الخيمة، كان صريرها شديدًا كأنها موسيقى مصاحبة أتت خصيصًا لتغطـي علينـا. وحينما نهلت من النشوة حتى شبعت، وارتخى جسدي في أحضانه، شـعرت بأنـه كالجبل الذي أستند عليه، إنه جبل منتصب، أما أنا فكنت كسحابة تتطـاير للأبـد تحت جسده.

مر علينا عامان في سلام، وفي صيف عام 1964، أنجبت "نيخاو" ولـدًا أطلـق عليه "لوني" اسم "مكسيم". كان وجهه كبيرًا مربعًا، عريض الجبهة واسع الفم كبير اليدين والقدمين أيضًا، وهز صوت بكائـه حـين وُلـد أرجـاء المعـسكر، كـان كـزئير النمر. كانت "إيفولينا" قد أصيبت بثقل السمع، لكنها سمعت صوت بكائـه حـين وُلد فقالت: "إن صوت بكاء هذا الطفـل عـالٍ جـدًا، واضـح أن جـذوره في الـدنيا عميقة لن تستطيع العواصـف ولا الأمطـار أن تقتلعهـا"، ولقـد أثـرت كلماتهـا في "لوني" لدرجة أن دموعه سالت. كان موت "مارية" قد أعـاد "إيفولينـا" إلى سـابق عهدها، لكن ما عاد كان فقط قلبها الطيب، أما جسدها فمن المستحيل أن يعود، لذا عند الارتحال كانت لا بد أن تمتطي ظهر غـزال، وعنـدما تـسير في المعـسكر لا تستطيع خطو خطوة واحدة دون عكازها. ولقد قال "كويندية" إنها نادرًا ما تنـام راقدة، بل إنها دائمًا ما تغفو بجوار موقد النـار، سـواء في النهـار أو الليـل كـما لـو كانت الإله الحامي للنار.

جلب لنا مولد "مكسيم" سعادة كبيرة، لكنها استمرت لثلاثـة أشـهر فحـسب، بعدها تجمعت سحب الموت مرة ثانية في سماء معسكرنا.

في سبتمبر من كل عام يبدأ موسم تزاوج الغـزلان البريـة في الغابـات، في هـذا الوقت تصير طباع ذكور الغزلان حادة، وتحـب الـسير منفـردة، فكانـت دائمًـا مـا تقف وحيدة في الصباح الباكر أو قرب المساء على المنحدرات الجبلية وتصيح بعلو صوتها منادية على رفقائها، فكان من يجيب نداءها إما غزلان إنـاث جـذبها هـذا الصوت الذكوري، أو غزلان ذكـور مـلأ الحـسد قلوبهـا. أمـا الأول فقـد جـاء طلبًـا للسعادة، وأما الثاني فقد جاء طلبًا للقتال.

ولقد استغل أجدادنا عادة الغزلان الذكور في الصياح لاختراع صافرة الغـزلان، واسـتخدموا في صـنعها فـروع أشـجار صـنوبر منحنيـة بـشكل طبيعـي ومفرغـة القلب يتم تغليفها بجلد الـسمك، ورأسـها غلـيظ وذيلهـا رفيـع، ويمكـن إطـلاق الصافرة عن طريق النفخ في أي من الطرفين، فكان الـصوت الـصادر عنهـا يـشبه نداء الغزلان. كنا نطلق عليها اسـم "أولايوينـغ" أو مـا يطلـق عليـه النـاس اسـم "صافرة نداء الغزلان".

لدى أبناء كل القبائل عدة صافرات منها، معظمها توارثناها عن أجـدادنا، وفي الخريف نستخدمها لجذب الغزلان، ويبدأ الكبار في تعليم الـصبيان كيفيـة الـنفخ فيها وهم في الثامنة أو التاسعة، وفي الخريف حين نسمع نحن النسوة اللائي بقـين في المعسكر صوت النداء هـذا، نعجـز حقًّـا عـن التمييـز هـل هـذا صـوت غـزال حقيقي يصيح أو أنه صوت صافرة الغزلان.

حين بلغ "مكسيم" شهرين من العمر ارتحلنا مرة أخرى إلى حوض نهر "جين"، فقد كانـت حركـة الغـزلان البريـة هنـاك مزدهـرة، لكنننـا لم نـستقر في المعـسكر القديم، لقد ابتعدنا كثيرًا عن جبل "ليسيوانكيه".

حين يخرج الرجال للصيد ينقسمون في العادة إلى ثـلاث أو أربـع مجموعـات، تتكون الواحـدة مـن ثلاثـة أو أربعـة رجـال. وقتهـا كـان "إيـوان" قـد صـار مثـل "إيفولينا" يحتاج إلى عكاز للمشي، أما "خاشيه" فقد صار فاقدًا لـلـهمة منذ وفـاة "مارية"، كما أن بصره ضـعف، لـذلك كانـا لا يخرجـان للـصيد، وإنمـا يبقيـان مـع

النساء في المعسكر للقيام ببعض الأعمال البسيطة، فكان من يخرج للصيد هم الشبان الأقوياء. وكان "والواجيا" يحب الصيد مع "ويكيتيه" و"كويندية" و"مافينباو"، أما "لوني" فكان يحب الخروج مع "لاجيمي" و"داشي" و"أنداور".

كان "مافينباو" و"أنداور" أفضل من ينفخ في صفارة الغزلان، فبعد أن قام "مافينباو" بإخصاء نفسه صار يمسك الصافرة أحيانًا حين يحل فصل الشتاء لينفخ فيها عدة مرات كأنه ينادي على أنفاس رجولته التي فارقته بعيدًا. كان صوت نفخه في الصافرة حزينًا يهز القلوب، أما "أنداور" فكان صوت نفخه عذبًا رقيقًا. من كان يصدق أن هذين الصوتين سيجذبان بعضهما البعض؟ لكنهما في النهاية لم يمتزجا مع بعضهما، وإنما قضى الجانب الحزين على الجانب العذب الرقيق.

وفي الخريف يصبغ الصقيع أوراق الشجر باللونين الأصفر والأحمر، وهناك صقيع خفيف وصقيع قوي، لذلك تختلف الألوان التي يصبغها بين فاتح وغامق. تكتسي أشجار البلوط باللون الأصفر، أما أشجار البتولا وأشجار الحور وأشجار البلوط فمنها الأصفر ومنها الأحمر، وعندما يتغير لون الأوراق تصير هشة وتتطاير مع رياح الخريف، فمنها ما يسقط في الوديان، ومنها ما يسقط على أرض الغابة، ومنها ما يسقط وسط تيارات المياه، فيصير ما يسقط في الوديان طينًا، ويصبح ما يسقط في الأرض مظلات للنمل، أما ما يسقط وسط تيارات المياه فيتحول إلى أسماك سابحة ترحل مع التيار.

في غسق ذلك اليوم كنت مع "ليوشا" نمد شباك الصيد في النهر، كانت تقف في منتصف المياه بينما كنت أنا واقفة على الضفة، لكن حظنا كان سيئًا للغاية؛ فلقد أوصلنا ثلاث شبكات ببعضها لكننا لم نحصل على أي شيء. وكان "جيويوا" وقتها يلعب مع "أنتساور" بالرمال على ضفة النهر، وبنيا سويًا برجًا تلو الآخر من الرمال وغرسا فوقه أعوادًا من الأعشاب. وعندما غربت الشمس قلت لـ"ليوشا" لقد نزلت الأسماك إلى المياه العميقة ولن تخرج، لنعد، فخرجت هي

من الماء. كانت ترتدي بنطلونًا مضادًا للماء من جلد السمك، فكـان يلتمـع بفعـل الشمس والمياه بضوء أصـفر بـراق كـما لـو كانـت تـسير عـلى سـمكتين جميلتـين سمينتين صاعدة إلى ضفة النهر، وكنا نتجاذب أطراف الحديث بينما نلم الـشباك، فقلت لها: "جيويوا صار في الثامنة، لتنجبي طفلًا آخر، فأنا أرغب في حفيدة".

وعلى الرغم من أن "واشيا" و"ليوشا" كلتـيهما زوجتَـا أبنـائي، إلا أننـي لم أكـن أتحدث بهذا الحديث مع "واشيا"؛ فقد كان الكل يعلم أن "أنداور" لا ينام معهـا. عندها احمر وجه "ليوشا" وقالت: "نحن نحاول، لكني لم أحبل، وهذا أمر غريـب، يبدو أن جيويوا لا يجلب الإخوة والأخوات". فقلت: "لو علمنا هذا مبكـرًا لفعلنـا كما يفعل أبناء قومية الهان وما أطلقنا عليه اسم "جيويـوا"، بـل أسـميناه "تـشاو دي" أو تـشاو مـاي" (الأولى تعنـي "الجالـب للإخـوة"، والثانيـة تعنـي "الجالـب للأخوات"). فضحكت "ليوشا" وقالـت: "أراه يحـب اللعـب بالرمـال، لـو أسـميناه "تشاو شا" لن يكون فيه ظلم له" (تشاو شـا تعنـي الجالـب للرمـال). أضـحكتني كلماتها كثيرًا، لكن المصائب وصلتنا وسط صوت الضحكات، فقد جاءتنا "إيفولينا" حاملةً أخبار الموت، لم نكن قد انتهينا من الضحك حين رأيناها تركض نحونا باكية، كان جسدها يفوح برائحة الملح فقد كانت منشغلة في الأيـام الماضـية في تجفيـف اللحم فكانت تستخدم الملح لتفركه، وتقدمت لتقف أمامي وقالت جملة واحدة: "لقد صعد "أنـداور" ليـشرب مـن أنهـار الـسماء"، ثـم انهـارت عـلى ضـفة النهـر وانخرطت في بكاء بصوتٍ عالٍ.

في الصباح الباكر من ذلك اليوم، وعندما كانـت نجـوم الفجـر لا تـزال باديـة، انقـسم الرجـال إلى مجمـوعتين، وأخـذوا معهـم صـافرات الغـزلان وحملـوا عـلى أكتافهم بنادق الصيد وانطلقوا لصيد الغـزلان البريـة. لم نكـن قـد اسـتيقظنا بعـد حين رحلوا. فأخـذ "والواجيـا" كـلًّا مـن "ويكيتيـه" و"مافينبـاو" وسـاروا في اتجـاه الجنوب الشرقي، أما "لوني" فقـد أخـذ "أنـداور" و"داشي" و"لاجيمـي" وسـاروا في اتجاه الجنوب الغربي، لذا كان مـن المنطقـي ألا تتقابـل المجموعتـان، لكـن الأمـر

كان غريبًا، فلقد بحثت المجموعتان في الجبل ليوم كامل لكنهم لم يصطادوا أي غزال بري، لذا أثناء عودتهم قامت كل مجموعة بتغيير الاتجاه في طريق العودة على أمل أن يصادفوا غزلانًا برية، وعندما وصلت مجموعة "والواجيا" إلى سفح جبل "ليسيوانكيه" سمعوا صوت صياح غزال، فاعتقدوا أن هناك غزالًا على قمة الجبل فتوقفوا على الفور، ونفخ "مافينباو" في صفارته وسريعًا ما سمعوا استجابة من أعلى الجبل، فتقدمت المجموعة وهي مستمرة في إطلاق الصافرات، واقترب الصوت الذي سمعوه في البداية منهم، وقتها كان "ويكيتيه" قد اعتمر بندقيته استعدادًا لإطلاقها على الغزال البري في أي لحظة. إن عين الصياد يجب أن تكون حادة لامعة لا يحجبها هبوب رياح أو حركة أعشاب، ولقد قال "والواجيا" إنه لم يسمع من قبل صياح غزلان متناغمًا إلى تلك الدرجة، لقد كان صياح الطرفين يعلو وينخفض سويًّا في عزف أشبه بالموسيقى، قوي وصافٍ، فلم يكن يرغب في أن ينتهي ذلك الصوت الجميل في لحظات، حتى إنه رغب في منع "ويكيتيه" من إطلاق النار، وعندما صار بينهم وبين الهدف ثلاثون أو أربعون مترًا أصبح صياح الغزال في الجهة المقابلة أكثر حرارة، وما إن سمعوا صوت احتكاك من بين الأشجار ورأوا اضطراب أوراقها ثم مرق ظل أصفر من بينها، حتى أطلق "ويكيتيه" النار بلا تردد، لقد أطلق طلقتين، حينها تناهي لنا من بين الأشجار صوت يصرخ: "يا للسماء، يا للسماء"، كان هذا صوت "لاجيمي"، عندها صرخ "ويكيته": "سحقًا". وكان أول من ركض تجاه الصوت، فعجز عن تصديق عينيه، لقد كان ما أصابه هو شقيقه "أنداور".

كان "لوني" وصحبه في طريق العودة، وعندما مروا بالجبل تذكروا "يرنيسينيه". فكر "لوني" في الصعود فوق الجبل ليرى، وصحبه كلٌّ من "لاجيمي" و"داشي" و"أنداور" وظلوا يصعدون حتى وصلوا للقمة، وقتها كانت الشمس قد مالت للغرب، فشعر "لوني" بالحزن وتنهد قائلًا لـ"لاجيمي": "لا أعلم هل هناك غزلان في قلب الشمس أم لا؟"، فقال "أنداور": "سأنادي عليها عندها ستعرف"، ومن ثم نفخ عدة مرات في مواجهة الشمس، وظل ينفخ، حتى

فوجئوا باستجابة من سفح الجبل، لذا نزلوا وهم مستمرون في نفخ الصافرة، بينما كان "والواجيا" وصحبه يصعدون الجبل وهم ينفخون في الصافرة أيضًا. في الحقيقة كان الصوتان صادرين عن صافرة الغزلان، ولم يكن هناك من سبيل لمنع تلك المأساة، فلو لو يكن "أنداور" يهوى ثني جسده على شكل غزال بري أثناء النفخ في الصافرة، وكان في ذلك اليوم يرتدي ملابس مصنوعة من جلد غزال بري لكان "ويكيتيه" ذو الأعين الثاقبة اكتشف الأمر وما كان سيطلق النار.

كان "ويكيتيه" بارعًا في التصويب، فأصابت رصاصة رأس أنداور ومرت الثانية من تحت ذقنه لتصيب صدره، ولم ينتظر "أنداور" وصول "ويكيتيه" حتى كان قد لفظ أنفاسه، يا للمسكين، بالتأكيد اعتقد في اللحظات الأخيرة أن هناك صيادًا يختبئ في الشمس وأن الرصاص انطلق من هناك، ربما كانت الإصابة من صياد داخل الشمس هي أمر يدعو للفخر، لذا عندما رحل "أنداور" كانت ملامحه هادئة وعلى شفتيه شبح ابتسامة.

قمنا بدفنه دفنًا بالرياح فوق جبل "ليسيوانكيه". هناك الكثير من الجبال في "داشينج أنلينج"، إلا أن هذا هو الجبل الوحيد المحفور في ذاكرتي، لأنه أخذ اثنين من أقاربي، لذلك لم نعد نقترب منه بعدها، ولم نعد نستخدم صافرات الغزلان.

بعد أن انتهينا من الجنازة، بدأنا ارتحالًا بعيدًا لمدة ثلاثة أيام. لم نكن نرغب في رؤية نهر "جين" ثانيةً؛ لقد صار في عيون الجميع كثعبان سام وجب علينا رميه بعيدًا. وفي الطريق نزل الثلج، لقد جاء الشتاء فجأة كعادته، وتغيرت ألوان الغابات لتكتسي باللون الفضي. كنا نحن والغزلان أشبه بالعبيد لدى زهور الثلج التي غمرتنا وسطها وما انفكت تجلدنا بسياط أجسادها الباردة، كان الارتحال تلك المرة ثقيلًا، فغابت الهمة عن نفوس من يمتطون الغزلان، أما السائرون فكانوا مطرقي الرؤوس. ويبدو أن "لاجيمي" أراد تخفيف هذا الجو الكئيب، لذا أخرج الموكوليان وبدأ العزف، لكن الموكوليان روحها حساسة، فمشاعرها تتأثر بمشاعر البشر، فعلى الرغم من صوتها الذي هز القلوب إلا أن

نغماتها خرجت باردة كئيبة، لم يُذهب صوتها الغيوم الداكنة التي غيمت على وجوه الجميع لكنها أسالت الدمع من العيون.

كانت "واشيا" هي الوحيدة غير المكتئبة، فلقد قالت لي "إيفولينا" إنها عندما نقلت لها خبر موت زوجها كانت منهمكة في تناول الصنوبر، وما إن سمعت الخبر حتى بصقت من فمها تلك القشرة القرمزية الصلبة ورفعت حاجبيها وقالت: "هل أنا سعيدة الحظ حقًّا لتلك الدرجة؟"، وعندما طلب والداها منها أن تذهب لتلقي النظرة الأخيرة على "أنداور" قالت: "هذا الأحمق رأيته حتى اكتفيت".

ولم تذهب فعلًا لوداعه، وفي يوم جنازته ظلت في المعسكر تمضغ اللحم الجاف وهي تقول لـ"أنتساور" الذي يلهو أمامها: "لقد ذهب الأحمق الكبير، فمتي يتبعه الأحمق الصغير؟ لو رحلتما لأصبحت حرة"، بل حتى إنها قالت لـ"إيفولينا" إنها ستعتبر صافرة الغزلان هي روح آلهة وتعبدها، وتطلب منها أن تجلب النور لحياتها.

كنت أتطلع لأن تغادرنا "واشيا"، و كنت أتوقع أنها ستتزوج ثانيةً سريعًا ولن تكمل ثلاث سنوات وفاءً لـ"أنداور"، وقد قلت لها: "يمكنكِ السير في طريقك متى تشائين، ولا تقلقي من أن يصير "أنتساور" عقبة أمامك، فأنتِ لا تحبينه إذًا يمكنك تركه لي". فردت عليَّ قائلةً: "لا داعي لتنبيهي، فسأرحل متى وجب عليَّ الرحيل". ثم قالت بلهجة ساخرة: "الزواج من رجلين ليس فيه ما يدعو للعار، ألم تفعل "خاداموايني" ذلك من قبل؟".

كنا نطلق على أم الزوج أو الجدة اسم "خاداموايني"، فكانت "ليوشا" و"ويكيتيه" يدعونني بهذا الاسم بعد زواجهما، لكن "واشيا" لم تكن تفعل، ولم تكن المرة الوحيدة التي نادتني فيها بهذا الاسم بدافع الاحترام، وإنما من أجل معايرتي. فقلت لها: "أنداور رحل، لقد أصبحت حرة، أنا لست خاداموايني لكِ".

بعد أن استقررنا في المعسكر الجديد بـدأ موسـم صـيد الـسناجب، فانـشغل الرجال والنساء على حد سواء، لكن "ويكيتيه" و"واشيا" لم ينشغلا، فبعـد أن قتـل "أنداور" صار "ويكيتيه" كمن ضربته صاعقة، أصبح شاردًا دومًا وصامتًا لا يتحدث معنا ولا يتحدث مع "ليوشا" أيضًا، لم يكن يفعل شيئًا سوى النـوم وشرب الخمـر، وكانت عيناه حمراوين متـورمتين دائمًـا، وكـان لا ينظـر عـلى وجـه الخـصوص إلى "أنتساور"، كان ما إن يراه حتى يصير كالمصاب في عينيه الذي قابل ريحًـا فتنهمـر دموعه غزيرة، ولقد فكرت أنه سيتعافى بعد فترة من الـزمن، فـلا يوجـد جـرح في العالم يظل بلا شـفاء للأبـد، عـلى الـرغم مـن أن ألم الجـرح يظـل يظهـر في الأيـام الممطرة حتى بعد الشفاء. وكان "ويكيتيه" حين يعاقر الخمر لا نمنعـه، ولقـد قـام بإعطاء تلك البندقية التي قتلت "أنداور" إلى "والواجيا" قائلًا إنه لن يـصطاد بعـد الآن حتى لو مات جوعًا، كما أنه لم يعد يلمس اللحم، بل كـان يأكـل مـع الخمـر فواكه مجففة أو أسماكًا مجففة، وعندما نذهب لـصيد الـسناجب كـان يبقـى في المعسكر مع العجائز والأطفال. أما "واشيا" فعلى الرغم من أن "أنداور" لم يـسكن قلبها يومًا، إلا أنها كانت تبحث عن حجة لكي لا تخرج للـصيد، فكانـت تقـول إن "أنداور" مات لتوه وإنها حزينة، لذا ليست لديها الرغبة في صـيد الـسناجب، وفي مساء أحد الأيام عندما عدت أنا و"ليوشا" وبيدنا بضعة سـناجب جـاء "ويكيتيـه" إلى خيمتي وقال: "إيني، ربما كان مقتل "أنداور" فيه الخير له، لو عـاش لعـاش في تعاسة"، فقلت له من الجيد أن تفكر بهذا الشكل، فقال لي متلعثمًا إنه حين كـان يجلس وحيدًا يشرب الخمر في الخيمة جاءتـه "واشـيا"، وحـين رأتـه ثملًا أحاطـت عنقه بذراعيها ولثمته قائلة إنها ترغب في النـوم معـه، وحـين دفعهـا بعيـدًا عنـه قالت: "إنك بعد أن تنام معي وتجرب هذا الطعم الرائع ستنـسى ذلـك الأحمـق"، فاشتعل "ويكيتيه" غضبًا وأمسك بشعرها وقال: "لو جـرؤتِ عـلى نعـت "أنـداور" بالأحمق ثانيةً فسأقتلع لسانك"، فسبته "واشـيا" قائلـة إنـه هـو وأخيـه زوج مـن الحمقى، ثم ركضت باكية.

كنت أخشى ألا تيأس "واشيا" من إغواء "ويكيتيه"، لذا بعد تلك الحادثة طلبت من "ليوشا" أن تبقى بالمعسكر. لكن قلقي لم يكن في محله، فبعد بضعة عشر يومًا جاء إلى معسكرنا تاجر خيول ومعه أربعة أحصنة يريد أن يبادلها بغزالين، لكننا لم نتم معه تلك الصفقة، فنحن لا نحتاج الخيول، فهي تعيد لنا ذكريات مؤلمة، بالإضافة إلى أنه يريد الغزلان لتناول لحمها فقد سمع أن طعمها رائع، كيف لنا أن نعطي غزلاننا المحبوبة لمثل هذا الرجل؟ لذا بقي هذا التاجر في معسكرنا ليلة واحدة، وفي الصباح الباكر من اليوم التالي غادر ومعه خيوله، لكنه لم يرحل وحيدًا، بل أخذ معه "واشيا"، ومن وقتها عاش "أنتساور" معنا.

وفي بداية عام 1965 جاء إلينا أربعة أشخاص، من بينهم دليل صيادين، والثاني طبيب، أما الآخران فقد كانا كوادر في الحزب، ولقد جاؤوا أولًا لإجراء فحصوات طبية لنا وثانيًا لإقناعنا بالرحيل والاستقرار في مكان آخر، فقد قالوا إن ظروف المعيشة في الجبل سيئة، والوضع الصحي مترد، لذا قامت الحكومة بعد عدة استطلاعات وبعد أخذ رأي بعض الصيادين بإنشاء قرية لنا في مكان التقاء نهر "بايرتسيه" ونهر "ولجيتشي" وهي قرية "جليو" لكي نستقر فيها.

كنا على دراية تامة بموقع قرية "جيليو"، فتلك المنطقة تزدهر فيها الغابات، وتتمتع بمناظر جميلة، ومناسبة للسكن، لكن هناك مشكلة: ماذا عن الغزلان؟ فلو ذهبت كل الغزلان مع كل القبائل إلى هناك فمن المستحيل أن ترعى كلها بالقرب من نهر "بايرتسيه"، فأينما ستذهب سنذهب خلفها، لذا قال "والواجيا" إنه من المستحيل الإقامة هناك لفترة طويلة. فقال هذان الكادران: "ما الفارق بين الغزلان التي تربونها والأبقار والخيول والخنازير والأغنام؟ كلها حيوانات، إنها ليست متكبرة كالبشر، يمكنها في الصيف أن تأكل أغصان الأشجار الغضة، وفي الشتاء تأكل الأعشاب المجففة، لن تموت جوعًا". ولقد شعر الجميع بالنفور من كلامهما، فقال "لوني": "هل تعتقدون أن الغزلان كالأبقار والخيول؟ إنها لا تمضغ الأعشاب الجافة، إنها تأكل في الجبال

أكثر من مائة نوع مختلف، فلو جعلناها تتغذى فقط على الأعشاب وفروع الأشجار فستجف روحها وستموت". وقال "خاشيه" أيضًا: "كيف يمكنكم مقارنة الغزلان بالخنازير؟ ما تلك الخنازير؟ لقد رأيتها من قبل في "وتشيلوافو"، إنها أشياء قذرة تأكل حتى البراز، أما غزلاننا فهي تطأ بأقدامها قطرات الندى حين تسير في الصيف، وحيث تأكل ترافقها الزهور والفراشات، وحين تشرب ترى الأسماك السابحة، أما في الشتاء فعندما تزيح الثلوج لتأكل الطحالب يمكنها أن ترى الفاصوليا الحمراء المختفية تحت الثلوج، وتسمع غناء الطيور، كيف يمكن أن تقارنها بالخنازير؟". عندها أحس هذان الكادران بغضب الجميع فقالا بسرعة: "الغزلان رائعة، إنها الغزلان الآلهة! لذلك ومنذ البداية كان الكثيرون قلقين من موضوع الاستقرار بسبب الغزلان".

أما ذلك الطبيب الذي كان يعلق سماعته الطبية فقد صادف بعض المتاعب حين كان يفحصنا، فقد كان من السهل أن يطلب من الرجال أن يكشفوا عن صدورهم، لكنه حين طلب ذلك من النسوة قوبل بالرفض ما عدا "إيفولينا". قالت "جيفولينا" إن صدرها لن يراه أحد طوال حياتها سوى "داشي"، وقالت "ليوشا" أيضًا إنها لو سمحت لرجل آخر أن يرى صدرها ففي هذا إهانة لـ"ويكيتيه"، أما أنا فلم أكن أثق بأن ذلك الشيء الحديدي المستدير البارد يمكنه أن يسمع ما بجسدي من أمراض، فمن رأيي كان بإمكان الريح أن تسمع مرضي، وكانت المياه الجارية قادرة على أن تسمع مرضي، وضوء القمر أيضًا كان يسمعه، فالمرض هو الزهرة السرية المختفية في صدري، ففي حياتي لم أدخل مستشفى للكشف، فعندما كنت أشعر بالضيق كنت أقف وسط الرياح لبرهة فكانت تكنس معها غيوم الضيق في قلبي، وإذا غاض قلبي بالهم كنت أذهب لضفة النهر لأستمع لخرير الماء فكان صوته يجلب لي فورًا السلام النفسي. ولقد عشت بتمام صحتي حتى سن التسعين، مما يثبت أني لم أخطئ في اختيار الطبيب، إن طبيبي هو النسمات والمياه الجارية والشمس والقمر والنجوم.

وبعد أن استمع الطبيب لقلب ورئة "إيفولينا" سألته بصوت متحشرج: "كم يومًا بقي لي؟"، فقال الطبيب: "صوت قلبك ضعيف، وهناك حشرجة في الرئة، هل كنتِ تحبين تناول اللحم النيء في شبابك؟"، ففتحت فمها بقوة وأظهرت أسنانها وهي تقول: "لقد وهبتني السماء تلك الأسنان الجيدة، ألن يكون من المؤسف ألا أستخدمها لمضغ اللحم النيء؟"، فقال الطبيب إنها ربما مصابة بالسل، وترك لها كيسًا من الدواء، فتناولته "إيفولينا" واتكأت على عكازها ومشت مرتعشة حتى "نيخاو"، وما إن رأتها حتى قالت لها: "لا داعي لأن ترقصي رقصة الآلهة بعد ذلك لكي تبعدي المرض عن الناس، انظري، هناك أشياء يمكنها علاج المرضى"، ثم أرتها كيس الدواء الرابض في باطن يدها وقالت: "أطفالك من الآن في أمان". عندها سالت دموع "نيخاو" تأثرًا بكلماتها.

لكن "إيفولينا" لم تكن طيبة هكذا مع الجميع، لقد ظلت باردة تجاه "كويندية".

وفي فصل تطاير الأوراق المتساقطة ساق معظم أبناء القبائل الرحالة في الجبال غزلانهم وذهبوا للعيش في بلدة "جيليو". كانت تلك هي المرة الثانية الأكبر في التاريخ للاستقرار بعد تلك المرة في "وتشيلوافو". ولم تكتفِ الحكومة ببناء منازل لنا هناك، بل بنت أيضًا مدرسة ومستشفى ومتاجر حبوب ومتاجر ومحطة لشراء ما يتم صيده، ومن وقتها لم نعد مضطرين للذهاب إلى الجمعية التعاونية في "وتشيلوافو" لمقايضة الأشياء.

لم أذهب إلى بلدة "جيليو"، ولم يذهب "لاجيمي" أيضًا، فقد قال لي إنه لو أخذ "مايكان" إلى أسفل الجبل فكأنه أرسل غزالة إلى وسط قطيع ذئاب. لقد كان قلقه يزداد كلما ازدادت "مايكان" جمالًا. أما "ليوشا" فقد كانت في حيرة؛ فمن ناحية كان "ويكيتيه" مصممًا على الذهاب إلى هناك بسبب مصرع "أنداور"، ومن ناحية أخرى فإن "مافينباو" اعتاد على حياته القديمة، فكان يرى أن الحياة وسط الجبال والتجول مع قطعان الغزلان هي ما يرتاح له قلبه، لذلك وقعت بين اختيارين صعبين، وفي النهاية اختارت "ويكيتيه"، فقد أصبح

سكيرًا إلى درجة يحتاج معها إلى من يخدمه دائمًا. أما عائلة "لوني" فلم تغادر؛ فقد قالت "نيخاو" إن هؤلاء الذين ذهبوا إلى بلدة "جيليو" سيعودون في النهاية تباعًا، أما كبار السن مثل "إيوان" و"إيفولينا" و"كويندية" و"خاشيه" فقد صار ذهابهم إلى المساكن الجديدة أمرًا حتميًّا بسبب تدهور صحتهم يومًا بعد يوم، أما "داشي" فقد وضع كل آماله في أن تحبل "جيفولينا" وتلد في المستشفى، لذا كان الذهاب أمرًا عاجلًا. كانت "داجيانا" قد بلغت وقتها التاسعة عشرة، وكانت فتاة تسعى خلف حياة جديدة، لذا قالت لـ"والواجيا" ولي إن أي نوع جديد من الحياة لا بد من تجربته أولًا حتى نحكم على محاسنه أو مساوئه، لذا ذهب "والواجيا" إلى بلدة "جيليو" من أجلها ومن أجل أبناء عشيرته، لكني كنت أعرف أنه سيعود.

وفي الأيام السابقة لرحيلهم بدأنا في تقسيم الغزلان، وقتها كان لدينا أكثر من مائة رأس، لذا قسمنا الذكور والإناث والصغار إلى ثلاث مجموعات وأبقينا على الجانب الأعظم منها، أما هم فقد أخذوا جزءًا صغيرًا معهم، لم يكن ذلك بخلًا منا ولكن خشية ألا تعتاد الغزلان على البيئة الجديدة.

كما أبقيت على "أنتساور" إلى جواري، فقد كنت أعرف أن طفلًا ذا ذكاء محدود سيتعرض للأذى والسخرية من الأطفال الآخرين في مكان به كثير من السكان، ولم أكن أرغب في أن يتعرض لتلك الإهانات، أما في وسط الجبال فقد كان هناك تناغم ما بين حماقته والبيئة المحيطة، فالجبال والمياه بطبعها حمقاء، فالجبال جالسة دائمًا في مكانها، أما المياه فتجرى مع التيار دائمًا. لقد كان "أنتساور" هو نبراسي في الأيام التي غاب فيها "والواجيا" و"داجيانا"، وكان هادئًا، ويفعل كل ما أطلبه منه ولا يبكي، وكان يحب الغزلان من صغره، فكان لا يبدي أي رد فعل على أصوات حديث وضحكات البشر التي تأتي من المعسكر، لكنه ما إن يسمع صوت أجراس الغزلان حتى يجري خارجًا من الخيمة فرحًا لاستقبالها، ثم يضع الملح في راحة يده ويركع على الأرض

ليطعمها إياه كما لو كان عبدًا مخلصًا يصلي لآلهته. وعندما كنت أقوم بالعمل كان يرافقني، وعلى الرغم من حماقة لسانه إلا أن يديه كانتا بارعتين، فكان يتعلم بسرعة كبيرة، وفي سن السادسة أجاد حلب الغزلان، وفي سن الثامنة تعلم استخدام الشراك لصيد السناجب، وكانت السعادة البالغة تبدو عليه حين يقوم بالعمل، لم أرَ في حياتي طفلًا يحب القيام بالعمل مثله.

لقد غادر "والواجيا" ومن معه في الخريف، وعندما أتى الشتاء راودني شعور بأنه على وشك العودة، لذا وضعت علامات الأشجار بنفسي عند الارتحال، وكنت أحيانًا أغرس قطعة من لحاء شجر البتولا في بعض علامات الأشجار، وأرسم شمسًا وقمرًا، كانت الشمس مستديرة والقمر منحنيًا، وكان سن الهلال المنحني يتعلق ناحية الشمس كما لو كان يلوح بيده لها، وكنت على ثقة أن "والواجيا" حين يراها سيفهم أنني أتطلع لعودته. وبالفعل، عندما سقطت الثلوج للمرة الرابعة عاد "والواجيا". كان قد قص شعره الطويل، ونحف كثيرًا، لكن وجهه كان متوردًا، وبدا أكثر شبابًا.

وفي اليوم الذي عاد فيه "والواجيا"، جاء "لوني" و"لاجيمي" و"مافينباو" وألقوا عليه تحية بسيطة ثم غادروا، على الأرجح كانوا يرغبون في منحنا الفرصة لنتمتع بوقتنا سويًّا، لكنهم جاؤوا مرة ثانية في صباح اليوم التالي ليسمعوا منه أحوال بلدة "جيليو"، وأحوال هؤلاء الذين سكنوا هناك وأحوال الغزلان. فقال "والواجيا" إن البلدة بها سكرتير للجنة الحزب، وهو من قومية الهان ولقبه "ليو"، وهو شخص طيب تجاوز الأربعين من العمر، أما زوجته فهي امرأة بدينة لكن طفليهما على العكس نحيفان. أما رئيس البلدة فهو "تشيجيدا". كان زعيم قبيلة أخرى من الـ"إيوينكيه" التي كانت تسكن في الجبل، ونائبا رئيس البلدة أحدهما من الهان والآخر من الـ"إيوينكيه". وأضاف أنه في اليوم الثاني لوصولهم إلى محل السكن أقامت البلدة اجتماعًا للجميع ذكروا فيه أن الوحدة تحتل المرتبة الأولى هنا، فلا مجال للخلاف والتفرقة بين العشائر وبعضها

البعض، فالجميع الآن يعيشون في أسرة كبيرة. وما إن انتهى السكرتير "ليو" من كلماته تلك حتى قال "ويكيتيه" الذي كان ثملًا: "لو كنا كلنا أسرة كبيرة، فهل يمكن تبادل النوم مع النساء؟"، ويبدو أن كلماته أفسدت الاجتماع تمامًا، فقد انهمك الجميع في الضحك ولم يستمع أحد لكلمات السكرتير ورئيس البلدة، وأضاف السكرتير "ليو" أيضًا أنه على الجميع الانتباه لبنادق الصيد خاصتهم، والإقلال من شرب الخمر، وممنوع الشجار في حالة السكر، وأن نصبح صيادين جددًا اشتراكيين متحضرين مؤدبين.

أما بالنسبة للمساكن هناك فقد قال "والواجيا" إن كل أسرتين في مبنى، وهذا أفضل من "وتشيلوافو". وتنتشر في تلك المنطقة أشجار الحور، لذلك فهي مزروعة أمام كل المساكن وخلفها، أما في داخل المساكن فقد تم تجهيز أغطية من القطن، لكن الجميع يشعرون بضيق التنفس عند استعمالها، لذلك يفضلون تلك المصنوعة من جلود الحيوانات. وفي الأيام الأولى التي وصلوا فيها لهناك لم يستطع الجميع النوم، فكانوا يخرجون من منازلهم في منتصف الليل ويتجولون في الشوارع ليلًا مثل الآلهة الجوالة، ليس البشر فحسب، ولكن أيضًا كلاب الصيد، فقد اعتادت حراسة الخيام والبقاء وسط الغابات، وكان الأشخاص الغرباء حين يصادفون غرباء لا يتكلمون، لكن الكلاب الغريبة حين تقابل كلابًا غريبة كانت لا تستطيع أن تظل هادئة فكانت تنبح بقوة، وفي بعض الأحيان تتبادل العض، لذا في الأيام الأولى للسكن هناك كانت بلدة "جيليو" تصدح كل مساء بأصوات نباح الكلاب.

ثم أخبرنا "والواجيا" أن "داجيانا" و"إيفولينا" و"كوينديه" سكنوا سويًّا، وسكنت أسرة "ويكيتيه" وأسرة "داشي" في بناية واحدة، أما "إيوان" فقد حظي برعاية خاصة من البلدة، فصار له مسكن وحده، فلقد سمع سكرتير الحزب بالبلدة عن قصص قتال "إيوان" للعفاريت (جنود اليابانيين)، فقال إنه ذو فضل في تأسيس الجمهورية. ولقد ظل الرجال يصطادون في الجبال، وكانوا يعودون

في اليوم نفسه أحيانًا، ويغيبون لعدة أيام أحيانًا أخرى، أما النسوة فظل عملهن الرئيسي هو رعاية الغزلان، فالغزلان لم تكن تحب العودة إلى بلدة "جيليو"، فقد كانت تفضل البقاء في الأماكن الهادئة الواسعة، لذلك قامت النسوة بإعداد مكان مناسب لراحة الغزلان يبعد عن البلدة بكيلو متر تقريبًا، وكل يوم يأخذن الحبوب الجافة ويذهبن لعد الغزلان، ولو نقصت يذهبن للبحث عنها كما في الماضي.

فقال "مافينباو": "ألم يقل كادرا الحزب اللذان جاءا من قبل إن الغزلان في بلدة "جيليو" يمكنها تناول الأعشاب ولحاء الشجر؟ لماذا أشعر أنه لا فارق بين الماضي والحاضر؟"، فقال "والواجيا": "في بداية وصولنا تم تجميع الغزلان في حظيرة على شاطئ نهر "وليجيتشي" في الجهة الغربية من مقر حكومة البلدة، وكان الطبيب البيطري "تشانج" من الوحدة البيطرية بالبلدة يرتدي معطفًا أزرق ويضع نظارته ويقف كل يوم في وسط قطيع الغزلان ولا يدعها تخرج، ويطعمها العلف وخبز الحبوب فحسب، لكن الغزلان لا تحب تناول تلك الأشياء، لذا كانت تفضل الجوع باستثناء لعق القليل من الملح وشرب بعض الماء. وعندما رأى الصيادون غزلانهم تهزل يومًا بعد يوم أضربوا وسبوا ذلك الطبيب بأنه شيطان، بل إن بعضهم أراد أن يضربه، وما إن رأى زعماء البلدة الصيادين في ثورة غضب، وأوضاع الغزلان بالفعل سيئة، حتى انصاعوا لرغبة الجميع، وهكذا فازت الغزلان بحريتها من جديد.

فقلت لـ"والواجيا": "عندما تقل الطحالب في تلك المنطقة ستذهب الغزلان إلى مكان آخر للبحث عما يؤكل، وفي أقل من سنتين ستصير تلك المساكن خاوية لأنها ميتة لا تستطيع الحركة، بعكس خيامنا التي تنبض بالحياة ويمكنها السير مع الغزلان".

وفي شتاء ذلك العام بدأ التطوير الكبير لمنطقة "داشينج أنلينج"، وجاء عدد أكبر من عمال الغابات إلى الجبال، وأنشأوا مناطق عمل في كثير من الأماكن، ومهّدوا كثيرًا من الطرق المخصصة لنقل الخامات، فصار صوت قطع الأشجار

أكثر صخبًا يومًا بعد يوم. وبدايةً من هذا العام قلَّت أعداد السناجب في الغابات، ولقد قال "والواجيا" إن هذا بسبب تأثرها بالقطع الجائر للأشجار، وبعد أن تم قطع تلك الأشجار قلت كمية غذائها، فعندما تحدث المجاعات يهرب منها البشر، وكذلك تفعل السناجب، بالتأكيد كورت ذيولها الكبيرة وهربت إلى الضفة اليسرى لنهر أرجون.

وبعد عامين - وكما توقعت - عاد كل أبناء القبائل الذين استوطنوا بلدة "جيليو" مرة ثانية كالطيور المهاجرة بسبب الغزلان، عادوا مجموعة تلو الأخرى، يبدو أن الحياة القديمة هي الربيع.

أما عن قبيلتنا فقد عاد منها جزء وبقي جزء آخر، فقد طرق "داشي" و"جيفولينا" كل الأبواب بحثًا عن عون طبي من أجل إنجاب طفل، لذا رفضا العودة، وكان "إيوان" يرغب في العودة لكن مرض الروماتيزم اشتد عليه حتى صار السير صعبًا، فكان قلبه يتوق للعودة لكن جسده يعجز عن الانصياع، أما "ليوشا" فقد اضطرت للبقاء هناك من أجل "ويكيتيه" ومن أجل "جيويوا" الذي التحق بالدراسة بالفعل. لقد عاد فقط "إيفولينا" و"كويندية" العجوزان و"خاشيه"، وكانت الغزلان التي عادوا بها مثلهم، غير مفعمة بالحيوية.

كانت الوحيدة المفعمة بالحيوية من بين من عادوا هي "داجيانا"، كان وجهها متوردًا وعيناها تلتمعان ببريق رقيق جميل، ولقد جلبت هدايا لكل نساء المعسكر، فأهدت لي ولـ"نيخاو" غطاء شعر أزرق، ولـ"بايرنا" و"مايكان" منديلًا مطرزًا لكل واحدة، وفي المساء الذي عادت فيه أخبرتني أنا و"والواجيا" أن هناك رجلين طلباها للزواج، وسألتنا أي واحد منهما توافق عليه؟

كان من تقدما للزواج من "داجيانا" أحدهما مدرس ابتدائي ببلدة "جيليو" اسمه "جاو بينج لو"، من قومية الهان، وأكبر منها بست سنوات، أما الثاني فكان من الـ"إيوينكيه"، اسمه "سو تشانج لين"، في مثل عمرها، وهو رامٍ أسطوري بالبنادق في عشيرتهم وذو شهرة هناك.

ولقد قالت "داجيانا" إن "جاو بينج لو" طويل القامـة يميـل للنحافـة، طباعـه رقيقة، وجهه أبيض نظيف ومثقف وذو مرتب ثابت، كما أنه يجيـد العـزف عـلى الناي. أما "سو تشانج لين" فهو متوسط القامة، ليس بالبدين ولا بـالنحيف، قـوي الجسد، وحين يضحك يبدو مرحًا متفتحًا، ويحب تناول اللحم النيـئ، وهـو مثلنـا يعيش على الصيد وتربية الغزلان. فقلت: "يجب أن تتزوجي من ذلك الذي يحب تناول اللحم النيئ".

وقال "والواجيا": "يجب أن تتزوجي من ذلك الذي يجيد العزف على الناي".

وقالت "داجيانا": "هل يجب أن أستمع لكلام "إيني" أم أستمع لكلام أما؟".

فرد "والواجيا": "استمعي لقلبك، واذهبي أينما يدعوكِ للذهاب".

كانت "داجيانا" قد عادت في الربيع، وكانت السعادة تبـدو عليهـا مثـل طـائر صغير خرج من القفص، وقالت إنها لا ترغب البتة في العـودة إلى بلـدة "جيليـو"؛ فالمعيشة في الخيام أفضل. لـذلك في الـصيف أعلنـت لي أنـا و"والواجيـا": "إينـي"، "أما"، سأتزوج من ذلك الذي يحب تناول اللحم النيئ". ومن ثم قمنا عـلى عجـل بتجهيز جهازها، وبعد نصف شهر تزوجها "سو تشانج لين" ورحل بها.

وفي اليوم الذي غادرت فيه "داجيانا" المعسكر تنهد "والواجيا" تنهيدة عميقـة أمامي، ففهمت أنه لا يشعر بالحزن من أجل رحيل "داجيانا" فحسب، بـل يـشعر بالأسى أيضًا من أجل ذلك الشاب الذي يجيد العزف على الناي.

وما إن رحلت "داجيانا" حتى جاء ضيوف للمعـسكر، أحـدهما دليـل، والثـاني هو "تشين" نائب رئيس بلدية "جيليو"، والثالث هـو الطبيـب البيطـري "تـشانج" من الوحدة البيطرية، بالإضافة إلى المدرس الابتدائي الذي يجيد العزف عـلى النـاي "جاو بينج لو"، وقد جاء كل منهم لهدف في نفسه، فقد جاء نائـب رئـيس البلـدة ليحصي عدد السكان ويسجلهم، وجاء الطبيب لكي يفحص أمراض الغـزلان، وقـال أيـضًا إنـه يريـد أن يجمـع حيواناتهـا المنويـة لـكي يجـري تجـارب عـلى تحـسين

السلالات، مما أثار سخرية الجميع. وعندما كان السيد "تشين" يعرفنا بـ"جاو بينج لو" قال إنه موهوب، لذا جاء مستغلًا الإجازة الصيفية لكي يجمع الأغاني الشعبية لقومية الـ"إيوينكيه"، لذا يأمل أن نُسمعه الكثير من الغناء. وما إن وصل حتى بدأ في تقصي أخبار "داجيانا"، وعندما أخبرناه أنها تزوجت ورحلت لتوها، قال: "حسنًا. لكن كان يبدو عليه الإحباط".

وعندما سمع "لاجيمي" أن السيد "تشين" سيقوم بعمل إحصاء لعدد السكان، أفزع "مايكان" بقوله: "لقد أتى من سيقبض عليكِ، لا تتحركي خطوة واحدة خارج الخيمة وإلا انتهت حياتك". فوافقت "مايكان"، لكن أصوات الأغاني والرقص في المساء كانت مغرية جدًا، لذلك تسللت خارجة لتندس وسط جموع الراقصين حول النار. كانت في الأصل جميلة مثل زهرة ليلي مزينة بقطرات الندى، بالإضافة إلى حركاتها الراقصة الرشيقة، كل هذا جعل أنظار الرجال القادمين من خارج المعسكر تتركز على جسد تلك الفتاة ذات السبعة عشر ربيعًا.

كانت "مايكان" التي ظهرت فجأة مثل قمر لامع قفز فجأة في عتمة الليل، وأشبه بقوس قزح ظهر بعد المطر، أو كغزالة صغيرة تقف قرب المساء على حافة البحيرة، كان جمالها يدعو للعجب، لذا فرك نائب رئيس البلدة عينيه وقال: "إنها ليست جنية، أليس كذلك؟"، أما الطبيب "تشانج" فقد فغر فاه كما لو كان في حلم، أما "جاو بينج" لو فقد كان مطرقًا برأسه في البداية ليسجل كلمات الأغاني في دفتره على ضوء النيران، ولكن ما إن ظهرت "مايكان" حتى رفع رأسه وتوقف قلمه وانزلق دفتره إلى وسط النيران ليشتعل ويصير لهبًا متطايرًا. وعلى الرغم من أنه لم يتفوه بكلمة فإن عينيه ساعدتاه على القول، لقد سالت دموعه، تلك الدموع جعلتنا على يقين أن قلبه لن يحزن ثانيةً من أجل "داجيانا"، لأن "مايكان" كانت أشبه بالسحابة التي تطايرت في لحظات إلى داخل قلبه مسببةً رياحًا وأمطارًا.

ما إن رأى "لاجيمي" "مايكان" وقد ظهرت على الملأ حتى ارتعش جسده غضبًا، كما لو كانت "مايكان" مثل لؤلؤة سُرقت، أما هو فمثل مالكها الذي وقف يحرس علبتها الخالية، لقد كان ذلك الشحوب والغصة مرسومين بوضوح على وجهه، لذا في الوقت الذي كانت فيه قدماها تدوران في سعادة كانت أكتاف "لاجيمي" تتشنج ألمًا مثل أجنحة الطائر المصاب.

ولقد قال السيد "تشين" موجهًا كلامه لـ"والواجيا": "تلك الفتاة ليست من الـ"إيوينكيه"؟ إنها جميلة وترقص ببراعة، يجب أن نرشحها لفرقة العمال الفنية، وإلا فستظل مدفونة في الجبل وهذا أمر مؤسف".

فقال "والواجيا" له بصوت خفيض: "تلك الفتاة لقيطة، ولقد رعاها "لاجيمي" حتى كبرت، إنها بمثابة عيونه، فلو رحلت عنه سيصير كفيفًا".

عندها مد السيد "تشين" رقبته وقال: "أوه"، ولم يقل شيئًا بعدها.

في مساء ذلك اليوم تصاعدت من خيمة "لاجيمي" موجات من أصوات البكاء، كان في البداية صوت بكاء "لاجيمي"، تبعه صوت بكاء "مايكان"، وفي صباح اليوم التالي اكتشفنا اختفاءهما، عندها فهمنا أن "لاجيمي" اعتبر هؤلاء الرجال ذئابًا لذا أخذها ورحلا "لتجنب المصائب".

وكان الوضع بالفعل كذلك، ففي اليوم الثالث من رحيلهما عاد "لاجيمي" مع "مايكان"، ومن بعدها لم تعد تحب التحدث، ولم تعد تحب اللعب مع "بايرنا" أيضًا، وفي كل يوم وقت الغسق كانت تبدأ في الغناء بصوت خفيض، كان صوت غنائها حزينًا، جميلًا. ولقد قال لي "والواجيا" إن "جاو بينج لو" جاء لكي يجمع الأغاني الشعبية، لا بد أن "مايكان" كانت تغني من أجله. كانت تغني كل يوم الأغنية نفسها، فحفظنا كلنا ذلك اللحن، لكن كلمات الأغنية كانت مبهمة، وظلت هكذا حتى الخريف حين هربت "بايرنا"، عندها طفت كلمات أغنية "مايكان" مثل صغار الضفادع التي تتقافز فوق سطح الماء.

كان هروب "بايرنا" بسبب مرض "خاشيه".

كان رحيل "خاشيه" بسبب قطعة فطر عيش غراب كبيرة، فبعد أمطار الخريف الخفيفة تنمو كل أنواع فطر عيش الغراب بالغابة، وهناك نوع منها مميز للغاية، فرأسه كبير ذو لون أحمر غامق وعليه طبقة سميكة من سائل لزج، لذا يطلق عليه اسم مشتق من صفاته "عيش الغراب اللزج". هذا النوع من عيش الغراب لا يحب الضوء، لذا دائمًا ما ينمو على أرض الغابة الرطبة الظليلة. ولقد داس "خاشيه" بقدمه على واحدة من هذا الفطر فانزلقت قدمه وسقط على الأرض، وحين حاول النهوض عجز تمامًا عن ذلك، كان وقتها في السبعين من عمره، وعندما حملناه إلى الخيمة أمر "لوني" بألا ينقذه، فهو عظمة كبيرة وإنقاذه بلا قيمة. ولقد قال "والواجيا" إن هذا كسر في العظام، واقترح إرساله إلى المستشفى ببلدة "جيليو" لتلقي العلاج، فقال "خاشيه" لن أذهب، أريد أن أرمي عظامي بالجبال، فعظام "مارية" هناك. قالها بصدق وأسى بشكل أدمع قلوبنا، وكان في اليوم الأول لسقوطه صافي الذهن، لكن في اليوم التالي بدأ يهذي وامتنع عن شرب الماء، حينها نظر "لوني" إلى "نيخاو" بأعين دامعة ففهمت ما يريدها أن تفعله لذا حولت نظرها تجاه "بايرنا" و"مكسيم" لترمقهما بنظرات قلقة خائفة. كان "مكسيم" وقتها صغيرًا ولا يعرف شيئًا عما حدث من قبل بتلك العشيرة، فاستمر في لهوه بالدمية الخشبية التي صنعها له "لوني"، أما "بايرنا" فقد ابيض وجهها فزعًا، وعضت شفتيها وارتعشت مثل غزالة صغيرة حاصرتها الذئاب، وحيدة بلا حيلة.

بعد ظهر ذلك اليوم هربت "بايرنا"، اعتقدنا في البداية أنها ذهبت لجمع الفطر، فهي مثل الغزلان تحب تناوله، لكن حل المساء ولم تعد، وانتظر الجميع حتى حل الظلام وظهرت النجوم، حينها شعرنا بأن الأمر ليس على ما يرام ومن ثم افترقنا للبحث عنها، ولقد استمر الجمع في البحث ليلة كاملة لكن لم

يعثروا لها على أثر. ولقد بكى "لوني" وبكت "نيخاو" أيضًا، ودفنت رأسها في صدر "لوني" وقالت: "لا تبحثوا عنها، فلن تعود طالما أنا على قيد الحياة".

وفي مساء اليوم التالي الذي هربت فيه "بايرنا"، غنت "مايكان" ثانيةً تلك الأغنية. عندها سمعنا بوضوح كلمات الأغنية، كانت كما لو كانت تغنيها لذلك الرجل الذي يجيد عزف الناي، وكانت أيضًا كما لو كانت تغنيها من أجل "بايرنا".

جئت للنهر لأغسل ملابسي
فسرقت الأسماك الخاتم بإصبعي
وأخذته فوق الصخور في قاع النهر
جئت لسفح الجبل لجمع الحطب
فأسقطت الرياح شعري
ولفته فوق العشب الأخضر
جئت للنهر كي أبحث عن خاتمي
فهربت مني الأسماك بعيدًا
جئت لسفح الجبل كي أبحث عن شعري
فدفعتني الرياح العاصفة حتى ارتعشت.

وبعد أن عانى "خاشيه" لثلاثة أيام وثلاث ليالٍ أغمض عينيه أخيرًا، فذهب "لوني" إلى بلدة "جيليو" لكي يبلغ خبر الوفاة لـ"داشي" ولكي يبحث عن "بايرنا"، لكنه لم يجد هناك أثرًا لها. وعندما عاد "لوني" مع "داشي" و"جيفولينا" كان الحزن باديًا عليه، وحين رأى "مكسيم" احتضنه بقوة شديدة، فارتعش جسد "مكسيم" الصغير بين أحضانه وصرخ باكيًا كما لو كان سنجابًا صغيرًا يتقافز في سعادة وفجأة سحقه حجر ضخم متدحرج من أعلى الجبال، فظل يقاوم متألمًا صارخًا، عندها ارتعشت "نيخاو" وخلصته من بين أحضان أبيه، فتوقف عن البكاء، لكن "لوني" بكى.

بعد جنازة "خاشيه" عاد "داشي" و"جيفولينا" ثانيةً إلى بلدة "جيليو".

تصاعدت رائحة المسك ثانيةً من جسد "نيخاو"، وكنت أعلم أن تلك الرائحة قد أنهت في تلك المرة شبابها للأبد، وبالفعل لم تنجب "نيخاو" بعدها ثانيةً.

وفي صيف عام 1968 - أي في العام الثاني لزواج "داجيانا" - أنجبت المحبوبة "إليانا". ولقد رأيتها لأول مرة في بلدة "جيليو"، وقتها كانت لا تزال ملفوفة في غطاء الأطفال، كانت المرة الأولى التي ألتقي فيها بحفيدتي في جنازة. كانت جنازة "إيوان"... من كان يتوقع أن تهبط المصائب من السماء على رأس "داشي" و"إيوان" معًا؟

كانت تلك المصائب بسبب تلك الخريطة التي أحضرها "لاجيمي" من قبل، وقتها كانت العلاقات بين الصين والاتحاد السوفيتي قد انقطعت، وشُنت حملات للقبض على عملاء السوفييت في جميع أرجاء البلاد، أما تلك الخريطة التي تم حفظها باعتبارها معلومات عسكرية فقد عثرت عليها فرق الثورة، ونظرًا لأن ظهر الخريطة كان مكتوبًا عليه جملة باللغة الروسية ترجمتها "الجبال لها نهاية، أما المياه فلا حدود لها"، لذا رأت فرق الثورة أن تلك الخريطة ربما تكون من صنع جواسيس سوفييت، لذا تتبعوا مصدرها حتى وصلوا إلى "إيوان".

لقد استقلوا السيارات لمئات الكيلو مترات حتى وصلوا إلى بلدة "جيليو"، ليستجوبوا "إيوان" عما إذا كان قد حصل على تلك الخريطة من الاتحاد السوفيتي، فقال "إيوان" إن "داشي" هو من أعطاه الخريطة، ولقد حصل عليها بدوره من "جيتيان". لذا قاموا باستجواب "داشي"، وما إن سمع أن الخريطة لها علاقة بالاتحاد السوفييتي حتى قال: "كيف يعقل هذا؟ لقد أعطاها اليابانيون للاجيمي". وقال "إيوان" أيضًا إنهم اعتمدوا وقتها على تلك الخريطة لتدمير عدة مناطق بناها جيش "دونجدا" الياباني، مثل تلك الخريطة لا يمكن لأحد رسمها سوى اليابانيون. فقال فريق الثوار: "إذًا لماذا توجد جملة باللغة الروسية على ظهرها؟". وبعد أن سأل "إيوان" عن معنى الجملة المكتوبة قال: "إن هذا الياباني "جيتيان" كان محملًا بمشاعر الضجر

من الحروب، لذا بالتأكيد قام بتشبيه الجبال باليابان التي لا بد ستخسر الحرب، وشبه المياه بالصين القوية لذلك قال "الجبال لها نهاية، أما المياه فبلا حدود". أما بالنسبة لماذا كتبها بالروسية فربما لا أحد غيره يمكن أن يوضح ذلك، لكنه انتحر على ضفة نهر أرجون بعد هزيمة اليابان في الحرب، وقال "داشي": "أين كل هذا العدد من العملاء السوفييت؟ لقد ذهبت إلى الاتحاد السوفييتي من قبل حين كنت أتلقى التدريب في معسكر "دونجدا" وساعدت اليابانيين في تصوير جسور وسكك حديد السوفييت، إذًا فطبقًا لكلامكم فهل أنا أيضًا عميل للسوفييت؟"، لكن كلامه هذا عمق من شكوكهم تجاههما، لذا أخذوهما معهم في اليوم التالي.

وفي اليوم الثالث للقبض عليهما قام رئيس البلدة "تشيجيدا" دون مشاورة سكرتير الحزب بالبلدة بقيادة بضعة عشر صيادًا ببنادقهم وركبوا الخيول وساروا يومًا وليلة حتى عثروا على المكان المحتجز فيه "إيوان" و"داشي"، فقال "تشيجيدا" لفرقة الثورة إما أن تحتجزونا معهما وإما تطلقوا سراحهما ليعودا معنا.

وفي النهاية عاد "إيوان" و"داشي" إلى البلدة، لكنهما عادا معاقين؛ لقد فقد "إيوان" إصبعين من أصابع يده، أما "داشي" فقد فقد ساقه. لقد عض "إيوان" إصبعيه بنفسه حتى قطعهما، فقد وصل إلى ذروة الغضب أثناء استجوابه، أما قدم "داشي" فقد كسرها فريق الثورة.

وبعد أن عاد "إيوان" للبلدة ظل يبصق دمًا لمدة يومين، بعدها رحل، ولقد كان واعيًا تمامًا قبل رحيله، وقال لـ"ويكيتيه": "ادفنوني في الأرض ورأسي تجاه نهر أرجون، وضعوا صليبًا على قبري". ففهمت أن هذا الصليب هو رمز لـ"ناديجدا"، فلو ذهبت هي أيضًا إلى ذلك العالم فبالتأكيد ستصاب بالحزن من أجل إصبعي "إيوان" المفقودين، لقد كانت تحب يديه كثيرًا.

وخلال جنازة "إيوان" ظهرت فجأة فتاتان ترتديان ملابس بيضاء ناصعة ولا يعرفهما أي من أبناء البلدة وقالتا إنهما ابنتاه بالتبني، وحين عرفتا أنه

رحل جاءتا خصيصًا لوداعه. وقتها كانت "إيفولينا" قد ضعفت حتى إن العكاز لم يعد مجديًا معها، كانت تحتاج للاتكاء على أحدهم في كل خطوة، لكنها أصرت على الذهاب لجنازة "إيوان"، لذا أركبناها على ظهر غزال. وعلى الرغم من تقدمها في السن إلا أن حواسها ظلت حادة، وقد قالت لي إن تلك الفتاتين هما بالتأكيد الذئبان الأبيضان اللذان أطلق إيوان سراحهما في الجبل حين كان شابًا، لقد حفظتا الجميل له، وحين عرفتا أن ابنه وبنته لن يستطيعا البر به في جنازته تنكرتا في شكل ابنتيه بالتبني وجاءتا لرد جميل عدم قتلهما. كنت نصف مصدقة ونصف مكذبة لكلامها، لكن في الحقيقة، اختفت هاتان الفتاتان بعد الجنازة من المقبرة فيما يشبه المعجزة، فلم يشاهد أحد كيف اختفتا! بالضبط مثلما لم يعرف أحد كيف أتيتا!

وخلال جنازة "إيوان" شاهدت "إيليانا" في أحضان "داجيانا"، وحين ألقيت النظرة الأولى عليها كانت نائمة بعمق وهي تمد وجهها الوردي الناعم، وعندما احتضنتها فتحت عينيها وضحكت لي. كانت عيناها لامعتين، وكنت أعرف أن الأطفال ذوي العيون اللامعة يتمتعون بالطالع السعيد.

وعند عودتنا للمعسكر عاد معنا "داشي" و"جيفولينا"، لم يحظيا بالأبناء في بلدة "جيليو"، بل على العكس فقد "داشي" قدمًا، وعندما رآه "لاجيمي" في المعسكر متوكئًا على عكاز أجهش بالبكاء.

أما "تشيجيدا" فقد كلفه موقفه من حادثة "إيوان" وظيفته فعاد إلى الجبل ثانيةً، وبعدها بفترة قصيرة جاءنا السكرتير "ليو" ومعه شخص يرتدي بدلة على الطراز الصيني بحثًا عن "والواجيا"، وقال له هذا الرجل إن الصيادين قد رشحوا "والواجيا" لتقلد منصب الرئيس الجديد لبلدة "جيليو"، ثم سأله "والواجيا" عن رأيه، فأشار "والواجيا" تجاهي وقال لهما برقة: "لا تضعا اعتبارًا لقيامي بحلق شعري الطويل، أنا لا أزال زعيم قبيلتها، فلو لم تنزل من الجبل فسيبقى زعيم القبيلة معها".

وفي شتاء ذلك العام توفي "تـشيجيدا"؛ لقـد دخـل بالخطـأ في فـخ أُعـد لـصيد الحيوانات. وكان رجال عشيرته لا يزالـون يعتبرونـه زعـيمًا مـبجلًا لـذا جهـزوا لهـا جنازة ضخمة.

لقد حكيت الكثير والكثير من قصص الموت، وهـذا لـيس بيـدي، فكـل نفـس ذائقة الموت، فالجميع يأتي من المكان نفسه وبالطريقة نفسها، ولكن عند الرحيل يتفرد كل شخص بطريقة رحيله.

وفي العام الثاني لرحيل "إيوان"، أي في صيف عام 1969، رحل عنـا "كويـنديـه" و"إيفولينا" تباعًا، وكان موتهما متوقعًا؛ فقد تجاوزا السبعين من العمـر، والعجـائز في هذا السن أشبه بالشمس الغاربة، لا يمكنك الإمساك بها حتـى لـو أردت، لكـن موت "كويـنديه" و"إيفولينا" كان مميزًا.. هل يمكنكم تخيل أن "كويـنديه" - الـذي لا يخشى الذئاب المفترسة ولا يهاب الدببة القوية - قد مات رعبًا بسبب عنكبوت أسود؟

في ذلك العام كان "أنتساور" في التاسعة من العمر، لم يكن طفلًا مشاغبًا، لكنه في ذلك اليوم أمسك بعنكبوت أسود بحجم التمرة مـن الغابـة، فـشعر بأنـه شيء جديد، لذا أتى بعود عشب أخضر وفتله حتى صار خيطًا ثم ربـط بـه العنكبـوت، وأمسكه وظل يلهو به، وقتها كان "كويـنديه" يجلس أمام الخيمـة مغمـضًا عينيـه يستمتع بالشمس، وعندما مر "أنتساور" من أمامه فـتح عينيـه وسـأله: "يبـدو أن هناك شيئًا ما في يدك، ما هو؟"، فلم يخبره "أنتساور"، بل سار حتى وقـف أمامـه ووضـع العنكبـوت أمـام عينيـه لـكي يـراه بوضـوح، وعـلى الـرغم مـن أن جـسم العنكبـوت كـان مربوطًـا إلا أن أقدامـه المـشعرة كانـت تـتراقص بحريـة، فـصرخ "كويـنديه" صرخة واحدة: "يا للسماء" ثم أخذ نفسًا عميقًا واعوجت رقبته ومات.

كانت "إيفولينـا" وقتهـا تجلـس داخـل الخيمـة بجـوار موقـد النـار تحتـسي الشاي بلبن الغزلان، وعندما أخبرتها أنا و"نيخاو" أن "كويـنديـه" مـات فزعًـا مـن عنكبـوت كبـير ضـحكت فجـأة، كانـت لم تـضحك منـذ زمـن بعيـد، ثـم قالـت:

"هذا الـ"كويندیه" مات بسبب جبنه، لو كان استجمع شجاعته من البداية وتزوج تلك الفتاة المنغولية التي أحبها بدلًا مني، لكنت عشت أنا وهو في سعادة. حسنًا حسنًا، لقد فقد حياته بسبب جبنه، وفي هذا عدالة شعرية.

كان "كويندیه" قد أوصى قبل موته بدفنه في مقابر عشيرته، لذا ما إن لفظ أنفاسه حتى أرسل "لوني" من ينقل نبأ الوفاة لهم، وعندما رجعوا جلبوا معهم عربة الحصان التي ستحمل جثمانه، ولقد وقفت العربة فوق خط نقل الخامات، وكانت المسافة من هناك إلى معسكرنا حوالي ثلاثة أو أربعة "لي" (وحدة قياس صينية تعادل نصف كيلو متر)، ولقد قام "لوني" و"والواجيا" بصنع محفة من أشجار الصنوبر استعدادًا لحمل "كويندیه" عليها حتى خط نقل الخامات، وما زلت أذكر حين استعدوا لنقل جثمان "كويندیه" المغطى بقماش أبيض، استندت "إيفولينا" على "نيخاو" وذهبت لتوديعه، وكانت كلماتها الأخيرة له: "لا تغتر بكونك قد جلدتني بالسياط كثيرًا، إنك في النهاية جبان، عليك أن ترحل أيها الجبان".

وبعد رحيل "كويندیه" تحسنت "إيفولينا" قليلًا، فأصبح باستطاعتها السير هوينًا مستندة لعكازها. كانت في الماضي تحب أكل اللحم، لكن في أيامها الأخيرة صارت مثل "ويكيتيه" لا تلمس اللحم ولا تشمه حتى، فكانت كل يوم تكتفي بقليل من لبن الغزلان، وبعض بتلات الأزهار التي يجمعها لها "أنتساور" من الغابة لتأكلها، فقد قالت إن أيامها معدودة، وترغب في تنظيف أمعائها قبل الرحيل.

وقتها أصيب "مكسيم" ذو الخمس سنوات بتقرحات في رقبته، فكان يبكي طوال اليوم من الألم. وفي مساء ذلك اليوم كان الجميع ملتفين حول النيران ويسلقون سمكًا في القدر لتناوله، فجاءت "إيفولينا" وأشارت إلى "مكسيم" الذي يبكي في حضن أمه وسألت: "لماذا يبكي؟"، فأخبرتها "إيفولينا" أن هناك

قروحًا برقبته وهو يـبكي ألمًـا. فعوجـت "إيفولينـا" فمهـا وقالـت: "لمـاذا لم تقـولي مبكرًا؟ أنا الآن أرملة، وهذا المرض يشفى بمجرد أن أنفخ فيه عدة مرات".

تلك المقولة كانت منتشرة في عشيرتنا، أنـه لـو أصـيب أي طفـل بتقرحـات في جسده، ثم قامت أرملة برسم دائرة حول القرحة بسبابتها ثلاث مرات ثم نفخـت ثلاث مرات، وكررت ذلك تسع مرات فإن القرحة تشفى.

فقامت "نيخاو" بحمل "مكسيم" إلى "إيفولينا"، فمدت بيد مرتعـشة سـبابتها التي يبست وصارت مثل فرع شجرة جاف ورسمت دوائر فوق رقبة "مكسيم" ثم نفخت بأقصى قوتها فوق أماكن التقرح، وفي كـل مـرة تـنفخ فيهـا تخفـض رأسـها وتلهث بقوة لفترة، وعندما نفخت آخر مرة وهي ترتعـد انقلبـت بخفـة بجانـب النيران، فارتعشت النيران قليلًا وأضاءت وجهها، فبـدا وكأنهـا تجاهـد لفـتح فمهـا لتقول شيئًا ما.

وبعد جنازة "إيفولينا" شفيت القرح الموجودة على رقبة "مكسيم".

وفي تلك السنة جاء إلى معسكرنا فجأة رجل يركب حصانًا وأحـضر لنـا الخمـر والحلوى، ولو لم يخبرنا بنفسه لما عرفنا أنه هو الشاب الذي سرق غزلاننا من قبـل وفقدت "نيخاو" طفلها الذي كان على وشك الولادة بسببه. لقد صـار رجـلًا بالغًـا وقال لـ"نيخاو" إنها أعطته حياته وهو يرغب في رد الجميل، فقالت: "لقد هربـت ابنتي، اسمها "بايرنا"، لو عثرت عليها يومًا اجعلها فقط تحضر جنازتي".

فرد ذلك الرجل: "سأعثر عليها بالتأكيد ما دامت على قيد الحياة".

وفي خلال السنوات التاليـة قـضينا أوقاتًـا هادئـة نـسبيًا. لقـد كـبر "أنتـساور" وأصبح بإمكانه الذهاب للصيد مع "لوني"، وطالـت قامـة "مكـسيم" أيـضًا، وكـان يحب اللعب مع الغزلان كثيرًا، فكان يحب الانحناء بجسده وتقليد أوضاع الغزلان قائلًا إنه يريـد أن يناطحهـا، لكـن رأسـه الخـالي مـن القـرون لا يـستطيع هزيمـة الرؤوس ذات القرون. ولقد جلبت لنا شقاوة "مكسيم" سعادة كبيرة.

أما أنا و"والواجيا" فقد هرمنا يومًا بعد يوم، وعلى الرغم من أننا ظللنا ننام سويًّا فإننا لم تعد لدينا الحماسة لصنع الرياح. يبدو أن إله الرياح الحقيقي في السماء. وكانت الرسومات الصخرية التي رسمتها خلال تلك السنوات ذات علاقة بإله الرياح، لم تكن لإله الريح الذي رسمته أطراف، لذا يمكن القول إنه ذكر، ويمكن القول إنه أنثى، ولقد رسمت شعره طويلًا للغاية، طويلًا لدرجة تشبه مجرة درب التبانة.

وفي تلك السنوات كان المدرس "جاو بينج لو" يأتي مرارًا خلال إجازتَي الصيف والشتاء بحجة جمع الأغاني الشعبية لرؤية "مايكان"، ثم طلب الزواج منها، وعندما سمع "لاجيمي" أن "مايكان" ستتزوج بكى بصوتٍ عالٍ، وصار يهز رأسه رافضًا لكل من يأتي لقبيلتنا طلبًا للزواج منها، فكان يقول دائمًا إنها لا تزال طفلة، وذلك على الرغم من أنها صارت فتاة تخطت العشرين من عمرها.

وفي عام 1972 أنهت رصاصة انطلقت مثل روح شريرة حياة كلٍ من "داشي" و"جيفولينا".

فمنذ أن فقد "داشي" ساقه وعاد للمعسكر ظل دائم الوجوم، لم يعد يستطيع الخروج للصيد كما في الماضي، لذا كان ينعت نفسه بعديم الفائدة، ولم يعد بإمكانه سوى البقاء في المعسكر والقيام ببعض الأعمال التي يقدر عليها، ففي كل مرة يعود فيها "لوني" و"مافينباو" و"والواجيا" من الصيد ويفرقون عليه لحم ما اصطادوه كان وجهه يمتلئ بالأسى، لذا كان دائمًا ما يسب "جيفولينا" دون سبب، والتي كانت تدرك بدورها المرارة التي تعتمل في قلبه، لذا كانت تتحمل إهاناته مهما اشتدت عليها.

وفي خريف ذلك العام كان الصيد وفيرًا للغاية، ومع وفرة الصيد تزداد الأعمال المطلوبة في المعسكر، في العادة بعد أن يحضر الرجال ما اصطادوه، تتولى النساء أمر نزع الجلود وتقطيع اللحم ودبغ الجلود، وأثناء قيامهن بذلك

يجلس الرجال في الجوار يدخنون التبغ ويحتسون الشاي ويحكون ما قابلهم خـلال الصيد. أما "داشي" فبسبب قدمه فلم يعد باسـتطاعته سـوى القيـام بالعمـل مـع النسوة، فكنا إذا نزعنا الجلود نزع معنا، وإذا قطعنا اللحم قطع معنا، أما عمليـة دبغ الجلود فقد كان يتولاها وحده، ولقد انتحر "داشي" في ذلك اليـوم الـذي قـام فيه بنزع جلد غزال بري، فعنـدما كـان الرجـال يقـصون تجـربتهم في صـيد ذلـك الغزال كان جالسًا على الأرض ينزع الجلد، وكانوا كلما تحمسوا في الحكي ازداد هو كآبة، وبعد أن انتهى من نزع الجلد وقام مغادرًا بدأت أنا ولوني في سـلق اللحـم، وعندما قارب على النضج ذهبنا لننادي على "داشي" كي يأتي لتناول الطعام، عندها سمعنا فجأة صوت إطلاق نار قـادم مـن مكـان قريـب، لم يكـن أحـد ليتوقـع أن يستخدم بندقية الصيد ليجعل من نفسه الفريسة الأخيرة لنفسه. لقـد كـان حقًّـا صيادًا بارعًا. أنهى حياته بطلقة واحدة.

أما "جيفولينا" المسكينة فعندما رأت رأس زوجها وقد تغطى بالـدماء ركعـت على الأرض وعاملته كثمرة ناضجة أسقطتها الرياح العاصفة، فاحتـضنته بحـب في أحضانها وقبلته بجنون، أما آثار الدماء على وجهه فقد لعقتها بلسانها برقة حتـى نظفتها تمامًا، وبعد أن انتهت من لعقها انتهزت فرصـة انهماكنـا في تغيـير ملابـس نظيفة له وتسللت إلى الغابة وجمعت بعضًا من عيش الغراب المسموم وانتحرت من أجله.

قمنـا بـدفنهما سـويًّا، وكانـت ريـاح الخريـف تتطـاير وسـط الريـاح، وودع "لاجيمي" رفيقه بأنغام موسيقاه، لقد عزف لحنًا يمزق القلوب، وكانت تلـك هـي المرة الأخيرة التي عـزف فيهـا عـلى الموكوليـان، فبعـد أن انتهـى مـن العـزف قـام بغرسها أمام قبر "داشي" و"جيفولينا" لتصير الموكوليان شاهد قبرهما.

تناقصت أعداد قبيلتنا يومًا بعد يوم، لقـد غلفنـا المـوت بردائـه، ولـو لم يكـن لدينا "أنتـساور" لـصارت حياتنـا كئيبـة، لقـد كانـت حماقتـه وقتهـا أشـبه بـضوء الشمس الساطع الذي يخترق الغمام ليجلب لنا الضوء والدفء.

بعـد أن قمنـا بـدفن "داشي" و"جيفولينـا" سـقط المطـر ذات يـوم، فقـال "أنتساور" بسعادة بالغة موجهًا كلامه لي ولـ"والواجيـا": "لقـد نجـت الموكوليـان المغروسة أمام القبر". فسألته ماذا يعني، فقال إنه بعـد غُرسـت الموكوليـان عـلى رأس القبر ظل الجو جافًا، فكان يشعر بالقلق أن تموت جفافًـا، أمـا الآن فقـد أتى المطر، لذا فقد حظيت بالرطوبة وستكبر وتنمو. فسألته: "ماذا ستصير الموكوليـان حين تكبر؟"، فقال: "إن صوتها بهذا الجمال، على الأقـل سـتنمو لتـصير سربًـا مـن الطيور الصغيرة!". كيف لمثل تلك الكلمات ألا تنتزع الضحكة من أعماق قلبي؟

لكن السعادة لم تستمر طويلًا، ففي عام 1974 غادرني "والواجيا" للأبـد، تلـك المأساة كانت بداياتها مفرحة.

في صيف ذلك العام جاءت فرقة عـرض الأفـلام للجبـال للتـسرية عـن عـمال الغابات، فذهبوا إلى منـاطق العمـل وإلى سـاحات الغابـات لعـرض الأفـلام عـلى التوالي، لم نكن قد شاهدنا أفلامًا من قبل، لذا ما إن سمع "والواجيا" تلك الأخبار حتى تناقش مع "لوني" واتصل بقبيلتين أخريين قريبتين منا، وأخذوا معهم خمـرًا ولحمًا وذهبوا معًا لدعوة فرقة عرض الأفلام، كان عمال الغابات في غاية اللطـف معنا، فعندما سمعوا أننا لم نـشاهد أفلامًـا مـن قبـل وافقـوا عـلى الفـور. كانـت الفرقة تتكـون مـن شخـصين، مـشغل الأفـلام ومـساعده، ولقـد أصـيب المـساعد بالإسهال في تلك الأيام، لذا أرسـل لنـا العـمال مـشغل الأفـلام فقـط. واسـتخدمنا الغزلان لحمل جهاز العرض ومولـد الكهربـاء وصـندوقين كبـيرين مـن المعـدات، وأخبر عمال الغابات "والواجيا" أن المشغل هو مثقف تم إرساله بغرض التأديب، وكان في السابق أستاذًا مساعدًا بقـسم التـاريخ في إحـدى الجامعـات، وهـو الآن تحت المراقبة لذا طلبوا منا أن نعيده سالمًا بعد انتهاء عـرض الفـيلم وألا يغيـب عن نظرنا أبدًا.

لم نجتمع بتلك السعادة منذ سنوات عدة، لقد اجتمع كل أبناء القبيلتين المجاورتين عندنا، فصار العدد أكثر من أربعين شخصًا، وعندما جاؤوا جلبوا معهم لحم حيوان طازج اصطادوه لتوهم وخمرًا، وأشعلنا نارًا في المعسكر وأكلنا اللحم وشربنا الخمر وغنينا ورقصنا، أما مشغل الأفلام فكان يبدو قد تجاوز الأربعين من العمر، وكان أبيض الوجه، لا يحب الضحك قليل الكلام، ولقد قمنا تباعًا بتقديم الخمر له، فرفض في البداية، بعدها بدأ في شرب القليل بحذر، بعدها صار يرتشف رشفات صغيرة، وأخيرًا ظل يعب جرعات كبيرة. كان عند مجيئه وسطنا أشبه بقطعة حطب مبتلة ليست بها حياة، لكن ترحابنا وسعادتنا بخرا بسرعة أبخرة الكآبة التي تعتريه، فأشعلناه سريعًا ليصير جذوة نار تشتعل سعادة.

وما إن حل الظلام حتى طلب منا مشغل الأفلام أن نعلق الشاشة البيضاء على شجرة، وقام بتشغيل مولد الكهرباء ليهدر بصوتٍ عالٍ، ثم نصب آلة العرض ليبدأ عرض الفيلم، وما إن سقطت حزمة الضوء الأبيض فوق الشاشة حتى صدرت آهات التعجب من الجالسين أرضًا، حتى كلاب الصيد المنكمشة خلف الشاشة أطلقت نباح خوف، وعلى الشاشة ظهرت فيما يشبه المعجزة ظلال منازل وأشجار وأشخاص، بل إنها كانت بالألوان، أما الأشخاص على الشاشة فكانوا لا يتحركون بحرية فحسب، بل كانوا يتحدثون ويغنون أيضًا، كان أمرًا مدهشًا يلجم الألسنة. أما عن قصة الفيلم فقد نسيتها، لأن الشخصيات بالفيلم كانوا يتحدثون ويتحدثون ثم يتخذون وضع الرقص ويغنون بصوتٍ عالٍ، ولم نكن نفهم كلمات الأغاني، لذا كان الفيلم مبهمًا في مجمله، لكننا شعرنا بالحماس والسعادة، فعلى أي حال كنا نرى مناظر بلا حدود من خلال شاشة قماشية صغيرة، ولقد أخبرنا مشغل الأفلام أن الأفلام الآن لا تضاهي الماضي، فليس هناك سوى بضعة أفلام فقط وكلها أساسها الغناء. وأضاف أن الأفلام في الماضي رغم أنها كانت بالأبيض والأسود، إلا أنها كانت تتحلى بالطعم الإنساني، تستحق المشاهدة. عندها غضب "مافينباو" وقال: "إذا كان هناك الجيد فلماذا تشغل لنا السيئ؟ أليس هذا ظلمًا

لأعيننا؟"، فعاجله مشغل الأفلام بالشرح قائلًا إن الأفلام الجيدة في الماضي تم اعتبارها "أعشابًا سامة"، وتم حظرها ومنع عرضها. فقال "مافينباو": "إنك تخدعنا، إن هذا هراء"، ثم ازداد غضبه وتحرك لضرب المشغل، فتقدم "والواجيا" وأمسك به، فقال "مافينباو" إنه لن يترك مشغل الأفلام إلا لو شرب وعاءً من الخمر بالكامل. فلم يجد المشغل مفرًّا سوى أن يشرب الوعاء الذي ناوله له دفعة واحدة.

انتهى عرض الفيلم لكن السعادة استمرت، فالتففنا حول النار وبدأنا جولة من الغناء والرقص، وطلب الجميع تحت تأثير الخمر من مشغل الأفلام أن يغني أغنية. وقتها كان قد ثمل من الكأس التي قدمها له "مافينباو"، فقال بلسان ثقيل وهو يترنح يمينًا ويسارًا إنه لا يجيد الغناء، وسأل إذا ما كان باستطاعته إلقاء قصيدة من الشعر عوضًا عن ذلك؟ فقال الجميع ممكن. عندها ألقى المشغل جملة واحدة "النهر يجري تجاه الشرق، لتكتسح أمواجه العظماء عبر آلاف السنين"، بعدها انقلب على الأرض وغاب عن الوعي. وكان البيت الذي ألقاه مع انقلابه المفاجئ على الأرض متناسبين تمامًا مما أثار ضحكات الجميع، ولقد بدأ مشغل الأفلام ذلك يثير إعجابنا، فالأشخاص الصادقون فقط هم من يثملون حتى يسقطوا أرضًا.

وفي صباح اليوم التالي حين استيقظت وجدت "أنتساور" مشغولًا بإعداد الإفطار، فكان منهمكًا في غلي الشاي باللبن. كنا في العادة نغلي إبريقًا واحدًا، لكنه في هذا اليوم بعد أن قام بغلي براد سكبه في دلو لحاء البتولا لحفظه ووضع عليه الغطاء ثم غلى إبريقًا ثانيًا، فاعتقدت أنه يريد أن يشرب المزيد لذلك لم أسأله، لكنه عندما قام بغلي الإبريق الثالث شعرت بأن هناك أمرًا ليس على ما يرام، فقلت له: "إن الأشخاص الذين جاؤوا لمشاهدة الفيلم بالأمس قد رحلوا، ولقد زاد علينا مشغل الأفلام فحسب، وحتى لو أكثر من الشرب فلن يتمكن من شرب ثلاثة أباريق"، فأجابني بجدية: "لقد رحلوا، لكن جاء كثيرون في فيلم أمس، لقد رأيت مجموعة كبيرة من الرجال والنساء والشباب والعجائز، لقد ذهبت للبحث عنهم

لتوي لكني لم أجدهم ولا أعلم أين ناموا ليلة أمس، لو عادوا بعد قليل ألن يحتاجوا لشرب الشاي باللبن؟"، عندها انفجرت في الضحك، ولقد شعر ببعض التوتر من ضحكاتي، فقال مترددًا: "هل رحل الأشخاص الذين كانوا بالفيلم؟ لقد غنوا لمنتصف الليل ثم رحلوا دون تناول الطعام، أنى لهم بالقوة؟"، عندها عدت للخيمة وأخبرت "والواجيا" بما قاله "أنتساور"، فضحك هو أيضًا. لكننا بعد أن انتهينا من الضحك خيم علينا الصمت فقد اعتصر الألم قلوبنا.

نام مشغل الأفلام بسبب الخمر ولم يستيقظ إلا بعد التاسعة صباحًا، وقال إن رأسه ثقيل وحلقه جاف وأقدامه لينة، فأخبره "والواجيا" ألا يقلق، وأنه سيشعر بالتحسن بعد أن يشرب الشاي بلبن الغزلان. ثم حمل "أنتساور" الإبريق وصب له وعاءً من الشاي باللبن، وبعد أن شربه قال بالفعل إن رأسه قد زال منه الألم، وعاد بعض القوة لأقدامه، فطلب "والواجيا" من "أنتساور" أن يصب له ثانيةً. فسأل المشغل "والواجيا": "لقد رأيت بالأمس فتاة أشبه بالملائكة، يبدو أنها ليست من الـ"إيوينكيه"، من هي؟"، فعلم "والواجيا" أنه يتحدث عن "مايكان"، وكان "لاجيمي" يكره كل الرجال الذين يبدون اهتمامًا بها، فرد قائلًا: "لقد أفرطت في الشرب، ربما خانتك عيناك".

شرب مشغل الأفلام ثلاثة قدور من الشاي باللبن حتى تورد وجهه بلون الغسق، وأكل قطعة من خبز الـ"جيليبا"، فقال له "والواجيا" مداعبًا: "في المرة القادمة التي تأتي فيها لمعسكرات الـ"إيوينكيه" اجلب معك دواءً مضادًا للثمالة". فقال المشغل: "إنني أحسدكم على حياتكم، فهذا الانسجام يشبه جنة منعزلة عن البشرية". فتنهد "والواجيا" تنهيدة طويلة وقال: "في هذا العالم، أين تجد جنة منعزلة؟".

وفي الساعة العاشرة تقريبًا قمنا بتحميل معدات العرض داخل الصناديق ووضعها على ظهور الغزلان، وأوصلناها والمشغل عائدين إلى الغابة. في ذلك اليوم كان من المفترض أن يقوم "لوني" و"والواجيا" بتوصيل المشغل، لكن

عندما هم "لـوني" بالرحيـل أصـيب "مكـسيم" فجـأة بـألم في المعـدة، لـذا تطـوع "مافينباو" بالذهاب بدلًا منه. وكان قد أكثر من الشرب في الليلـة الـسابقة، وكـان وجهه لا يزال أحمـر وتفـوح مـن فمـه رائحـة الخمـر. خـشي المـشغل "مافينبـاو" وتجنبه، ولقد أحس بذلك لذا بادر بالتربيت على كتفـه قـائلًا: "يـا أخـي، في المـرة القادمة التي تأتي فيها لعرض الأفلام، أحضر معـك تلـك "الأعـشاب الـسامة" التـي أخبرتنا عنها"، فهز المشغل رأسه وقال: "بالتأكيد بالتأكيد، فالأعشاب السامة سيأتي عليها يوم إن عاجلًا أو آجلًا وتصير أعشابًا عطرة".

غادر المعسكر خمسة غزلان وثلاثـة أشـخاص، امتطـى كـل مـنهم غـزالًا، أمـا الغزالان الآخران فقد حملا أجهزة العرض. لو علمت أن ذلـك كـان الـوداع الأخـير بيني وبين "والواجيـا" لكنـت احتـضنته بقـوة وقبلتـه برقـة، لكنـي لم يـراودني أي إحساس، لكن يبدو أنه كان لديه شعور ما، فعندما وقفـت في المعـسكر أنظـر لـه وهو يمتطي الغزال استعدادًا للرحيـل، ألقـى فجـأة بعبـارة مازحـة لي وقـال: "لـو تحولت لإحدى الشخصيات التي في الفيلم، فلا تتركيني جائعًا".

لقد تحول بالفعل إلى شخصية في فيلم، لقد عاد إلى المعسكر في اليـوم نفـسه راقـدًا؛ لقـد تعرضـوا لهجـوم دب في الطريـق، ومـن أجـل حمايـة مـشغل الأفـلام و"مافينباو" ودع "والواجيا" للأبد جبال هذا العالم وأنهاره، وودعني.

كانت معرفتي بـ"لاجيدا" قد بدأت بمطاردة دب أسود، لقد جلب ذلك الدب السعادة حتى بابي، وكان وداعي مع "والواجيا" بسبب دب أسود أيضًا، يبـدو أنـه مصدر سعادتي، وهو أيضًا نهايتها.

في العادة تكثر حوادث الدببة في فصل الربيع؛ ففي هذا الوقت تكون خارجـة لتوها من بيات شتوي استمر لشتاء كامل بلا طعام ولا شراب، لذا تكـون في شـدة الجوع، بالإضافة إلى أن الفواكه البرية لا تكون قد نمت في ذلك الوقت، لذا تتجول في جميـع الأمـاكن لـصيد غـذائها، ولـذلك يكـثر هجـوم الدببـة عـلى البـشر في هذا الفصل. وبحلول الصيف تكثر الأشياء التـي بإمكانهـا تناولهـا مثـل الحـشرات

والفواكه البرية وغيرها، ولهذا تصير هادئة في هـذا الوقـت، فلـو لم تثِرهـا فهـي في الغالب لن تبادرك بالهجوم، لكن لو استفززتها فلن تتركك إلا ميتًا.

وعنـدما تبـدأ الدببـة الـسوداء بياتهـا الـشتوي فإنهـا عـادةً تـستخدم إحـدى الطريقتين: "الكهف السماوي" أو "الكهف الأرضي"، فهي تختار شجرة مفرغة مـن الداخل لتكون كهفًا لها، أي المكان الذي تختبئ فيـه، فلـو كانـت فتحـة أسـطوانة الشجرة تلك متجهة نحو السماء تدعى "كهفًا سـماويًّا"، أمـا لـو كانـت الفتحـة في منتـصف الأسـطوانة أو أسـفلها فتـسمى "كهفًـا أرضـيًّا"، وبحلـول الـصيف تخلـو الكهوف السماوية والأرضية، وأحيانًا تتسلق السناجب لتلهو بداخلها.

ولقد أخبرني "مافينباو" أن المأساة بدأت بسبب كهف أرضي. فبعـد أن غـادروا المعسكر وساروا لمدة ثلاث ساعات توقفوا للراحة، فجلـس هـو والمـشغل في أرض الغابة يتسامران ويدخنان التبغ، أما "والواجيا" فقد ذهب ليقضي حاجته.

وبعد فترة قصيرة من جلوسهما وعندما كانـا يتحـدثان اكتـشف "مافينبـاو" فجأة أن هناك سنجابًا يمد رأسه من فتحة كهف أرضي موجود بـشجرة مفرغـة، فرفع بندقيته وأطلق النار، لكن ما أصابه لم يكن سنجابًا، بـل كـان دبًّـا صـغيرًا، لقد هرب السنجاب. يبـدو أن الـسنجاب بعـد أن دخـل الكهـف الأرضي ليلهـو اكتـشف وجـود دب صـغير بالـداخل ففـرَّ فزعًـا، وعنـدما قفـز الـدب الـصغير ليمسك بالسنجاب أصـابته الرصاصـة، ومـا إن سـقط الـدب الـصغير عـلى أرض الغابة حتى قال "مافينباو" للمشغل: "يـا لحظـك الـسعيد، بعـد قليـل سـتنعم بطعام شهي، وما إن همَّا بالتقاطه حتى تناهى إلى سمعهما صوت حفيف يـأتي من وسط الغابة الكثيفة، لقد سمعت الدبـة الأم صـوت الرصاصـة فعلمـت أن مكروهًا أصاب صغيرها، فركضت تجاه الشجرة المجوفة، عندها رفع "مافينبـاو" بندقيته وأطلق النار نحوها لكنـه لم يـصبها، فـأطلق مـرة ثانيـة لكنـه أخطأهـا ثانيةً، عندها ركضت الدبة الأم نحوهما بجنون، وعندما أراد "مافينبـاو" إطـلاق النار ثانيةً كانت البندقية قد فرغـت مـن الرصـاص ولم يكـن معـه المزيـد مـن

الطلقات، فتلك المرة لم يخرج بهدف الصيد، ثم قال "مافينباو": "لو لم يطلق "والواجيا" النار على ظهر الدبة الأم مما جعلها تغير اتجاه هجومها لكان من الصعب أن ينجو بحياته هو ومشغل الأفلام، لأن تلك الدبة الأم الغاضبة كانت على وشك الوصول إليهما".

نهضت الدبة واندفعت تجاه "والواجيا". كانت سريعة فأطلق رصاصة أخرى نحوها أصابت بطنها فأخرجت أمعاءها، لكنها لم تستسلم، بل دست الأمعاء الخارجة مرة ثانية إلى بطنها باستخدام كفيها الأماميتين، وغطت جرحها واندفعت تجاهه والغضب يملؤها، وعندما أطلق الرصاصة الثالثة كانت قد اقتربت منه، ولقد طاشت تلك الرصاصة، ولم تمهله الدبة لإطلاق الرصاصة الرابعة، بل مدت كفها التي تقطر منها الدماء واحتضنته وفتحت جمجمته بضربات سريعة، عندها أغشى على مشغل الأفلام فزعًا، وركض "مافينباو" حاملًا بندقيته تجاه "والواجيا"، لكن الوقت كان قد فات، كانت الدبة قد أسقطته أرضًا، والتقطت البندقية وأمسكت بها كمقاتل عنيد وهي تسير تجاه "مافينباو"، أما أمعاؤها فقد خرجت مرة أخرى من بطنها، وأخيرًا لم تعد قادرة على التحمل أكثر فوضعت كفيها الأماميتين، ووضعت البندقية، وزحفت بصعوبة عدة خطوات بعدها همدت حركتها، فتقدم "مافينباو" وهشم جمجمتها باستخدام كعب البندقية.

كان "مافينباو" بارعًا في استخدام البندقية مثله مثل "والواجيا"، وقال إنه لو لم يفرح كثيرًا بمشاهدة الفيلم في الليلة السابقة فشرب كثيرًا من الخمر وارتعشت يده قليلًا أثناء إطلاق النار لما مات "والواجيا" بين مخالب الدب.

وهكذا رحل عنا آخر زعيم في قوميتنا.

تم دفن "والواجيا" بالرياح وشيعه كثيرون، وعندما سمع أبناء عشيرته بخبر صعوده للسماء توافدوا إلى معسكرنا، وقامت "نيخاو" بمراسم جنازته،

وكانـت الريـاح شـديدة في يـوم الجنـازة، ولـولا "داجيانـا" التـي كانـت تـسندني لاقتلعتني الرياح بعيدًا.

ترك رحيل "والواجيا" فراغًا كبيرًا في الحياة، وأذكر ذات مرة أنني فكـرت فيـه حتى أصابتني غـصة في قلبـي، وعنـدما مـددت يـدي لأتحـسس موضـع القلـب، شعرت فجأة أن صـدري صـار صـخرة صـلبة، فخلعـت ملابـسي والتقطـت إصـبع الرسم، وبدأت في الرسم عشوائيًّا عـلى صـدري، رسـمت ورسـمت وفجـأة شـعرت بالأسى فبكيت. عندها دخلت "نيخاو"، وساعدتني في مـسح الـدموع عـن وجهـي والألوان عن صدري ووضعت الملابس على جسدي. وبعد الحادثـة أخبرتنـي أننـي رسمت على صدري دبًّا.

وفي عام 1976 مـات "ويكيتيـه"، مـات بـسبب الإفـراط في الخمـر. لم أسـتطع الذهاب إلى بلدة "جيليو" لتوديعه، لم أكن أرغب في توديع رعديد، على الرغم من أنه ابني، ولقد دُفن بجوار "إيوان". في هذا العـام كـان "جيويـوا" قـد بـدأ العمـل موظفًا في مكتب البريد ببلدة "جيليو".

وفي العام الذي بدأ فيه "جيويوا" العمل وقع في الحـب مـع فتـاة مـن قوميـة الهان اسمها "لين جين جو"، وهي بائعة بمتجـر بلـدة "جيليـو"، وعنـدما تزوجـا في خريف عام 1977 ذهبت مـرة ثانيـة إلى "جيليـو"، وعنـدما أخـذتني "ليوشـا" إلى المتجـر لـكي أرى "لـين جـين جـو" رأيـت الـرف الموضـوع عليـه القـماش وعليـه مجموعتان من القماش إحداهما غامقة والأخرى فاتحة، مجموعة ذات لون أزرق والأخرى ذات لون أصفر، عندها لمع أمام عيني مشهد نهر "جـين" الـذي رأيتـه في وقت الغسق الذي ابتلعت فيه مياه الفيـضان "يرنـسينيه". إن نهـر حيـاتي يجـري فيه هذان اللونان، عندها تداخلت مشاعري وانهمرت دموعي رغـمًا عنـي. ولقـد تسببت دموعي في شعور "لين جين جو" بالحزن، فسألت "ليوشا": "هـل الجـدة لا ترغب في أن أكون زوجة لحفيدها؟"، فطلبت من "ليوشا" أن تخبرها أنني تذكرت نهرًا فحسب.

بعد أن تزوج "جيويوا" عادت "ليوشا" إلى جـواري، وكانـت لا تـزال ترتـدي في عنقها العقد المصنوع من عظم الغزلان الذي صنعه لها "ويكيتيه"، وكانت تجهش في البكاء في كل مرة يكتمل فيها القمر؛ فقـد كـان "ويكيتيـه" يحـب أن يـداعبها ويطلبها في الأيام التي يكتمل فيها القمر. هذا السر كنـت أعرفـه منـذ أن تزوجـا، لأنه في كل مـرة يكتمـل فيهـا القمـر كانـت تتنـاهى لنـا مـن خيمـتهما صيحات "ويكيتيه" التي تفيض بالسعادة.

وفي عام 1978 عـادت "داجيانـا" وزوجهـا "سـو تـشانج لـين" حـاملين معهـما ابنتهما التي وُلـدت لتوهـا إلى جـواري، في هـذا العـام كانـت "إليانـا" قـد بلغـت العاشرة من عمرها، فأرسلتها "داجيانا" إلى بلدة "جيليو" للالتحاق بالمدرسـة عـلى أن يرعاها كلٌّ من "جيويوا" و"لين جين جو". ولقد أخبرتني "داجيانـا" أنهـا ترغـب بشدة في إنجاب ولد، فقبل إنجـاب "سـوما" حبلـت، لكنهـا انزلقـت في الغابـة في شهرها السادس فأجهضت وكان ولدًا، ولقد انفطر قلبها هـي و"سـو تـشانج لـين" وعزفا عن الطعام لعدة أيام.

ولقد بلغ "أنتساور" أيضًا سن الزواج، وكنت أعتقد أنه لـن يثـير اهـتمام أي فتاة، فحماقته ليست سرًّا، لكـن عـلى عكـس مـا اعتقـدت أحبتـه فتـاة اسـمها "يوليان". كانت تعـيش في قبيلـة قريبـة منـا، وذات مـرة ذهـب "مافينبـاو" إلى هناك وحكى لهم القصة الطريفة عن قيام "أنتساور" بإعـداد عـدة أبـاريق مـن الـشاي بلـبن الغـزلان للترحيـب بالـضيوف الموجـودين داخـل الفـيلم، فـضحك الجميع، إلا "يولينا" التي قالت لأمها: "إن "أنتـساور" طيـب، وقلبـه نقـي، هـذا النوع من الرجال يمكن الاعتماد عليـه إلى الأبـد، أنـا أوافـق عـلى الـزواج منـه". فقامت أم "يوليان" بإبلاغ "مافينبـاو" بمـا قالتـه ابنتهـا، ولقـد سـعد "مافينبـاو" أيما سعادة، وعاد على الفـور ليتنـاقش معنـا في أمـر الـزواج، وسريعًـا مـا أقمنـا لهـما مراسـم الزفـاف، كنـت أنـا و"نيخـاو" قلقتـين في البدايـة مـن ألا يـتفهم "أنتساور" علاقة الذكر والأنثى، وظل القلق ملازمًا لنا، لكن بعد فترة قصيرة من زواجهما حبلت "يوليان"، ولقد جعلنا هذا في قمـة الـسعادة، لكـن "يوليـان" لم

تعتمد على "أنتساور" إلى الأبد، فقد أنجبت توأمًا في العام التالي لكنها ماتت بسبب نزيف حاد. وفي العادة تُدفن النساء اللاتي توفين بسبب ولادة متعثرة بعد يوم واحد، لكن "أنتساور" لم يسمح لنا بدفنها، بل ظل ساهرًا بجوارها ولم يسمح لأي أحد من المشيعين بالاقتراب منها، مر يومان، ثم ثلاثة، ثم أربعة أيام، وعلى الرغم من أن الجو وقتها كان خريفيًّا منعشًا فإن جثة "يوليان" تعفنت وانبعثت منها رائحة كريهة جذبت أسرابًا تلو أسراب من الغربان، لذا اضطررت إلى أن أقول لـ"أنتساور": "لا تعتقد أن "يوليان" ماتت، في الحقيقة تحولت إلى زهرة صغيرة، ولو لم تضعها سريعًا في التراب فلن تنمو وتكبر وتزهر ثانيةً".

سألني "أنتساور": "ما الزهرة التي ستتفتح عليها يوليان؟"، عندها قصصت على مسامعه أسطورة بحيرة "لامو" التي حكتها لي "إيفولينا" من قبل، فقلت إن البحيرة امتلأت بزهور اللوتس، و"يوليان" هي زهرة منها. وهكذا وافق "أنتساور" أخيرًا على دفن زوجته، ومن وقتها كان يسألني كلما حل الربيع: "هل تفتحت زهرة "يوليان"؟"، فأرد عليه: ستعثر عليها ذات يوم على بحيرة "لامو"، عندها ستراها". فيقول: "ومتى سأعثر على البحيرة؟"، فأرد: "ستعثر عليها ذات يوم. لقد أتى أجدادنا من هناك، وسنعود إلى هناك في النهاية". فكان يسألني: "لو صارت "يوليان" زهرة لوتس، فأي زهرة سأصير أنا؟"، فأقول له: "لو لم تصبح عود عشب ينمو بجوار زهرة اللوتس، فستكون نجمًا يسطع فوقها". عندها كان يقول: "لا أريد أن أصبح نجمًا، أريد أن أكون عود عشب، فالعشب وحده يمكنه تقبيل وجه اللوتس، ويمكنه شم الرائحة التي على جسدها".

أما اسما التوأم اللذين تركتهما "يوليان" فقد اختارهما "أنتساور"، أحدهما سماه "باريجي"، والآخر "شاخيلي". و"باريجي" هو نوع من حقائب الظهر، أما "شاخيلي" فيعني السكر. ولقد وضع "أنتساور" كل تفكيره في تخيلات تحول "يوليان" إلى زهرة لوتس، فلم يكن مهتمًا بالأطفال، لذا وقعت مسؤولية تربيتهما على عاتقي.

وفي عام 1980 حبلت "مايكان" التي كانت قد بلغت الثلاثين من العمر بطفل غير شرعي.

كانت مأساة "مايكان" على علاقة مباشرة بـ"لاجيمي"، فقد كان يقول لأي كائن كان يأتي لطلب يدها إنها لا تزال طفلة. ولقد نصحته أنا و"نيخاو" أكثر من مرة أنها قد قاربت الثلاثين، ولو لم تُزوجها أليس في ذلك تعطيل لها؟ تلك الطفلة تم التخلي عنها، إن قدرها من البداية سيئ، يجب أن ندعها تحظى بالسعادة. لكن إجابة "لاجيمي" كانت دائمًا: "إنها لا تزال طفلة". أما لو رجته "مايكان" بنفسها وقالت إنها ترغب في الزواج وإنجاب الأطفال مثل بقية الفتيات، كان ينخرط في نوبة بكاء شديد، لذا فإن تلك الزهرة اليانعة زوت وذبلت يومًا بعد يوم وسط صوت بكاء "لاجيمي".

وبعد أن قوبل طلب "جاو بينج لو" بالزواج منها بالرفض عدة مرات، لم يعد يأتي إلينا لجمع الأغاني ثانيةً، بل تزوج وأنجب، وعندما سمع "لاجيمي" خبر زواجه، قال لـ"مايكان": "هل المشاعر والحب حقيقيان؟ إنهما مثل السحب التي تعبر أمام العين، ما رأيك في ذلك المدرس من قومية الهان؟ ألم يتزوج؟ الكل سيتخلى عنكِ، الوحيد الذي لن يفعل هو أنا". وقتها كانت "مايكان" قد علمت بقصة التخلي عنها في إسطبل الخيول بالفندق في و"تشيلوافو"، فبكت، وبعد أن بكت قالت لـ"لاجيمي": "أما، سأتزوج ذات يوم، وزوجي سيكون بالتأكيد شابًا من الإيوينكيه".

وفي ربيع العام الذي أتمت فيه "مايكان" الثلاثين اختفت فجأة. كان "لاجيمي" في العادة يراقبها بصرامة، ولا يسمح لها أبدًا بالخروج وحيدة، فلم تذهب حتى لبلدة "جيليو" من قبل، كانت كزهرة وحيدة في وادٍ جبلي سحيق.

وفي سن الثلاثين تحولت الزهرة فجأة إلى فراشة وطارت لتغادر الوادي، فأصيب "لاجيمي" بالجنون، فقاد كلٌّ من "لوني" و"سو تشانج لين" فريقَي بحث وخرجوا بحثًا عنها، فذهب فريق منهم إلى بلدة "جيليو"، والفريق الآخر

إلى "وتشيلوافو"، أما "لاجيمي" فقد بقي في المعسكر وقد كادت دموعه تجف من كثرة البكاء، ولم يأكل أو يشرب أو ينم لعدة أيام متتالية، بل ظل جالسًا هكذا بجوار موقد النار وقد احمرت عيناه واصفر وجهه، وظل ينادي مرارًا وتكرارًا باسم "مايكان" بصوت كالنواح. أما أنا و"نيخاو" فكنا في غاية القلق، فلو لم تعد "مايكان" فالغالب أن "لاجيمي" لن يعيش بعدها، إلا أنه في اليوم الخامس لاختفائها لم يكن الفريق الذي ذهب إلى "وتشيلوافو" بحثًا عنها قد عاد بعد، حين عادت هي من تلقاء نفسها، وكان الهدوء باديًا عليها، وعلى جسدها الملابس نفسها التي كانت ترتديها حين غادرت، ولكن زاد على رأسها شيء ما، كان منديلًا وردي اللون استخدمته لربط شعرها. فسألها "لاجيمي" أين ذهبتِ؟ فقالت إنها ضلت الطريق، فغضب "لاجيمي" حتى كاد يفقد الوعي وقال: "إذًا كيف لا يوجد في ملابسك ولو قطع واحد إن كنتِ ضللتِ الطريق؟ بل زاد على شعركِ منديل، من أين لكِ بهذا المنديل؟"، فقالت: "وجدته حين ضللت الطريق". كان "لاجيمي" يعلم أنها تخدعه، فبكى، لكنه في الحقيقة لم تكن لديه دموع ليذرفها، لذا كان بكاؤه عبارة عن نواح فقط، عندها ركعت "مايكان" أمامه وقالت: "أما، لن أغادرك بعد الآن، سأبقى في الجبل للأبد".

وبعد أن عادت "مايكان" بفترة قصيرة بدأت في التقيؤ، لكن وقتها لم يتوقع أحد أن تكون حبلى، وفي الصيف ظهر عليها الحمل، فاستشاط "لاجيمي" غضبًا وهو الذي كان قد هدأ لتوه، فضربها بفرع شجرة بتولا وهو يسبها ويسألها من هذا الرجل الذي فعل بها هذا؟ فقالت: "إنه رجل من الـ"إيوينكيه"، ولقد فعلتها برغبتي". فقال "لاجيمي": "إنكِ ما زلتِ طفلة، كيف لكِ أن تفعلي هذا الأمر المخزي؟". فردت بصوت مرتعش: "أما، أنا لست طفلة، لقد بلغت الثلاثين".

في تلك الفترة كان "لاجيمي" يبدو كمن أصابه مس شيطاني، فكان في كل يوم يذهب متوسلًا لـ"نيخاو" لكي ترقص رقصة الآلهة؛ وذلك للقضاء على ذلك الطفل الموجود في بطنها، فترد "نيخاو" عليه: "أنا أنقذ الناس فحسب، لا أقتلهم". لذا لم

يعد أمامه من سبيل آخر، فأمر "مايكان" أن تقوم بأعمال شـاقة متكـررة آمـلًا أن تجهض بهذا الشكل، لكن طفلها كان صلبًا، فاستقر تمامًا في بطنها، وفي الشتاء وُلـد ذلك الطفل، كان صبيًّا أطلقت عليه اسم "شيبان"، وعندما بلغ الثانية مـن العمـر صار بإمكانه تناول اللحم والخبز، وكان يبدو صحيح البدن، لذا فطمته "مايكـان"، ثم انتحرت بالقفز من على حافة الجبل.

وقتها فقط فهمنا أنها بحثت عن بديل لهـا ليرافـق "لاجيمـي". ربمـا كانـت لا ترغب في الحياة، لكنها خشيت أن يشعر من ربَّاها بالوحدة ولا يجـد مـن يرعـاه، لذا أنجبت ذلك الطفل. كان "شيبان" هو الهدية الأخيرة التي أهدتها له.

لقد تسبب موتها في إصابة "لاجيمي" بالعمى تقريبًـا مـن كـثرة البكـاء، فمـن بعدها صار بصره مشوشًا، وكان دائمًا ما ينتحب بصوتٍ عالٍ يقطـع القلـوب بعـد أن يثمل كما لو كان أحدهم يمزق قلبه بسكين. ولقد ساعدناه في تربيـة "شـيبان" ليكبر يومًا بعد يوم.

وعلى الرغم من أن "إليانا" كانت تدرس في بلدة "جيليو" فإن "سو تشانج لين" كـان يجلبهـا إلى الجبـل في كـل إجـازة صـيف وشـتاء. كانـت فتـاة ذكيـة ممتلئـة بالحيوية، وكانت تحب الغزلان، فكانت ما إن تعـود للمعـسكر في الـصيف حتـى تتوسل لـ"سو تشانج لين" كي تذهب بعد الظهيرة مع قطعان الغزلان لتعود معهـا مرة ثانية في الفجر، عندها يضطر إلى أن يأخذ حقيبة النـوم المـصنوعة مـن جلـد الوعل ويخيم معها في الخارج، لذا في كل مرة تعود فيها "إليانا" كنا نادرًا ما نفقـد فيها غزلانًا، كانت أشبه بالإله الحامي للغزلان.

في تلك السنة عادت "إليانا" مرة ثانية للجبل وكانت وقتها في الحادية عـشرة تقريبًا، أما نحن فكنـا نـصطاد عـلى ضـفة نهـر أرجـون، وذات يـوم بعـد الظهـر أخـذتها معـي إلى منطقـة صـخور عـلى ضـفة النهـر وأمـسكت بأصـابع الألـوان المصنوعة من الطين الأحمر لأعلمها الرسم، وعندما ظهرت أشـكال الغـزلان عـلى الصخور البيضاء قفزت "إليانـا" وصرخـت في انـدهاش: "الـصخور أيـضًا بإمكانهـا

ولادة الغزلان؟"، بعدها رسـمت زهـورًا وطيـورًا صـغيرة، فقفـزت ثانيـةً وصرخـت باندهاش: "الـصخور أيـضًا هــي التربـة والـسماء، وإلا فكيـف تنمـو الزهـور عـلى جسدها وتطير الطيور عليهـا؟" عنـدها ناولتهـا قلـمًا، فرسـمت في البدايـة غزالـة، بعدها رسمت شمسًا. لم أكن أتخيـل أن رسـوماتها سـتكون نابـضة بالحيـاة بهـذا الشكل، كانت الغزلان التي رسمتُها هادئة، أما التي رسـمتْها هـي فكانـت شـقية، حيث عوجت الغزالة رأسها ورفعت قدمها الأمامية محاولة دهس الجرس المعلـق برقبتها، أما قرونها فلم تكن مثل بعضها، فقد كان أحدها ذا سبع شعب، أما الثاني فكان بثلاث شعب فقط. فقلت لها: "لماذا لم أرَ مثل غزالتك مـن قبـل؟"، فقالـت: "إنها الغزالة الآلهة، فقط فوق الصخور يمكن أن تنمو غزالة مثلها".

ومن بعدها أغرمت "إليانا" بالرسم، وعندما عادت إلى بلدة "جيليو" للدراسـة ثانيةً زاد اهتمامها بدرس الرسم، وعندما كانت تعود للجبـل كانـت تحـضر معهـا كومة من الرسومات التي رسمتها بـالقلم الرصـاص، وكانـت لأشـخاص وحيوانـات ومناظر طبيعيـة، وكانـت الشخـصيات التـي ترسـمها كلهـا ظريفـة، إن لم يكونـوا أشخاصًا يلبسون قبعات بشكل مائل ويمـضغون العظـام، فـإنهم أشـخاص يميلـون والـسجائر في أفـواههم لـربط أحـذيتهم، أمـا الحيوانـات فكـان معظمهـا غزلانًـا، والمناظر الطبيعية منها نوع يتكون بشكل رئيس من مباني وشوارع بلدة "جيليـو"، ونوع يمثل النار والأنهار والجبال. وعلى الرغم من اسـتخدامها للقلـم الرصـاص في رسم كل تلك الأشكال، فإنني كنت أستطيع أن أري اللـون البرتقـالي الـذي تطلقـه ألسنة الـلـهب المتصاعدة من قلب النيران، وأستطيع أن أرى الضوء الذي تعكـسه مياه النهر في ليلة مقمرة.

وفي كل مرة تعود فيها "إليانـا" إلى الجبـل تخـبرني خلـسةً أنهـا اشـتاقت إلى الصخور، فالرسم فوقها أفضل كثيرًا مـن الرسـم عـلى الـورق. لـذلك كنـت دائمًـا أختـار يومًـا صـحوًا حـين تعـود وأذهـب معهـا للرسـم عـلى الـصخور، وفي كـل مرة تنتهي فيها من الرسم تسألني: "هـل هـي جميلـة؟"، فـأرد: "اتـركي الحكـم

للرياح، إن أعينها حادة عني". فتضحك قائلة: "الرياح قالت إنها ستبعثر الصخور ذات يوم، عندها ستصير رسوماتي رمالًا في قاع النهر". فقلت: "إذًا فكيف ستردين على الرياح؟"، فقالت: "لقد قلت للرياح إنها ستحولها لرمال في قاع النهر، وستتحول الرمال إلى ذهب".

وما إن تعود "إليانا" حتى يبدو "مكسيم" غير سعيد. كان وقتها قد تجاوز العاشرة من العمر، وفي كل مرة يأخذه "لوني" إلى بلدة "جيليو" للدراسة، كان يهرب عائدًا مرة ثانية، وكان يقول إن رأسه يؤلمه بمجرد رؤية الكتب، لذلك في كل مرة كانت "إليانا" تعود فيها كان يشعر بالنفور، فهي محبة للدراسة، لذا فقد كانا يتنافسان سرًّا للفوز ببعض الإطراء.

وقتها كان "شاخيلي" و"باريجي" وشيبان" و"سوما" لا يزالون أطفالًا، وفي الوقت الذي تغيب فيه "إليانا" كان يمتلك كامل السلطات عليهم، فإذا أمرهم بعمل شيء ما كانوا يفعلونه، وكان "مكسيم" يحب فقط التحدث بلغة قوميتنا، لذا حين كان يتحدث معهم كان يتحدث بلغة الـ"إيوينكيه"، أما "إليانا" فقد كانت تتحدث اللغة الصينية بطلاقة، لذا كانت تعلم هؤلاء الأطفال الصينية بمجرد عودتها مما كان يثير غضب "مكسيم"، فكان يفزعهم قائلًا إن الأطفال الذين يتعلمون اللغة الصينية تتعفن ألسنتهم، لكنهم لم يصدقوا كلامه باستثناء "شيبان"، لذا استخدم "مكسيم" حيلة أخرى، فأتى بكومة من قطع الخشب وقام بنحت دمى خشبية لهم، وبالفعل تَحلق الأطفال حوله فرحين، أما "إليانا" فلم تستسلم بسهولة، فالتقطت قلم رصاص وقامت برسم الأطفال على الورق، عندها اجتذبتهم مرة ثانية، وكان قيامها برسم صور للأطفال قد جلب لنا الكثير من السعادة، فمثلًا عندما رأت "سوما" شكلها مرسومًا على الورق اعتقدت أنها تقف أمام مرآة، فأشارت للورقة قائلة: "مرآة، مرآة"، أما "شاخيلي" و"باريجي" فقد قامت "إليانا" برسم واحد منهما فقط وذلك لأنهما متطابقان في الشكل تمامًا، لذلك ظلا يتجادلان حول ذلك الأمر كثيرًا وكل منهما يقول إنه الشخص

المرسوم. وكانت "إليانا" شقية، فكانت تـضيف بعـض اللمـسات للرسـمة الخاصـة بهما، فتجعلها تبدو لطفل يتبول، عندها يتحول الجدال بين "شاخيلي" و"باريجي" ليدور حول أن أيهما ليس الشخص المرسوم.

وفي أثنـاء قيـام "مكـسيم" بـصنع الـدمى الخـشبية للأطفـال اكتـشفنا هوايـة "شيبان" في أكل لحاء الأشجار، فكان يضع اللحاء في فمـه بعـد تقـشيره عـن قطـع الخشب، ثم يمضغه بتلذذ، وكان يحب مضغ لحاء أشجار البتـولا وأشـجار الحـور، فقد كان هذان النوعان يتمتعان بالكثير من العصارة وبطعم مـسكر قلـيلًا، ومـن بعدها صار "شيبان" يمضغ لحاء الأشجار مرة كل بـضعة أيـام، فكـان شـكله وهـو يحتضن الشجرة ويميل برأسه ليعضها أشبه بحَمل صغير، أما "لاجيمي" فكان فاترًا في معاملة "شيبان"؛ وذلك بسبب موت "مايكـان" كـما لـو كـان الطفـل هـو مـن دفعها عن حافة الهاوية، لكنه بدأ يحبه تدريجيًّا من بعـد أن بـدأ في مـضغ لحـاء الأشجار، فكان دائمًا ما يقول لنا إن "شيبان" هذا بارع، فغذاؤه ينمو على الأشجار، ولن يصيبه مكروه لو حدثت مجاعة.

كانت حياة "شيبان" مثلها مثل "مايكان" عبارة عن لغز، وكنت أعتقد أن هذا اللغز لن ينفك، لكن في السنة التي نجحت فيها "إليانا" في الالتحـاق بكليـة فنـون جميلة بإحدى جامعات بكين وذهبت أنا و"داجيانا" إلى بلدة "جيليـو" لتوديعهـا، عندها انفك لغز "مايكان".

بعـد أن أنهـت "إليانـا" دراسـتها الإعداديـة في بلـدة "جيليـو" ذهبـت إلى "وتشيلوافو" التي أصبحت تدعى "تشيتشيان" للالتحاق بالمدرسـة الثانويـة، ولقـد امتحنت لدخول الجامعة من هناك، فكانت أول طالبة جامعية تخرج من قوميـة الـ"إيوينكيه" التي تعيش على رعي الغزلان، لذا جذب خبر التحاقها بكلية الفنـون الجميلة بالجامعة انتباه العـالم الخـارجي، فجـاء صـحفي يـدعى "ليـو بـوا ويـن" خصيصًا من مدينة "خوخيه خاوتيه" لعقد لقاء معها، وكان في الثلاثين مـن العمـر تقريبًا، وبعد أن انتهى من اللقاء معها قال إنه ذاهب إلى "تشيتشيان" ليعرف من

أجل والده أخبار طفلة رضيعة تم التخلي عنها هناك منذ أكثر من ثلاثين عامًا. قالها دون قصد، لكنني أنا و"داجيانا" تذكرنا في الوقت نفسه "مايكان" فسألناه: "في أي عام تم إلقاء تلك الرضيعة؟ وكم كان عمرها وقتها؟".

قال إن جده كان إقطاعيًّا مشهورًا في "تشالاندوين" في ذلك العام، وكان لديه الكثير من العقارات والأراضي، وتحت يده الكثير من العمال، ولكن تم إعدامه شنقًا في فترة الإصلاح الزراعي ومحاربة الإقطاع، وكانت لدى جده زوجتان، أنجبت الزوجة الكبرى منهما والد "لو بوا وين"، وكان لدى جده زوجة صغيرة بارعة الحسن، وبعد أن مات جده أنجبت تلك الزوجة عام 1950 طفلة ثم انتحرت بأن ألقت نفسها في بئر، وقبل أن تموت أعطت الرضيعة إلى جدة "ليو بوا وين" وطلبت منها أن ترسلها لأى شخص ولا يهم إذا ما كان فقيرًا أم غنيًّا، المهم أن تذهب لأسرة شخص طيب وتعيش في سلام لبقية عمرها، فقامت الجدة بإخراج إسورة ذهبية كانت قد خبأتها، وأعطتها لبائع خيول راجيةً إياه أن يبحث عن أسرة طيبة. كان هذا التاجر قد جاب الشمال والجنوب ورأى الكثير، فرأى أن "وتشيلوافو" منطقة نائية وأهلها بسطاء طيبون ومن ثم جاء إلى "وتشيلوافو" غير عابئ ببُعد الطريق، وترك الرضيعة في إسطبل خيل بفندق، وعندما مر ثانيةً بمدينة "تشالاندوين" أخبر جدة "ليو وين بوا" أنه ترك الرضيعة في "وتشيلوافو"، وسمع أن مجموعة طيبة من الـ"إيوينكيه" قد أخذوها للجبال، وقبل أن تموت الجدة أمسكت بيد ابنها وطلبت منه أن يذهب للبحث ذات يوم عن أخته التي تصغره بعشرين عامًا قائلة إنهما على أي حال من أب واحد.

وما إن انتهيت من سماع حكاية "ليو بوا وين" حتى عرفت أن الفتاة التي يبحث عنها هي "مايكان"، فقلت له: "لا داعي للذهاب إلى "تشيتشيان"، تلك الفتاة قد قفزت من فوق الجبل وماتت، ولقد تركت وراءها صبيًّا اسمه "شيبان"، يمكن الذهاب لرؤيته".

بعدها قمت أنا و"داجيانا" بقص الحكاية على مسامعه، وبعد أن انتهى من سماعها انخرط في البكاء، ثم عاد معنا إلى الجبل، وعندما أخبرت "لاجيمي" أن

عمة "ليو بوا وين" هي "مايكـان"، احتـضن "شـيبان" بقـوة وقـال إنـه لـيس ابـن "مايكان"، إنه طفل لقيط. كنت أعلم أن "شيبان" بالنسبة إليه مثله مثل "مايكان" في الماضي، هو عيناه، وإذا فقده فهذا يعادل الإصابة بالعمى.

بقي "ليو بوا وين" لدينا لمدة يومين، والتقط عدة صور لـ"شيبان"، ثم نزل من الجبل برفقة "مافينباو". في الواقع كـان "لـوني" قـد رتـب "سـو تـشانج لـين" لـكي يرافقه، لكن "مافينباو" بادر بطلب النزول من الجبـل، وقتهـا كـان "جيويـوا" قـد أنجب طفلًا أسماه "ليويوا" (أي شهر يونيو) فكانـت "ليوشـا" دائمًـا مـا تنـزل مـن الجبل لرؤية "جيويوا" و"ليويوا"، أما "مافينباو" فكان نادرًا مـا يحظـى بمثـل تلـك الفرصة. كان يشتاق لكلٍ منهما لذا فكر في انتهاز تلك الفرصـة للـذهاب إلى بلـدة "جيليو" لرؤيتهما، وعلى الرغم من أنـه صـار عجـوزًا فـإن أقدامـه كانـت لا تـزال رشيقة، وكان لا يزال بإمكانه الصيد، وظل أيضًا ماهرًا في استخدام البندقية.

وقتها زادت أماكن قطع الأشـجار بالغابـة، وأصـبحت خطـوط نقـل الخامـات خطًّا يتصل بالآخر، وصارت حيوانات الغابة أقل يومًا بعد يوم، وفي كل مرة نعـود فيها خاليي الوفاض من رحلة صيد كان "مافينباو" يـسب ويلعـن محطـات قطـع الأشجار تلك قائلًا إنهم كـالورم الخبيـث الـذي نبـت وسـط الجبـال، لقـد أفزعـوا الحيوانات حتى هربت.

كان يهـوى شرب الخمـر في الطريـق، فقـد كـان يقـول إن شرب الخمـر أثنـاء السير ذو مذاق خاص ومنظر جميل، لذا ظل يشرب الخمر طـوال طريـق مرافقـة "ليو باو وين"، الذي قال إنهما انطلقا في الصباح البـاكر، وعنـد الظهـيرة وبعـد أن سارا لمسافة ثلاثين "لي" تقريبًا وصلا إلى خـط فرعـي مـن طريـق "مـانجو" العـام، وذلك المكان يبعد عن بلدة "جيليو" بسبعة أو ثمانية لي تقريبًـا، وكانـت سـيارات النقل القادمة والذاهبة على هذا الخط الفرعي كثـيرة، فكـان "مافينبـاو" لا يتـأثر حين يرى السيارات الفارغة الداخلة إلى الجبل، لكنه ما إن يرى السيارات الممتلئـة

بالأشجار المقطوعة حتى ينفعل بشدة، ويشير إلى تلك السيارات وهو يسب بصوتٍ عالٍ. وفي ذلك اليوم كانت عربات النقل كثيرة جدًا، فمرت سيارة تلتها الثانية، وعندما مرت السيارة الرابعة المعبأة بالكامل بأشجار الصنوبر التي سقطت أوراقها لم يستطع "مافينباو" التحكم أكثر في غضبه، فرفع بندقيته وأطلق الرصاص على عجلات السيارة، كان حقًّا بارعًا في الرماية، لذا انفجرت إطارات السيارة على الفور ومالت على جانبها وتوقفت، وقفز منها السائق ومساعده. كان السائق كث اللحية فاندفع نحوه وأمسك بسترة "مافينباو" اللامعة المصنوعة من جلد وعل وهو يسبه قائلًا: "أيها السكير، يا ابن الساقطة هل تبحث عن الموت؟"، أما المساعد فكان شابًّا، ووجه لكمة قوية لرأسه وهو يسبه قائلًا: "أيها الهمجي الذي يرتدي جلد حيوان"، تلك اللكمة جعلت "مافينباو" يترنح، وردد الكلمة الأخيرة بحزن "همجي" ثم ترنح ثانيةً، وسقطت منه البندقية على الأرض أولًا، وتبعها هو ليسقط على الأرض دون حراك.

كنا نعلم أنه لا يحب الأماكن الصاخبة، لذا فكرنا في دفنه في مكان هادئ، لكن "ليوشا" اعترضت وقالت إنه مات في طريقه لرؤية أحفاده، لذا يجب دفنه في بلدة "جيليو"، وهكذا يمكن لكلٍ من "جيويوا" و"ليويوا" أن يذهبا لزيارة قبره باستمرار، بالإضافة إلى أن الأماكن التي تبدو هادئة الآن قد لا تظل هادئة بعد عدة سنوات، إذًا من الأفضل العودة إلى جوار الأهل الموجودين في "جيليو"، وهكذا قمنا بدفنه بجوار "إيوان" و"ويكيتيه".

لقد ذهب معظم من هم من عصري إلى عالم آخر، وبالوصول إلى فترة التسعينيات شعرت أن الوقت يمر كالبرق. لقد كبر "باريجي" و"شاخيلي"، فكانا دائمًا ما يخرجان للتسكع، وكان "شاخيلي" محبًّا لشرب الخمر، وما إن يثمل حتى يكسر نوافذ المتاجر، أو يخرب مقاعد ومناضد المدرسة، أو يثقب إطارات سيارات حكومة البلدة، ولقد أخبرني "جيويوا" أنه ما إن يظهر "شاخيلي" في البلدة حتى ينتاب القلق العاملين في قسم الشرطة، فكانوا ينبهون أصحاب الأماكن التي يحب

"شاخيلي" الذهاب لها أنه قد نزل من الجبل لذا انتبهوا لأشـيائكم. أمـا "بـاريجي" فكان يحب الذهاب إلى مدينة "خوخيه خاوتيه" بحثًا عن "إليانا"، فقد كان محبًّا للرقص، فكان يتخيل دومًا أن "إليانا" سترشحه ذات يوم ليلتحق بالفرقة المسرحية، وعندها سيتمكن من تقديم العروض في كل مكان. كانت "إليانا" قـد تخرجـت في ذلك الوقت في كلية الفنون الجميلة ببكين وذهبت إلى مدينـة "خوخيـه خاوتيـه" للعمل محررة فنون جميلة في إحدى المؤسسات الـصحفية، وتزوجـت مـن عامـل بمصنع أسمنت، لكنها انفصلت عنه بعد عام واحد.

بعد طلاق "إليانـا" انفـصل "ليـو بـوا ويـن" أيـضًا عـن زوجتـه، ولقـد أخـبرني "باريجيه" أنهما يعيشان سويًّا الآن، وقال أيضًا إنهما يتشاجران على الدوام، وحـين سألته لماذا يتشاجران؟ قال إنه لا يعرف، لكنهما في كل مرة يتشاجران فيهـا يقـوم "ليو بوا وين" برمي الأشياء أرضًا، أما هي فتشرب الخمر. كانت "إليانا" تعـود كـل عام لرؤيتي، وفي كل مرة تعـود فيهـا تحـضر معهـا الأشـياء التـي رسـمتها، كانـت بالإضافة إلى الرسم تحب أيضًا البقاء مع الغـزلان، وكانـت رسـوماتها ملونـة، لقـد غطت قماش الرسم بكل الألوان الزيتية، وكنت لا أحب رائحة تلـك الألـوان فهـي توخز أنفي. لم تعد "إليانا" سعيدة كالماضي، كنت أراها دائمًا واقفة وحيـدة جـوار النهر تغسل أقلام الرسم حتى تتلون مياه النهر، وكانـت رسـوماتها تُطبـع دائمًـا في مجلة الرسوم، وفي كل مرة تعود فيها كانت تحضر معها المجلات لتريني رسوماتها، كنت أتعرف على رسوماتها بنظرة واحدة من وسط كل أشـكال الرسـوم المختلفـة والمتنوعة؛ فقد كانت لا ينقصها دومًا الغزلان والنـيران والأنهـار والجبـال المغطـاة بالثلوج البيضاء.

كانت تأتي عادةً وتقيم لمـدة شـهر أو شـهرين بعـدها تـشعر بالـضجر، فهـي تشكو من الوحدة في الجبل، وصـعوبة الاتـصال بالعـالم الخـارجي، وكانـت أحيانًـا تذهب خصيصًا برفقة "شيبان" إلى بلدة "جيليو" لكي تتصل بأصدقائها بـالتليفون. كانت تحب "شيبان"، ونادرًا ما ترسم أشخاصًا، لكنها رسمت له عدة لوحـات، وفي

لوحاتها، كان دائمًا ما يمضغ لحاء الأشجار، أو يجلس القرفصاء في المعسكر ليغطي الغزلان بالدخان، أو ينقش الرموز فوق لوح خشبي.

كانت لـ"شيبان" هوايتان: اختراع الرموز وصناعة قطع فنية من لحاء أشجار البتولا، فقد كان يحب التحدث بلغة الـ"إيوينكيه"، وعندما علم أن اللغة التي يتحدثها لا تُكتب عقد العزم على اختراع رموز لها، وقال لنا: "إن تلك اللغة ذات الإيقاع الجميل ليست لها كتابة وهذا أمر مؤسف". فقلنا هل اختراع الكتابة بتلك السهولة؟ فرد: "إذا عقدت العزم على ذلك فسأتمكن بالتأكيد من اختراع رموز لها". وكان "مكسيم" بارعًا في أعمال النجارة، لذا طلب منه "شيبان" أن يصنع له عدة ألواح خشبية، ورصها فوق بعضها، وكان يحب الجلوس بجوار موقد النار لاختراع الرموز، وعندما يتوصل إلى رمز يكتبه أولًا على راحة يده باستخدام قلم جاف، ثم يرينا إياه ليأخذ رأينا، وعندما يستحسنه الجميع يقوم بحفره على الألواح الخشبية. كانت الرموز التي يخترعها بسيطة، فمثلًا الرمز المعبر عن الماء عبارة عن خط أفقي مستقيم، والرمز المعبر عن البرق عبارة عن خط أفقي متعرج، ورمز المطر كان خطًّا رأسيًّا متقطعًا، ورمز الرياح كان خطين رأسيين متعرجين، ورمز السحاب كان دائرتين متصلتين ببعضهما، وقوس قزح كان خطًّا مائلًا متعرجًا. وكان "شيبان" حريصًا للغاية أثناء غسل يده، فقد كان دائمًا ما يرسم عليها رموزًا، لذا كان يخشي أن تزول عنها الرموز التي اخترعها لتوه.

وبالإضافة إلى اختراع الرموز كان يهوى أيضًا صناعة "الماتا"، والتي تعني القطع الفنية المصنوعة من لحاء البتولا. لقد برع في جميع طرق النحت، فكان ينقش الطيور والغزلان والزهور والأشجار على منافض السجائر وعلب الأقلام وعلب الشاي وصناديق الزينة المصنوعة من لحاء البتولا، وكانت الخطوط الأحب لقلبه هي خطوط السحب والبرق وخطوط المياه المتموجة. وكانت الأشياء التي يصنعها رائجة للغاية، فكان يشتريها السياح القادمون من بعيد بعد أن

تصل إلى متاجر بلدة "جيليو"، فكان يستخدم تلك النقود لـشراء مختلـف الأشـياء لنا، وقد جعل هذا "لاجيمي" يشعر بـالفخر. وكـان حلـم "شـيبان" الأكـبر هـو أن يحول لغتنا إلى كتابة حقيقية ذات يوم لكي يمكنها أن تستمر وتتوارث.

وفي كل مرة يعود فيها "شاخيلي" ويـرى "شـيبان" المنهمـك في اخـتراع الرمـوز كان يسخر منه قائلًا إنـه أحمـق، فمـن مـن الـشباب الآن يحـب التحـدث بلغـة الـ"إيوينكيه"؟ "أليست الرموز التـي تخترعهـا أشـياءً سـتُدفن في المقـابر؟"، فكـان "شيبان" لا يجادله، فقد كان طبعه هادئًا، وقد قال كثيرون عنه إنه يشبه في ذلـك "أنتساور". وكانت "داجيانا" قد أخبرتني سرًّا أنه ربما كانـت "مايكـان" قـد حبلـت من "أنتساور"، فقلت مستحيل؛ لقد اختفت "مايكان" وقتهـا لعـدة أيـام قبـل أن تعود، وقتها لم يغادر "أنتساور" المعسكر، فقالت: "ربما كانت تلك خدعـة أعـدتها مسبقًا، فطلبت من "أنتساور" أولًا أن ينام معها، ثم استخدمت حيلة الهروب لكي تخدع الجميع". لكني كنت أرى أن كلامها غـير منطقـي بـالمرة، حتـى العـام قبـل الماضي حين كنت أسـاعد "أنتـساور" في ترتيـب أشـيائه فاكتـشفت حينهـا منـديلًا وردي اللون، عندها شعرت أن استنتاجها قد يكـون صـحيحًا، فـأشرت إلى المنـديل وسألته: "هل تركت يوليان هذا؟"، فقال: "لقد أهدتني "مايكـان" إيـاه، لقـد كـان لديها واحد وأنا لديَّ الآخر، فقد قالت إن دموعي تسيل حين تهب الرياح فيمكن أن أمسح دموعي به". عنـدها تـذكرت عـلى الفـور المنـديل الـذي كانـت ترتديـه "مايكان" عندما عادت بعد أن اختفت، فمـن أيـن أتـت بـزوج المناديـل الورديـة ذلك؟ لم أتمكن من التخمين، في الحقيقة هناك كثير من الأسرار المدفونة في حياتنا، والأيام التي بها أسرار ليست سيئة، لذلك رفضت التعمق في البحـث عـن حقيقـة "شيبان".

كانت "إليانا" حين تمل من البقاء في الجبل تحمل ألواح الرسم وتعـود للمدينـة، لكنها كانت تعود ثانيةً بعـد فـترة قـصيرة، وفي كـل مـرة تعـود فيهـا كـان الاشـتياق يملؤها، فتقول إن البشر في كل مكـان بالمدينـة، والمبـاني في كـل ركـن، والـسيارات في

كل زاوية، والغبار يملأ الجو، إنه حقًّا مكان ممل، ثم تقـول إن العـودة إلى الجبـل هي أمر رائع، حيث يمكن اللعب مع الغزلان، وفي المساء عنـد النـوم يمكـن رؤيـة النجوم وسـماع صـوت الريـاح، ومـلء العيـون بمنـاظر الأنهـار والجبـال والزهـور والطيور، إنه حقًّا عالم صحو نقي. لكن على الرغم من هذا تبدأ في الـشكوى بعـد أقل من شهر قائلة إنه لا توجـد حانـات أو تليفونـات أو دور سـينما أو مكتبـات هنا، فتبدأ في معاقرة الخمر، وما إن تثمل حتى تصب غضبها على لوحاتها التي لم تنتهِ بعد قائلةً إنها قمامة، ثم تلقي بها داخل موقد النيران مدمرة إياها.

في ذلك الوقت كانت "داجيانا" في شدة القلق؛ فعلى الرغم من أن "إليانا" قـد جلبت لها فخرًا ما بعده فخـر؛ فقـد كـان الجميـع يحـسد أسرتهـا التـي أخرجـت رسامة، لكن الصراع والألم اللذين كانا يعتملان في قلب ابنتها جعلاها غير مستقرة. أما "سوما" فكانت مثل "شاخيلي" تكره الدراسـة، وعنـدما كانـت تـدرس في بلـدة "جيليو" كانت دائمة الهروب من المدرسة، وكانت تحب مصادقة الفتيان، وفي سـن الرابعة عشرة أعلنت لـ"داجيانا" أنها لم تعد عـذراء، فغـضبت أمهـا وأرجعتهـا إلى الجبل ولم تسمح لها بالنزول ثانيةً وجعلتها ترعى الغزلان كل يوم، فكانت "سوما" تكره الغزلان وتقول إنه لو أصاب تلـك الغـزلان طـاعون لكـان ذلـك مـن دواعـي سرورها، فعندها سيهبط الجميع مـن الجبـل. ولقـد شـعر الجميـع بـالنفور منهـا بسبب لعناتها تجاه الغزلان.

ذات يـوم اسـتقالت "إليانـا" أخـيرًا مـن عملهـا وعـادت بأمتعتهـا إلى الجبـل، وعندما سألتها لماذا عادت قالت إنها ملت من العمل وملت مـن المدينـة وملـت مـن الرجـال، لقـد فهمـت أخـيرًا أن الغـزلان والأشـجار والأنهـار والقمـر والريـاح المنعشة فقط هي التي لا يمل منها المرء.

وبعد أن عادت في تلك المرة لم تعـد تـستخدم الألـوان الزيتيـة، بـل بـدأت في رسم الفسيفساء باسـتخدام الـشعر والجلـد، فكانـت تقـص شـعر وجلـد الغـزلان والـ"كانداهان" لأشكال مختلفـة طبقًـا لاخـتلاف الألـوان، بعـدها توصـلها بـبعض

لتشكل لوحة من الجلد والشعر، تلك اللوحات أساسها اللون البني المصفر واللون الرمادي الفاتح، وأعلى اللوحة دائمًا ما يكون السماء والسحب، وأسفلها الجبال البارزة أو الأنهار المتعرجة، أما المنتصف فكان دائمًا وأبدًا الغزلان ذات الأوضاع المختلفة. في الحقيقة لم يعد قلبي مطمئنًا منذ ذلك اليوم الذي بدأت فيه إليانا في صنع تلك اللوحات؛ فقد كنت أشعر أن الشعر والجلود ربما لها روح، وربما توافق وترضى بأن تتحول لملابس لكي تحجب الرياح والأمطار وتجلب الدفء للبشر، لكن إذا ما فكرت يومًا في أن تمزقها فقط من أجل إرضاء أعين الآخرين ولتجعلها تتحول للوحات معلقة، فربما تغضب تلك الجلود والشعور.

ولقد قالت إنها لن تأخذ لوحاتها ثانيةً إلى خارج الجبل، إلا أنها ما إن انتهت من لوحتين من الجلد والشعر حتى لفتهما وذهبت بهما للمدينة. كانت بهذا الشكل أشبه بمن يبحث عن سيد جيد لكلبيها، وبعد شهرين عادت ومعها صحفيون، وكانت السعادة والحماسة بادية عليها، وقالت إن اللوحتين أثارتا عاصفة من الاهتمام في الأوساط الفنية، فاحتفظ متحف الفنون الجميلة بإحداهما، أما الأخرى فقد بيعت بسعرٍ عالٍ، لذا جاء التليفزيون خصيصًا لكي يعقد معها لقاءً صحفيًّا، ولقد قاموا بتصوير الخيام والغزلان والنيران و"شيبان" المنهمك في اختراع الرموز و"نيخاو" التي هرمت وملابس الآلهة وطبلة الآلهة خاصتها، كما أبدوا رغبتهم أيضًا في تصويري فسألوني: "لقد سمعنا أنكِ آخر زعيمة قبيلة في تلك القومية، هل يمكنك أن تحكي لنا عن الحكايات التي مررتِ بها؟"، فاستدرت وغادرت، لماذا يجب عليَّ أن أحكي لهم حكاياتي؟

وفي بداية ربيع عام 1998 حدث حريق ضخم بالجبل، وقد امتدت النيران من سلسلة الجبال الواقعة بشمال "داشينج أنلينج". كان الربيع جافًا في تلك السنوات، والرياح قوية، والأعشاب جافة، فكثرت الحرائق، منها ما كان البرق سببًا فيه، ومنها ما تسبب فيه قيام بعض الأشخاص برمي أعقاب السجائر بعد تدخينها، ومن أجل الوقاية من إمكانية تسبب أعقاب السجائر في تدمير الغابات اخترعنا نوعًا من السجائر اسمه سجائر الفم، وهي مصنوعة من

شرائح التبغ والشاي ومسحوق الفحم المخلوطين ببعضهم، وهذا النـوع لا يحتـاج إلى النار، بل يكفي فرك بعض منه ودسه فوق اللثة حتى يملأ الفم طعم السجائر، ويمكنه أيضًا العمـل كمنبـه. وفي كـل عـام مـع حلـول الربيـع والـصيف نـستخدم سجائر الفم عوضًا عن السجائر التقليدية.

كانت كارثة الحريق الضخم تلـك قـد حـدثت بـسبب قيـام اثنـين مـن عـمال الغابات برمي أعقاب السجائر، وقتها كنا قد ارتحلنا لتونـا إلى ضـفة نهـر أرجـون، فالتفت أعاصير النار واكتست الغابات بطبقات كثيفة من الدخان، وطارت أسراب تلو أسراب من الطيور الهاربـة مـن الكارثـة في الـشمال وهـي تـصرخ فزعًـا وقـد اسودت أجسادها من الدخان فبدا واضحًا عنف النيران، ولقد ركب سكرتير لجنـة الحزب ببلدة "جيليو" ونائب رئيس البلدة سيارة جيب وصعدا للجبـل وصـولًا إلى كل نقاط تجمع الصيادين، وقادانا لصنع حزام عازل من النـيران وحمايـة الغـزلان ومنعها من الابتعاد عن المعسكر، وحلقت طائرات الهيلكوبتر فوقنا لتـصنع مطـرًا صناعيًّا، لكن طبقـة الـسحب لم تكـن سـميكة إلى حـدٍ كـافٍ، فكنـا نـسمع فقـط أصوات هزيم كهزيم الرعد، لكننا لم نرَ مطرًا يسقط.

في ذلك الوقت ارتدت "نيخـاو" ملابـس الآلهـة وقبعـة الآلهـة وتنـورة الآلهـة للمرة الأخيرة، وأمسكت في يدها بطبلة الآلهة وبدأت في الرقص طلبًا للمطر. كـان ظهرها قد انحنى وتجعدت وجنتاهـا ومحجـرا عينيهـا، ولقـد اسـتخدمت طـائرَي نقار خشب كأدوات لطلب المطر، أحدهما كان رمادي الجسد أحمر الذيل والآخر أسود الجسد أحمر الجبهة، ولقد وضعتهما في المياه الضحلة لنهـر أرجـون بحيـث ينقع جسديهما في الماء وتتجـه منـاقيرهما نحـو الـسماء، بعـدها بـدأت في رقـصة الآلهة.

وفي الوقت الذي رقصت فيه "نيخاو" بـدأت الـسحب الكثيفـة في التجمـع في السماء، أما الغزلان فقد انتصبت على ضفاف نهر أرجون، وصدح صـوت الطبـول، لكن أرجل "نيخـاو" لم تعـد لهـا مرونتهـا كـما في المـاضي، وكانـت تـرقص وتـرقص

ثم تنتابها نوبة من السعال، وكان ظهرها منحنيًا من البداية فكان يزداد انحناءً حين تسعل، وتدلت تنورة الآلهة على أرض الغابة فامتلأت بالتراب، أما نحن فقد عز علينا أن نرى شكلها المتعب في طلب المطر، لذا رحنا تباعًا للبقاء وسط الغزلان، فلم تكن لدى أيٍّ منا الشجاعة لرؤية مراسم طلب المطر حتى نهايتها، باستثناء "إليانا" و"لوني"، وبعد أن رقصت "نيخاو" لمدة ساعة بدأت السحب في الظهور في السماء، وبعد ساعة أخرى صارت السحب كثيفة، وبعد ساعة ثالثة ظهر البرق، عندها توقفت "نيخاو" عن الرقص وسارت مترنحة تجاه نهر أرجون والتقطت طائرَي نقار الخشب المبللين وعلقتهما فوق شجرة صنوبر قوية، وما إن انتهت من كل هذا حتى ظهر البرق المتداخل مع هزيم الرعد وهطلت أمطار غزيرة، عندها غنت "نيخاو" وسط الأمطار آخر أغنية في حياتها، وسقطت على الأرض وسط مياه الأمطار قبل أن تكملها.

أيا نهر أرجون
لتسرِ حتى مجرة درب التبانة
الدنيا التي أصابها الجفاف...

خمدت نيران الجبال، ورحلت عنا "نيخاو"، لقد قامت في حياتها بمراسم عديد من الجنازات، لكنها لم يكن بإمكانها أن تودع نفسها.

وفي جنازتها عادت "بايرنا" التي اختفت لعدة أعوام، وكان معها ذلك الصبي الصغير الذي سرق غزلاننا في الماضي. كانا قد بلغا منتصف العمر، أما بالنسبة لأين وجد "بايرنا"، وكيف عرفا نبأ وفاة "نيخاو"، فلم نسألهما، فعلى العموم تحققت أمنية "نيخاو"، وعادت ابنتها لتشارك في جنازتها، ولم تعد الراحلة بحاجة لرقص رقصة الآلهة ثانيةً، وبالتالي سيتلاشى إلى الأبد الخوف الكامن في قلب "بايرنا".

وبعد أن رحلت "نيخاو" بنصف عام تقريبًا رحل "لوني" أيضًا، ولقد قال "مكسيم" إن "لوني" في هذا اليوم كانت تبدو عليه الصحة، وكان يشرب الشاي، ثم

قال فجأة لـ"مكسيم": "ناولني قطعة من السكر"، وما إن انتهى من كلامه حتى مالت رقبته ولفظ أنفاسه. وبرأيي أن العالم الذي ذهب له "لوني" و"نيخاو" هو عالم دافئ، فهناك يوجد "جواجيلي"، و"جياوكوتواكان"، و"يرنيسينيه".

عجزت "إليانا" عن نسيان مشهد "نيخاو" وهي ترقص طلبًا للمطر، فقالت لي إنها رأت في تلك اللحظة خلاصة تجارب الـ"إيوينكيه" عبر أكثر من مائة عام في منظر يهز القلوب، وأضافت أنها يجب أن تستخدم الرسم لكي تعرض هذا المشهد، فقامت في البداية باستخدام لوحات الجلد والشعر، لكنها عندما انتهت من نصفها قالت إن الجلد والشعر لا يليقان بعظمة اللوحة، الألوان الزيتية هي المناسبة، ومن ثم قامت بتثبيت قماش الرسم فوق اللوح الخشبي وبدأت في وضع لمسات من الألوان الزيتية باستخدام ريشة الرسم، لكنها كانت بطيئة للغاية، وفي غاية الانفعال، فكانت دائمًا ما ترسم وترسم حتى تنخرط في البكاء.

تلك اللوحة استغرقت من "إليانا" سنتين.

وكانت مفعمة بالروح والمعاني، ففي أعلاها السماء التي تتكور فيها السحب الكثيفة، والجبال الخضراء التي تغطت بدخان أسود يميل للخضرة، أما في المنتصف فكانت "نيخاو" المنهمكة في رقصة الآلهة وقطعان الغزلان التي تحيط بها. كان وجهها مبهمًا، لكن ملابس الآلهة التي ترتديها واقعية تمامًا لدرجة أن الرياح لو هبت قليلًا لأصدرت الزينات المعدنية المعلقة عليها صليلًا، أما أسفل اللوحة فكان نهر أرجون البارد، والناس المصطفون على ضفته طلبًا للمطر.

اعتقدنا عندها أن اللوحة قد انتهت، إلا أن "إليانا" كانت دائمًا ما تقول إنها لم تنتهِ بعد، يبدو أنه كان يعز عليها إنهاؤها، فكانت ترسمها بدقة شديدة.

واستمر الوضع حتى ربيع العام الأول من دخولنا للقرن الجديد، عندها أعلنت "إليانا" أن اللوحة انتهت. كنا وقتها منهمكين في ولادة الغزلان عند ضفة نهر "بايرتسيه"، ومن أجل الاحتفال بهذا الخبر أقمنا خصيصًا احتفالًا راقصًا

حول النيران، ولقد شربت "إليانا" كثيرًا من الخمر، وعلى الرغم من أنها لم ترقص فإن مشيتها الخفيفة الرشيقة كانت تعطي انطباعًا بأنها ترقص.. في تلك الليلة رحلت "إليانا".

بعد أن شربت الخمر عادت إلى الخيمة وأمسكت بمجموعة من أقلام الرسم، وسارت مترنحة تجاه نهر "بايرتسيه"، وعندما مرت من أمامنا قالت إنها ذاهبة لغسل الأقلام. كانت المسافة من معسكرنا إلى النهر حوالي خمس دقائق مشيًا، ولقد رأيناها وهي تسير في اتجاه النهر.

عندها تنهدت "داجيانا" وقالت: "بعد أن تغسل "إليانا" أقلام الرسم ستبدأ بالتأكيد في رسم شيء جديد. لا يجب أن تضيع عامين آخرين، كيف لها أن تتحمل؟".

وقالت "سوما": "إن إليانا حمقاء، لوحة واحدة تستغرق عامين، هذا الوقت الطويل كافٍ لإنجاب طفلين". فضحكنا جميعًا لكلامها.

انهمكنا في النقاش حول "إليانا" وحول لوحتها تلك، ولم نشعر بالوقت إلا وقد انتصف الليل ولم تعد "إليانا" بعد، فقالت "داجيانا" لـ"سوما": "اذهبي لتري لماذا لم تعد أختك حتى الآن".

فقالت "سوما": "ليذهب شيبان".

وقتها كان جالسًا بجوار النيران منهمكًا في اختراع الرموز، وكان "مكسيم" يساعده في حفرها على الخشب، وعندما سمع "سوما" تطلب منه الذهاب للبحث عن "إليانا" قال: "اذهبي أنتِ، أنا منهمك في اختراع الرموز". فقالت له: "يجب أن يذهب للبحث عن "إليانا" من رسمته في لوحتها"، عندها قال "شيبان": "أوه"، ثم هب واقفًا وقال: "لقد رسمتني "إليانا"، إذًا فسأذهب للبحث عنها".

وبعد عشر دقائق تقريبًا عاد، لكنه لم يعثر عليها، وإنما عاد وبيده مجموعة من أقلام الرسم المبللة. لقد تم غسلها حتى نظفت بمياه نهر "بايرتسيه".

فسألته "داجيانا": "ماذا عن "إليانا"؟".

فقال: "وجدت الأقلام فحسب، لم أجدها".

وفي ظهيرة اليوم الثاني عثرنا على جثتها في أسفل النهر، ولقد قال "شيبان" إنه لولا أشجار الصفصاف الموجودة في منحنى النهر والتي اعترضت الجثة لما عرفنا إلى أين ستطفو.

لقد كرهت تلك الأشجار؛ لأن "إليانا" كانت كالسمكة، يجب أن تسبح مع مياه نهر "بايرتسيه" لتذهب إلى مكان بعيد لا نراه.

وعندما كانت راقدة في قارب لحاء البتولا عائدة إلى المعسكر، صبغت شمس المغيب مياه النهر بلون كالذهب، يبدو أن السماء تعرف أنها تحب الرسم لذا تعمدت صنع لوحة ووضعت إليانا وسطها. في تلك اللحظة بالذات استقبل "لاجيمي" غزالًا وليدًا أبيض كالثلج، كان بالتأكيد قادمًا من السماء فقد كان يبدو مثل سحابة، فأعطاه "لاجيمي" الاسم الذي اشتاق إليه كثيرًا، لقد أسماه: "موكوليان".

أما أنا فقد عثرت على منطقة صخور بيضاء في المكان الذي صعدت منه "إليانا" إلى اليابسة ورسمت لا مصباحًا، كنت آمل أن ينير لها الطريق حين تسبح في الليالي التي يغيب فيها القمر. كنت أعلم أن تلك هي اللوحة الأخيرة التي أرسمها في حياتي، وبعد أن انتهيت منها ألصقت وجهي بالصخور وبكيت، فسالت دموعي فوق المصباح المرسوم على الصخور كما لو كانت تضخ له زيت مصابيح.

وعندما غادرنا نهر "بايرتسيه" علق "شيبان" جرسين ذهبيين في رقبة "موكوليان"، كان رنينهما المعدني الصافي يوقظ ذكرات عمري، كانا كالشمس والقمر في السماء يضيئان الطرق التي تركناها على ضفة نهر أرجون، تلك الطرق التي أسماها العالم "طرق الإيوينكيه الصغيرة" والتي تشكلت تحت وطء أقدامنا وأقدام الغزلان.

نصف قمر



كاد اليوم أن ينتهي، وأظلمت السماء، وأوشكت على الانتهاء من حكاياتي.

لا بد أن "داجيانا" ومن معها قد وصلوا إلى "بوسو". إن بلدة "جيليو" قد صارت الآن مدينة أشباح فلم يعد هناك أيٌّ منا.

تلك البلدة الصغيرة في نظري مدينة كبيرة للغاية، لن أنسى أبدًا قطعتَي القماش اللتين رأيتهما في متاجرها، قطعة زرقاء والأخرى صفراء، كانتا تقفان هناك واحدة غامقة والأخرى فاتحة مثلهما مثل الليل والفجر.

كان رحيل "إليانا" سببًا في كراهية "داجيانا" لحياة الجبال، أما "سو تشانج لين" فقد عاش في ألم عميق وبدأ يدمن الخمر، وذات يوم شرب كل الخمر الموجود فطلب من "لاجيمي" أن يهبط الجبل لشراء بعض منها، لكن "لاجيمي" رفض، فأمسك "سو تشانج لين" بالبلطة عازمًا على قطع رأس "لاجيمي"، ولولا أن جذبه "شيبان" بعيدًا لانتهت حياة "لاجيمي" الذي ظل يصرخ ليلة كاملة من الألم.

وفي السنوات الأخيرة أصبحت الغابات أقل كثافةً يومًا بعد يوم بسبب القطع الجائر للأشجار، كما قلَّت الحيوانات أيضًا مع الوقت، وصارت رياح الجبل أكثر قوة، وقلت تدريجيًّا الطحالب التي تتغذي عليها الغزلان، لذا اضطررنا للارتحال كثيرًا معها.

وبعد رحيل "نيخاو" بثلاث سنوات بدأت تظهر بعض الحركات الغريبة من قبل "مكسيم"، فكان يمسك بسكين الصيد ويقطع به معصمه، أو يبتلع الجمر الأحمر الملتهب، وصار يحب الركض في الأيام الممطرة وهو يصرخ بصوتٍ عالٍ، أما في أوقات الجفاف فكان يحتضن رأسه ويبكي بمجرد أن يرى الشقوق المتعرجة وقد ظهرت على الأرض، فعلمنا أنه سيصبح كاهنًا.

كان المصير المؤلم لكلٍ من الكاهن "نيدو" و"نيخاو" قد جعلنا لا نرغب في رؤية ولادة كاهن جديد، فقامت "داجيانا" بالتبرع بملابس الآلهة وقبعة الآلهة وتنورة الآلهة التي تركتها "نيخاو" لمتحف العادات القومية ببلدة "جيليو"، ولم تبقَ إلا طبلة الآلهة، كنا نرغب في أن ينسلخ "مكسيم" تمامًا عن تلك الرائحة الغامضة الكئيبة.

عندها بدأ "مكسيم" بالفعل في الرجوع لشخص طبيعي، باستثناء بعض التصرفات الغريبة في الأيام الجافة كان مثله مثل أي شخص طبيعي.

منذ ظهور بلدة "جيليو" حتى الآن لم تمتلئ بالسكان من قبل، فقد كان الناس يعتبرونها فندقًا للراحة المؤقتة فحسب، لذا خربت يومًا بعد يوم.

كنت أشعر بالقلق الشديد من أن تتحول "بوسو" التي ذهبت لها "داجيانا" والجميع إلى فندق للراحة المؤقتة أيضًا.

دخل "شاخيلي" السجن، ففي العام قبل الماضي اتفق مع بعض العاطلين من أرباب السوابق من خارج الجبل على دخول الجبل وقطع بعض الغابات المطيرة المحمية من الدولة، عازمين على نقلها سرًّا وبيعها في السوق السوداء وكسب مبلغ

ضخم من المال، لكن قبل أن تخرج الأشجار من الغابة قُبض عليهم واحتُجزت السيارات من قبل نقطة التفتيش، وحُكم عليه بالسجن لثلاث سنوات.

وعلى الرغم من مراقبة "داجيانا" المستمرة لـ"سوما"، فإنها كانت تذهب مرة تلو الأخرى إلى المعسكرات الثانية لمواعدة الفتيان، فقد كانت تقول إنها تشعر بالوحدة في الجبل، وفقط ذلك الأمر الذي يحدث بين الفتية والفتيات هو ما يجلب لها بعض السعادة. وكانت في كل مرة تنزل فيها من الجبل تذهب لبلدة "جيليو" للإجهاض، ولقد تعبت "داجيانا" كثيرًا لأمر زواجها، فكلما رشحتها كزوجة لأحدهم قال لها بلهجة محتقرة: "سوما؟! إنها تلهو مع الجميع، كيف يمكن أن تصير زوجة؟"، بعدها جاء إلى بلدة "جيليو" ثلاثة من جامعي القمامة يرتدون ملابس مهلهلة، يعانون من الجوع، ولا يجدون زوجة تقبل بهم، فجاؤوا إلى هنا بعد أن سمعوا من يقول إن نساء الـ"إيوينكيه" لا يجدن أزواجًا، كما أن لديهن دعمًا من الحكومة. كانت صدمة تلك الحادثة بالنسبة لـ"داجيانا" تعادل صدمتها في مصرع "إليانا"، لقد جاءتني باكية وهي تقول: "إيني، جامعو القمامة يعتبرون بناتنا مهملات يجمعونها، يجب علينا مغادرة ذلك المكان الموبوء".

بدأت "داجيانا" السعي من أجل إنشاء موطن لصيادي الـ"إيوينكيه"، فقالت إن بلدة "جيليو" نائية، ومواصلاتها صعبة، ولا ضمانات صحية بها، ومستوى التعليم الذي يتلقاه الأطفال هناك متدنٍ، وهناك صعوبات في الوظائف مستقبلًا، لذا فتلك القومية تواجه مصير الانقراض، ثم قامت بالاشتراك مع أبناء عدة قبائل أخرى بإرسال خطاب اقتراح النزول من الجبل والاستيطان خارجه لحكومة بلدة "جيليو"، وكان هذا الخطاب سببًا في ارتحالنا الكبير في هذه المرة.

لم يكن عدد الصيادين بالجبال يبلغ المائتين، أما الغزلان فكانت ستمائة أو سبعمائة رأس، ولقد صوَّت الجميع لصالح السكن في "بوسو"، باستثنائي،

وعندما سمع السكرتير الجديد لبلـدة "جيليـو" الـسيد "جـو" بـأنني قـد عارضـت الرحيل صعد الجبل خصيصًا ليقابلني، وقال إن نزولنا نحن والغزلان هو نوع مـن الحماية للغابات، فـالغزلان تـدمر المنحـدرات العـشبية أثنـاء سـيرها وتتـسبب في فقدان التوازن الإيكولوجي، بالإضافة إلى أنه تم تطبيق الحماية للحيوانات البريـة، فلا يمكن الصيد بعـد الآن. وأضـاف أن القوميـة التـي تـضع بنـادق صـيدها هـي قومية متحضرة ولها مـستقبل. فكنـت أرغـب بـشدة في أن أرد عليـه وأقـول إننـا وغزلاننا عشنا دائمًا ونحن نحتضن الطبيعة، ومقارنةً بالآلاف المؤلفـة مـن قـاطعي الأشجار فإننا فقط مثل اليعسوب الذي يمس بأطرافه سطح الماء، فلـو تلـوث نهـر الغابـات، فكيـف يعقـل أن يكـون الـسبب هـو بـضعة يعاسـيب مـسَّت سـطحه بأرجلها؟ لكني لم أخبره بتلك الكلمات، بل غنيت له أغنية، كانت أغنية متوارثة في عشيرتنا لتأبين الدببة وكانت "نيخاو" قد غنتها من قبل.

أيتها الدبة الجدة
لقد سقطتِ
فلتنامي هنيئًا
فمن يأكل لحمك
هو تلك الغربان السوداء
سنأخذ عينيك
ونعلقها بإخلاص بين الأشجار
كما لو كنا نعلق مصباحًا.

بقيت أنا، وبقي "أنتساور" أيضًا، وكان هـذا كافيًـا. كنـت أعتقـد أن "شـيبان" سيبقى أيضًا، فهو يحب مضغ لحاء الشجر، ولم ينتهِ من اختراع رموزه بعـد، لكنـه كان ولدًا بارًّا فكان سيذهب أينما ذهب "لاجيمي". ولقد رأيت أن "لاجيمـي" لـن يعيش طويلًا، فلسانه اعوج وصار كلامه غير مفهوم، ولو رحل ذات يـوم فـسيعود "شيبان" بكل تأكيد.

لم نعد نحتاج لترك علامات الأشجار عند الارتحال؛ لقد كثرت الطرق وسط الجبال. كنا نضل الطريق في الوقت الذي لم تكن هناك فيه طرق بالجبال، وعندما كثرت الطرق ظللنا نضل الطريق أيضًا، لأننا لم نعد نعرف أين يجب أن نذهب. وعندما جاءت سيارات النقل في الصباح لمعسكرنا، لم أرَ السعادة الكاملة في أعين هؤلاء الراحلين، كان هناك خواء في نظراتهم، خصوصًا ذلك الغزال الأبيض الذي وُلد يوم رحيل "إليانا"، لقد رفض ركوب السيارة مهما حاولوا معه، لكن "شيبان" لم يكن يستطيع فراقه، فهز الجرسين الذهبيين المعلقين تحت رقبته ونادى على اسمه قائلًا: "موكوليان، اصعد للسيارة بسرعة، لو لم تحب "بوسو"، ولم تحب الحبس في حظائر الغزلان فسنعود ثانيةً"، عندها فقط صعد "موكوليان" إلى العربة.

لقد حكيت قصصًا ليوم كامل وتعبت، لكني لم أخبركم باسمي لأني لا أرغب في ترك اسم. لقد أمرت "أنتساور" أنه عند رحيل "أبا" لا تدفني في الأرض، بل فوق الأشجار، ووسط الرياح، إلا أن اختيار أربع أشجار متقابلة في الوقت الحالي لم يعد بتلك السهولة.

هناك بعض الأشخاص الذين لا أعرف نهايتهم، مثل تلك المرأة التي تخلت عن "ليوشا" و"مافينباو"، ومثل "واشيا"، أو مثل "بايرنا" التي اختفت ثانيةً بشكل غامض بعد جنازة "نيخاو". فالحكاية يجب أن تكون لها نهاية، لكن ليس كل الأشخاص لهم نهايات.

دخل "أنتساور" وألقى ببعض قطع الحطب ثانيةً في النار، تلك النار التي أهدتها لي أمي على الرغم من عمرها الكبير إلا أن وجهها لا يزال بتلك الحيوية والشباب.

سرت خارجة من الخيمة.

تسبب الهواء الرطب المحمل برائحة النباتات العطرة في نوبة عطس، عطستها بقوة حتى أزالت كل آثار النوم والتعب عني.

ارتفع القمر لكنه لم يكن مستديرًا، كان هلالًا وأبيض مثل اليشم، وكان مائل الجسد قليلًا مثل غزال صغير مال ليشرب، وتحت القمر كان هناك طريق يقود إلى خارج الجبل، فنظرت لذلك الطريق بأسى، عندها سار "أنتساور" آتيًا نحوي ونظر معي لذلك الطريق، كانت آثار الإطارات التي خلفتها سيارات النقل على الطريق هي في نظري آثار جروح، وفجأة ظهر ظل أبيض رمادي مبهم في نهاية هذا الطريق، وسمعت معه صوت أجراس غزلان من بعيد، وما انفك هذا الظل يقترب من معسكرنا، فصاح "أنتساور" بدهشة: "أبا، لقد عاد موكوليان".

كنت عاجزة عن تصديق عيني، على الرغم من أن صوت أجراس الغزلان صار واضحًا أكثر فأكثر، فرفعت رأسي ناظرةً للقمر وشعرت أنه يشبه الغزال الأبيض الذي يركض باتجاهنا، وعندما نظرت للغزال الذي يبتعد عنا أكثر وأكثر شعرت أنه يشبه ذلك الهلال الأبيض وقد سقط على الأرض، عندها نزلت دموعي فلم أعد قادرة على التمييز بين الأرض والسماء.



صدر من سلسلة كتب مختلفة:

	العنوان	المؤلف	البلد
.1	أرامل الخميس	كلاوديا بينيرو	الأرجنتين
.2	اسمي نور	إلسا أوسوريو	الأرجنتين
.3	كلي لك	كلاوديا بينيرو	الأرجنتين
.4	بيتي بو	كلاوديا بينيرو	الأرجنتين
.5	مشروع روزي	جرايم سيمسيون	أستراليا
.6	لأننا في مكان آخر	رشا الخيَّاط	ألمانيا
.7	قصص بسيطة: رواية من ألماني الشرقية	إنجو شولتزة	ألمانيا
.8	الثلاثة	سارة لوتز	إنجلترا
.9	الموت والبطريق	أندريه كيركوف	أوكرانيا
.10	تاتي	كريستين دوير هيكي	أيرلندا
.11	شركة الحب المحدودة	أندريه سنار ماجنسون	أيسلندا
.12	موسم الساحرة	أرني ثورارينسون	أيسلندا
.13	الحب لم يعد مناسبًا	ميلا فينتوريني	إيطاليا
.14	احترس من جوعي	لوتشانا كاستيلينا	إيطاليا
.15	سارق الجثث	باتريسيا ميلو	البرازيل
.16	السيمفونية البيضاء	أدريانا ليسبوا	البرازيل
.17	نيزك في جالفايش	جوزيه لويس بايشوتو	البرتغال
.18	مقبرة البيانو	جوزيه لويس بايشوتو	البرتغال
.19	صانع الملائكة	شتيفان بريجش	بلجيكا
.20	فندق الغرباء	ديميتري فيرهولست	بلجيكا
.21	مخاوفي السبعة	سلافيدين أفيدتش	البوسنة
.22	جامع الكتب	جوستابو فابيرون باترياو	بيرو
.23	أبسنت	أيفر تونش	تركيا
.24	أحلام محطمة	بيولانت سينوكاك	تركيا
.25	ارحل قبل أن أنهار	تونا كيرميتشي	تركيا
.26	امرأة صديقي	تونا كيرميتشي	تركيا
.27	توباز	هاكان جنيد	تركيا
.28	خطايا الأبرياء	برهان سونميز	تركيا
.29	ديستينا	ماين كيركانات	تركيا

30. الشيطان امرأة	هاندي ألتايلي	تركيا
31. الصلوات تبقى واحدة	تونا كيرميتشي	تركيا
32. جريمة في البوسفور	أسمهان أيكول	تركيا
33. لون الغواية	هاندي ألتايلي	تركيا
34. مينتا	سولماز كاموران	تركيا
35. نساء إسطنبول	مجموعة قصصية	تركيا
36. الحب في إسطنبول، الموت في بابل	إسكندر بالا	تركيا
37. حدث في كراكوف	بيترا هولوفا	التشيك
38. حُفِظت القضية	باتريك أورشانديك	التشيك
39. ديتوكس	سوزانا برابتسوفا	التشيك
40. سرادق طائر البطريق	إميل هاكل	التشيك
41. كافكا	فرانز كافكا	التشيك
42. المواطن فانيك	فاتسلاف هافل	التشيك
43. جرائم براج	ميلوس أوربان	التشيك
44. المبعدون	أوجنين سباهيتش	الجبل الأسود
45. العقل المدبر	دافيد أوجنر	جواتيمالا
46. امرأة للبيع	أورشولا كوفاليك	سلوفاكيا
47. خلف طاحونة الجبل	مجموعة قصصية	سلوفاكيا
48. ربيع البربر	يوناس لوشر	سويسرا
49. كرافت	يوناس لوشر	سويسرا
50. الحياة هنا	ميرال قريشي	سويسرا
51. بكين.. بكين	شيو تسي تشين	الصين
52. رحلة الانتقام	جوو دا شين	الصين
53. سبع ليالٍ في حدائق الورد	يي مِاي	الصين
54. النجمة الحمراء	يركسي هولمانبيك	الصين
55. رقصة الكاهنة	جين رن شون	الصين
56. بنات الصين	يي مِاي	الصين
57. الربع الأخير من القمر	تشيه زيه جيان	الصين
58. المغفل	إريك نويوف	فرنسا
59. المجاعة البيضاء	آكي أوليكانين	فنلندا
60. النسيان	إيكتور آباد	كولومبيا
61. القنّاص	بلايز ماينفسكي	مقدونيا

	العنوان	المؤلف	البلد
.62	الواحد والعشرون	توميسلاف عثمانلي	مقدونيا
.63	صانع الزجاج	إيرميس لافازوناوفسكي	مقدونيا
.64	إلينج	إنجفار أمبيورنسون	النرويج
.65	صيف بارد جدًّا	روي ياكوبسن	النرويج
.66	دكان الساري	روبا باجوا	الهند
.67	جوي سبيدبوت	تومي فيرينيجا	هولندا
.68	العشاء	هيرمان كوخ	هولندا
.69	المنزل الصيفي	هيرمان كوخ	هولندا

صدر من كتب عامَّة:

	العنوان	المؤلف	البلد
.70	الرجل والمرأة أيهما الجنس الأضعف؟	جيرالد هوتر	ألمانيا
.71	قانون التسامح	هوبرتس هوفمان	ألمانيا
.72	هاربون من الموت	فولفجانج باور	ألمانيا
.73	الهاشميون وحلم العرب	روبرت ماكنمارا	أمريكا
.74	الهندي الأحمر الأيسلندي	جون جنار	أيسلندا
.75	يوميات صحفية إيطالية	جوفانا لوكاتيلي	إيطاليا
.76	خيالات الشرق	إيسا دي كيروش	البرتغال
.77	ضد الانتخابات	دافيد فان ريبروك	بلجيكا
.78	أوروبيانا	باتريك أورشادنيك	التشيك
.79	قوة المستضعفين	فاتسلاف هافل	التشيك
.80	النشوة المادية	جي. إم. لو كلوزيو	فرنسا
.81	لن أمنحك كراهيتي	أنطوان لاريس	فرنسا
.82	جابو	أوسكار بانتوخا	كولومبيا
.83	الجري	ثور جوتاس	النرويج
.84	عقول مريضة	دوي درايسما	هولندا
.85	اللعب مع الكبار	يوريس ليونديك	هولندا

يصدر قريبًا: من سلسلة كتب مختلفة:

	العنوان	المؤلف	البلد
.86	النقطة صفر	ناريك ماليان	أرمينيا
.87	وداعًا أيُّها الطائر	أرام باتشيان	أرمينيا
.88	أحلامًا سعيدة يا صغيري	كاسيمو جارميليني	إيطاليا
.89	القادم متأخرًا	ديميتري فيرهولست	بلجيكا
.90	ثلاثة على الطريق	تونا كيرميتشي	تركيا
.91	ورشة الشيطان	جاتشيم توبول	التشيك
.92	خريطة آنا	مارك سينديلكا	التشيك
.93	الألفية في بلجراد	فلاديمير بيستالو	الصرب
.94	دجاج مشوي	صوفي هيناف	فرنسا



#كتب مختلفة #الصين



قال عنها النقاد إنها "مائة عام من العزلة الصينية"، فعالمها مليئ بالسحر، لكن البطلة ترويه لنا وكأنه شيء عادي لدرجة أننا نبدأ تدريجيًا بتقبل الأمر، فهي تحكي لنا في أسلوب سردي سلس وبسيط لا يُشعرك بالملل عن القوة السحرية التي تحملها أسماؤهم، وكذلك عن كاهن قبيلتهم الذي يرقص رقصته الغريبة حول النيران وهو يدق الطبول لكي يشفي مريضًا، أو يعيد الحياة إلى أحدهم. ومع تطور السرد والأحداث سننمو مع البطلة، التي تتحول من فتاة صغيرة تعتبر قبيلتها الصغيرة هي العالم، إلى شابة صغيرة تحاول أن تفهم أسباب كل شيء، ثم إلى امرأة تعرف كيف هي الحياة وتحاول تقبلها. ووسط كل هذا تحكي لنا عن النوادر المضحكة التي يقوم بها أفراد من قبيلتها، فتشعر أثناء قراءتك وكأنك تشاهد جدك وجدتك وهما يتشاجران أو وهما يحكيان عن خرافة قديمة يؤمنان بها، الفارق هو أن هذه الخرافة تحدث بالفعل.

تنتمي البطلة إلى قبيلة من قبائل الصين البدوية التي على الرغم من تطور الحياة، لا تزال تحافظ على تقاليدها حتى اليوم. حيث نجحت المؤلفة في وصف تلك الحياة بأسلوب سلس دمجته في روايتها، لنجد أنفسنا مع نهاية الرواية نعرف الكثير عن تلك الحياة، وعن أهلها، وعاداتهم، ومعتقداتهم الغريبة التي يؤمنون بها؛ مثل دفن الموتى على الأشجار، وتقديس شجر البتولا والأنهار والغزلان. أمّا عن أبطالها فجميعهم أحبوا كل شيء، لكن كل بطريقته، ما جمعهم هو أنهم كانوا ضحايا للحب، لكنه حب من عالمٍ آخر.

تشيه زيه جيان



واحدة من أبرز الكاتبات الصينيات المعاصرات. وُلدت عام ١٩٦٤، وهي كاتبة مشهورة من قومية "الهان". وعضو بجمعية الكتاب الصينيين، ونائب رئيس جمعية الكتاب بمقاطعة "هايلونجديانج". بدأت "تشيه زيه جيان" الكتابة عام ١٩٨٣، ونُشر لها أكثر من ٤٠ عملًا.

حصلت على جائزة "لوشوين" للأدب في دورتين متتاليتين (١٩٩٥ - ١٩٩٦)، ثم حصلت عليها للمرة الثالثة عام ٢٠٠٧. كما حصلت على جائزة أستراليا لأدب التشويق، وجائزة "جوانج تشونج وين" للأدب وغيرها من الجوائز، وجائزة "تشوانج تشونج وين" للأدب عام ١٩٩٣. نالت جائزة "النهر الأحمر" في دورتها الثانية والصادرة عن مجلة "الجميع"، ثم جائزة الأدب لشمال شرق الصين عام ١٩٩٥. تُرجمت أعمالها إلى الإنجليزية والفرنسية واليابانية والإيطالية.

في عام ٢٠٠٨، استلمت جائزة "ماو دوين" للأدب في دورتها السابعة عن روايتها "الضفة اليمنى لنهر أرجون"، والتي ترجمناها تحت عنوان "الربع الأخير من القمر".


٦٩ شارع القصر العيني 11451 - القاهرة
www.alarabipublishing.com.eg


بيت الحكمة


ISBN 978-977-319-390-4
9 789773 193904 >

